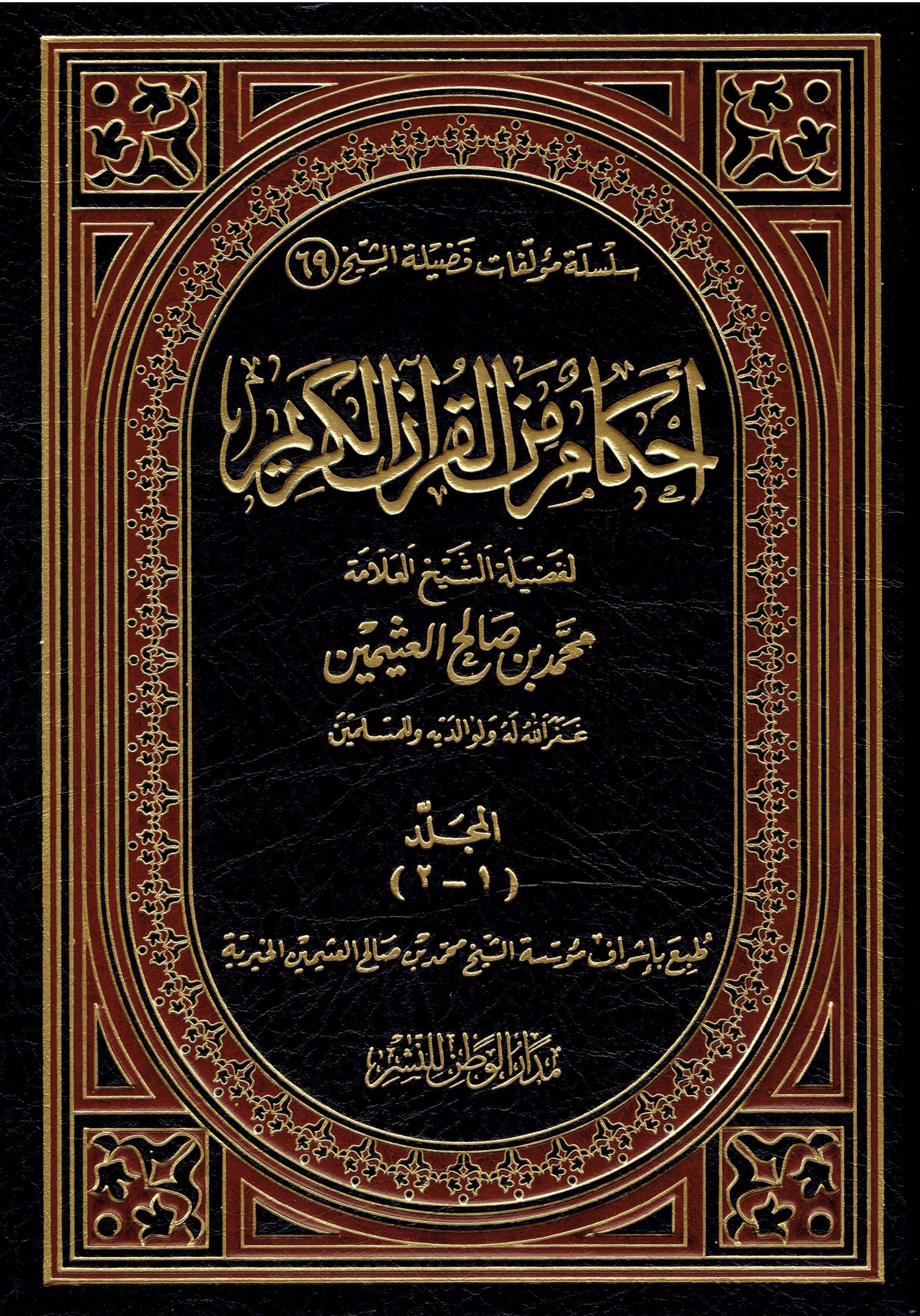
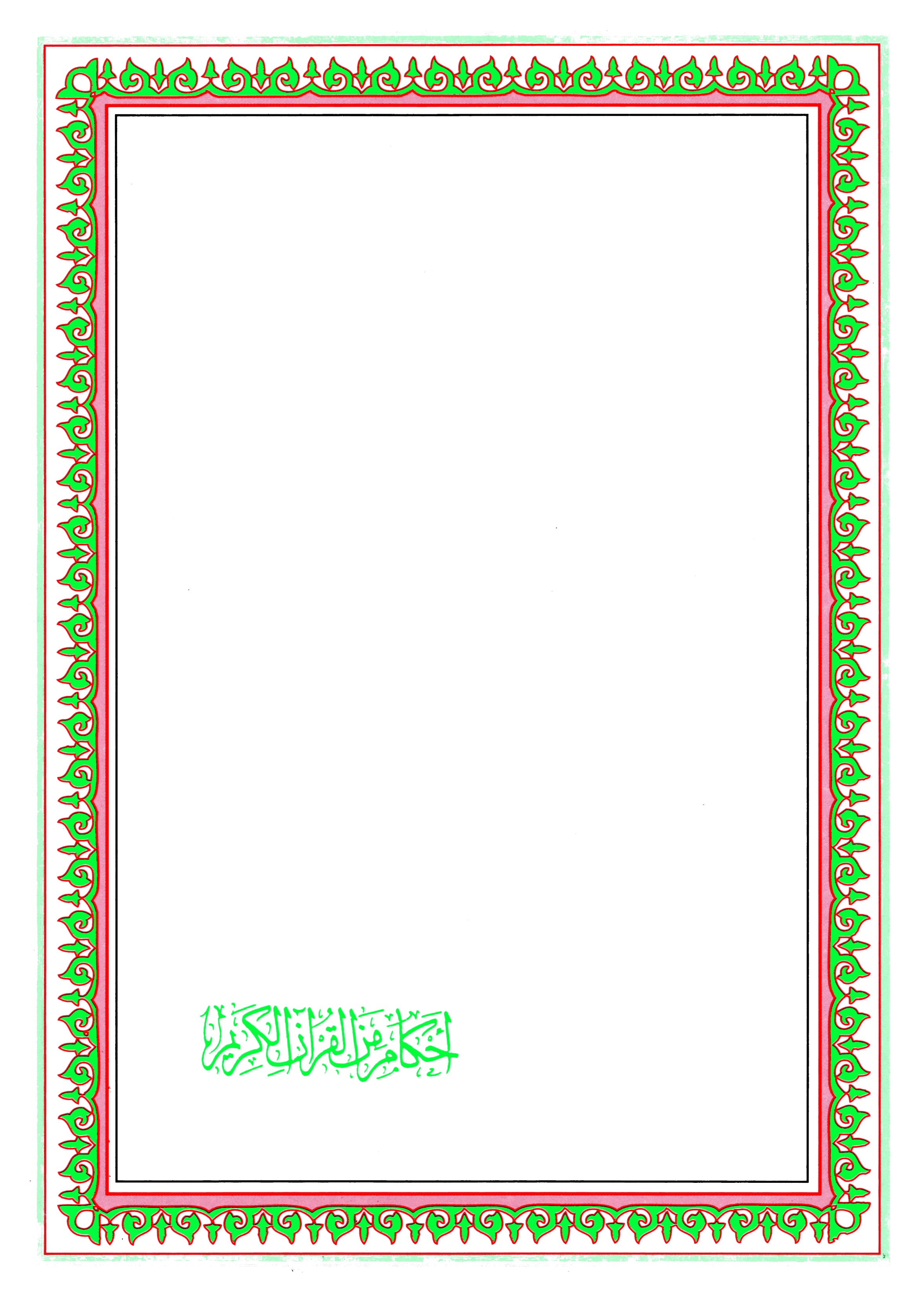


سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٦٩)
أحكام من القرآن الكريم
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
المجلد
(١ - ٢)
طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
مدار الوطن للنشر


أحكام من القرآن الكريم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

الأحكام من القرآن والسنة / محمد بن صالح العثيمين - الرياض - ١٤٢٨هـ

٢ مج.

ردمك: ٦ - ٥ - ٩٩١٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (مجموعة)

٣ - ٦ - ٩٩١٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (ج ١)

١- القرآن - الأحكام　　أ- العنوان

ديوي: ٢٢٦,٢　　١٤٢٨/٨٠٢٥

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٨٠٢٥

ردمك: ٦ - ٥ - ٩٩١٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (مجموعة)

٣ - ٦ - ٩٩١٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (ج ١)

المملكة العربية السعودية

عنيزة ـ ص.ب : ١٩٢٩

هاتف : ٦/٢٦٤٢١٠٧ ـ ٦/٢٦٤٢٠٠٩

www.binothaimeen.com

info@binothaimeen.com

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م



هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١ ـ ص ب : ٣٣١٠

فرع السويدي : هاتف : ٤٢٦٧١٧٧ ـ فاكس : ٤٢٦٧٢٧٧

المنطقة الغربية : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨　　المنطقة الشرقية والرياض : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨

المنطقة الشمالية والقصيم : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨　　المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧

التوزيع الخيري : ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤ ـ ٢٨٣١٤٥٣　　التسويق والمعارض الخارجية : ٠٥٠٦٤٩٥٦٢٥

البريد الإلكتروني : Pop@dar-alwatan.com

موقعنا على الإنترنت : www.madar-alwatan.com

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٢)

أحكام من القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

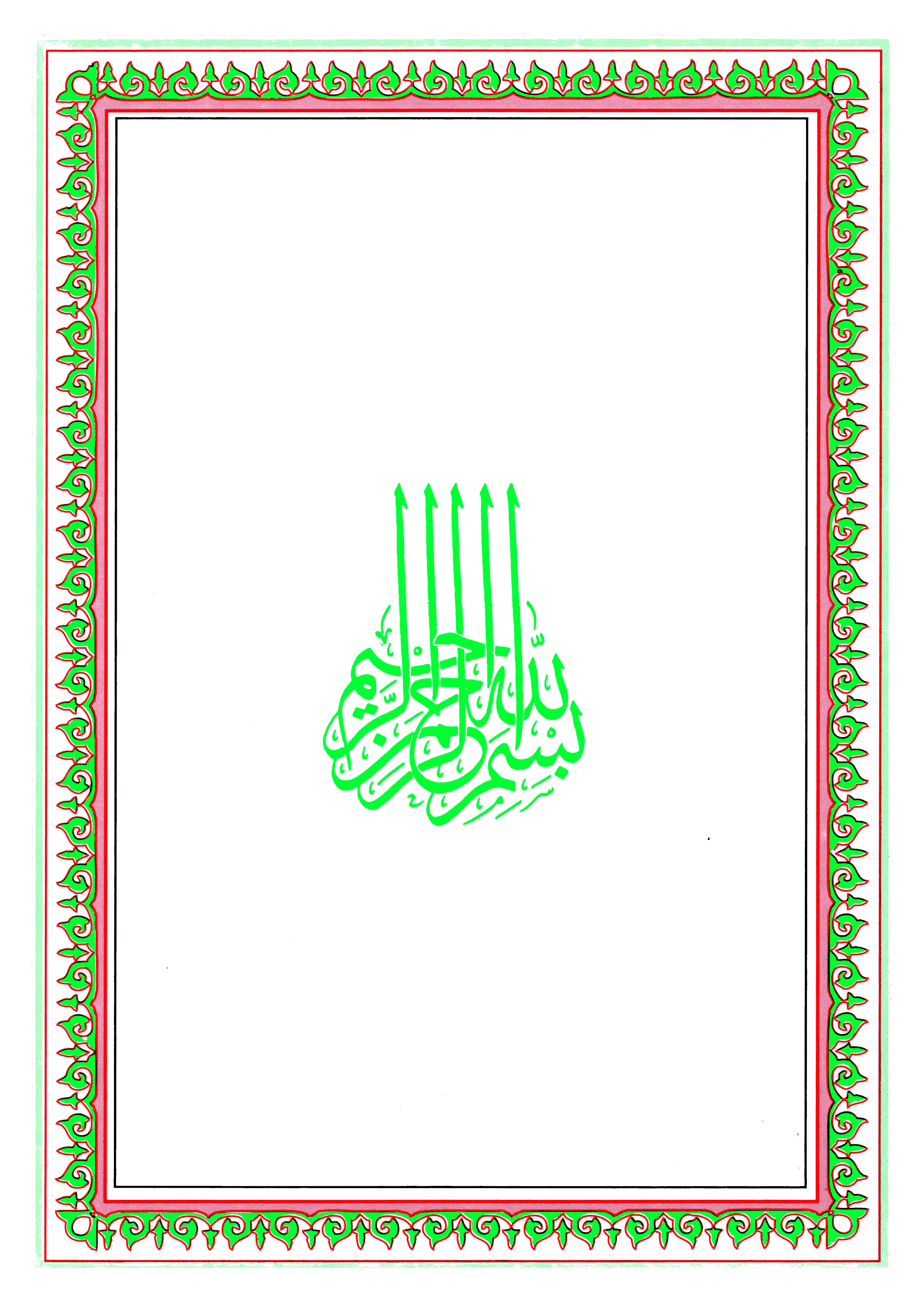
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد

(١ - ٢)

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

مدار الوطن للنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فقد طبع من هذا الكتاب أوَّله عام ١٤١٥هـ من سورة الفاتحة وحتى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ.... ﴾ الآية [البقرة: ١٨٨]، واعتنى بتلك الطبعة - مشكورًا - الشيخ/ عبد الكريم بن صالح المقرن - جزاه الله خيرًا -.

وقد رأى المؤلف - صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - أن يراجع الكتاب المطبوع قبل إعادة طبعه مرة أخرى، فشرع في ذلك غير أنه وافاه الأجل - رحمه الله تعالى - قبل أن يكمله، حيث بلغ في مراجعته قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - لإخراج مؤلفاته عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى الشيخ عبدالكريم بن

صالح المقرن بإكمال العمل وإعداد باقي محتوى الأشرطة المسجلة المنتهية بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠] وتخريج الأحاديث الواردة، وعاونه في ذلك الشيخ خالد بن أمان الله الصاوي فجزاهما الله خيرًا.

هذا وقد أدخلت التعديلات التي كتبها فضيلة الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى في مراجعته، وتم توثيق باقي المادة العلمية على الأصول السمعية للأحاديث التي كان يلقيها - رحمه الله - على حلقات منتظمة، وتبثها إذاعة القرآن الكريم من المملكة العربية السعودية، فصدر - بعون الله تعالى وتوفيقه - كاملًا في طبعته الأولى بمجلدين عام ١٤٢٥هـ.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، موافقًا لمرضاته، نافعًا لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا المؤلف عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويسكنه فسيح جناته، إنه سميع قريب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

غرة محرم ١٤٢٨هـ

نبذة مختصرة عن
العلاّمة محمد بن صالح العثيمين
١٣٤٧ - ١٤٢١هـ

نسبه ومولده:

هو صاحب الفضيلة الشيخ العالم المحقق، الفقيه المفسّر، الورع الزاهد، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين من الوهبة من بني تميم.

ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ في عنيزة ـ إحدى مدن القصيم ـ في المملكة العربية السعودية.

نشأته العلمية:

ألحقه والده ـ رحمه الله تعالى ـ ليتعلم القرآن الكريم عند جدّه من جهة أمه المعلِّم عبد الرحمن بن سليمان الدامغ ـ رحمه الله ـ، ثمَّ تعلَّم الكتابة، وشيئًا من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبدالعزيز بن صالح الدامغ ـ حفظه الله ـ، وذلك قبل أن يلتحق بمدرسة المعلِّم علي بن عبدالله الشحيتان ـ رحمه الله ـ حيث حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب ولمّا يتجاوز الحادية عشرة من عمره بعد.

وبتوجيه من والده ـ رحمه الله ـ أقبل على طلب العلم الشرعي، وكان فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ يدرِّس العلوم الشرعية والعربية في الجامع الكبير بعنيزة، وقد رتَّب من طلبته الكبار؛ ومنهم الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع ـ رحمه الله ـ لتدريس

المبتدئين من الطلبة، فانضم الشيخ إلى حلقته حتى أدرك من العلم في التوحيد، والفقه، والنحو ما أدرك.

ثم جلس في حلقة شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، فدرس عليه في التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتوحيد، والفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

ويُعدّ فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله - هو شيخه الأول؛ إذ أخذ عنه العلم؛ معرفةً وطريقةً أكثر مما أخذ عن غيره، وتأثر بمنهجه وتأصيله، وطريقة تدريسه، واتِّباعه للدليل.

وعندما كان الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان - رحمه الله ـ قاضيًا في عنيزة قرأ عليه في علم الفرائض، كما قرأ على الشيخ عبدالرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرّسًا في تلك المدينة.

ولما فتح المعهد العلمي في الرياض أشار عليه بعضُ إخوانه أن يلتحق به، فاستأذن شيخَه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ فأذن له، والتحق بالمعهد عامي ١٣٧٢ ـ ١٣٧٣هـ.

ولقد انتفع ـ خلال السنتين اللّتين انتظم فيهما في معهد الرياض العلمي ـ بالعلماء الذين كانوا يدرِّسون فيه حينذاك ومنهم: العلامة المفسِّر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ الفقيه عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ المحدِّث عبد الرزاق الأفريقي ـ رحمهم الله تعالى ـ.

وفي أثناء ذلك اتصل بسماحة الشيخ العلاّمة عبد العزيز بن عبدالله ابن باز ـ رحمه الله ـ، فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع به في علم الحديث والنظر في آراء

فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويُعدُّ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثُّر به.

ثم عاد إلى عنيزة عام ١٣٧٤هـ وصار يَدرُسُ على شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويتابع دراسته انتسابًا في كلية الشريعة، التي أصبحت جزءًا من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، حتى نال الشهادة العالية.

تدريسه:

توسَّم فيه شيخه النّجابة وسرعة التحصيل العلمي فشجّعه على التدريس وهو ما زال طالبًا في حلقته، فبدأ التدريس عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير بعنيزة.

ولّما تخرَّج من المعهد العلمي في الرياض عُيِّن مدرِّسًا في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤هـ.

وفي سنة ١٣٧٦هـ توفي شيخه العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ فتولّى بعده إمامة الجامع الكبير في عنيزة، وإمامة العيدين فيها، والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع؛ وهي التي أسسها شيخه ـ رحمه الله ـ عام ١٣٥٩هـ.

ولما كثر الطلبة، وصارت المكتبة لا تكفيهم؛ بدأ فضيلة الشيخ ـ رحمه الله ـ يدرِّس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب وتوافدوا من المملكة وغيرها حتى كانوا يبلغون المئات في بعض الدروس، وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل جاد، لا لمجرد الاستماع، وبقي على ذلك، إمامًا

وخطيبًا ومدرسًا، حتى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ.

بقي الشيخ مدرِّسًا في المعهد العلمي من عام ١٣٧٤هـ إلى عام ١٣٩٨هـ عندما انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وظل أستاذًا فيها حتى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ.

وكان يدرِّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج ورمضان والإجازات الصيفية منذ عام ١٤٠٢هـ ، حتى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ.

وللشيخ ـ رحمه الله ـ أسلوب تعليمي فريد في جودته ونجاحه، فهو يناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويُلقي الدروس والمحاضرات بهمَّة عالية ونفسٍ مطمئنة واثقة، مبتهجًا بنشره للعلم وتقريبه إلى الناس.

آثاره العلمية:

ظهرت جهوده العظيمة ـ رحمه الله تعالى ـ خلال أكثر من خمسين عامًا من العطاء والبذل في نشر العلم والتدريس والوعظ والإرشاد والتوجيه وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ولقد اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميَّزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له العشرات من الكتب والرسائل والمحاضرات والفتاوى والخطب واللقاءات والمقالات، وترك ثروة علمية كبيرة، كما صدر له آلاف الساعات الصوتية التي سجلت محاضراته وخطبه ولقاءاته وبرامجه الإذاعية ودروسه العلمية في تفسير القرآن الكريم والشروحات المتميزة

للحديث الشريف والسيرة النبوية والمتون والمنظومات في العلوم الشرعية والنحوية.

وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته ـ رحمه الله تعالى ـ لنشر مؤلفاته، ورسائله، ودروسه، ومحاضراته، وخطبه، وفتاواه ولقاءاته، تقوم مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ـ بعون الله وتوفيقه ـ بواجب وشرف المسؤولية لإخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

وبناءً على توجيهاته ـ رحمه الله تعالى ـ أنشئ له موقع خاص على شبكة المعلومات الدولية من أجل تعميم الفائدة المرجوة ـ بعون الله تعالى ـ وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

أعماله وجهوده الأخرى:

إلى جانب تلك الجهود المثمرة في مجالات التدريس والتأليف والإمامة والخطابة والإفتاء والدعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان لفضيلة الشيخ أعمال كثيرة موفقة منها ما يلي:

* عضوًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عام ١٤٠٧هـ إلى وفاته.
* عضوًا في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العامين الدراسيين ١٣٩٨ ـ ١٤٠٠هـ.
* عضوًا في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية في القصيم ورئيسًا لقسم العقيدة فيها.

* وفي آخر فترة تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية، وألّف عددًا من الكتب المقررة بها.
* عضوًا في لجنة التوعية في موسم الحج من عام ١٣٩٢هـ إلى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ حيث كان يلقي دروسًا ومحاضرات في مكة والمشاعر، ويفتي في المسائل والأحكام الشرعية.
* ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة من تأسيسها عام ١٤٠٥هـ إلى وفاته.
* ألقى محاضرات عديدة داخل المملكة العربية السعودية على فئات متنوعة من الناس، كما ألقى محاضرات عبر الهاتف على تجمعات ومراكز إسلامية في جهات مختلفة من العالم.
* من علماء المملكة الكبار الذين يجيبون على أسئلة المستفسرين حول أحكام الدين وأصوله عقيدة وشريعة، وذلك عبر البرامج الإذاعية من المملكة العربية السعودية وأشهرها برنامج «نور على الدرب».
* نذر نفسه للإجابة على أسئلة السائلين مهاتفه ومكاتبة ومشافهة.
* رتَّب لقاءات علمية مجدولة، أسبوعية وشهرية وسنوية.
* شارك في العديد من المؤتمرات التي عقدت في المملكة العربية السعودية.
* ولأنه يهتم بالسلوك التربوي والجانب الوعظي اعتنى بتوجيه الطلاب وإرشادهم إلى سلوك المنهج الجاد في طلب العلم وتحصيله، وعمل على استقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم المتعددة، والاهتمام بأمورهم.

* وللشيخ ـ رحمه الله ـ أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البرّ ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم، وإسداء النصيحة لهم بصدق وإخلاص.

مكانتـــه العلميـــة:

يُعَدُّ فضيلة الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ من الراسخين في العلم الذين وهبهم الله ـ بمنّه وكرمه ـ تأصيلاً ومَلَكة عظيمة في معرفة الدليل واتباعه ودقة النظر واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنّة، وسبر أغوار اللغة العربية معانِيَ وإعرابًا وبلاغة.

ولما تحلَّى به من صفات العلماء الجليلة وأخلاقهم الحميدة والجمع بين العلم والعمل أحبَّه الناس محبة عظيمة، وقدّره الجميع كل التقدير، ورزقه الله القبول لديهم واطمأنوا لاختياراته الفقهية، وأقبلوا على دروسه وفتاواه وآثاره العلمية، ينهلون من معين علمه ويستفيدون من نصحه ومواعظه.

وقد مُنح جائزة الملك فيصل ـ رحمه الله ـ العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ، وجاء في الحيثيات التي أبدتها لجنة الاختيار لمنحه الجائزة ما يلي:

أولاً: تحلِّيه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانيًا: انتفاع الكثيرين بعلمه؛ تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.

ثالثـــًا : إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعـــًا : مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.

خامسًا : اتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلاً حيًّا لمنهج السلف الصالح؛ فكرًا وسلوكًا.

عقِبُــه:

له خمسة من البنين، وثلاث من البنات، وبنوه هم: عبد الله، وعبدالرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وفاتـــــه:

تُوفي - رحمه الله - في مدينة جدّة قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيّعته تلك الآلاف من المصلّين والحشود العظيمة في مشاهد مؤثرة، ودفن في مكة المكرمة.

وبعد صلاة الجمعة من اليوم التالي صُلِّي عليه صلاة الغائب في جميع مدن المملكة العربية السعودية.

رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ عليه بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدّم للإسلام والمسلمين خيرًا.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإننا نستفتح هذا الكتاب، «أحكام من القرآن الكريم»، راجين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون مباركًا، نافعًا لنا ولإخواننا المسلمين. وأحكام القرآن العظيم هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد الدينية، والدنيوية، والفردية، والاجتماعية. ولا ريب أن كل آية في كتاب الله تتضمن فوائد عظيمةً يعرفها الإنسان بحسب علمه وفهمه، ولا ريب كذلك أن الإنسان يؤتى العلم بحسب ما معه من الإيمان، والهدى، والتقى، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، وكلما كان الإنسان أشد إقبالًا على القرآن الكريم، وإيمانًا به، وحبًّا له، وتدبرًا لآياته ـ كان به أفهم، وبما يدل عليه من

الفوائد العظيمة، والأحكام أوسع؛ ولهذا، فإني أحث إخواني المسلمين على تدبر كتاب الله ــ عز وجل ـ، وتفهم معانيه، والرجوع فيما لا يعرفونه إلى أهل العلم ليبينوه لهم، وإن لم يتيسر ذلك فإلى كتب التفسير الموثوق بها؛ كتفسير ابن كثير ـ رحمه الله ــ وتفسير شيخنا عبدالرحمن بن سعدي، وتفسير القرطبي، وتفسير الشوكاني، وغيرها من التفاسير المعروفة الموثوق بمؤلفيها في علمهم ودينهم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما أنزل القرآن لهذا، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية، تلاوة الآيات الحرفية، بل نزل من أجل هذا ومن أجل ما هو أتم وأكمل، وهو تدبر الآيات وتفهم معانيها، ثم التذكر بما فيها من القصص، والأخبار، والمواعظ، والأحكام، ولهذا كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعًا، وكثير من الناس اليوم لا يهتم بهذا الجانب، أعني جانب المعنى وجانب التدبر، وما تتضمنه الآيات من الفوائد والأحكام، ولا يهتمون به.

وهذا قصور بلا شك من الإنسان، وتقصير منه. ومن الناس من يتجرأ ويتكلم في القرآن بما لا يعلم فيكون شاهدًا على الله ـ سبحانه

وتعالى ـ بما لا يعلم، وهذا محرم، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فكل إنسان يتكلم في معنى آية من كتاب الله فهو شاهد على الله ـ تعالى ـ بأنه أراد بها كذا وكذا، وهذا أمر خطير؛ لأنه سيسأل عنه يوم القيامة فيقال: من الذي أعلمك بأن الله ـ تعالى ـ أراد كذا وكذا؟ ويكون قد قال في القرآن برأيه. ومن الناس من يعلم أن القرآن يدل على كذا وكذا، ولكن لديه عقيدة سابقة ونحلة يؤمها، ويقتدي بها وتقليده لمن يثق به، فتجده يحرف الكلم عن مواضعه، ويصرف آيات كتاب الله عز وجل إلى ما كان يعتقده وينتحله من هذا المذهب، وهذا أشد من الذي قبله؛ لأنه خالف الحق عن علم به، فالواجب على كل مسلم مؤمن أن يتقي الله عز وجل حين يتكلم في معنى آية من كلام الله، وأن يكون على حذر، فلا يقول إلا ما يعلم أنه هو المراد، أو يغلب على ظنه أنه هو المراد، وأما مع الشك فلا يجوز له أن يتكلم في شيء، ونحن في هذا الكتاب لن نتكلم كثيرًا عن تفسير الآيات، وبيان وجوهها اللغوية من البلاغة والإعراب وغير ذلك؛ لأن هذا ـ والحمد لله ـ موجود في كثير من كتب المفسرين، ولكن يهمني أن أبين الفوائد التي تستنبط من هذه الآيات، وأبين وجه ذلك غالبًا فيما يحتاج إلى بيان، وفيما خفيت دلالته؛ لأن الاستفادة من القرآن الكريم بهذه الطريقة يحصل بها علم كثير؛ ولهذا

سئل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: «لا والذي برأ النسمة، وخلق الحبة إلا فهمًا يؤتيه الله ـ تعالى ـ في كتابه وما في هذه الصحيفة؛ وهي فكاك الأسير»(١)... إلخ ما فيها، لكن المهم أنه قال: «إلا فهمًا يؤتيه الله ـ تعالى ـ في كتابه»، وهذا يدل على أن الفهم في كتاب الله يحصل به خير كثير، وعلم غزير، ولكن يجب أن يكون الفهم مبنيا على هذا الأساس كما أشرنا إليه؛ لأن الناس أربعة أقسام: فمنهم من عنده علم، ولكن ليس عنده فهم، ومن الناس من عنده فهم ولكن ليس عنده علم، ومن الناس من عنده علم وفهم، ومن الناس من لا علم عنده ولا فهم، والمراد من هذا الكتاب هو استنباط الفوائد من كتاب الله ـ عز وجل ـ؛ ليحصل بذلك خير كثير.

واعلم أن الدلالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: مطابقة، وتضمُّن، والتزام.

فدلالة اللفظ على جميع معناه دلالة مطابقة، ودلالته على جزء معناه دلالة تضمُّن، ودلالته على أمر لازم خارج دلالة التزام، ولنضرب لذلك مثلًا معنويا ومثلًا حسيًّا.

أما المثل المعنوي: فانظر إلى اسم من أسماء الله؛ وهو «الخالق» تجد أنه دل على صفة الخلق وعلى الخالق نفسه، فدلالته على الخلق نفسه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

وعلى صفة الخلق دلالة مطابقة، ودلالته على الخالق نفسه وحده أو على صفة الخلق وحدها دلالة تضمُّن، ودلالته على العلم والقدرة دلالة التزام؛ لأن الخلق لا بد فيه من علم وقدرة، فمن لم يكن عالمًا لا يستطيع أن يخلق، ومن لم يكن قادرًا لا يستطيع أن يخلق.

أما المثال الحسي فكأن نقول: «هذا بيت» كلمة بيت تدل على جميع البيت، على كل ما يحيط به سور البيت دلالة مطابقة، وتدل على هذه الغرفة، وغرفة ثانية، وغرفة ثالثة، وغرفة رابعة، وعلى الحوش (البراح)، وعلى المجلس، والصالة دلالة تضمن، وتدل على أن لهذا البيت بانيًا دلالة التزام، هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة إذا استعملها الإنسان استعمالًا جيدًا حصل بها فوائد كثيرة، ولهذا تجد بعض أهل العلم إذا تكلم عن آية، أو حديث؛ لاستنباط أحكامها استخرج منها أشياء كثيرةً؛ لاستعماله هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة، ومن الناس من يقصر فهمه عنها فلا يستطيع أن يستنبط إلا فوائد قليلةً، نسأل الله أن يوفقنا لخدمة كتابه، وأن يفقهنا في دلالاته واستنباط فوائده، وأن ينفع بهذا العمل؛ إنه سميع مجيب.

محمد بن صالح العثيمين

(١) سورة الفاتحة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل على رسوله محمد ﷺ هذا القرآن العظيم، وأنزل عليه سبعًا من المثاني، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ .

«والسبع المثاني» هي فاتحة الكتاب، وهي أعظم سورة في كتاب الله، ولهذا فرضت قراءتها في الصلوات، فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، افتتحها الله ـ سبحانه ـ بالحمد والثناء والتمجيد، والحمد هو وصف المحمود بالكمال، والثناء تكرار هذا الوصف، والتمجيد ذكر المجد والعظمة وقوة السلطان؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله ـ تعالى ـ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله ـ تعالى ـ: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله ـ تعالى ـ: أثنى علي عبدي، وإذا**

قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي [(وقال مَرَّةً: فوض إلي عبدي)]، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[(١)].

ففي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليل على كمال صفات الله ـ عز وجل ـ، وعلى كمال نعمه على عباده؛ لأن الحمد لا يستحقه إلا من كان كاملًا في وصفه، كاملًا في فعله، وأعني بالحمد الحمد المطلق الكامل، وإلا فقد يحمد الإنسان حمدًا كاملًا على فعل ناقص، أو على كمال ذاتي ناقص.

وفي قوله: ﴿لله﴾ دليل علي ثبوت ألوهية الله ـ عز وجل ـ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ إله الحق، وما سواه فهو باطل، وفي الإتيان باللام دليل على استحقاق هذا الحمد لله وحده، لا يشاركه فيه أحد، فالحمد المطلق الكامل لا يكون إلا لله ـ عز وجل ـ؛ لأن كل ما سواه إنما يحمد على شيء معين حمدًا يليق بهذا الشيء المعين، ويكافئ هذا الشيء المعين.

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ، والرب هو الخالق المالك المدبر، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٥).

ولا مدبر إلا الله ـ عز وجل ـ، وإضافة الخلق إلى غير الله، أو الملك إلى غيره، أو التدبير إلى غير الله ـ إضافة ناقصة، ناقصة في ذاتها، وناقصة في شمولها وعمومها، أما خلق الله، وملك الله، وتدبير الله، فهو كامل شامل عام، وفي الآية الكريمة إثبات رب ومربوب، مما يدل على التباين بين الخالق والمخلوق، ويكون فيه رد على قول أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود.

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن العالمين كلهم يفتقرون إلى الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه لا قيام للمربوب إلا بالرب، فالرب هو المربي القائم على غيره من كل وجه، وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن الملائكة، والرسل، والأولياء، لا حق لهم في التدبير والخلق، ويتفرع على ذلك أنه ليس لأحد أن يدعو هؤلاء، وأن يستغيث بهم، وأن يستنصر بهم؛ لأنهم مربوبون، هم بأنفسهم محتاجون إلى الرب، غير مستغنين عنه، فكيف يمكن أن يكونوا ملجأً للعباد وملاذًا لهم يستعيذون بهم، ويستغيثون بهم، ويسترحمون بهم؟!

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن العالم حادث، وهو كذلك؛ فإن العالم حادث بعد أن لم يكن، كما قال الله ـ تعالى ـ يعني نفسه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، قال النبي ﷺ في تفسيرها: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك**

شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[(١)].

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن هذا العالم علم وآية دالة على الله - عز وجل -، فإن ما في هذا الكون من الانتظام البديع والاطراد، وعدم التناقض، والإحكام، دليل على كمال موجده - عز وجل -، كما قال - تعالى -: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، فهذا الكون المربوب المخلوق علم على خالقه - عز وجل -، ودليل عليه، وآية من آياته.

وفي قوله - تعالى -: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إثبات صفة الرحمة، والرحمة صفة من صفات الله - عز وجل - الثابتة، قال - تعالى -: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وهي غير الإرادة، وغير الإحسان، بل هي صفة مستقلة ينشأ عنها إرادة الإحسان، وإيصال الإحسان إلى الخلق، ويصف الله نفسه بـ«الرحمن الرحيم»، بعد ذكر ربوبيته العامة، ففي ذلك دليل على أن ربوبيته - عز وجل - ربوبية رحمة وإحسان إلى الخلق،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم، رقم (٢٧١٣).

بجلب النعم، ودفع النقم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وفي وصفه بـ«الرحمن الرحيم» دليل على سعة رحمته، وهذا مستفاد من «الرحمن» ؛ لأن «رحمان» على وزن «فعلان» ، وهذه الصيغة تدل على الامتلاء والسعة؛ كما يقولون: «غضبان»، و«ندمان»، وما أشبه ذلك للممتلئ غضبًا وندمًا.

وفي قوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ دليل على إيصاله هذه الرحمة إلى من شاء من عباده، ورحمة الله ـ عز وجل ـ عامة وخاصة، فأما العامة فهي لجميع الخلق، فكل الخلق مرحومون برحمة الله، ولولا رحمة الله ما أكلوا وما شربوا، وما اكتسوا، وما سكنوا، ولكن الله رحمهم؛ فهيأ لهم ما تقوم به أبدانهم من المعيشة الدنيوية، وأما رحمته الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين الذين تستمر رحمتهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا رحمهم الله ـ تعالى ـ بحصول ما تقوم به أبدانهم، وفي الآخرة رحمهم الله ـ تعالى ـ بحصول ما تقوم به أديانهم.

وفي قوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ رد على منكري الرحمة الذين يقولون: إن الرحمة ليست صفةً حقيقيةً لله، بل هي إرادة الإحسان، أو الإحسان نفسه، وذلك لأن الأصل في الوصف الحقيقة، فإذا قيل: «الرحمنُ»؛ أي ذو الرحمة، فالأصل أنه متصف بها حقيقةً، ولا يلزم من

اتصاف الله ـ تعالى ـ بالرحمة أن يكون مماثلًا للمخلوق، ولا يلزم من ذلك أن يكون ناقصًا؛ لأن النقص الذي يمكن أن يكون في صفة الرحمة ـ إن كان ـ إنما ذلك في رحمة المخلوق التي قد لا تكون عن حكمة، فتكون ناقصةً.

* * *

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

يوم الدين هو يوم القيامة، والدين هنا بمعنى الجزاء، وكما يكون الدين بمعنى الجزاء يكون أيضًا بمعنى العمل، فمن مجيئه بمعنى العمل، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، ومن مجيئه بمعنى الجزاء هذه الآية؛ فقوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾؛ أي مالك يوم الجزاء الذي يدان فيه كل عامل بما عمل، وأضاف الله ـ تعالى ـ الملك إلى يوم الدين، وإن كان ـ سبحانه وتعالى ـ مالكًا للدنيا والآخرة؛ لأن ملكيته تظهر جليةً واضحةً في ذلك اليوم، ويعترف بها كل مخلوق، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٧]؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الملك في ذلك اليوم، يوم

القيامة، لا يكون لأحد لا جزئيا ولا غير جزئي، لا حقيقةً ولا مجازًا؛ لأن الناس كلهم يوم القيامة يحشرون حفاةً عراةً غرلًا[1]. حفاةً: ليس في رجل أحدهم نعال، وعراةً: ليس عليهم ثياب، وغرلًا: ليسوا مختونين، لا فرق في ذلك بين السيد والعبد، ولا بين الراعي والرعية، ولا بين الأب والابن، فكل الناس على حد سواء، وفي قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ - أيضًا - دليل على أن الله - عز وجل - في ذلك اليوم تام الملك والسلطان، كما تدل عليه القراءة الثانية الصحيحة السبعية، وهي ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾، فهي قراءة صحيحة سبعية، فينبغي للإنسان أن يقرأ بها أحيانًا، لكن لا بحضور العامة؛ لئلا يشوش عليهم؛ فإن الملك له من السلطة والنفوذ ما ليس للمالك، لكن الملك أحيانًا لا يملك فيكون ملكاً قاصر الملك، فباجتماع القراءتين يكون الكمال، أن الله - تعالى - «ملكٌ» و«مالِكٌ»: «مَلِكٌ»: أي ذو سلطان، وقهر، وعظمة، وكلمة نافذة، و«مالك»: ذو تصرف كامل في ملكوته - عز وجل -.

وفي قوله - تعالى -: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ إثبات اليوم الآخر، وهو حق، والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة، فاليوم الآخر حق ثابت كما أن الدنيا الآن حق لا ينكره أحد، فكذلك اليوم الآخر المستقبل الموعود

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، رقم (٣٣٤٩)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

حق ثابت ولا بد منه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون: ١١٥]، فلو كان الناس خلقوا لهذه الدنيا يعيشون فيها ما يعيشون على ما فيها من التعب، والنصب، واللأواء، والعدوان، والظلم، والصلاح، والفساد، لو كانوا خلقوا لهذا فقط لكان ذلك نقصًا بالغًا في حق الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه سفه، وباطل، ولعب، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾[ص: ٢٧]، وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه لا بد من لقاء ومجازاة على هذه الأعمال التي عملناها في هذه الدنيا، ولا يمكن أن يقوم الإنسان بشرع الله حق القيام، إلا إذا كان مؤمنًا بأن هناك يومًا يلاقي فيه الإنسان ربه فيحاسبه على عمله؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[الانشقاق: ٦].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ـ أيضًا ـ إثبات الجزاء والحساب، وأن الإنسان يحاسب على عمله، ويجازى عليه، وهو حق ثابت، ولكنه ـ أي الحساب ـ على وجهين:

الوجه الأول: حساب المؤمن، وهذا لا يناقش الحساب، وإنما يخلو

به الرب ـ عز وجل ـ فيكلمه وحده، ويقرره بذنوبه، حتى يقر بها، ثم يقول الله له: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(١)، فالحمد لله على ستره، ما أكثر الذنوب التي يفعلها العبد إما باطنةً في قلبه، وإما ظاهرةً في جوارحه، لكن لا يعلم بها الناس، ومع هذا فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يمن عليه ويستره، ويقول الله ـ عز وجل ـ في حسابه له يوم القيامة: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

أما الوجه الثاني من الحساب: فهو حساب الخزي والعار ـ والعياذ بالله ـ، وهو حساب الكافر؛ فإنه يجزى بأعماله يوم القيامة، وينادى على رءوس الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ترغيب وترهيب: ترغيب في العمل الصالح؛ لأن الإنسان إذا أيقن بأنه سيحاسب على عمله، ويثاب عليه حرص على الأعمال الصالحة، واجتهد، ورغب فيها؛ وترهيب لأنه إذا علم بأنه سيجازى على عمله ويعاقب على سيئته، أو على الأصح يستحق العقاب على سيئته فإنه يخشى من ذلك، ويتجنب الأعمال السيئة، خوفًا من يوم الدين الذي يجازى فيه

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)؛ ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨).

العاملون بأعمالهم؛ كما قيل: «كما تدين تدان»،فعلينا أن نأخذ لهذا اليوم عدته، وأن نعمل صالحًا يقربنا إلى الله ـ عز وجل ـ، ويسعدنا في ذلك اليوم.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ دليل على كمال حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ حيث جعل لهذا الخلق مآلًا يدانون فيه، ويجازون بأعمالهم؛ لأنه لولا ذلك لكان الأمر عبثًا كما سبق أن ذكرنا.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إشارة إلى كمال العدل؛ لأن الدين هو المجازاة، مجازاة العامل بقدر ما عمل، ولكنْ ـ مع هذا ـ نقول: إن مجازاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده دائرة بين العدل والفضل، فهي بالنسبة للكافر عدل محض ليس فيه ظلم، فالكافر عقوبته الخلود في النار أبد الآبدين، لا يخرج منها أبدًا، ولا تخبو النار التي يعذب فيها أبدًا؛ لقول الله ـ تعالى ـ في ثلاث آيات من القرآن: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾، فالآية الأولى في سورة النساء، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٨ـ ١٦٩]، وتأبيد الخلود يدل على تأبيد المكان الذي فيه الخلود، والآية الثانية في سورة الأحزاب؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، والآية

الثالثة في سورة الجن؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣]، ولا قول لأحد بعد أن صرح الله ـ عز وجل ـ بتأبيد الخلود في نار جهنم، لا قول لأحد بعد ذلك، وكل قول يخالف هذا فهو مردود على قائله؛ لأن القائل بالتأبيد هو العالم بما سيكون، وهو الخالق ـ عز وجل ـ، فمجازاة الله الكافر بالخلود في النار أبد الآبدين هو عدل، وليس فيها ظلم.

قد يقول قائل: إنك إذا قست مدة بقاء الإنسان في الحياة الدنيا فإنها لن تكون شيئًا بالنسبة إلى التأبيد الأبدي، فيكون تأبيده على أكثر من بقائه في الدنيا شيئًا من الظلم.

والجواب على هذا: ألا ظلم في ذلك:

أولًا: لأن هذا الإنسان استغرق جميع حياته في الكفر، فيكون من العدل أن يستغرق جميع بقائه في الآخرة في العذاب.

وثانيًا: أن هذا الإنسان الكافر قد أرسلت إليه الرسل، وأنزلت معهم الكتب، وبينوا للناس الطريق، ورغبوا الناس في الحق، وحذروهم من الباطل، ولم يبق للناس حجة على الله بعد الرسل، فيكون هو الذي اختار لنفسه هذا المقام الأبدي، لأنه يعلم أن الكافر سيبقى في هذا المكان الأبدي، فحينئذ يكون هو الظالم لنفسه؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧؛ والأعراف: ١٦٠].

أما الجـزاء الفضلي، الذي هو فضل الله ـ عـز وجـل ـ؛ فهـو جـزاء المؤمن، فالمؤمن يجازى بالنسبة للحسنة الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأما بالنسبة للسيئات، فإنه تحت المشـيئة، إن شاء الله ـ تعالى ـ عذبه، وإن شاء ـ تعالى ـ غفـر له؛ لقوله ـ تعـالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦]، إذن فجزاء الله ـ تعالى ـ للمؤمن من نوع الجـزاء الفـضلي، وأمـا الظلـم فهو ممتنع في حق الله ـ عز وجل ـ، فهو لا يمكن أن يظلـم أحـدًا فيزيـد في سيئاته، أو ينقص من حسناته.

* * *

ثم قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

العبادة: هي التذلل لله ـ عز وجل ـ؛ محبـةً وتعظـيمًا بامتثـال أمـره، واجتناب نهيه، والاستعانة: طلب العون. والإنسان مفتقر إلى الله ـ عـز وجل ـ في العبادة والاستعانة؛ أما افتقاره إليه في العبادة؛ فـلأن العبـادة هي مادة سعادته، وأما الاستعانة؛ فلأن الله إذا لم يعنه وكلـه إلى نفسه، فيكله إلى ضعف، وعجز، وعورة، ولا قيـام للإنـسان إلا بـالله ـ عـز وجل ـ؛ ففي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إخلاص العبادة لله ـ عـز وجـل ـ؛ ووجـه ذلك تقديم المعمول «إياكَ» ولو جاءت على الترتيب لقال: «نعبـدُكَ»، فلما قدم المعمول؛ دل على الإخـلاص، وتخـصيص العبـادة لله وحـده؛

لأن من القواعد المقررة في اللغة العربية أن تقديم المعمول يفيد الحصر؛ أي: الاختصاص، ويكون قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متضمنًا لمعنى قول الإنسان: «لا إله إلا الله».

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليل على اتباع الشريعة؛ شريعة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ لأن العبادة لا تتم إلا بأمرين: الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله؛ وذلك باتباع الرسل؛ ولهذا نقول: لا إشراك ولا ارتداد؛ فالإشراك ينافي الإخلاص، والارتداد ينافي الاتباع؛ فالعبادة لله ـ سبحانه وتعالى ـ إخلاص واتباع، لا شرك ولا ارتداد.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليل على أن العبادة إذا أشرك بها مع الله أحد؛ لم تكن عبادةً لله، ولا تقبل من العابد؛ ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه»(١).

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على إفراد الله ـ تعالى ـ بالاستعانة؛ ووجهه تقديم المعمول؛ لأن تقديم المعمول يفيد ـ على ما تقتضيه اللغة العربية ـ الحصر؛ أي: الاختصاص، فلا استعانة للإنسان إلا بالله ـ عز وجل ـ، ولا يستطيع الإنسان أن يقوم بشيء إلا بمعونة

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

الله له، وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على أنه ينبغي للإنسان حال العبادة أن يستحضر أنه مستعين بالله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لتتيسر له العبادة، ولتكون عبادة؛ لكونها متبعًا فيها الرسول ﷺ، مخلصًا لله فيها؛ ولكونه مستعينًا بالله عليها؛ ولهذا نقول: ينبغي للعابد أن يستحضر ثلاثة أشياء: الإخلاص، والمتابعة، والاستعانة؛ فالإخلاص والاستعانة لله وحده، والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ ليوصل إلى الله؛ أما الإخلاص لله: فأن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله والدار الآخرة. وأما الاستعانة: فأن يشعر بأن الله هو الذي أعانه على هذا، ويسر له أسباب القيام به، ولولا أنه أعانه ما حصل. وأما المتابعة: فأن يستحضر كأنما الرسول ﷺ أمامه، وهو خلفه يقتدي به.

فهذه ثلاثة أمور ينبغي للعابد أن يكون مستحضرًا لها؛ ليكون ذلك أعون له في إتمام العبادة.

فوائد الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

١ـ أن الإنسان دائرٌ بين أمرين: بين عبادة الله، واستعانة النفس؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي عن هذه الآية: «هَـذا بيني وبين عَبْدي»[1]؛ فالعبادة لله والمعونة للعبد.

---

(١) هو جزء من حديث سبق تخريجه ص(١٢).

٢- وفي هذه الآية دليل على تخصيص الله بالاستعانة؛ أي: أن الإنسان لا يستعين استعانة مطلقة إلا بالله؛ لأن الاستعانة المقيدة هذه جائزة حتى بغير الله فيما يقدر عليه المخلوق؛ ولهذا قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «... وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة...»[1]، فأثبت عون الإنسان لأخيه؛ فالاستعانة بمخلوق فيما يقدر عليه لا بأس بها، ولا تنافي العبادة ولا الإخلاص، لكنها ـ في الحقيقة ـ استعانة مقيدة وليست عامة شاملة؛ فهي استعانة قاصرة ـ أيضًا ـ؛ لأنها على عمل معين يقدر عليه المستعان به؛ وعلى هذا فالاستعانة بأصحاب القبور على قضاء الحوائج محرمة، بل هي من الشرك؛ وذلك لأن أصحاب القبور لا يستطيعون أن يعينوا أحدًا وهم أموات؛ فهم بأنفسهم لا يستطيعون أن يعملوا لأنفسهم شيئًا، فكيف يعملون لغيرهم؟! فإذا أردت أن تستعين في أمر لا يقدر عليه إلا الله، فلا تستعن إلا بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ.

٣ـ وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على أنه ينبغي للمتكلم أن يأتي بالأشياء التي تثير فطنة المخاطب وتنبهه؛ وذلك لأن الآيات الأولى الثلاث كلها بصيغة الغائب، أو كلها في سياق الغَيْبَة؛ حيث قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم (٢٨٩١)؛ ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولكن في الآية الرابعة قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب، والالتفات ـ بلا شك ـ يوجب استيقاظ المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد انساب الإنسان وغفل، ولم يحصل له انتباه، فإذا تغير الأسلوب؛ فإن الذهن ينصدم بهذا التغير، ثم ينتبه فكأنه صوت منبه، ينبه الإنسان على ما سيُخاطب به؛ ولهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ولم يقل: «إِيَّاهُ نَعْبُدُ»، وفي هذه الآية دليل مبني على الالتفات الذي ذكرناه ـ وهو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ـ؛ وهو دليل على أهمية العبادة والاستعانة، وإخلاصهما لله، كأن هذا الذي أثنيت عليه ـ وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيما سبق من الآيات الثلاث، كأنه ـ لقوة إيمانك به ـ أمامك، تخاطبه، ولا شك أن الإنسان إذا قرأها في الصلاة؛ فإنه يستقبل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والله ـ تعالى ـ يكون قِبَلَ وجهه، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ولكن ليعْلَم أن الله ـ تعالى ـ قِبَلَ وجهه، وإن كان هو في السماء فوق العرش، ولا تناقض في ذلك؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقاس بخلقه؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٤ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ دليلٌ على اجتماع الأمة؛ فإنه لم يقل: إياك أعبد، وإياك أستعين، وأنه ينبغي للأمة أن تتفق وتجتمع على العبادة والاستعانة بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقد يؤخذ منها إثبات علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فإن هذه السورة فرضت قراءتها

في جميع الصلوات، ومنها الصلاة الجهرية التي يجتمع فيها الإمام والمأموم، ولو جاءت بصيغة الإفراد «إِيَّاكَ أعبد وإِيَّاك أستعين»؛ لكان في ذلك إخلال بالنسبة للمأمومين؛ لأنه سيكون ـ في هذه الحالة ـ الإمام وحده هو الذي يقول: «إِيَّاكَ أعبد وإِيَّاكَ أستعين»، فَمن المعلوم أن الذين وراءه لن ينالهم نصيب من هذا لو كانت الآية بصيغة الإِفراد، أما قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فإن المأموم يشعر بأنه هو والإِمام على حد سواء في عبادة الله ـ تعالى ـ والاستعانة به.

٥ـ وفي الآية دليل على أن الإِنسان ينبغي أن يستعين بالله في كل شيء حتى في الأمور الصغيرة؛ كالذهاب، والمجيء، والأكل، والشرب، واللباس، فينبغي للإِنسان أن يستعين بالله في كل شيء؛ حتى يكون بذلك مدركًا لحاجته، متعبدًا لربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الاستعانة من العبادة، وإذا استعان الإنسان بربه؛ يسَّر له الأمر وسَهَّلَهُ عليه؛ ولهذا يؤمر الإِنسان إذا حلف على شيء مستقبل أن يقول: إن شاء الله؛ حتى يشعر باستعانته بربه، فإنه إذا قال: إن شاء الله؛ كان ذلك عونًا على قضاء حاجته؛ وفي الصحيحين في قصة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا؛ فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشقِّ رجل. وايم الذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لو قال: إنْ شاءَ اللهُ؛ لجاهدوا في

سبيل الله فرسانًا أجمعون»، وهنا لم يقل سليمان ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: إن شاء الله؛ اعتمادًا على ما في قلبه من العزيمة، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل؛ وذلك ليتبين له ولغيره أن الأمر بيد الله؛ قال النبي ﷺ: «لو قال: إن شاء الله؛ لم يحنث وكان دركًا لحاجته»[(١)].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

هذه الآيات الثلاث كلها للإنسان؛ فسورة الفاتحة سبع آيات: ثلاث منها لله خالصة، وثلاث منها للإنسان خالصة، وآية وسط بينهما كما جاء في الحديث الصحيح: «قال الله ـ تعالى ـ: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ قال الله ـ تعالى ـ: حمدني عبدي، وإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ قال الله ـ تعالى ـ: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مَجَّدني عبدي ـ وقال مَرَّةً: فَوَّض إليَّ عبدي ـ فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ رقم: (٦٦٣٩)، واللفظ له؛ ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ قال: هذا لِعَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سأل»(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ الهداية بمعنى: الدلالة والتوفيق، فإن كانت مُعَدَّاةً بإلى فهي للدلالة، وإن كانت متعدية بنفسها فهي للتوفيق والدلالة، وهنا الهداية متعدية بنفسها؛ فيكون المراد بها الدلالة والتوفيق؛ أي: أن الله ـ تعالى ـ يرزقك علمًا تهتدي به إلى شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ويوفقك لهذه الشريعة حتى تقوم بها.

وقوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ الصراط: هو الطريق الواسع، والمستقيم: الذي ليس فيه اعوجاج، ولا ارتفاع، ولا انحدار.

فوائد وأحكام:

١ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يدعو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بهذا الدعاء: أن يهديه صراطه المستقيم.

٢ـ وفي قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ـ أيضًا ـ دليل على أن الإنسان مفتقر إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في الهداية؛ ويتفرع عن ذلك أنه يجب على الإنسان أن يترك الإعجاب بنفسه، والقول: اهتديتُ؛ لأنني

---

(١) سبق تخريجه ص(١٢).

أعرف الحق، وهذا مني؛ فيمنُّ باهتدائه على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقد أنكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الأعراب الذي يمنُّونَ على رسول الله أن أسلموا؛ فقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]؛ فالإنسان لو لم يهده الله لم يهتدِ؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ [الكهف: ١٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣].

فإن قال قائل: إن قلتم هكذا فتحتم الأبواب للمتهاونين والكسالى الذين إذا دُعوا إلى الحق قالوا: الهداية بيد الله، واحتجوا بذلك.

فالجواب أن نقول: إن الله ـ تعالى ـ لما قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وأرشدنا إلى أن ندعوه هذا الدعاء لم يرد منا أن نتوقف عن أسباب الهداية، بل نحن نسأل الله الهداية، ونسعى في أسبابها؛ ولهذا قلنا: إن الهداية هداية دلالة وهداية توفيق؛ هداية الدلالة التي هي العلم، هل يمكن أن تحصل للإنسان بلا تعب على تحصيله؟ لو قال الإنسان: اللهم ارزقني مالًا، هل معنى ذلك أن يبقى في بيته ولا يتحرك؟ بل عليه أن يتحرك ويسأل أسباب الرزق، كذلك الهداية إذا سألت الله إياها فتسعى في أسبابها، لو سألت الله ـ تعالى ـ أن يرزقك أولادًا، هل تبقى لا تتحرك لا تتزوج؟ لا؛ لابدَّ أن تتزوج حتى ترزق بالأولاد، فسؤال الشيء من الله لا يستلزم أن يبقى الإنسان جامدًا، لا

يتحرك ولا يسعى إلى الأسباب التي توصل إلى هذا الشيء؛ إذن فلا حجة لهذا الذي يحتج بهذه الآية وأشباهها على فسقه وفجوره، ثم إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا حرم الإنسان الهداية؛ فلعلمه ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ليس أهلًا لها؛ لأن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، كما أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جعل الهدى في قلوب أهل الهداية؛ لعلمه أنهم أهل لذلك؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٣ـ ومن الفوائد ـ أيضًا ـ التي تستفاد من الآية الكريمة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: أن فيها دليلًا على أن دين الإسلام دين واسع شامل يتسع لكل أحد؛ فالصراط ـ في اللغة العربية ـ هو الطريق الواسع الذي يتسع لجميع السالكين.

٤ـ وفي الآية دليل على عموم الإسلام وشموله؛ لأنه شامل لكل ما يتعلق بالإنسان في معاشه ومعاده؛ ولهذا كان منظمًا للعباد فيما يتعلق بعبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وفيما يتعلق بالمعاملة فيما بينهم؛ ويتفرع من هذه الفائدة: الرد على مَنْ زعم أن الدين الإسلامي إنما ينظم العمل فيما يتعلق بين العبد وبين ربه، ويرى أن أمور الدنيا لا علاقة لها بدين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا خطأ عظيم؛ فإن الدين الإسلامي نظَّم كل شيء، وعلَّم النبيُّ ﷺ أمته كل شيء تحتاج إليه؛ قال أبو ذر ـ رَضِيَ الله

عَنْهُ ـ: «**توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر منه علمًا**»(١).

ويدلُّ على شمول الشرع ودين الإسلام لكل شيء أن أطول آية في كتاب الله آية الدَّيْن، وكلها تتعلق بمعاملة الخلق بعضهم مع بعض؛ فالدين الإسلامي كما نظم المعاملة بين العبد وبين ربه، نظَّمَ المعاملة بين العبد وبين غيره من عباد الله، بل نظَّم علاقة العبد الإنسان بينه وبين البهيم غير الناطق؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**عُذِّبت امرأة في هرة ربطتها حتى ماتت؛ فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها ولا سقتها إذْ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»(٢)، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إن امرأة بغيًّا**(٣) **رأت كلبًا في يوم حار يُطِيف ببئر**(٤)**، قد أدْلَع لسانه**(٥) **من العطش، فنزعتْ له بمُوقِها؛ فغُفِرَ لها**»(٦)، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ غفر لهذه المرأة رغم أنها بغي زانية،

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٥٥) وذكره الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢٩٠).

(٢) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤)، حديث رقم (٣٤٨٢) واللفظ له؛ ومسلم: كتاب الحيوان، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢).

(٣) أي: زانية.

(٤) يطيف ببئر: يدور حولها..

(٥) أدلع لسانه: أخرجه؛ لشدة العطش.

(٦) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤)، حديث رقم (٣٤٦٧)؛ ومسلم: كتاب الحيوان، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم (٢٢٤٥).

وهذا يدل على أن الإسلام له تنظيم في كل ما يتعلق بالعبد.

فإن قال قائلٌ: أليس النبي ﷺ حين قدم المدينة، ورآهم وهم يؤبرون النخل - أي: يلقحونها بوضع طلح الفُحَّال في ثمر النخل - قال «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا»، فتركوه فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له فقال: **«إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم؛ فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»**(1)، وهذا يدل على أن أمر الدنيا مفوض للعباد؟

والجواب على ذلك: أن هذا الذي أشار إليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يتعلق بالأحكام، وإنما يتعلق بالصناعة والحرف، ومعلوم أن الإنسان في حرفته قد يكون أعلم من عالم بشرع الله وأدرى بها؛ فالنجار - مثلًا - يعرف كيف يصرف الخشبة حتى يجعل منها بابًا، والصانع يعرف كيف يصنع الحديد فيجعله طائرات وسيارات أكثر مما يعلمه العالم الشرعي في هذا، هذا هو الذي أراده النبي - عليه الصلاة والسلام.

٥- وفي قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ دليل على أن هناك صراطًا غير مستقيم - وهو كذلك -، بل هناك سبل كثيرة غير مستقيمة؛

---

(1) رواه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، رقم (٢٣٦٢).

كما قال الله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهناك طرق كثيرة للباطل متنوعة من أفعال، وأقوال، وانتهاكات، وأما الحق فهو طريق واحد يوصل إلى الله - سبحانه وتعالى - وإلى دار كرامته.

٦- وفي قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ دليل على أن دين الإسلام كامل لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وأن من ظن أن فيه قصورًا فهو القاصر، ولا أحد يظن أن في دين الإسلام قصورًا إلا أن يكون قاصرًا في فهمه أو قليلًا في علمه، أو سيئًا في قصده، أما حَسَنُ النيةِ الذي آتاه الله علمًا وفهمًا فإنه يدري ويعلم علم اليقين أن دين الإسلام ليس فيه قصور، وهو مستقيم لا اعوجاج فيه، وأن الناس لو طبقوه؛ لكانوا على الاستقامة، والسداد، والصواب، ولما ضاقت عليهم السبل، ولكن قاصر الفهم، أو ناقص العلم، أو سيئ القصد هو الذي يظن أن في الإسلام قصورًا؛ فيذهب يأتي بالقشور من هنا وهناك؛ ليطبقها في بلاد الإسلام.

٧- وفي قوله - تعالى -: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ دليل على كمال حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - وكمال رحمته؛ حيث جعل الصراط الموصل إليه صراطًا مستقيمًا لا متاهة فيه ولا ضلال، ونحن نعلم أن الصراط المستقيم يوصل إلى المقصود بسرعة بخلاف الطريق المعوج،

الذي ينحرف بالإنسان يمينًا وشمالًا؛ فإنه - على تقدير إيصاله إلى المطلوب - يكون شاقًّا وبعيدًا؛ بسبب التعرجات، أو الطلوع، أو النزول، بل هذا صراط مستقيم.

٨ - وفي الآية الكريمة دليل على أنه لا هادي إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فهو الذي يُلجأ إليه في طلب الهداية لا إلى غيره.

فإن قال قائل: أليس قد قال الله - تعالى - عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؟

فالجواب: بلى، قد قال الله ذلك، وهو حق، لكن الهداية إلى الصراط المستقيم التي أثبتها الله لرسوله هي هداية الدلالة، وكل إنسان عنده علم بالشرع؛ فإنه يهدي الناس بهذا العلم إلى الشرع، فالدلالة على الخير ليست هي التوفيق إلى الخير؛ أما الدلالة التامة التي فيها الهداية والتوفيق فهي لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ولهذا قال الله - تعالى - لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

هم الذين أتم الله عليهم النعمة بتوفيقهم لشريعته، وهم أربعة

أصناف، ذكرهم الله في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ يعني: صراط غير المغضوب عليهم؛ والمغضوب عليهم هم الذين علموا الحق واستكبروا عن اتباعه، و«الضالون» الذين جهلوا الحق؛ فأخطئوا في العمل، وأول من يدخل في «المغضوب عليهم» اليهودُ، وأول من يدخل في «الضالين» هم النصارى.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- وفي الآية الكريمة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليل على أن الناس انقسموا إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ فهدوا إلى الحق علمًا وعملًا، وقسم غضب الله عليهم؛ فهدوا إلى الحق علمًا لكن لم يوفقوا للعمل به، بل استكبروا عنه وهم المغضوب عليهم، وقسم ثالث لم يهدوا إلى ا-ـق لا علمًا ولا عملًا؛ فتعبدوا الله ـ تعالى ـ عن جهل؛ فضلوا وهم الضالون، فمن المغضوب عليهم اليهود، ومن الضانين النصارى.

٢ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أنه ينبغي أن نبحث عن سيرة هؤلاء الذين أنعم الله عليهم: من هم؟

وكيف كان حالهم؟ حتى نهتدي لطريقتهم؛ ويتفرع على ذلك: الحث على معرفة سيرة النبي ﷺ؛ لأنه خيرُ من أنعم الله عليه، وبهذه المناسبة فإنني أحث إخواني المسلمين على قراءة السيرة النبوية من الكتب الموثوق بها؛ مثل «**البداية والنهاية**»، لابن كثير ـ رحمه الله ـ؛ فإنه كتاب جيدٌ جدًّا في بابه.

٣ـ وفي قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ دليلٌ على أن نعمة الدين أكبر من نعمة الدنيا؛ فإن في المغضوب عليهم والضالين مَنْ أنعم الله عليه نعمًا عظيمة في الدنيا، لكن هذه النعم ليست بشيء بالإضافة إلى نعم الدين؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولما دخل عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ على النبي ﷺ ذات يوم، فوجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد تأثر جنبه من الاضطجاع على سريره الذي عنده؛ بكى ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ فقال له النبي ﷺ: «**ما يبكيك يا عمر؟**» قال: أنت نبي الله، وكسرى وقيصر على أسرة الذهب؟ قال: «**يا عمر، أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»(١)؛ وعلى هذا نقول: إن النعمة الحقيقية الكبيرة العظيمة هي نعمة الله ـ تعالى ـ على عباده بدينه، ولا يخفى على الجميع أن الله ـ تعالى ـ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾، رقم (٤٩١٣)؛ ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، رقم (١٤٧٩).

قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، فجعل إكمال الدين من تمام النعمة ـ وهو كذلك.

٤ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ دليلٌ على أن من سلك هذا الصراط فهو في نعمة، في سرور، في انشراح؛ ويدل لذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، فمن كان من هؤلاء كان في نعمة وإن كان في ضيق من العيش باعتبار نعمة الجسد؛ لأن النعمة بالدين تقتضي أن يكون الإنسان دائمًا منشرح الصدر، مطمئن القلب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إنْ أصابته سرَّاءُ شَكَرَ؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر؛ فكان خيرًا له**»(١)، وقال بعض «**لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف**».

٥ـ وفي قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أسند النعمة لله وحده، وقال في الآخرين: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فأتى

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

بالغضب على وجه الإبهام؛ للدلالة على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له المنة الكبرى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، وأنه لا منَّة لأحد عليهم بما أعطاهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ ويتفرع على ذلك: أن يحمد الإنسان ربَّه على كل عمل صالح يفعله؛ لأن ذلك بمعونة الله وبنعمته.

٦ـ وفي قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ دليلٌ على عظم ذنب من أُتي العَلم ولم يعمل به؛ لأنه يستحق الغضب؛ حيث إن الله ـ تعالى ـ أنعم عليه بوجود السبب الذي به يهتدي، ولكنه استنكف واستكبر، وفي هذه الآية ـ أيضًا ـ دليلٌ على أنه ينبغي لنا أن نعرف سيرة هؤلاء المغضوب عليهم، ولماذا غضب الله عليهم؟ وبماذا أخذهم؟ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

٧ـ وفي قوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ دليلٌ على أنه يجب على المسلم الذي هداه الله إلى الصراط المستقيم أن يتبرأ من طريقة هؤلاء؛ فكما سأل الله أن يعصمه من طريقهم فليتبرأ منه، وليبعد عنهم، وليتجنب ما هم عليه من الضلال، بل إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «مَنْ تشبَّه بقومٍ؛ فهو منهم»[1]؛ فيجب علينا أن نتجنب

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٠)؛ وأبو داود: كتاب الحمام، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)؛ وأورده السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٥٢٢)، ورمز له بإشارة الحسن.

ما يختصون به ـ حتى في غير العبادات ـ؛ وذلك لأننا إذا تشبهنا بهم في غير العبادات، وفعلنا ما هو من خصائصهم؛ فإن هذا يجرنا إلى أن نتشبه بهم في العبادات؛ ولهذا قال العلماء: إن التشبه بهم في الظاهر يجر إلى التشبه بهم في الباطن؛ فيهلك الإنسان كما هلكوا.

٨- وفي قوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ دليلٌ على أنه يجب علينا معاداة هؤلاء، وبغضهم، وعدم مناصرتهم، سواء ناصرنا بعضهم على بعض أو ناصرناهم على أحد من المسلمين، فكل ذلك حرام، لكن الثاني أشد وأعظم، أما محبتنا أن ينتصر بعضهم على بعض فإن هذا لا بأس به إذا كان هذا المنتصر أهون على المسلمين وعلى الإسلام من الآخر؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم : ١ ـ ٥]؛ يعني: بنصر الله الروم على الفرس، ومن المعلوم أنهم لم يفرحوا بذلك إلا لأنهم يحبونه؛ لأن الإنسان لا يفرح بشيء إلا وهو محبوب إليه، فلا حرج علينا إذا أحببنا أن ينتصر بعض الكفار على بعض؛ لكونهم أهون من الآخرين، وأقلَّ خطرًا على الإسلام والمسلمين، لكن الجميع يجب علينا أن نتبرأ منهم، وأن نعاديهم، وألا يكون بيننا وبينهم ولاء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

٩ـ **وفي قوله:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **دليل على أن** كلتا الطريقتين سيئة، يجب البعد عنها، والتنزه منها، لا الاستكبار على الحق مع العلم به، ولا الجهل بالحق؛ ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم؛ حتى لا يكون من الضالين، وأن يتعبد حتى لا يكون من المغضوب عليهم. وطلب العلم قد يكون فرضًا على الأعيان، وقد يكون فرضًا على الكفاية، وقد يكون مستحبًّا؛ فهو فرض على الأعيان في كل ما يتوقف عليه العلم بالعبادة التي يتعبد بها الإنسان؛ فالطهور والصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم منهما ما يحصل به الواجب، وكذلك الأمر في الصيام، وكذلك في الحج، وكذلك في الزكاة، وفرض على الكفاية فيما لا يتعين على الإنسان العمل به، فتعلمُهُ فرضُ كفايةٍ إذا قام به من يكفي؛ لأنه في هذه الحالة يسقط عن الباقين.

وأما القسم الثالث وهو السنة، فهو ما يكون فرض كفاية، إذا قام

به من يكفي فإنه يكون سنة في حق الباقين. وإنني ـ بهذه المناسبة ـ أحث إخواني ـ ولا سيما الشباب منهم ـ على أن يحرصوا على العلم الشرعي؛ لأن الناس ـ الآن ـ في حاجة ماسة بل في ضرورة إليه؛ لكثرة الجهل ـ الجهل البسيط والجهل المركب ـ؛ لأن كثيرًا من الناس لا علم عندهم، وكثير من الناس عندهم علم، ولكن ليس عندهم فَهْمٌ، وإني أضرب مثلًا لذلك بما سمعته من أن بعض الناس قال: الأفضل أن يتوضأ الإنسان إذا كان عنده ماءان في أيام الشتاء ـ ماء دافئ وماء بارد ـ بالماء البارد، وكلما كان أبرد كان أفضل، يقول ذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبر بأن مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا؛ إسباغ الوضوء على المكاره[1]، قال: فينبغي أن يختار الأبرد؛ لأنه أكره إلى الإنسان، وهذا جهل عظيم، وفَهْمٌ قاصرٌ، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل: الوضوء بالماء البارد، أو إسباغ الوضوء بالماء البارد، لكن قال: إسباغ الوضوء على المكاره؛ يعني: أن الإنسان لا يمنعه كراهة استعمال الماء عن إسباغ الوضوء، بل يسبغ الوضوء مع كراهة استعمال الماء؛ لشدة برودته، ولا يريد الرسول عليه الصلاة والسلام من أمته أن يعجز الإنسان عن الماء الدافئ المناسب لطبيعته إلى الماء البارد الذي قد يفوته الإسباغ، والمعروف من قاعدة الشريعة العظيمة أن كل ما كان أيسر

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١).

فهو أقرب؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غَلَبَهُ...»[١].

وكان رسول الله ﷺ يبعث أصحابه ويقول: «يسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا»[٢]، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يخيَّرُ بين شيئين إلا اختار أيسرها ما لم يكن إثماً[٣].

ولا شك أن الأيسر للإنسان إذا كان عنده ماء دافئ وماء بارد أن يتوضأ بالماء الساخن، ووضوءه بالماء الساخن ليس إثماً؛ إذن فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لو خُيِّر بين هذا وهذا لاختار الدافئ؛ وعلى هذا يكون القول بأن يختار الماء البارد قولًا بلا علم، وإن شئت قل: قولًا بلا فهم؛ لذا فإنني أحث إخواني ـ ولا سيما الشباب ـ على العلم، والفهم، والتأني في الأمور، وعدم التسرع في الحكم على الشيء؛ حتى يتقن ذلك إتقانًا بيِّنًا؛ لأن المقام خطير، والكلمة الخطأ قد يصعب انتشال الناس منها فيما بعد.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٢) رواه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، رقم (٤٣٤١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣).

(٣) انظر البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ رقم (٣٥٦٠)؛ ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، رقم (٢٣٢٧).

١٠- وفي قوله -تعالى-: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ دليلٌ على أن من علم الحق ولم يَتَّبِعْه أسوأ حالًا ممن جهله؛ لأن الأول جعلت عقوبته الغضب؛ حيث قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ويتفرع على هذا التحذير عدم عمل العالم بما علم؛ لأن العالم إذا علم قامت عليه الحجة، وليس المراد هنا بالعالم من كان علمه واسعًا، بل المراد كل من علم بمسألة من مسائل الدين؛ فهو عالم بها حتى وإن كان وصفه عاميًّا، فكل من علم حُكْمًا من أحكام الدين فإن عليه أن يطبقه، وإن لم يفعل كان مستحقًّا لغضب الله -عَزَّ وَجَلَّ- غضبًا بحسب ما خالف به أمر الله، والله -تعالى- قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: «غير من غضبت عليهم»؛ كما قال في القسم الأول: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا دليل على أن من غضب الله عليه؛ فإنه يغضب عليه كل ولي لله؛ ويتفرع على ذلك أنه يجب علينا نحن المسلمين أن نغضب على كل من غضب الله عليه، وأن نعلم بأن كل من كان حربًا لله فهو حربٌ لنا، وأن كل من كان عدوًّا لله فهو عدو لنا؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

١١- وفي قوله -تعالى-: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على مهانة هؤلاء، وخِسَّتِهِم، وغلوهم؛ ولهذا ذكروا بوصف اسم المفعول،

ولم يعطوا حق اسم الفاعل؛ لأنهم مغضوب عليهم مهانون مطرودون مبغضون.

١٢ـ وفي قوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ دليلٌ ـ أيضًا ـ على إثبات الغضب لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو من صفاته الثابتة له في كتابه، وأجمع عليها السلف؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، والغضب صفة من صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تدل على كمال سلطانه وقدرته، وتستلزم عقوبة المغضوب عليهم؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ولا يصح تفسير الغضب بالانتقام ولا بإرادة الانتقام؛ لأن الغضب شيء ينشأ عنه إرادة الانتقام ثم الانتقام؛ ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ ؛ أي: أغضبونا، ثم قال: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

١٣ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إشارة إلى أن الضلال صفة ممقوتة؛ لأن المؤمن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعصمه من طريق الضالين؛ فيتفرع على ذلك: أن العلم صفة كمال ـ وهو كذلك ـ؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ

ﵟٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِﵞ [الزمر: ٩]. ولكن ما هو العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه؟ إن العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه هو العلم بشريعة الله؛ العلم بأسماء الله وصفاته، العلم بأفعال الله؛ لأن ذلك هو الذي يحقق العبادة التي خلق من أجلها الإنس والجن؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأما العلم بالصناعة، والأمور السفلية الأرضية فهذا لا يحمد ولا يذم على الإطلاق، بل إنْ أدى إلى خير ونفع كان محمودًا، وإن أدى إلى شر وضرر كان مذمومًا، وإن لم يؤد إلى هذا ولا إلى هذا، كان لا هذا ولا هذا، لا يحمد ولا يذم إلا أن يفوت به ما هو أنفع وأصلح؛ فإنه قد يذم على ذلك.

١٤ــ **وفي قوله:** ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ـ دون أن يعلق الغضب على ضلالهم ـ دليلٌ على أن الضالَّ لا يستحق العقوبة؛ أي: أن الإنسان إذا كان جاهلًا بالشيء لا يستحق العقوبة عليه ـ وهو كذلك ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لكن إن كان مفرطًا بترك التعلم فقد يؤاخذ على تفريطه لا على جهله؛ لأن الإنسان يجب عليه أن يتعلم من أحكام دينه ما يحتاج إليه، وقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في الرجل يترك المأمور جهلًا به هل يؤمر بقضائه أم لا يؤمر بقضائه؟

فمنهم من قال: إنه يؤمر بالقضاء؛ لأن الواجب لا يسقط بالجهل، ومنهم من قال: إنه لا يؤمر بالقضاء؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر المسيء في صلاته بقضاء ما كان قد فعله من قبل؛ وكان هذا الرجل يصلي ولا يطمئن، فجاء ذات يوم فصلَّى والنبي ﷺ ينظر إليه، فلما سلَّم على النبي ﷺ قال له: «ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تُصَلِّ»، فرجع فصلى كما صلَّى، ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تصلِّ» (ثلاثًا)، فقال: والذي بعثك بالحقِّ، ما أُحسِنُ غيره، فعلِّمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»[(١)]، فلم يأمره النبي ﷺ بإعادة ما سبق من الصلاة مع أنه كان لا يصلي على وجه مجزٍ، وكذلك المرأة المستحاضة ـ التي كانت تستحاض فلا تصلي ـ لم يأمرها النبي ﷺ بإعادة الصلاة[(٢)]، قالوا: فهذا دليل على أن الجاهل لا يؤمر بقضاء ما تركه جهلًا.

ومن الأدلة على هذا: حديث عمار بن ياسر: «بعثني رسول الله ﷺ

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب قراءة الفاتحة للإمام والمأموم...، رقم (٧٥٧)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٧).

(٢) انظر فتح الباري: (١/ ٤٤٠)؛ وصحيح مسلم (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

في حاجة فأجنبتُ[١]، فلم أجد الماء؛ فتمرغت في الصعيد كما تمرَّغُ الدابة، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك أن تقول بيدك هكذا»، ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه»[٢]، فلم يأمره النبي ﷺ بقضاء ما صلاه بذلك التيمم الذي لم يكن على وفق الشرع، وهذا القول ـ بلا شك ـ موافق لعموم قاعدة الشريعة؛ وهي اليسر وعدم العسر؛ لأن الإنسان لو أخلَّ بواجب لسنوات كثيرة، ثم قلنا: إنه يجب عليك قضاء ما فات لكان في هذا صعوبة، وربما يكون فيه تنفير، وربما يكره أن يقوم بالعبادة من أجل هذه المشقة.

نعم لو فرض أن الإنسان بلغه شيءٌ من العلم، ولكنه تهاون، وسكت، وقال ـ كما يقول البطالون ـ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، فهذا قد يلزمه بقضاء ما فات؛ من أجل تفريطه وتهاونه في الأمر، ولكل مقام مقال، والذي ينبغي في هذه المسألة ألا يُفتى فيها بوجه عام لكل الناس، بل تكون الفتوى فيها حسب حال كل قضية بعينها، وبإمكان الإنسان أن يعرف مَنْ المفرط من غيره.

---

(١) أي: أصابته جنابة..

(٢) رواه البخاري: كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما، رقم (٣٤٧)؛ ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨).

١٥ ــ وفي هذه السورة العظيمة ـ التي سماها الرسول ﷺ أم الكتاب، وأم القرآن ـ دليلٌ على مضمون ما جاء به القرآن؛ فهي أمٌّ وفاتحة؛ لأنها تشتمل على أنواع التوحيد، وتشتمل على الإشارة إلى الشرائع، وتشتمل على الإشارة إلى الرسل والملائكة، وعلى اليوم الآخر، وعلى أقسام الناس؛ فكل معاني القرآن تتضمنها هذه السورة، بالإشارة والدلالة التضمنية والالتزامية.

ففيها من توحيد الألوهية قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن الله هو ذو الألوهية على خلقه أجمعين.

وفيها من توحيد الربوبية قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والربوبية تكون عامة وتكون خاصة، وقد اجتمع النوعان في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ فربوبية الله ــ تعالى ــ لموسى، وهارون، وأمثالهما من الرسل ليست كربوبيته لفرعون، وهامان، وقارون؛ لأن ربوبيته لموسى، وهارون، وأمثالهما من الرسل ربوبية خاصة، بها عناية وتوفيق لأمر لم يوفق له أكثر الخلق.

أما الأسماء والصفات ففيها ـ أي السورة ـ الألوهية، والرحمة، والوصف بالحمد والثناء، كل هذا من أجل كمال صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ.

أما اليوم الآخر ففي قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

وأما العبادة والاستعانة ففي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، وهي تشمل جميع الشريعة؛ من أقوال، وأفعال، واعتقادات؛ إما شيء يطلب إيجاده، وإما شيء يطلب اجتنابه، وكلها داخلة ضمن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ ؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يدع شيئًا إلا بمعونة الله، ولا يقوم بشيء إلا بمعونة الله.

وأما الإيمان بالملائكة؛ فإنه يؤخذ من قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ؛ لأن الذين أنعم الله عليهم هم الرسل، والواسطة بين الله وبين رسله هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه موكل بالوحي، ثم إن صراط هؤلاء الذين أنعم الله عليهم متضمن للإيمان بالملائكة.

وأما الإيمان بالقدر فيؤخذ من قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ؛ لأن مقتضى الربوبية أن يكون كل شيء بتقديره، وقضائه، وقدره.

وأما أقسام الناس فيما أوحى الله إلى رسله فقد تنضمنها قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

فالمهم أن من تدبر هذه السورة وجدها ـ كما وصفها رسول الله ﷺ أم القرآن، وفاتحة الكتاب؛ ولهذا أوجب الله ـ تعالى ـ على لسان رسوله ﷺ قراءتها على كل مصلٍّ؛ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حديث

عبادة بن الصامت الثابت في الصحيحين: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»(١)، وفي حديث أبي هريرة قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج»(٢)؛ يعني: فاسدة، وهذا يدل على أهمية هذه السورة، ولكن هناك شيء ينبغي التنبه له، وهو أن بعض الناس يستفتح بها كل شيء، ويجعلها السورة التي يتبرَّك بها في كل مناسبة، وهذا شيء من البدع؛ لأنه لم يعلم أن النبي ﷺ كان يستفتح الأمور بها، وإنما كان يبتدئ بها في قراءة الصلاة، نعم، هي رقية إذا قُرِئ بها على المريض بإخلاص؛ فإنه ينتفع بها بإذن الله، والله الموفق.

* * *

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب قراءة الفاتحة للإمام والمأموم...، رقم (٧٥٦)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٤).

(٢) رواه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٥).

(٢) سورة البقرة

قال ـ تعالى ـ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

في هذه الآيات يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾؛ وهو القرآن الكريم، وأشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ إليه بإشارة البعيد؛ لعلوِّ مرتبته، وعظيم منزلته؛ فإنه كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وقد وصفه الله ـ تعالى ـ في القرآن بأوصاف عظيمة بالغة، وسمَّاه الله كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾؛ أي: ليس فيه ريب ولا شك؛ لأنه حق نازل من عند الله، وفي قوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾؛ أي: الذين اتقوا عذاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: الذين يؤمنون بما غاب عنهم، لإخبار الله ـ تعالى ـ به ورسوله،﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ أي: يأتون بها قائمة مستقيمة على وفق الشريعة،﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾؛ أي: ينفقون مما رزقهم الله؛ من الزكوات الواجبة، والصدقات المستحبة، والنفقات اللازمة.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة على الرسل؛ مثـل التـوراة والإِنجيـل، والزبـور،﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾؛ أي: إيقانًا كاملًا لا مرية فيه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾؛ أي: عـلى صراط مـستقيم وعلـم نافع، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾؛ أي: الذين اهتدوا بهداية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، واتبعوا ما أنزل الله؛ فأصبح مآلهم هـو الفـلاح؛ والفـلاح هـو حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمات:

١ـ في هذه الآيات إشارة إلى الصنف الأول والأعـلى مـن أصـناف بني آدم نحو هذا الكتاب العزيز؛ فإن الناس انقسموا في هـذا الكتـاب العزيز إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا به ظـاهرًا وباطنًـا، وقـسم آمنـوا بـه ظاهرًا وكفروا به باطنًا، وقسم كفروا به ظاهرًا وباطنًا، فبدأ الله ـ تعـالى ـ بالذين آمنوا به ظاهرًا وباطنًا، ثم ثَنَّى بالذين كفروا به باطنًا وظـاهرًا، ثم ثلث بالذين آمنوا به ظاهرًا وكفـروا بـه باطنًـا، وهـذا التقـسيم مـن أحسن التقاسيم، وأجملها، وأوضحها؛ فبدأ بالأعلى ثم بما يقابله تمامًـا، ثم بما هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأَخَّـرَ الكـلام علـيهم؛ لطولـه، ولبيان أوصافهم؛ حتى يحترز منهم؛ ففي قوله ـ تعالى ـ: ﴿الٓمٓ﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن العظيم ـ الذي أعجز أمـراء الفـصاحة والبلاغـة ـ لم

يكن بأحرف خارجة عن الأحرف التي كانوا يتحدثون بها، ومع ذلك أعجزهم؛ فعجزوا أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، أو بعشر سور مثله؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]، وهذا يشمل ما يكون به الإعجاز وإن قلَّ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس: ٣٨]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء والفصحاء لم يأت بحروف جديدة حتى تقولوا ليست هذه الحروف معلومة لنا فلا نستطيع، هذا هو الأصح في الحكمة من ذكر الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، أما الحروف نفسها فليس لها معنى؛ لأن الله ـ تعالى ـ أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين، وهذه الحروف الهجائية ليس لها معنى في اللغة العربية.

٢ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ دليل على علوِّ مرتبة القرآن، وهو كذلك؛ لأن القرآن كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو أعلى الكلام في الفصاحة، والبلاغة، وما يحتوي عليه من العلوم النافعة.

٣ـ وفي قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ دليلٌ على أن هذا القرآن مكتوب، وهو كذلك؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٢ـ١٦]، وهو كذلك مكتوب في الصحف التي بأيدينا.

٤ـ وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ «ال» دليل على أن هذا الكتاب معروف معهود، وهو كذلك؛ فإن كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كان معروفًا معهودًا بين الصحابة، لمْ يفتقد منه شيء، وقد ذكر أهل العلم أن من أنكر حرفًا واحدًا اتفق القرَّاء على إثباته؛ فهو كافر.

وأما اختلاف القراءات السبع؛ فإن هذا مما ثبت عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن هذه القراءات السبع كلها حق تجوز القراءة بها.

٥ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ دليلٌ على أن الاهتداء بالقرآن مربوط بالتقوى؛ فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله.

٦ـ وفي قوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ دليلٌ على أن غير المتقي لا يهدى بالقرآن، وهو كذلك؛ ولهذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٧ـ٩]،

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٠ ـ ١٤]، فأخبر الله ـ تعالى ـ أن هذا إذا تتلى عليه آيات الله؛ لم ينتفع بها، ولم تصل إلى قلبه، ولم يرَ لها شأنًا عظيمًا، بل يقول: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ يعني: مثل الحكايات التي تُحكى عن الأولين، ويُتحَدَّث بها لماذا؟ لأنه ران على قلبه ما كان يكسبه من الآثام؛ فلم ينتفع بالقرآن، وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله؛ ويدل على ذلك آيات كثيرة؛ منها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وكلما نقص الإنسان من التقوى نقص من اهتدائه بكتاب الله بقدر ما نقص من تقواه.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

هنا بَيَّن الله ـ تعالى ـ أوصاف هؤلاء المتقين؛ فوصفهم ـ سبحانه ـ بأنهم يؤمنون بالغيب؛ أي: بما غاب عنهم مما أخبر اللهُ به ورسلُهُ؛ لأنهم

يصدقون بما أخبر اللهُ به ورسلُهُ أكثر مما يصدقون بما شـاهدوه بـأعينهم أو سمعوه بـآذانهم، وأمـور الغيـب التـي أخـبر اللهُ بهـا ورسـلُهُ كثـيرة معروفة في كتـاب الله وفي سـنة رسـول الله ﷺ. ومـن أوصـافهم أنهـم يقيمـون الـصلاة؛ أي: يـأتون بهـا قائمـة تامـة بـشروطها، وأركانهـا، وواجباتها، ويتممون ذلك بمتمماتها من المستحبات، ومن أوصـافهم ـ أيضًا ـ أنهم ينفقون مما رزقهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على حـسب مـا تقتـضيه الشريعة إنفاقًا دائـرًا بـين الإفـراط والتفـريط؛ كـما قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ يخبر الله ـ تعالى ـ في هذه الآية بأن هـؤلاء على هـدى، وعلى علـم ممـا وهـبهم الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ، وبيَّـن الله ـ تعـالى ـ مـآلهم وهـو الفـلاح؛ والفلاح هو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

فوائد الآيات الكريمات:

١ـ أن الإيمان بالغيب من تقـوى الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ، وهـو أسـاس التقوى؛ لأن ضدَّ الإيمانِ الشكُّ والتكذيبُ؛ فإن الناس فيما أخبر اللهُ بـه ورسلُهُ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم يؤمنـون بـذلك ويوقنـون بـه، وقسم ينكرون ذلك ويجحدونه، وقـسم يـترددون فيـه ويـشكون فيـه،

والناجي من هذه الأقسام هو القسم الأول؛ الذين يؤمنون به ويصدقون به.

٢ـ أن الإيمان بالشيء المشاهد لا يجدي ولا ينفع؛ لأنه إيمان يقتضيه الواقع؛ فلا يمدح الإنسان عليه، فالإنسان الذي يقول: أنا أؤمن بالشمس، وأؤمن بالقمر، وأؤمن بالنجوم لا نمدحه على ما يؤمن به من هذه الأشياء المحسوسة، وإنما يمدح الإنسان على ما يؤمن به من الأشياء الغائبة؛ ولهذا لا ينفع الإنسانَ إيمانُهُ إذا شاهد الأمر عيانًا؛ كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وقال الله ـ تعالى ـ في فرعون لما أدركه الغرق ـ: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩١].

٣ـ فضيلة إقامة الصلاة، وأن ذلك من تقوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والصلاة ـ هنا ـ شاملة لصلاة الفريضة وصلاة النافلة.

٤ـ أن الصلاة قد يفعلها الإنسان على غير وجه الإقامة لها؛ مثل أن يفعلها غير تامة، أو يفعلها ناقصة من الأركان، أو من الواجبات، فمن النقص في الأركان الذي يتهاون فيه الكثير من الناس عدم الطمأنينة؛

فإن بعض الناس يتهاون في الطمأنينـة، ولا يطمـئن، لا سـيما في القيـام بعد الركوع، وفي الجلوس بين السجدتين، ومن المعلوم أن الطمأنينة في هذين الركنين وفي غيرهما مـن أركـان الـصلاة، وأن الـصلاة لا تـصح بدون الطمأنينة فيهما وفي غيرهما من الأركـان؛ ففـي الـصحيحين مـن حديث أبي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: «أنَّ رسول الله ﷺ دخـلَ المسجدَ، فدخلَ رجلٌ، فصلَّى، فسلَّمَ على النبـي ﷺ فـردَّ وقـال: «ارجـع فـصلِّ؛ فإنك لم تُصَلِّ»، فرجع فصلى كما صلَّى، ثـم جـاء فـسلَّم عـلى النبـي ﷺ فقال: «ارجع فصلِّ؛ فإنك لم تصلِّ» (ثلاثًا)، فقال: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما أُحسِنُ غيره، فعلِّمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر، ثم اقـرأ مـا تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتـى تطمـئن راكعًـا، ثـم ارفـع حتـى تَعْتَدِلَ قائِمًا، ثم اسجُدْ حتى تطمئِنَّ ساجدًا، ثـم ارفـعْ حتـى تطمـئِنَّ جالسًا، وافعلِ ذَلِكَ في صلاتِكَ كُلِّهـا»[(١)]، وإنـما أمـره الرسـول ﷺ أن يعيد الصلاة مرة بعـد أخـرى؛ مـن أجـل أن يـشتد توقانـه إلى معرفـة الصلاة وأحكامها؛ حتى يتلقى ذلك بنفس مُشْرَئِبَّة متطلعـة إلى معرفـة الحكم؛ فيكون ذلك أرسخ في قلبه، وفي رواية للحديث: «إذا قمـتَ إلى الصلاةِ فأسْبِغ الوضوء، ثُمَّ استقبل القبلة فَكَبِّر»[(٢)]، وإنما قال لـه النبـي

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٨).

(٢) رواه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء»، مع أنه لم يشاهده ﷺ وهو يتوضأ؛ لأن من جهل هذه الأركان في صلاته قد يكون جاهلًا للوضوء، فأرشد النبي ﷺ إلى ما ينبغي أن يقوم به من إسباغ الوضوء، المهم أن رسول الله ﷺ أمرنا أن نطمئن في هذه الأركان، وهو دليل على أن الصلاة لا تصح دون الطمأنينة فيها، فالكثير من الناس يضيع الطمأنينة في هذه الأركان؛ فيكون غير مقيم للصلاة، ومن إقامة الصلاة صلاتها في المساجد مع الجماعة؛ لأن النبي ﷺ قال: «لقد هممت أنْ آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلًا يصلِّي بالناس، ثم أُخالفُ إلى رجالٍ يتخلَّفون عنها، فآمر بهم فيحرِّقوا عليهم بحزَمِ الحطب بيوتهم»[1].

وعن أبي هريرة قال: «أتى رجلٌ أعمى فقال: يا رسولَ الله، إنه ليس لي قائدٌ يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ له، فيصلي في بيته، فَرَخَّصَ له، فلما ولَّى دعاهُ فقال: «هل تسمعُ النداء بالصلاة؟» فقالَ: نَعَمْ؛ قال: «فَأَجِبْ»[2]؛ فمن لم يأت بصلاة الجماعة مع قدرته عليها وعدم وجود عذر شرعي في تركها؛ فإنه غير مقيم للصلاة، فلا يكون داخلًا في هذه الأوصاف الحميدة الجليلة.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة، رقم (٦٤٤)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٥١).

(٢) رواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، رقم (٦٥٣).

أما النساء فلا تجب عليهنَّ صلاة الجماعة في المساجد؛ لأن الرجال هم المخاطبون بالاجتماع إليها، أما النساء فقد قال النبي ﷺ: «... وبيوتهن خير لهن»[١]، ولكن المرأة مأمورة بأن تحضر صلاة العيد؛ لأن النبي ﷺ أمر أن يُخْرَج إليها النساء حتى الحيَّض وذوات الخدور إلا أنه أمر الحيَّض أن يعتزلن المصلى[٢]؛ لأن مصلى العيد مسجد تثبت له أحكام المسجد كلها.

ومن إقامة الصلاة المحافظة عليها في أوقاتها، بل هذا من أهم إقامتها، وأوقات الصلوات معروفة ـ ولله الحمد ـ، وهي خمسة؛ فالفجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والظهر من زوال الشمس ـ أي: ميلها إلى جهة المغرب ـ حتى يصير ظل كل شيء مثله بعد فيء الزوال، والعصر من ذلك الوقت ـ أي: من صيرورة ظل كل شيء مثله ـ إلى أن تصفرَّ الشمس، هذا وقت الاختيار، والضرورة إلى غروب الشمس. أما صلاة المغرب فوقتها من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر، والعشاء من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل. وطلوع الفجر إلى طلوع الشمس يمكن إدراكه بالمشاهدة، وزوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله يمكن أن يعرف بوضع عصا أو

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد، رقم (٥٦٧).

(٢) انظر البخاري: كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى، رقم (٩٧٤)؛ ومسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى، رقم (٨٩٠).

نحو ذلك قائمة في الشمس، وينظر إلى ظلها، فما دام الظل ينقص فالشمس لم تَزُلْ، فإذا بدأ الظل يزيد ـ ولو يسيرًا جدًّا ـ فقد زالت الشمس، وحينئذٍ اضبط مكان الزيادة، فإذا صار من مكان الزيادة إلى منتهى ظلها طولها فقد خرج وقت الظهر ودخل وقت العصر. أما انتهاء وقت العصر فهو معلوم بالمشاهدة، وهو اصفرار الشمس؛ أي: أن تكون الشمس صفراء، ومن اصفرار الشمس إلى الغروب ـ أيضًا ـ معلوم بالمشاهدة. أما صلاة المغرب فوقتها من الغروب إلى مغيب الشفق الأحمر، وهو معلوم بالمشاهدة ـ أيضًا ـ، وتقريبه في الساعة: ما بين ساعة وربع أو سبع عشرة دقيقة من الغروب إلى ساعة ونصف ساعة أو ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة بعد الغروب؛ لأن طول مدة وقت المغرب يختلف باختلاف الفصول، ومن بعد ذلك يدخل وقت العشاء مباشرة إلى نصف الليل، وبيان ذلك أن تَنْصِف ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر؛ فالنصف هو منتهى وقت صلاة العشاء.

فلا يجوز للإنسان أن يؤخر الصلاة عن وقتها المحدد لها شرعًا إلا لعذر يبيح الجمع؛ فيجوز أن يؤخر الصلاة الأولى التي تجمع لما بعدها إلى دخول وقت الثانية؛ لأن السبب المبيح للجمع يجعل وقت الصلاتين وقتًا واحدًا؛ فمن أخَّر الصلاة عن وقتها، وصلَّاها بعد الوقت بدون عذر شرعي؛ فإن صلاته مرفوضة لا تقبل؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾

[الطلاق: ١]، وقوله في آية أخرى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والظالم لا يقبل منه عمل؛ لأنه ظلم، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحب الظالمين، ويؤيد القولَ بأن الصلاة بعد وقتها لا تصلح بدون عذر قولُهُ ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»[1]، ومن المعلوم أن من أخَّر الصلاة عن وقتها بدون عذر فقد عمل عملًا ليس عليه أمر الله ورسوله؛ فيكون مردودًا غير مقبول.

٥ـ فضيلة الصلاة؛ حيث نصَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على إقامتها بخصوصها، ومن المعلوم أن النص على الشيء بخصوصه يدل على عناية كاملة به، وعلى مرتبة عالية له.

٦ـ فضيلة الإنفاق مما رزق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، والإنفاق من المال ينقسم إلى واجب ومستحب، وأوجب الواجبات الزكاة التي فرضها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على العباد، فمن قام بها وأدَّاها؛ فإنه يدخل في هذه الآية الكريمة أول من يدخل، ويدخل في الإنفاق ـ أيضًا ـ الإنفاق على من يجب الإنفاق عليه؛ من زوجة، وقريب، ومملوك، وإنني بهذه المناسبة أحذر بعض الناس الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، فيظنون أن ذلك خيرًا لهم، وأن ذلك

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

تنمية لأموالهم؛ فإن هذا ليس خيرًا لهم، بل هو شر لهم؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أحذر هؤلاء البخلاء من أن يمنعوا الزكاة، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على زوجاتهم، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على من أوجب الله عليهم الإنفاق عليه، وأحذرهم من أن يمنعوا ما أوجب الله عليهم بذله من المال؛ من إطعام جائع، أو كسوة عارٍ، أو غير ذلك مما ذكر أهلُ العلم وجوب الإنفاق فيه، ولْيَعْلم الإنسان أن كل نفقة ينفقها يبتغي بها وجه الله ـ تعالى ـ يثيبه عليها، ويأجره عليها، ولا تزيد ماله إلا نماء وبركة؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «ما نقصت صدقةٌ من مالٍ، وما زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»[1].

* * *

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

من فوائد وأحكام هذه الآية:

أن هؤلاء المتقين المتصفين بهذه الصفات على هدى من الله، وعلى

---

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

بصيرة، وعلى برهان بأن مآلهم الفلاح؛ وهو الفـوز بـالمطلوب والنجـاة من المرهوب، وهذا غاية كل إنسـان؛ قـال ـ تعـالى ـ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

نسأل الله ـ تعـالى ـ أن نكـون مـن الفـائزين السعداء في الـدنيا والآخرة.

* * *

ثم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

يبين الله ـ سبحـــانه وتعالى ـ حال هؤلاء الكفار المكـذبين لرسـول الله ﷺ ومآلهم؛ أما حالهم فقد قـال ـ سـبحانه وتعـالى ـ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أنهـم لا يؤمنـون سـواء أنذرتهم أم لم تنذرهم؛ وذلك لأن الله ختم على قلوبهم وعـلى سـمعهم، وجعل على أبصارهم غـشاوة، وهـذا كقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦،٩٧]، ولا ينافي هذا مـا علـم مـن أن بعـض الناس يكون كافرًا بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثم يهديه الله ـ سبحانه وتعـالى ـ إلى الإسلام؛ فيكون من أئمة المسلمين، ودعاة المسلمين، وأنـصار الـدين؛ لأن الكلام فيمن كان كافرًا، وقد حقَّت عليه كلمـة الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛

فإنه لا يمكن لأحد أن يهديه، أما من كان كافرًا، ولم تحق عليه كلمة الله، وعلم الله منه أنه سيتوب، ويدخل في الإسلام؛ فإنه لا يدخل في هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم؛ أي: جعل الله عليها الختم؛ وهو الطبع بعد الإغلاق والاستيثاق، يُختم على الشيء حتى يبقى مختومًا لا يصل إلى خير، فهؤلاء ختم الله على قلوبهم؛ فلا يصل إليهم الإيمان، وعلى سمعهم؛ فلا يستمعون إلى ما يتلى عليهم على وجهٍ ينتفعون به، أما الأبصار ـ والعياذ بالله ـ فجعل الله عليها غشاوة؛ لا يبصرون ولا ينظرون إلى آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ التي تدلهم على الحق، وبيّن الله ـ تعالى ـ أن لهم في الآخرة عذابًا عظيمًا؛ حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ أنَّ مَنْ حقَّت عليه كلمة الله من الكافرين لا يمكن أن يؤمن، سواء أُنْذِرَ أم لم يُنْذَرْ، وسواء رُغِّبَ أم لم يُرَغَّبْ؛ لأنه قد طُبِعَ على قلبه؛ فلا يمكن وصول الهداية إليه.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية** ـ أيضًا ـ تسلية النبي ﷺ حتى لا يضيق صدره، ولا يكون في نفسه حرج، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ

نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، فالنبي ﷺ ومن ورثه من أهل العلم عليهم البلاغ والدعوة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وبعد ذلك لا يضرهم من ضلَّ ما داموا على الاهتداء، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** أَنَّه ينبغي للمؤمن الذي منَّ الله عليه بالإيمان أن يحمَد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه النعمة العظيمة.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** أن رسول الله ﷺ قد قام بإنذار هؤلاء الكافرين، ولكن هؤلاء الكافرين قد حقت عليهم كلمة العذاب؛ فلم يُجْدِ فيهم الإنذار شيئًا.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يمنُّ على من يشاء من عباده؛ فمن عباد الله من يشرح الله له صدره، ويُيَسر له أمره، يشرح صدره للإسلام حتى يفرح به ويستبشر به، ويتسع صدره لقبوله؛ فيقبله، وينفذ أحكام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الوجه الذي يرضاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ومن الناس من يكون على العكس من هذا؛ فيضيق صدره حرجًا بما سمع من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾

[الزمر: ٢٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قال قائلٌ: كيف يهدي الله قومًا ويضل آخرين؟

فالجواب: أن هذا السؤال لا يرد؛ لأن الله ـ تعالى ـ له أن يفعل ما يشاء، فله أن يمن على من يشاء من عباده فيهديهم إلى صراطه المستقيم، كما قالت الرسل لأقوامهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]، ونقول ثانيًا: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يهدي إلا من كان أهلًا للهداية، ولا يُضِل إلا من كان أهلًا للضلالة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، فلا يُضِل من ضلَّ إلا بسببٍ من نفسه، يكون قلبه غير مريد للحق وغير قابل له، والله ـ تعالى ـ يعلم منه ذلك؛ فيكتب الله له الشقاء والضلال؛ نسأل الله الهداية.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للإنسان أن يكون دائمًا على حذر، وألا يعتمد على نفسه، وأن يخشى من الزيغ والضلال، وأن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ دائمًا الثبات على الحق، والموت عليه، وأن

يحمَد الله الذي منَّ عليه بالهداية، وقد أضلَّ قومًا آخرين.

٧- ومن فوائـد الآيـة الكريمـة إثبـات الجـزاء في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

٨- ومن فوائـدها إثبـات حكمـة الله؛ فإنـه ـ سـبحانه وتعـالى ـ لم يعـذب هـؤلاء إلا لاسـتحقاقهم العـذاب بكفـرهم بـالله ـ سـبحانه وتعالى ـ، وبما يجب عليهم الإيمان به.

* * *

ثم قال الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وهذا هو القسم الثالث من الأقسام التي ابتدأ اللهُ بها هذه السـورة، وهم: المؤمنون الخُلَّص والكافرون الخُلَّص، والمؤمنـون بألـسنتهم دون قلوبهم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعض الناس يقـول: آمنـا بـالله وبـاليوم الآخـر، لكـن يقـول ذلـك بلـسانه؛ ولهـذا قـال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما هم بمؤمنين بقلوبهم، بل هم في قلوبهم منكـرون، لا يعترفون بهذا ولا يقرون به ـ والعيـاذ بـالله ـ، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ؛أي: أنهم في عملهم هذا وسيرتهم هذه يخادعون الله والذين امنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم. والخداع، والمكر، والكيد، معانيها متقاربة؛ وهي الإيقاع بالخصم من غير أن يشعر، هؤلاء يتظاهرون بالإيمان؛ ليخادعوا الله والمؤمنين، فيظنون أنهم أحْسَنُوا صنعًا، ولكنهم أسَاءُوا صنعًا وسبيلًا؛ ولهذا قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ، - فهم في الحقيقة خدعوا أنفسهم، ولعبوا بها، وغروها، واغتروا بصنعهم؛ فلم ينفعهم هذا الخداع؛ لأن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، كما قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٨-١٠]، وقال - تعالى -: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩-١١].

وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ ؛ أي: أن هؤلاء المنافقين الذين ظنوا أنهم خدعوا الله والمؤمنين بما يتظاهرون به من الإيمان وهم على الكفر لا يخدعون إلا أنفسهم؛ لأنهم غروها، واغتروا بما صنعوا، وظنوا أنهم يحسنون صنعًا، ثم قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ؛أي: لا يشعرون أنهم خدعوا أنفسهم؛ ولهذا استمروا على ما هم عليه من النفاق.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك، وريب، ونفاق؛ ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾؛أي: أعطاهم مرضًا أكثر من المرض الأول، وهذا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فهؤلاء المنافقون لما كانت قلوبهم مرضى؛ صاروا يزدادون مرضًا فوق مرضهم؛ لأنهم كلما كذَّبوا شيئًا وأنكروا شيئًا؛ ازدادوا بذلك كفرًا وبُعدًا من الله ـ عزَّ وجلَّ.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ ﴾؛ أي: مؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ أي: بسبب كذبهم؛ حيث قالوا: إنهم مؤمنون، وما هم بمؤمنين.

في هذه الآيات الكريمة يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن من الناس من ينافق؛ والنفاق هو إظهار الخير وإبطان الشر، وهو بالنسبة لحق الله نفاق عقدي مخرج عن الإيمان، وقد يكون نفاقًا عمليًّا؛ كالرياء، وبالنسبة لحق المخلوق نفاق عملي لا يُخرج من الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «آيَةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ»(١).

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، رقم (٣٣)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال النفاق، رقم (٥٩).

فوائد وأحكام هذه الآيات:

١ـ إثبات النفاق في بعض الناس؛ لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، والنفاق لم يحدث في هذه الأمة إلا بعد أن قويت، وكان لها سلطان، وعزة، ورفعة؛ ولهذا قال العلماء: إنه لم يظهر النفاق في هذه الأمة إلا بعد غزوة بدر؛ حيث انتصر فيها المسلمون على أعدائهم، ووجه هذا ظاهر؛ فإن المنافق إنما ينافق؛ خوفًا على نفسه وماله، ولا يمكن الخوف على النفس والمال إلا مع قوة المَخُوفِ منه.

٢ـ ومن فوائدها: أن الأقوال لا تنفع إذا لم يكن القلب مطابقًا لها، فإذا قال الإِنسان قولًا ولكن قلبه منكر؛ فإن هذا القول لا ينفعه عند الله، بل لا يزيده من الله إلا بُعدًا.

٣ـ ومن فوائدها: أن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ أي: على ما يظهر من حال الإِنسان دون الأمر الباطن الذي في قلبه؛ لأن الأمر الباطن لا يعلمه إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أما الأمر الظاهر فيعلمه كل من ظهر له؛ ولهذا لم يقتل النبي ﷺ المنافقين، وقال حين استُؤذن في قتلهم: «لا يتحدث الناسُ أَنَّ محمدًا يقتلُ أصحابه»[1]؛ ويتفرع على ذلك

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، رقم (٦٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)

أننا نجري الناس في أحكام الدنيا على ظاهر حالهم، ولا نسيءُ الظن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية تذيل هذا الأصل؛ ومن ثَمَّ قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ: إنه يحرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة؛ ومن هنا أحذر بعض الإِخوة الذين يطلقون مثل قولهم: هذا منافق، هذا كافر، هذا كذا.. إلخ، ويصفونه بأوصاف تخالف ظاهر حاله بناء على ما يظنونه في قلبه، وهذا خطأ؛ لأنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر، قال النبي ﷺ: «إنَّكم تختصمون إليَّ، ولَعَلَّ بعضَكُمْ أَنْ يكونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ من بَعْضٍ؛ فأقضي له على نحوٍ مما أسمعُ منه...»[1]؛ فدلَّ هذا على أنه ليس لنا أن نحكم إلا بما هو ظاهر، أما ما هو باطن فأمره إلى الله، ولا يجوز لنا أن نرمي عباد الله بما يخالف ظاهر حالهم، اللهمَّ إلا إذا وُجدت قرائن قوية تبين كذبه، فهذا يحكم له بما تقتضيه الشريعة.

٤ـ **ومن فوائدها**: أن المنافق ليس بمؤمن؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهو كذلك، ولكن هل يصح أن نقول: إنهم مسلمون؟ يرى بعض أهل العلم أنه يصح أن نقول عن المنافق: إنه مسلم؛ لأنه مسلم ظاهرًا، وربما يستدلون بقوله ـ تعالى ـ في قصة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، وهذا البيت يضم زوجة

---

(١) رواه البخاري: كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم (٢٦٨٠)؛ ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣)

لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهي تتظاهر بالإسلام، وليست بمؤمنة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، فسمَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا البيت بيت المسلمين، بل سمَّى من فيه مسلمين، مع أن فيه هذه الزوجة التي ليست بمؤمنة، والمنافقون ـ في الحقيقة ـ مسلمون إسلامًا عمليًّا؛ لأنهم لا يخالفون في الظاهر ما كان عليه المسلمون، وإن كان ذلك يثقل عليهم، ويشق عليهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال النبي ﷺ: **«ليس صلاةٌ أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا»**[1]، وعلى كل حال فالمنافق إذا لم يظهر نفاقه ويعلنه فهو مسلم ظاهرًا، وإن كان غير مؤمن.

٥ـ **ومن فوائد الآية الثانية.** وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن هؤلاء المنافقين إنما صنعوا ما صنعوا؛ مخادعةً، ومكرًا، وكيدًا؛ فيدُل هذا على ذم الخداع، والمكر، والكيد ـ وهو كذلك ـ؛ فالمكر، والخداع، والكيد

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم (٦٥٧).

أمور ممقوتة ومذمومة إلا إذا كان في ذلك مصلحة، بحيث يكون في مقابل من يخدعك؛ فإنه يجوز أن تخدع من خدعك، كما قال الله ـ تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ ولهذا نقول: إن الحرب خدعة، ويُذْكَر أن علي بن أبي طالب لما خرج إليه عمرو بن ود ليبارزه صرخ عليٌّ فقال: إني لم أخرج لأبارز رجلين، فظن عمرو أن معه آخر، فالتفت؛ فضربه علي حتى قتله، فإن هذا لا شك أنه خداع، لكنه خداع لمن يحسن خداعه؛ لأنه مستحق له.

٦ـ **ومن فوائدها**: بيان أن المنافقين من أعداء المؤمنين؛ ولهذا يقول: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كما أنهم أعداء لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ويترتب على هذه الفائدة الحذر من المنافقين، وأن يحترز الإنسان من الإفضاء إليهم بالأسرار والأمور المهمة؛ خوفًا من أن يطيحوا به، وأن يلقوه في المهلكة.

٧ـ **ومن فوائد قوله ـ تعالى ـ**: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن الإنسان قد يعمى عن الضلالة؛ فيظن أن ما فعله حسن وهو سيئ، وهؤلاء هم أخسر الناس أعمالًا كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

فإن قال قائل: بم نزن حسن الفعل وقبحه؟

قلنا: نزن ذلك بكتاب الله، وسنة رسوله و، وما كان عليه السلف الصالح؛ فإن خير الكتب كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد و، وشر الأمور محدثاتها.

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ أن قلوب المنافقين مرضى، والمرض ـ هنا ـ ليس مرضًا عضويًّا يكون به الألم الجسدي، ولكنه مرضٌ معنوي يرفض به القلبُ الحقَّ، ويقبل الباطل، وهذا وصف منطبق تمامًا على المنافقين.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القلب عليه مدار الصلاح والفساد بالنسبة للعمل؛ لأن الله ـ تعالى ـ وصف القلب بالمرض، وهو دليل على أنه إذا مَرِضَ مَرِضَ معه الجسد، وإذا صَحَّ صَحَّ معه الجسد، ويؤيد هذا قولُ النبي ﷺ: **«ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»**

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي للإنسان أن يعتني بقلبه فينظر: أصحيح هو أم مريض؟ فإن كان مريضًا؛ فليحرص غاية

---

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)

الحرص على طلب الشفاء له، وإن كان صحيحًا؛ فليحمد الله على ذلك، وليسأله الثبات عليه، ونحن نشاهد أن الإنسان إذا مرض عضو من أعضائه مرضًا جسميًّا ذهب إلى كل طبيب من أجل أن يحصل على شفاء من هذا المرض، ولكن مرض القلب لا يهتم به كثير من الناس مع أن مرض القلب أشد خطرًا، وأعظم فتكًا من مرض البدن.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإنسان إذا لم يحرص على علاج مرض قلبه؛ فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ ولا شك أن هذه العقوبة أعظم من العقوبة بِفَقْدِ الولد، والأهل، والمال، وكثير من الناس يغفل عنها، فكثير من الناس يظنون أن العقوبة إنما تكون في الأمور الظاهرة؛ كالأبدان، والأموال، والأولاد، والحقيقة أن العقوبة بمرض القلوب وفسادها أشد وأعظم من العقوبة بمثل تلك الأمور، بل إن كثيرًا من الناس يكون قلبه ميتًا، يصاب بالمصائب من الخوف، والجوع، وغير ذلك من المصائب المادية المحسوسة، ولا يرعوي ولا يرتدع عما هو عليه من الفسوق والعصيان.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عدل في قضائه وقدره؛ فإنه لم يجازِ هؤلاء المنافقين بزيادة المرض، إلا حيث كانت قلوبهم مريضة عفنة؛ ولهذا قال: ﴿فَزَادَهُمُ﴾ فأتى بالفاء الدالة

على تفرع ما بعدها على ما قبلها.

٦-ومن فوائد الآية الكريمة: أن المنافقين - كما يبتلون بزيادة مرض القلب؛ يبتلون أيضًا بالعذاب وهو العقوبة على أعمالهم السيئة، وهو عذاب أليم مؤلم، ولا يقاس بألم الدنيا وعقوبتها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧-ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات السبب؛ لقوله - تعالى -: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ والباء - هنا - للسببية، ولا شك أن ارتباط المسببات بأسبابها وترتبها عليها من مقتضيات حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ونحن نعلم جميعًا أن من أسماء الله (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها، ومن ذلك ترتيب المسببات على أسبابها؛ ويتفرع على هذه الفائدة الرد على من أنكروا تأثير الأسباب، وقالوا: إن الأسباب ليس لها أثر في مسبباتها، وظنوا أن هذا هو التوحيد، وأن إثبات تأثير الأسباب في مسبباتها نوع من الشرك، ونحن نقول: إن تأثير الأسباب في مسبباتها ليس تأثيرًا ذاتيًّا، ولكنه تأثير وسيلة؛ فالأسباب وسيلة لحصول المسببات، والذي جعلها سببًا لمسبباتها هو الله - عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قد تتخلف المسببات عن أسبابها بقضاء الله وقدره، أفلا ترى النار المحرقة تكون بردًا وسلامًا بأمر الله، كما في قصة إبراهيم الخليل حين أضرم قومه النار؛ ليحرقوه، وألقوه في النار فعلًا، ولكن الله - سبحانه وتعالى -

قال للنار التي ألقـوه فيهـا: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبيـاء: ٦٩]؛ فكانـت بـردًا وسـلامًا ﴿بَرْدًا﴾ لم تحرقـه، و﴿وَسَلَـٰمًا﴾ لم تـؤذه، قـال أهـل العلـم: لـو قـال الله لهـا: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ ولم يقـل: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾؛ لكانت بردًا مؤذيًا له أو مؤثرًا عليه ضارًّا به، ولكنه قـال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾؛ فكانت بردًا لطيفًا لا يضره ولا يتأثر به، وهذا من تمام قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو أكبر دليل على أن الأشـياء لا تؤثر تأثيرًا ذاتيًّا بنفسها، وإنما تؤثر بتقدير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنـت إذا أثبت الأسباب على هذا الوجه لم تكن مثبتًا مع الله ـ تعالى ـ فـاعلًا، بـل الأسباب ومسبباتها كلها مفعولات لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٨- ومـن فوائـد قولـه ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾؛ معرفة سوء النتائج والعواقب للكذب، وأن الكذب سبب للعذاب، ولكن لا شك أن الكذب تتفاوت مراتبه، وإذا تفاوتت مراتبه تفاوتت عقوباته؛ فالكذب على الله ورسوله ـ مثلًا ـ أعظم من الكـذب على غير الله ورسوله، والكذب الذي يترتب عليه إتلاف مال أو إتلاف أنفس أعظم من الكذب الذي لا يترتب عليه ذلك، ولكن الكذب كله حرام، ولا يصح تقسيم من قسَّم الكذب من العامـة إلى كـذب أبـيض وكذب أسود، ويقولـون: إن الكـذب الأبـيض هـو الكـذب الـذي لا يترتب عليه إتلاف مال ولا إتـلاف نفـس، وإن الكـذب الأسـود هـو

الذي يترتب عليه شيء من ذلك، فنقول: إن الكذب كله أسود، وليس في الكذب شيء ممدوح، سواء ترتب عليه إتلاف مال أو أنفس، أو ظلم لأحد أم لم يترتب عليه شيء؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ جعل الكذب من صفات المنافقين ومن علاماتهم فقال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[(١)].

ويدل لهذا أن جميع العقلاء ينكرون الكذب، ولا يرضون أن يكون خلقًا لهم، ألا ترى إلى أبي سفيان حين قدم على هرقل ملك الروم قبل أن يُسْلم، فسأله هرقل عن حال النبي ﷺ، وصفاته، وحال أصحابه؛ فلم يشأ أبو سفيان أن يتكلم بكلمة كذب فتؤثر عليه، وكل العقلاء يذمون الكذب، ولا يرضى أحد منهم أن يوصف بأنه كذاب، وقد حذَّر النبي ﷺ من الكذب وقال: «.. وإيَّاكُمْ والكذب؛ فإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور؛ وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يكتب عند الله كذَّابًا»[(٢)]، والكذوب المعروف عند الناس بالكذب لا يوثق بخبره، حتى وإن كان صادقًا؛ لأن الناس يحكمون على الإِنسان بغالب أحواله، ويصفونه بغالب أخلاقه، فعلى

(١) سبق تخريجه ص (٥٥).

(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ رقم (٦٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)

المسلم أن يبتعد عن الكذب كله صغيره وكبيره، ما تـضمن الظلـم منـه وما لم يتضمنه.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي: قيـل للمنـافقين: ﴿ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ لم يبيـن الله ـ سـبحانه وتعالى ـ القائل للمنافقين هذا القول؛ ليـشمل كـل مـن قـال لهـم مـن النـاس، فكلـما قـال لهـم النـاس: لا تفـسدوا في الأرض بالوشـاية، والكذب، والخيانة، وإظهار الإسلام، أمام المسلمين، وإظهـار الكفـر أمام الكافرين قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ من أجل أن نـسلم مـن القتـل والحـرب مـع المـؤمنين، ونـسلم مـن الكراهيـة والـبغض مـن الكافرين، نصلح طريقنا وسيرتنا مع هؤلاء وهـؤلاء، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

وتأمل قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ حيث حـصروا حـالهم في الإصلاح، فقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مكذبًا لهم ورادًّا عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ فقابل الله ـ سبحانه وتعالى ـ القول بقول أبلَغَ منه؛ حيـث حـصر الإفـساد فـيهم، وصـدَّره بـ(ألا) الدالـة عـلى التوكيـد فقـال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وصـدق الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ فـإن المنـافقين هـم المفـسدون الـذين يفـسدون في

الأرض، ويجعلون فيها الفتنة بما يسيرون عليه من النفاق.

من فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

١ـ أن المنافقين قد يأتيهم من ينصحهم، ويبيِّن لهم حالهم، وأنهم يفسدون في الأرض، ووجه الإِفساد من هؤلاء أنهم يعطون للمسلمين ألسنة طيبة وقولًا معسولًا؛ فيظن المؤمن أنهم من أوليائه فيفضي إليهم بأسراره، ولكنهم كاذبون في ذلك، ويحصل بهذا الفساد؛ حيث يحصلون على أسرار المؤمنين وينشرونها بين الكفار.

ومن إفساد المنافقين في الأرض ـ أيضًا ـ أنهم يريدون أن تُمحى شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأن يكون الحكم والتحاكم إلى الطاغوت؛ والطاغوت كلُّ نظام يخالف شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ أي: يخالف ما شرعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده، فالمنافقون يحاولون بكل جهودهم أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ

أنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٣]، فالمنافقون لا يريدون أن تبقى شريعة الله هي الحكم بين خلقه في أرضه، تحت سمائه، ولكن يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت؛ وهو كل ما خالف شريعة الله مما سنَّهُ البشر، ولا شك أن هذا فساد عظيم ـ أعني: رجوع الناس إلى غير شريعة الله في التحاكم بينهم ـ فيه الفوضى، وفيه الظلم، وفيه الجور؛ لأن كل حكم يخالف حكم الله لا شك أنه جور؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يحكم بين عباده بالقسط، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ أن يكون التحاكم إليه لا إلى غيره فقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يؤذون رسول الله ﷺ بكل ما يستطيعون من أذية؛ قولية أو فعلية، صريحة أو تلميحية، كما قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وهُمْ يؤذون رسول الله ﷺ لا لشخصه، لا لأنه محمد بن عبدالله؛ ولكن لما جاء به من الشريعة؛ لأنهم يكرهونها، ويرون أن من قام بها فإنه مستحق للأذية، ولكنهم ـ بحمد الله، ورحمته، وعزته، وقدرته، ونُصْرَتِه لنبيه

ﷺ لا يضرون النبي ﷺ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، فهم لا يضرون الرسول ﷺ بأذيتهم، وإن علمنا أنهم يؤذون رسول الله ﷺ؛ من أجل أن يتنازل عن شيء من شريعة الله خوفًا من أذيتهم، فإننا نعلم كذلك أنهم يؤذون أتباع رسول الله ﷺ لعلهم يحدُّون من التمسك بشريعته ﷺ، وإذا كانوا يؤذون من اتبع رسول الله ﷺ فإن على المؤمنين المتبعين لرسول الله ﷺ الصبر على أذيتهم القولية أو الفعلية، التصريحية أو التلميحية، وليعلموا أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جاعلٌ كيدهم في نحورهم.

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يُثَبِّطُون عن الجهاد في سبيل الله وعن قتال أعداء الله؛ لأن أعداء الله يوافقونهم في الكفر، فالكل كافر، لكن هؤلاء مخادعون يظهرون الإسلام، والكافرون صُرَحَاء أشجع منهم يعلنون كفرهم ولا يبالون، وهم يثبطون عن قتال هؤلاء الكافرين، كما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم في عدة آيات من القرآن العزيز.

ومن إفساد هؤلاء ـ أعني: المنافقين ـ في الأرض أنهم يوالون أعداء الله، ويتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين؛ لأن أعداء الله الكفار إخوانهم، إخوانهم في الكفر، إخوانهم الحقيقيون؛ لأنهم متفقون وإياهم على الكفر بالله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فهم يتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين؛

لأنهم إنما يتولـون المـؤمنين في الظـاهر لا في البـاطن، ومـن المعلـوم أن توليهم للكافرين يزيد الكافرين قوة ويزيدهم ثباتًا في مجابهـة المـؤمنين، وهذا يتضمن نصر الكفر على الإيمان.

وأنواع إفسادهم في الأرض كثيرة يعرفها من يتتبع الآيات الكريمة في كتـاب الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ، كـما في هـذه الـسورة، وكـما في سـورة آل عمران، وكما في سورة النساء، وكـما في سـورة التوبـة، وكـما في سـورة الأحزاب، وكما في سـورة المنـافقين، نـسأل الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ أن يحمي الإسلام من كيدهم، وأن ينصر المسلمين عليهم.

يقول الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذه دعـوى مـنهم يُنظـرُ هـلَ يـصدقها الواقع أو لا يصدقها، فبيَّنَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه لا يصدقها الواقع.

ويستفاد من هذا: أن كل إنسان يدعو إلى باطل فإنما يزعم أنـه عـلى حق، وأن كل إنسان يدعو إلى فساد فإنما يزعم أنه يدعو إلى صلاح، فإذا قال قائل: بأي شيء يوزن الصلاح والفـساد، والحـق والباطـل؟ قلنـا: بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فبهما يعرف الحق من الباطل، ويعرف الصلاح من الفساد.

❋ ❋ ❋

ثـم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا

أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

لم يبين الله ـ تعالى ـ القائل، وقوله: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ المراد بهم المؤمنون؛ رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد قال هؤلاء المنافقون في الجواب على من يدعوهم إلى الإيمان: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وهذا الاستفهام للإنكار، يعني لن نؤمن كما آمن السفهاء؛ لأنهم سفهاء وليسوا راشدين؛ أي: ليس عندهم رشد، بل هم في سفهٍ؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

وتأمل في الفرق بين قوله هنا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وقوله في الآية التي قبلها: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ هناك نفي الشعور عنهم؛ لأن الإفساد أمر ظاهر معلوم يدرك بالحس والحواس الظاهرة، أما الإيمان فإنه أمر باطن يدرك بالبصيرة الباطنة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فأبطل الله ـ تعالى ـ دعواهم بأن المؤمنين سفهاء، وبين أنهم هم السفهاء، وحصر السفه فيهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي: لا غيرهم، ولكنهم في عمى وضلال، لا يعلمون أنهم سفهاء؛ ولهذا استمروا على ما هم عليه من الضلال والعمى.

من فوائد الآية الكريمة:

١ ـ أن هؤلاء المنافقين قد دُعوا إلى الحق ودُعوا إلى الإيمان، ولكنهم

ـ لكبريائهم وغطرستهم، واحتقارهم غيرهم ـ يجيبون من يدعوهم إلى ذلك بأنهم لا يؤمنون كما آمن السفهاء.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هؤلاء المنافقين يَدَّعون أنَّ الإيمان سفه، يَدَّعون ذلك إما عن اعتقاد وإما عن إضلال للخلق، يحتمل أن الله ـ تعالى ـ أعمى بصيرتهم؛ فرأوا الحق باطلًا، ويحتمل أنهم يرون الحق حقًّا ولكن لم يوفقوا إلى اتباعه، وهذا هو الأقرب، إذن فهم يريدون بوصف المؤمنين بالسفهاء، يريدون بذلك تنفير الناس من المؤمنين ومن طريقتهم، ومن الإيمان بالله.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن لتنفير المنافقين عن دين الله عدة طرق منها؛ شجب أتباعه كما في هذه الآية.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب أن يرد على ذي الباطل باطله، ويبيِّن أنه هو الذي على الباطل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

٥ـ **ومن فوائد الآية:** أن السفه وصف رديء، كل أحد ينفر منه، وهذا أمر لا شك فيه، ولكن ما السفه؟ السفه ـ كل السفه ـ أن يرغب إنسانٌ عن دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وعن الملة التي عليها الأنبياء والصالحون، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]؛ ولهذا نقول: كل إنسان يرغب عن دين الإسلام؛

فإنه سفيه مهما بلغ في الذكاء، ومهما بلغ في الإدراك، لكنه لو كان راشدًا عاقلًا عقل تصرفٍ وتدبيرٍ؛ لكان متبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

هؤلاء المنافقون من أوصافهم المراوغة، والدجل، والتمويه؛ فهم إذا لقوا الذين آمنوا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾؛ إرضاء للمؤمنين، وخداعًا لهم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ طواغيتهم أئمة الكفر قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ يعني: ولسنا مؤمنين؛ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: مستهزئون بالمؤمنين، نسخر منهم، ونلعب بعقولهم، هكذا زعموا، فقال الله ـ تعالى ـ ردًّا عليهم:

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ واستهزاء الله بهم يعني: أنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يستهزئ بهم، يتخذهم هزوًا، فيملي لهم، ويمهل لهم، فالاستهزاء صفة من صفات الله الثابتة له على وجه الحقيقة، ولازمه أن الله يمهل هؤلاء، ويمدهم ويدعهم في هذا الطغيان يضيعون ويتيهون.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ـ بيان مراوغة هؤلاء المنافقين؛ حيث يقولون للمؤمنين قولًا، ويقولون للشياطين من الكافرين قولًا آخر مضادًّا له؛ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذه غاية المراوغة؛ ففيها خداع لهؤلاء ولهؤلاء، خداع للمؤمنين بأنهم مؤمنون، وخداع للكافرين بأنهم معهم، ولكن خداعهم للكافرين ليس كخداعهم للمؤمنين؛ لأن حقيقة حالهم أنهم مع الكفار، فهم ليسوا بمؤمنين حقًّا، وهم كافرون حقًّا.

٢ـ ومن فوائدهما: أن الإنسان يؤخذ بظاهره؛ فالمؤمنون إذا قال لهم هؤلاء المنافقون: «آمنا» تركوهم وظاهرهم؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يعاملهم على ظاهرهم حتى إنه استؤذن في قتلهم فقال: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1]، وهكذا الأحكام في الدنيا إنما تكون على الظاهر لا على الباطن، أما في الآخرة فتكون الأحكام على الباطن، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون أَلحنَ بحُجَّتهِ من بعض؛ فأقضي له على نحوِ مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه؛ فإنما

(١) سبق تخريجه ص(٥٦).

أقطع له به قطعة من النار»[1].

٣ـ**ومن فوائدهما**: أن هؤلاء المنافقين لا يقولون للمؤمنين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ بل يقولون: ﴿إِنَّا﴾، ولكنهم في خطاب الكافرين يقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وهذا في عقد الموالاة بينهم وبين الكفار؛ لأن المعية تقتضي المناصرة والموالاة؛ فهم مع الكفار أولياء مناصرون، لكن مع المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّا﴾، وما يدرينا لعلهم بقولهم: ﴿إِنَّا﴾ يعنون: آمنا بالطاغوت.

٤ـ**ومن فوائد هاتين الآيتين**: أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يستهزئ بمن يستهزئ به وبعباده حين قال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وهذا الوصف الذي وصف الله به نفسه ـ وهو الاستهزاء على قاعدة أهل السنة والجماعة السلفية ـ يُجرى على ظاهره، ويقال: إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يستهزئ بمن يستحق الاستهزاء، وهو استهزاء حقيقي يليق بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس استهزاء يتضمن نقصًا؛ لأن الله وصف به نفسه فهو كمال، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[النحل: ٦٠]؛ ولهذا لا تجد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يصف نفسه بالاستهزاء على وجه الإطلاق، وإنما وصف نفسه بالاستهزاء في مقابلة المستهزئين بعباده؛ ليبيِّن بذلك أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أقوى منهم وأعظم، فإذا سخروا من المؤمنين سخر الله منهم.

---

(١) سبق تخريجه ص(٥٧).

٥ـ ومن فوائد الآيتين: بيان حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث جعل الجزاء من جنس العمل، فكما أن هؤلاء استهزءوا بالمؤمنين؛ فالله ـ تعالى ـ استهزأ بهم، وهذا من عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو ثابت في الدنيا وفي الآخرة، بل إن جزاء الله ـ عمومًا ـ دائر بين العدل والفضل، فهو بالنسبة للعصاة عدل، وبالنسبة للطائعين فضل.

والقاعدة العامة عند أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح: كل ما وصف الله به نفسه فهو حقٌّ على حقيقته، سواء أكان ذلك في كتاب الله، أو فيما صحَّ عن رسول الله ﷺ، ويجب أن نعلم علم اليقين أن كل صفة وصف الله بها نفسه فإن حقيقتها تخالف حقيقة ما يتصف به العبد من جنسها؛ وذلك لأن الصفة تابعة للموصوف، فكما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء في ذاته؛ فليس كمثله شيء في صفاته، لا يجوز ـ مثلًا ـ أن نقول: إن هذه صفة لا تليق بالله، الواجب نفيها وتحريفها إلى معنى آخر؛ لأننا إذا قلنا بذلك صرنا نحكم على الله ـ تعالى ـ في صفاته بعقولنا لا بما بلغنا عنه ـ سبحانه وتعالى ـ ومن المعلوم أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنزل هذا الكتاب؛ ليبين للناس الهدى كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ [ص: ٢٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وليس من حقنا، ولا يسوغ لنا أن نحكم على الله ـ تعالى ـ بعقولنا، بل نقول: سَمِعْنا، وأطعنا، وآمنا، وصدقنا؛ فوظيفتنا نحو ما أخبر الله به عن نفسه أن نقول: سمعنا، وأطعنا، وآمنا، وصدقنا، وألا نحرف ظواهر النصوص إلى معانٍ نعينها بعقولنا، ونحكم بها على ربنا، كما أنه يجب علينا نحو هذه النصوص ألا نعتقد فيها تمثيلًا؛ أي: أن الله ـ تعالى ـ مماثل لخلقه فيها؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]، فنحن نعلم بالعقل أنه لا يستوي المخلوق مع الخالق في أي صفة من الصفات.

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾.

الإشارة في قوله: ﴿أولئك﴾ إلى المنافقين، وأشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعيد ـ وإن كان الكلام فيهم قريبًا ـ للتبرؤ منهم والبعد عنهم؛ فإن الإشارة للبعيد تارة تكون لعلو منزلة المشار إليه،

وتارة تكون لدنو منزلته، وهـذا هـو المقـصود في هـذه الآيـة، وقولـه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: أخذوا الضلالة وتركوا الهـدى؛ فسلكوا طريق الضلال وتركوا طريق الهـدى، ولكنـه عـبر بالاشـتراء؛ ليبين أنهم سلكوا هذا الطريق عن محبة وشغف، كـما يحب المشتري أن يحصل على السلعة التي يشتريها، والمراد بالضلالة هنا ما خالف الحـق، وبالهدى ما وافق الحق، قال الله ـ تعالى ـ مبينًا نتيجة هذا الفعـل: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ بل خسروا خسرانًا عظيمًا، وضلوا ضلالًا بعيدًا.

من فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ ـ بيان سفه المنافقين؛ حيث اختاروا الضلالة وتركوا الهدى، وكل إنسان يسلك هذا المسلك فإنه سفيه بلا ريـب، كـما قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن المنافقين يحرصون عـلى كـل مـا فيـه ضـلالة، سواء أكان من الأمور الكبيرة العامة، أو كان من الأمور الصغيرة حتى الوسائل التي يتوصلون بها إلى إيـذاء الخلـق، ثـم ضرب الله لهـم مـثلًا مطابقًا لحالهم تمامًا فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

وهذا المثل مطابق لحالهم تمامًا، وهو من أمثال التمثيل، كما في علـم

البلاغة؛ فهذا رجل احتاج إلى نار يستدفئ بها ويستنير بها، ولكن ليس معه ما يستنير به فاستوقد نارًا من شخص؛ أي: طلب أن يوقد له نارًا فأوقد له النار، فلما تبين ضوءها من الشعلة طفئت الشعلة؛ فبقي في ظلمة بعد أن كان في نور، وبقيت حرارة النار التي قد يكون فيها ضرر؛ ولهذا قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بنارهم؛ أي: بقيت النار بحرارتها، وذهب النور المستفاد من الشعلة التي انطفأت، وبقوا في ظلمات لا يبصرون، وإنما كانوا في ظلمات؛ لأن انطفاء النور بعد وجوده يحدث الظلمة، ولا سيما عند انطفائه في أول وهلة، هؤلاء المنافقون ليس عندهم نور في قلوبهم؛ إنما يستفيدون ما يستفيدونه من النور من بعض المؤمنين من أقاربهم أو جيرانهم فيستضيئون به لحظة، ولكنهم يعودون إلى أصلهم من الظلمة والضلالة، يستضيئون به لحظة، ثم ينطفئ؛ فيبقى ذلك حرارة في قلوبهم؛ لأنهم ليس لهم نور يهتدون به.

ثم قال: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ ﴿صُمٌّۢ﴾ يعني: لا يسمعون الهدى، ﴿بُكۡمٌ﴾ لا ينطقون به، ﴿عُمۡيٌ﴾ لا يبصرونه، فنفى عنهم طرق الهداية كلها، وقوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ هذا حال المنافق، لا ينطق بالحق، ولا يستمع إليه، ولا ينتفع به لو سمعه، ولا يبصره، وإن أبصره لا ينتفع به، فهو بمنزلة الأعمى.

فوائد الآيتين الكريمتين:

١ـ يضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأمثال هنا؛ فيستفاد من ذلك أن من البلاغة أن يضرب المتكلم الأمثال المحسوسة للمخاطب؛ ليتوصل بها إلى المعاني المعقولة؛ لأن إدراك الشيء المحسـوس أقـرب من إدراك الشيء المعقـول، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[المؤمنون: ٧٣]؛ فالأمثال مهمة في تعليم المخاطب بتقريب المعاني إلى ذهنه وتصورها.

٢ـ ومن فوائدهما: أن المنافقين ليس لهـم نـور ذاتي يستـضيئون بـه، وإنما نورهم من نور خارجي يضيء عليهم ثم يخبو، ويبقـون في ظلمـة؛ فتشتد الظلمة عليهم بعد النور الذي أضاء لهم.

٣ـ ومن فوائدهما: أن هـؤلاء المنـافقين إذا استـضاءوا بهـذا النـور الذي يأخذونه من غيرهم، فإنهم قد يلوح لهم شيء من الهـدى، ولكـن لعلم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بحالهم، وأنهم ليسوا أهلًا للهداية ـ لما في قلـوبهم من الزغل، والأفكار الخبيثة ـ يذهب الله بنورهم ويدعهم، وعـلى هـذه الفائدة تتفرع فائدة أخرى عظيمة وهي أنه يجب على الإنسان أن يطهـر

قلبه تطهيرًا كاملًا من كل زغل وخبث، وأن يعتني بطهارة قلبه أكثر مما يعتني بطهارة بدنه وثيابه؛ لأن طهارة القلب عليها المدار، وبها تكون طهارة الأعمال الظاهرة.

٤ـ **ومن فوائد الآيتين السابقتين**: بيان حال المنافقين، وأنهم ـ والعياذ بالله ـ لا يصل إليهم الهدى من أي طريق؛ فهم صمٌّ لا يسمعونه ولا يسمَّعون ما اهتدوا به، بكمٌ لا ينطقون به، بل ينطقون بالباطل، وما ينطقون به من الحق إنما يريدون به باطلًا لا يريدون به حقيقة معناه، وهم عمي لا يبصرون الحق، ولو أبصروا الحق ما انتفعوا به.

٥ـ **ومن فوائدهما**: أن هؤلاء المنافقين قد رأوا أنهم على صواب، وعلى حقٍّ، وعلى طريق صحيح؛ ولهذا لا يرجعون عن غيهم، بل يبقون على ما هم عليه، ويتفرع على هذه الفائدة فائدةٌ أخرى وهي أنه يجب على الإنسان أن يعتني دائمًا بالتنقيب والنظر في عمله، وهل هو صواب أم خطأ؛ فإن كان صوابًا فليحمد الله وليستمر عليه، وإن كان خطأً فليتب إلى الله، وليرجع إلى الصواب أينما كان.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ في المثل الثاني: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ

وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٩ـ ٢٠].

هذا المثل الثاني لطائفة أخرى من المنافقين، وإن شئت فقل: لحال أخرى من المنافقين، ضرب الله لهم مثلًا بصيب من السماء؛ أي: مطر نازل من السماء؛ وهو الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ، هذا الصيب فيه ظلمات، فيه رعد، فيه برق، فيه ظلمة المطر، ظلمة السحاب، ظلمة الليل، وفيه ـ أيضًا ـ رعد وبرق، وهذا الرعد رعد شديد فيه صواعق؛ الصواعق عبارة عن كشف حال هؤلاء المنافقين، وبيان أسرارهم، وخُبْثِهم، وعما في القرآن من الزواجر والوعيد لمن عصى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لكن هؤلاء المنافقين يجعلون جُنَّةً لا تُجِنُّهم، ويستترون بستر لا ينفعهم، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق؛ يظنون أنهم إذا لم يسمعوا الصاعِقة لم تنزل عليهم، ولكنهم أخطئوا في هذا التقدير.

وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المنافقون: ٤]؛ فيظنون كل آيةٍ نزلت في وصف يبين عيوبهم، ويهتك أستارهم، يظن كل واحد منهم أنه هو المعني بذلك فيمشي في الناس وكأنه خائف حذر، ولكن هذا لا يغنيه بشيء؛ البرق بشدته وقوته يقع على بصر ضعيف لا يتحمل، ليس عنده قوة ولا قدرة على تحمل الإِضاءة؛ ولهذا

قال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾، والبصر الضعيف يتأثر بكل نور، وكلما قوي النور قوي تأثيره، وانظر إلى الأعشى إذا خرج، أو انظر إلى ضعيف البصر إذا خرج للشمس تجده ينكسف بصره وتهل دموعه؛ لأنه لا يقوى على تحمل هذا النور، فهم كذلك بصرهم ضعيف ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾؛ لأن النور قوي، والبصر غير مقاوم لضعفه؛ فيكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لشدته، وضعف البصر، وعجزه عن المقاومة، ومع ذلك فهم ينتهزون الفرصة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾؛ لأنهم لا يستطيعون المشي مع هذه الظلمات، وبعد هذا النور العظيم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ لذهب بسمعهم فلم يكن لهم سمع، وبأبصارهم فلم يكن لهم بصر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فوائد الآيتين الكريمتين:

١ ـ أن حال هؤلاء المنافقين حال ضعيفة لا تستطيع المقاومة ولا القيام بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ.

٢ ـ أن هؤلاء المنافقين عندهم من الخوف والرعب ما يجعلهم يظنون أن كل صيحة عليهم، وأن كل وعيد لهم، وأن كلَّ إنذار لهم أيضًا؛ فهم جبناء ضعفاء لا يستطيعون أن يقاوموا الحق؛ لقوته أمامهم، وضعفهم أمامه؛ ويترتب على هذه الفائدة فائدة عظيمة؛ وهي أنه ينبغي

على الإنسان أن يتقبل الحق حيثما كان، وأن يكون عازمًا على تطبيقه، سواء أكان ذلك شاقًّا على نفسه أم هينًا عليها؛ لأن المؤمن ـ كما ذكر الله ـ تعالى ـ من وصفه ـ يقول: سمعنا وأطعنا؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٣ـ **ومن فوائدهما:** أن القرآن الكريم كالمطر، غيث للأرض تنتفع به، وينتفع به أهل الأرض أيضًا، وهكذا وحي الله وشرعه الذي نزل؛ هو كالغيث؛ فمن الناس من يَقْبَلُ هذا المطر، ويستخرج منه الثمرات العظيمة، وينتفع الناس به، ومن الناس من لا ينتفع بهذا الوحي، ويكون كالأرض الصماء التي تبتلع الماء، ولا تنبت شيئًا، ومن الناس من يكون على أوصاف أخرى بالنسبة لهذا المطر النازل من السماء.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة التي فيها المثل الثاني:** أن هؤلاء المنافقين قد يستضيئون ببعض الشيء ـ أحيانًا ـ بما يرون من النور الحاصل من الوحي، ولكن سُرْعَان ما يزول ويذهب مع أنهم ينتفعون به على مشقة حتى إنه يكاد يخطف أبصارهم.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات المشيئة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾، وقد أثبت الله ـ تعالى ـ مشيئته في عدة آيات من القرآن، وكلُّ شيء فإنه بمشيئة الله؛ ولهذا أجمع المسلمون على هذه الكلمة: «**ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن**»، ولكن

مشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ تابعة لحكمته؛ فلا يشاء ـ سبحانه وتعالى ـ إلا ما اقتضت حكمته مشيئته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فبيَّن أن مشيئته مقرونة بعلمه وحكمته ـ وهو كذلك ـ، ولكن حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ منها ما هو معلوم لنا ومفهوم نشاهده ونعرفه، ومنها ما هو خفي علينا؛ لأننا قاصرون في العلم والإدراك، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فما يَرِدُ على الذهنِ ـ أحيانًا ـ منَ الإشكالِ في بعض الآيات الكونية أو الآيات الشرعية؛ إنما ينشأ من قصور الإنسان أو تقصيره، ولو أن الإنسان بحث بحثًا جديًّا يريد به الحق؛ لَتبيَّن له من حكمة الله ـ تعالى ـ في أحكامه الكونية والشرعية ما لا يتبين للغافل المعرض الذي لا يريد إلا أن يشكك الناس في بعض الأمور التي تخفى في حكمتها، كما يعرف من بعض الناس الذين يأتون ويقولون: ما الحكمة في كذا؟ ما الحكمة في كذا؟

نحن لا نسيء الظن بأحد، لكن من الناس من يقول ذلك؛ ليشكك العامة فيما هم عليه من الهدى والحق، لا لقصد أن يصل إلى المعنى المطلوب الذي يسأل عنه، ومع هذا فإني أقول: إن علمت حكمة الشيء الواقع بقضاء الله وقدره، وحكمة الشيء الواقع بشرع الله ودينه، فهذا

بلا شك من نعمة الله عليك، وإن لم تعلم فسلِّم الأمـر وكِـلِ الأمـرَ إلى عالمه ـ سبحانه وتعالى ـ، واعلم أنه لا يحكم إلا لحكمة عظيمـة، عَلِمَهَـا مَنْ عَلِمَهَا وجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَهَا.

٦ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير، وقدرتـه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قدرة تامة، لا يعتريها عجز بوجه مـن الوجـوه؛ ولهـذا كـان أمره بالشيء أمرًا واحدًا لا يكرره، بل إذا أمر بشيءٍ كان في لحظـة، قـال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فتأمل قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾؛ يعني: لا يقول للشيء: كـن، ثم يقول له: كن مرة ثانية، بل إذا قال: كن؛ كان كلمح البـصر، وتأمـل قولــه ـ تعــالى ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، تجد أنها زجرة أو صيحة واحـدة، يبعـث فيها الخلائق كلهم؛ فيحضرون للقضاء بينهم بقدرة الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ، وهذا دليل على كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ؛ ولهـذا قـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولا يستثنى من هذا شيء أبدًا؛ فكلُّ شيءٍ اللهُ قادرٌ عليهِ؛ ويتفرع على الإيمان بهذه الفائدة أن الإنسان ينبغي أن يـسأل ربـه كل ما يرى فيه مـصلحة، ولا يستـصعب الأمـر، ولا يقـول: هـذا لـن يكون، هذا بعيد؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللهـمَّ اغفِـرْ لي

إنْ شئتَ، ارحمني إنْ شئتَ، ارزقني إنْ شئتَ، وليعزم مسألته؛ إنه يفعل ما يشاء لا مُكره له»[1]؛ فلا أحد يكره الله حتى يقال: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل، فلا يقال: «إن شئت» إلا لمن هو مكره فينظر هل يشاء أو لا يشاء، أما الذي يفعل باختياره، وبإرادته، وبقدرته؛ فإنه لا يقال في حقه: «إن شئت»؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن ذلك، وقال: «إنه يفعل ما يشاء لا مكره له».

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

وجَّه الله الخطاب إلى الناس؛ لأن الناس جميعًا يجب عليهم عبادة الله وحده لا شريك له، والعبادة هي التذلل إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد تطلق على المُتعبد به، وهي العبادات التي يقوم بها الإنسان؛ كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ الربُّ: هو الخالق المالك المصرِّف المدبر لجميع الأمور، وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ يعني: الذي أوجدكم من العدم، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ أي: خلقهم وأوجدهم الله من العدم كما أوجدكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: من أجل أن تصلوا إلى هذه المرتبة

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، رقم (٧٤٧٧).

العالية؛ وهي تقوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والتقوى: اتخاذُ الوقايةِ مِنْ عذابِ اللهِ بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهيهِ.

فوائدُ وأحكامُ الآيةِ الكريمةِ:

١ـ بيانُ أهميةِ هذا الطلبِ؛ وهو عبادةُ الله ـ تعالى ـ وحدَهُ، ووجهُ ذلكَ أَنَّهُ لَا يصدرُ الخطابُ بالنداءِ إِلَّا للعنايةِ بِهِ؛ لأنَّ النداءَ نوعٌ مِنَ التنبيهِ؛ فأنتَ إِذَا ناديتَ المخاطبَ انتبهَ واتجهَ إليكَ.

٢ـ **ومن فوائد الآية:** أَنَّ العبادةَ حقٌّ لله، واجبٌ على جميعِ الناسِ؛ ولهذا قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ فكلُّ الناسِ يجبُ عَلَيْهِمْ عبادةُ الله، وعبادةُ الله ـ تعالى ـ هِيَ التعبدُ لَهُ؛ أي التذللُ لَهُ بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نهيِهِ حَسْبَ شرعِهِ الَّذِيْ أرسلَ بِهِ رسلَهُ، وَهِيَ مختلفةٌ؛ بمعنى أَنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يجعلُ اللهُ لَهُ شريعةَ كَذَا، والآخرِ شريعةَ كَذَا، حَسْبَ مَا يصلحُ بِهِ الخلقُ، وَلَكِنَّ الشرائعَ كُلَّهَا اجتمعت بشريعةِ محمدٍ و، وصارت شريعةُ محمدٍ ﷺ ناسخةً لجميعِ الشرائعِ؛ فلا عبادة لله إِلَّا عَنْ طريقِ شريعةِ محمدٍ ﷺ، والعبادةُ لَابُدَّ أَنْ تكونَ مبنيةً على أساسينِ هما: الإِخلاصُ للهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والمتابعةُ لرسولِ الله ﷺ.

أما الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهو أن ينوي الإنسان بعبادته وجه الله والدار الآخرة، لا ينوي بذلك حطامًا من الدنيا، ولا جاهًا، ولا رئاسة، ولا تزلفًا لمخلوق، بل ينوي بذلك وجه الله والدار الآخرة،

ومتى كانت هذه نيته؛ فإنه سوف يحسن العمل، سوف يعبد الله كأنه يراه. فإن لم يكن يراه فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يراه، وضد الإخلاص في العبادة الشرك في العبادة؛ بأن ينوي بعبادته غير وجه الله والدار الآخرة؛ ينوي بها حطامًا من الدنيا، ينوى بها تزلفًا لمخلوق، ينوي بها الحصول على الجاه بين الناس، وهكذا فإن هذه النية باطلة مبطلة للعمل.

أما الركن الثاني أو الشرط الثاني فهو متابعة الرسول محمد ﷺ، ولا يمكن أن تتحقق المتابعة إلا إذا كانت العبادة موافقة للشريعة في أمور ستة: في سببها، وجنسها، وقدرها، وصفتها، وزمانها، ومكانها، فإن خالفت الشريعة في واحد من هذه الأمور الستة؛ لم يكن الإنسان متبعًا فيها لرسول الله ﷺ، فمن أحدث عبادة لسبب غير شرعي؛ فإن عبادته غير مقبولة، بل مردودة عليه؛ لقول النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١)، وهذا الحديث أساس لكل الأوصاف التي ذكرناها، ومن تعبَّد لله بجنس غير مشروع؛ فإن عبادته غير مقبولة، فلو أنَّ الإنسان ضحَّى بفرسٍ؛ فإن أضحيته لا تُقبل؛ لأنه ضحَّى بجنسٍ غير مشروع؛ فإن الأضحية إنما تشرع من بهيمة الأنعام، من الإبل، والبقر، والغنم.

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٩).

ولابد أن تكون موافقة للشرع في قدر العبادة، فمن تعبد لله بأمر زائد على ما شرعه؛ فإن هذا الزائد لن يقبل، ثم قد يبطل العبادة كلها، وقد لا يبطلها، لو صلى الإنسان الظهر خمسًا لم تقبل منه؛ لأنها على غير القدر الوارد في الشرع، وهذه الزيادة تبطل العبادة، لكن لو أخرج الفطرة صاعين من الطعام لم يثب ثواب الفطرة على كلا الصاعين، وإنما يكون أحد الصاعين هو الذي يثاب عليه ثواب الفطرة، والثاني يثاب عليه ثواب الصدقة، وهناك فرق بين الفطرة والصدقة؛ لأن الصدقة تطوع والفطرة فرض، والإنسان يثاب على الفرض أكثر مما يثاب على التطوع، ويدل على الفرض حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: **«فَرَضَ رسولُ الله ﷺ زكاة الفطر طُهْرةً للصائم من اللغو والرَّفث، وطُعْمَةً للمساكين، من أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»**

ولابدَّ أن تكون موافقة للشرع في صفتها، فإن خالفت الشرع في الصفة؛ لم تكن مقبولة، لو أن الإنسان صلى فبدأ بالسجود قبل الركوع؛ لم تكن صلاته مقبولة؛ لأن ذلك على خلاف الصفة التي ورد بها الشرع؛ فتبطل الصلاة ولا تقبل، وكذلك على القول الراجح من أقوال أهل العلم لو توضأ الإنسان فبدأ برجليه، ثم رأسه، ثم يديه، ثم

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم (١٦٠٩)؛ وابن ماجه: كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر، رقم (١٨٢٧).

وجهه؛ لم يكن وضوءه مقبولًا؛ لأنه على غير الصفة الواردة عن رسول الله ﷺ.

ولابد ـ أيضًا ـ أن تكون موافقة للشرع في الزمان؛ فلو تعبد الإنسان عبادة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في غير زمانها؛ لم تكن مقبولة، لو أن الإنسان حج ـ مثلًا ـ في غير وقت الحج؛ لم يكن حجه مقبولًا ولو زار أمكنة المناسك؛ لأنها في غير الوقت.

ولابدَّ أن تكون موافقة للشرع في مكانها، فلو اعتكف الإنسان في بيته؛ لم يكن اعتكافه مقبولًا؛ لأنه لم يتبع فيه شريعة الله.

والخلاصة أن العبادة لا تكون مقبولة إلا بموافقة الشرع، ولا تكون موافقة للشرع إلا إذا وافقت ما جاء به الشرع في السبب، والجنس، والقدر، والصفة، والزمان، والمكان.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

هذه الآية تكملة للآية التي قبلها؛ وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ ففي

الآية الأولى الإيجاد ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وفي الآية الثانية الإمداد؛ فإن الله ـ تعالى ـ خلقنا وأمدنا بالرزق الذي نتأهل به لإعداد أنفسنا لقبول شريعته، فذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما أمدنا به من المقر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، ومن الرزق الذي به قوام البدن ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، وبتمام الإمداد يجب الاستعداد لما أمر الله به؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: شركاء في عبادته أو في شيء من حقوقه وخصائصه، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تعلمون أنه لا نِدَّ له في ربوبيته، فإذا كنتم تعلمون أنه لا شريك له في ربوبيته؛ فإن مقتضى ذلك ألا تجعلوا له شريكًا في عبادته، تتألهون إليه، وتعبدونه، وتتقربون إليه؛ كما تتقربون إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ـ في هذه الآية من الأحكام أن الأرض جعلها الله ـ تعالى ـ فراشًا لبني آدم، جعلها قرارًا مستقرًا لا تميد ولا تضطرب، ولو كانت تميد أو تضطرب ما صحَّ أن تكون فراشًا يطمئن فيه الإنسان ويستوطن.

٢ـ من فوائدها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل السماء بناء، وسمَّاها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في آية أخرى سقفًا محفوظة؛ فهي مبنية ومحفوظة بحفظ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهو الذي ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ

عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، فلولا أن الله أحكم البناء؛ لوقع على الأرض، وهذه من نعمة الله علينا.

٣ـ ومن أحكامها: إثبات أن الأسباب لها أثر في مسبباتها؛ لقوله ـ تعالى ـ حين ذكر إنزال الماء من السماء ـ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: أُخْرِجَ بسببه، ولا يشك عاقل في أن للأسباب تأثيرًا في مسبباتها، وهذا التأثير الذي أودعه الله في الأسباب هو من خلق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فمن أنكر تأثير الأسباب في مسبباتها؛ فقد خالف ما هو معلوم ببداهة العقول، ومن جعل الأسباب مؤثرة بذاتها؛ فقد أثبت مع الله شريكًا، ومن أثبت تأثير الأسباب لكن بإرادة الله ـ تعالى ـ ومشيئته؛ فقد وافق الحق والواقع، وهذا هو المذهب الراجح الذي جرى عليه المحققون من أهل العلم، خلافًا لمن قال: إن الأسباب لا تؤثر، وأن ما يحصل بها من الأسباب حاصل عندها لا بها؛ لأن هذا مكابرة للواقع، فهؤلاء يقولون: إن النار إذا أحرقت الورق لم تكن هي التي أحرقته، ولكن حصل الإِحراق عندها لا بها، ونحن نقول: بل حصل الإِحراق بها، لكن بأمر الله، فهو الذي خلق فيها هذه القوة المحرقة، ولو شاء الله ـ تعالى ـ لسلبها هذه القوة؛ بدليل أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال للنار التي ألقي فيها إبراهيم: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت بردًا وسلامًا عليه، بردًا خلاف طبيعتها التي هي الحرارة، وسلامًا خلاف أثرها الذي هو الإِحراق، قال بعض العلماء: ولو قال

الله: ﴿كُونِى بَرْدًا﴾، ولم يقــل: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾؛ لأهلكه بردهـا، المهــم أن في هذه الآية الكريمة إثبات الأسباب وتأثيرهـا في مـسبباتها، ولكــن مــن الذي جعل السبب مؤثرًا؟ هو الله، والسبب؛ هو المطر.

٤ـ وفي الآية الكريمة من الفوائد: منة الله ـ سبحانه وتعـالى ـ عـلى عباده بهذا الماء النازل من السماء؛ حيث أخرج به من الثمرات رزقًا لنـا ورزقًا لمواشينا أيضًا؛ كما قـال ـ تعـالى ـ في سـورة النحـل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]؛ تسيمون: أي ترعون أنعامكم.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب شـكر المـنعِم؛ لقولـه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: هــذا الــذي أنعــم علــيكم يجـب أن تـشكروه وتوحِّدوه بالعبادة كما أنه هو الذي أنعم عليكم وحـده فـلا تجعلـوا لـه أندادًا.

٦ـ وفي الآية الكريمة من الفوائد: شدة اللوم عـلى مـن اجـترأ عـلى المحرمات مع العلـم؛ لقولـه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فإن من علم بالقبيح وتجرأ عليه؛ أعظم جرمًا وقبحًا ممن لم يعلم به ولـو تجرأ عليه.

٧ـ وفي الآية الكريمة من الفوائـد أيـضًا: أن الأرض التـي يـستولي عليها الإنسان تكون ملكًا له، قـراراً وهـواءً؛ قـراراً يؤخـذ مـن قولـه:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، وهواء من قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ فكل ما كان فراشًا لي من الأرض فإنما يقابله من السماء بناءً لي؛ ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: إن الهواء تابع للقرار؛ أي: أن من ملك أرضًا فله قرارها وله هواؤها إلى السماء؛ فلا يملك أحد من جيرانه أن يبني جناحًا يكون ظله على أرض الجار، بل قال العلماء: لو أن أغصان شجرة جارك صارت فوق بيتك فلك المطالبة بإزالة هذا الغصن.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

هاتان الآيتان لهما ارتباط بما قبلهما من حيث المعنى؛ وذلك أن في الآيتين السابقتين تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بإفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة، وفي هاتين الآيتين تحقيق رسالة النبي ﷺ؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ فالآيات الأربع متضمنة لشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والريب هو الشك مع القلق والضجر، والمراد بالعبد ـ هنا ـ محمد ﷺ، وأشرف أوصافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصفان العبودية والرسالة، وقد ذكر الله ـ

سبحانه وتعالى ـ وصف نبيه محمد ﷺ بالعبودية في أعلى مقاماته، فوصفه بالعبودية حال إنزال القرآن، وحال الإسراء، وحال المعراج، وحال التحدي والذود عنه؛ فقال في الحال الأولى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال في الحالين الثانية والثالثة: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٨ ـ ١٠]، وقال في الحال الرابعة مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، والمراد ـ هنا ـ بما نزل القرآن الكريم، ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك، وقال: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: كل من تقدرون على الاستعانة به ممن تدعونهم أولياء أو شفعاء فادعوهم معكم؛ ليعينوكم على أن تأتوا بسورة من مثله ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فيما تدعون من أن هذا القرآن ليس من عند الله، ولكنهم لن يفعلوا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؛ أي: فإن النار ستكون مأواكم؛ فاتقوها واحذروها، وذلك بالرجوع إلى الحق وتصديق رسول الله ﷺ، هذه النار التي وقودها الناس؛ الناس المستحقون لها من الكفار والمنافقين، والحجارة هي حجارة عظيمة

ليست كحجارتنا في الدنيا، تحمى في نار جهنم؛ فتزداد حرارة النار، ويزداد اشتعالها ـ والعياذ بالله ـ ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ يعني: أعدها الله للكافرين به وبرسله، وكذلك للمنافقين؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فوائد الآيتين الكريمتين:

١ـ وفي هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن رسول الله ﷺ صادق فيما جاء به من الوحي، وأن هذا الوحي نازل من عند الله.

٢ـ ومن فوائدهما: تحدي المكذبين لرسول الله ﷺ، ومن كان معهم من أعوانهم أن يأتوا بسورة من مثله، ولكنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا، قال أهل العلم: وتحدي الله المكذبين بالقرآن جاء على ثلاثة أوجه بل على أربعة؛ فتحداهم بالقرآن كله في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ

مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾، وتحداهم أن يأتوا بأقل من ذلـك؛ كـما في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ [الطـور: ٣٤]، وكـل هـذه التحديات لم يتصدَّ لها أحدٌ من بلغاء الناس وفصحائهم في عهـد النبـي ﷺ، ويدل هذا على صدق رسالته ـ صـلوات الله وسـلامه عليـه ـ وأن هذا القرآن ليس من عنده.

٣- ومن فوائد الآيتين الكـريمتين: إثبـات علـو الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؛ والنزول إنما يكون من الأعلى إلى الأدنى، وعلو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينقسم على قسمين: علو ذات وعلـو صفة.

فأما علو الذات فهو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عالٍ عـلى كـل شيء، مستوٍ على عرشه الذي هو أعلى المخلوقات، وهذا العلو ثابت بالقرآن، والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة؛ أما الكتاب فأدلته على علو الله بذاته أكثر من أن تحصى، وقد جاءت على وجوه متنوعة؛ تحقيقًا لهـذا العلو، وأما السنة؛ فكذلك دلت على علو الله بذاته بأدلة كثيرة متنوعـة، فمنها ما دلالته بـالقول، ومنهـا مـا دلالتـه بالفعـل، ومنهـا مـا دلالتـه بالتقرير؛ أي: بإقرار الغير على ذلك، وأما الإجماع؛ فقـد أجمـع الـسلف من الصحابة، والتابعين، وأئمة الأمة، بل وعامة الأمة الذين بقـوا عـلى فطرتهم على علو الله ـ تعالى ـ بذاته، ولم يقل أحد منهم: إن الله لـيس في

العالم ولا خارجه؛ بل كلهم يجمعون على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل شيء، وأما العقل؛ فلأن العلو صفة كمال لا شك في ذلك؛ فالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد ثبت له جميع صفات الكمال؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وأما الفطرة؛ فإن كل شخص مفطور على علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حتى وإن لم يقرأ كتابًا أو يدرس على عالم؛ ألا ترى إلى الرجل إذا دعا الله ـ تعالى ـ يرفع يديه إلى السماء، ويرفع قلبه كذلك إلى السماء بدون أن يدرسه أحدٌ ذلك؟! لأنه يعلم ذلك من فطرته، وقد ذُكِرَ أن أبا المعالي الجويني كان يقرر ويقول: إن الله كان ولا شيء، وهو ـ الآن ـ على ما كان عليه؛ يريد أن ينكر استواء الله على العرش، فقال له أبو العلاء الهمداني ـ رحمه الله ـ: يا أستاذ، دعنا من ذكر العرش، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، ما قال عارف قط: يا الله؛ إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فلطم أبو المعالي رأسه، وجعل يقول: حيَّرني الهمداني، حيَّرني الهمداني؛ أي: أن هذا دليل فطري على علو الله لا ينكره أحد، ولكن يجب أن نعلم أن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء، لكنه ليس محصورًا بشيء؛ كما يكون الواحد منا فوق السطح، فيكون محصورًا بجدران السطح، ولكن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء، وليس محصورًا بأي شيء من الأشياء؛ لأن الفوق المطلق ليس فيه شيء إلا الله ـ عزَّ وجلَّ.

وأما القسم الثاني ـ وهو علو الصفة ـ؛ فمعناه: أنه ما من صفة كمال

إلا ولله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلاها وأكملها؛ ودليل ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، ودلالة هذا القسم في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، وفي إجماع الصحابة، وفي العقل، وربما يكون في الفطرة دليلٌ عليه أيضًا؛ فأما الكتاب فذكرنا منه ما سبق؛ وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وأما السنة؛ فالأحاديث فيها كثيرة دالة على كمال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فقد حدَّث النبي ﷺ عن كمال الله وعن عظمة صفاته بأحاديث لا تحصى، وكان رسول الله ﷺ يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى؛ فيثبت له صفة العلو المطلق، وهو كما يشمل علو الذات ـ أيضًا ـ يشمل علو الصفات.

وأما الإِجماع؛ فقد أجمع المسلمون على أن لله ـ تعالى ـ صفات الكمال من كل وجه.

وأما العقل؛ فلأن من المعلوم أنه لا يمكن أن يعبد باستحقاق العبادة إلا من كان كامل الصفات؛ ومن ثم أنكر إبراهيم الخليل على أبيه أن يعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنه شيئًا، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ

لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]؛ لأن مثل هذا ناقص؛ والناقص لا يمكن أن يكون ربًّا يعبد لنقصه، ولا أحد من المخلوقات له الكمال المطلق سوى رب الأرض والسموات.

وأما دلالة الفطرة على علو الصفة؛ فلأن الإنسان بفطرته يلجأ عند المصائب والشدائد إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لعلمه أن الله قادر على كشف هذه المصائب والشدائد.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إثبات أن القرآن كلام الله؛ وذلك لأن القرآن كلام ليس عينًا قائمة بنفسها، وإنما هو كلام، وإذا كان نازلًا من عند الله؛ لزم أن يكون كلام الله، وهذا هو الذي أجمع عليه السلف وأئمة الأمة: أن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ فقد تكلم الله ـ تعالى ـ به حقيقة، وسمعه جبريل من الله، وألقاه على قلب النبي و؛ قال الله ـ تعالى ـ في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]؛ فبيّن الله في هذه الآية المُنزِّل، والمُنَزَّل، والنازل به، والنازل عليه، واللغة التي نزل بها؛ خمسة أشياء؛ فقال:

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن المُنَزَّل ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢] هذا المُنَزِّل ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، هذا النازل به ﴿عَلَىٰ

قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، هذا المُنَـزَّل عليـه﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، هذه اللغة؛ فالقرآن جمع هذه الأوصاف كلها؛ إذن فهو كـلام الله -عَزَّ وَجَلَّ - بهذه اللغة، اللغة العربية، والكلام لا أحد يشك في أنه من صفات الكمال؛ فإن المتكَلِّم أكمل مـن الـذي لا يـتكلم، وبهـذا احـتجَّ السلف على من قالوا: إن القرآن مخلوق، فإنه لـو كـان مخلوقًـا؛ لم يكـن هناك كمال في الله من هذا الوجه؛ فالكلام من الكمال.

٥- **ومن فوائد هذه الآية أيضًا**: الإشارة إلى فضل القرآن؛ حيث إنه كلام الله؛ فإن الكلام يَشْرُفُ بشرف من تكلَّمَ به، ولا سيما إذا كان هـذا الكلام متضمنًا لمعاني الأخلاق، وكمال الآداب؛ كما في القرآن الكـريم، ولا شك أن القرآن الكريم أصدق الكلام وأكمله من جميع الوجوه من حيث الفصاحة، والجودة، والنفع، والحِكَـم، ولـو لم يكـن منـه إلا أنـه كلام الله لكان كافيًا في الشرف والفضل.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمـة**: فـضل رسـول الله ﷺ؛ لكونـه عبدًا لله، ولا شك أن العبودية لله من أشرف المناقـب، بـل هـي أشرف المناقب، ومن لم يكن عبدًا لله صار عبـدًا لهـواه؛ لأن الإنـسان لا بـد أن يكون متذللًا لشيء، فإما أن يكون متذللًا لربه، وإما أن يكـون متـذللًا لهواه وشيطانه.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن النبي ﷺ لا حـقَّ لـه في شيء مـن

خصائص الربوبية؛ لأن العبد خلاف الرب؛ فلا شيء لرسول الله ﷺ من خصائص الربوبية، فلا يملك نفعًا لأحد ولا دفع ضرر عنه، ولا يعلم الغيب، وليس عنده خزائن الله، وقد أمره الله ـ تعالى ـ أن يعلن ذلك للملإ؛ فقال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]؛ يعني ما أنا إلا رسول مُبلِّغ عامل بما أوحي إليَّ مبلغ له، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١ـ٢٣]؛ يعني: لست إلا مبلغًا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ورسولًا من عنده، وأنا لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا، ولو كان يملك شيئًا لملك أن ينقذ من شاء من الهلاك والضلال، ويهدي من شاء، وهذا ليس إليه؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وأمره ـ تعالى ـ أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٨ـ ويتفرع عن هذه الفائدة بيان ضلال أولئك الذين يتعلقون برسول الله ﷺ فيدعونه، ويستغيثون به، ويرجون شفاء المرض، وإزالة الضرر، وحصول المطلوب، ويعرضون بذلك عن رب العالمين ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما أن بعضهم ربما يظن أن ما عند الرسول ﷺ أقرب مما عند

الله مع أن النبي ﷺ لا يملك من هذا الأمر شيئًا، وقد ضلَّ من هذا الوجه طائفتان: طائفة ادَّعت أن لرسول الله ﷺ شيئًا من خصوصيات الربوبية، وطائفة أخرى كذبت الرسول ﷺ، وقالت: إنه ليس برسول؛ إما أنها نفت رسالته مطلقًا أو نفت عموم رسالته، وكلتا الطائفتين ضالتان، والحق أن رسول الله ﷺ عبد رسول، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، والعبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة، وعبودية خاصة؛ فالعبودية العامة هي التعبد للقدر؛ وهي العبودية الكونية القدرية التي تشمل كل المخلوقات، فما من مخلوق إلا وهو عابد ذليل لقضاء الله وقدره حتى أكفر الخلق؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ فكل الناس عبيد لله بالعبودية الكونية القدرية، وهذه لا يمدح الإنسان عليها؛ لأنها تكون قهرًا عليه وبغير اختيار منه.

أما القسم الثاني فهو العبودية الخاصة؛ وهي التعبد لله ـ تعالى ـ بشرعه، وهذه لا تكون إلا من المؤمنين؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وذكر بقية صفاتهم، وهذه العبودية فيها ـ أيضًا ـ ما هو أخص من مطلق العبودية، وهي عبودية الوحي والرسالة؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الفضيلةُ العظيمةُ لرسول الله ﷺ بإضافة عبوديته إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ أي: أن الله أضاف إليه عبودية محمد ﷺ؛ أنه عبده، ولا شك أن في هذا فخرًا لرسول الله ﷺ وعزّة، ورفعة.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من آداب المحاجة والمناظرة تحدي الخصم؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول هنا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، ولا شك أن في تحدي الخصم إظهارًا لضعفه، وأنه لا يستطيع المقابلة، والتحدي طريق من طرق المناظرة المفيدة، ولكن ينبغي ألا يتحدى الإنسان أحدًا إلا وهو واثق من أنه عاجز؛ لأنه لو أتى بالشيء على صيغة التحدي، ثم تبين قدرة المتحدَّى صار في ذلك انهزام شديد للمتحدي؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في هذه الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ إشارة إلى أنهم عاجزون عما تُحُدُّوا به، ولن يستطيعوا ذلك.

١١ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه؛ لقوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: كل من تعبدونه وتستعينون به من دون الله فادعوهم؛ ليكونوا معكم في الإتيان بسورة من مثله.

١٢ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: أنه لن يستطيع أحدٌ من هؤلاء المعارضين لرسول الله ﷺ أن يأتي بسورة من مثل ما جاء به الرسول

ﷺ؛ لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾.

١٣-ومن **فوائدهما**: أنَّ من كابر وأصرَّ على عناده، وكذَّب الرسول ﷺ؛ فإن النار مثواه؛ لقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

١٤-ومن **فوائدهما**: أن يأتي المتكلم بما يقتضي التهديد؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؛ فإنه إذا قيل: إن النار وقودها الناس؛ فلابد أن يحذر الإنسان منها ويخشى أن يكون من جملة الوقود.

١٥-ومن **فوائد الآيتين**: أن النار موجودة الآن؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فإنَّ الإعداد بمعنى التهيئة، ولا شك أنَّ الجنة والنار موجودتان الآن؛ كما دلَّ على ذلك القرآن والسنة؛ فقال الله - تعالى - في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وعرضت الجنة والنار على النبي ﷺ وهو يصلي بالناس صلاة الكسوف، ورأى في النار من يعذب. وكما أن الجنة والنار موجودتان الآن، فهما باقيتان أبد الآبدين، لا تفنيان؛ لأن الله - تعالى - ذكر التأبيد في عدة آيات؛ فأما التأبيد في الجنة؛ فالآيات في هذه كثيرة، وأما التأبيد في النار؛ ففي ثلاث آيات من القرآن؛ في سورة النساء في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]. وفي سورة الأحزاب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وفي سورة الجن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة اعتقاد أن الجنة والنار موجودتان الآن، وأنهما لا تفنيان أبد الآبدين، وإن كان قد ذكر خلاف في أبدية النار فإنه خلاف مرجوح؛ فالراجح بل المتيقن القول: إن النار لا تفنى كما أن الجنة لا تفنى.

١٦- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أن القرآن الكريم سيبقى آية إلى الأبد لرسول الله ﷺ؛ لأن هذا التحدي الذي وقع به ثابت إلى يوم القيامة، فلن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن إلى يوم القيامة.

١٧- **ومن فوائد الآيتين**: الكريمتين الإشارة إلى أن هذا القرآن سيبقى، وذلك أنه قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، وإذا كان وقودها الناس، وهو يشمل الناس إلى يوم القيامة المخالفين لهذا القرآن؛ دلَّ هذا على أن القرآن سيبقى متحديًا لجميع الناس إلى يوم القيامة، وأن من خالفه فسيكون وقود النار.

١٨- **ومن فوائد الآيتين**: إثبات الجزاء؛ فيدل على إثبات اليوم

الآخر، وهو أحد أركان الإِيمان الستة، التي هي الإِيمان بالله، وملائكته، وكبته، ورسله، واليوم الآخر، والقدر: خيره وشره.

* * *

ثـم قـال ـ تعـالى ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة لها ارتباط بما قبلها؛ فإن الله ـ سبحانه وتعـالى ـ بَيَّـنَ فيما سبق أن النَّار أُعدت للكافرين، وكان هذا القرآن الكريم مثاني تُثَنَّى فيه المعاني؛ فإذا ذُكِرَ الثوابُ ذُكِرَ العقـابُ، وإذا ذُكِـرَ الكفـر ذكـر الإِيمان، وهكذا؛ كـما قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي هذه الآيـة الكريمـة يقـول الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهنا الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يتـأتى خطابـه؛ فهـو مأمور بالبشارة، إن كان للرسول ﷺ فكل من خلفه في العلم والـدعوة فإنه يمكن أن يقوم بهـذه البـشارة، والبـشارة فيهـا الإِخبـار بـما يـسر، وسُميت بذلك؛ لأن الإِنسان إذا أخبر بما يسره ظهر ذلك عـلى بـشرته، وهنـا المُبَـشَّرُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والمُبَـشَّرُ بـه:

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، والمُبَشِّرُ: الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والآمر بالتبشير هو: الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين جمعوا بين الاستسلام الباطن والاستسلام الظاهر؛ الاستسلام الباطن في الإيمان، والظاهر في عمل الصالحات، وجمعوا ـ أيضًا ـ بين الإخلاص والمتابعة؛ فالإخلاص في القلب؛ وهو أمر باطن، والمتابعة في الجوارح؛ وهو أمر ظاهر؛ فالبشرى لمن جمع بين الأمرين، بين الصلاح في الباطن والصلاح في الظاهر، والصالحات: هي الأعمال التي اشتملت على الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

أما الإخلاص لله؛ فأن ينوي الإنسان بعمله وجه الله، والدار الآخرة، وامتثال أمر الله، **وأما المتابعة**؛ فأن يكون متبعًا لرسول الله ﷺ فيما يقول، ويفعل، ويذر، ولا تتحقق المتابعة إلا بموافقة العبادة للشريعة في أمور ستة: السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والزمان، والمكان؛ فمن تعبَّدَ لله ـ تعالى ـ عبادة مقيدة بسبب لم ترد به الشريعة؛ فعبادته مردودة عليه غير مقبولة منه؛ كما لو تعبَّد الإنسان لله بذبح شاة؛ تقربًا إلى الله ـ تعالى ـ عند مناسبة لا يشرع فيها ذلك؛ فإن هذا يكون غير مقبول عند الله؛ لقول النبي ﷺ: «**مَنْ عملَ عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»[1]؛ فإذا ضحَّى الإنسان بفرس؛ لم تقبل منه؛ لأنها ليست من

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٩).

جنس مما يُضحَّى به شرعًا، ولو زاد الإنسان في عبادته؛ لم تُقبل منه هذه الزيادة؛ لأنها ليست على أمر الله ورسوله، ولو فعل العبادة على غير الوجه الذي وردت عليه؛ لم تُقبل منه؛ كما لو توضَّأ مُنكِّسًا مثلًا؛ فإن ذلك لا يُقبلُ منه؛ لأنه على خلاف ما جاء عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولو ضَحَّى في غير وقت الأضحية؛ لم تُقبلْ منه؛ لأنها في غير الزمان المعين للأضحية، ولو اعتكف في غير المسجد؛ لم يقبل منه؛ لأنه ليس في المكان الذي خُصِّصَ شرعًا للاعتكاف؛ فإذن لا تتحقق المتابعة لرسول الله ﷺ إلا إذا تضمنت العبادة هذه الأمور الستة.

وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجنات: جمع جنة، وجُمعت لاختلاف أنواعها، وأسمائها، وأحوالها، والأصل في معنى الجنَّة أنها البساتين الكثيرة الأشجار؛ لأنها تجن من فيها؛ لكثرة أشجارها وأغصانها، والمراد بالجنة ـ التي ذكرها الله هنا ـ دار النعيم التي أعدها الله ـ تعالى ـ للمتقين، والأنهار التي تجري من تحتها؛ أي: من أسفلها وتحت القصور والأشجار أربعة أصناف بيَّنها الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ أي: غير متغير ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وبيَّن الله ـ تعالى ـ أنه كلما رزقوا من هذه الثمرات رزقًا قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل؛ لأنه يشبهه في اللون والحجم، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، ولكنهم إذا طعموه

تبيَّـنَ لهم أنه غيره، وهذا من تمام لذة الآكلين إذا أتوا بالطعام أو بالثمرة متشابهًا، ولكنه يختلف في الذوق؛ فصار في هذا شيءٌ من اللـذة؛ ولهـذا قـال: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾، وبـين الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ أنَّ فيهـا أزواجًـا مطهرة، مطهرة الظاهر والباطن؛ فهي مطهرة البـاطن مـن الحقـد عـلى زوجها والكراهة له، وفي الظاهر من كل قذر وأذى، وتمام هـذا النعـيم أنهم فيها خالدون.

فوائد هذه الآية:

١ـ في هذه الآية الكريمة من الحِكَم والفوائـد أنـه ينبغـي أن يُبـشَّر العامل بما يستحق من الثواب؛ لأن ذلك أبلغ في نشاطه ومثابرتـه عـلى العمل.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن البـشرى بالجنـة لا تكـون إلا لمن آمن وعمل؛ فمجرد العقيدة لا تكفي للبشارة بالجنة؛ بل لا بـد مـن إيمانٍ وعملٍ؛ ولهذا يربط الله ـ تعالى ـ دائمًا ـ الإيمان بالعمل الصالح.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه كلـما كـان الإنـسان أقـوى إيمانًـا وأكثر عملًا كان أحق بالبشارة بالجنة؛ وذلـك لأنَّ الحكـم المعلـق عـلى وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعفه.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الأعمال الفاسدة لا ترفع صاحبها ولا تنفعه، بل هي حرام عليـه؛ لأنهـا نـوع مـن الاسـتهزاء بـالله ـ عَـزَّ

وَجَلَّ ـ؛ ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا يجوز للإنسان ـ مثلًا ـ أن يـصلي بلا وضـوء أو يـصلي بنجاسـة لا يُعفـى عنهـا؛ لأن ذلـك مـن العمـل الفاسد، وإذا فعله صار كالمستهزئ بالله.

٥- ومـن فوائـد الآيـة الكريمـة: أن هـؤلاء المـؤمنين العـاملين للصالحات جزاؤهم الـذي يبـشرون بـه هـذه الجنـات العظيمـة التـي تشتمل على كل خير، وقد بـيَّن الله ـ تعـالى ـ في آيـة أخـرى أن فيهـا مـا تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الجنات فيها القصور الـشامخة والأشجار العالية؛ لقوله: ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ فإن«التحت» لا بـد أن يكون له فوق، ومعلوم أن هذه الأنهار لا تجري من أسفل أرض الجنـة؛ ولكنها تجري من تحت ما فيها من الأشجار والقـصور، وقـد قـال الله ـ تعـالى ـ في سـورة الـرحمن: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ [الـرحمن: ٧٢]، وبَيَّنت السنة هذه الخيام الجميلة الرفيعة.

٧- ومن فوائـد هـذه الآيـة الكريمـة: أن في الجنـة أنهـارًا؛ لقولـه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وأن فيها ثـمارًا؛ لقولـه: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾، ولكن هذه الأنهار وهذه الثمار لا تشبه ـ في الحقيقة ـ ما في الدنيا من الأنهار والثمار؛ فهي تختلـف عنها اختلافًا عظيمًا لا يمكن أن يدركه الإنسان بحسِّه في الدنيا؛ كما قال

الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكما في الحديث القدسي: «قال اللهُ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١]، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، النخل، والرمان، والفاكهة موجودة في الدنيا، لكن تختلف؛ كما أن الحياة هناك تختلف عن حياة الدنيا، انظر ـ مثلًا ـ إلى الناس في هذه الدنيا يحتاجون إلى النوم، وفي الجنة لا يحتاجون إلى النوم؛ فلا ينامون، تصيبهم الأمراض والأوصاب في الدنيا، وفي الجنة لا تصيبهم، في الدنيا إذا سقط الإنسان في النار احترق ومات، وفي الآخرة إذا سقط في النار؛ فإنه ـ وإن احترق ونضج جلده من النار ـ لا يموت ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

٨ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل الجنة كما يتنعمون بالطعم يتنعمون أيضًا باللون؛ حيث يؤتى إليهم بهذه الفاكهة المتشابهة،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب صفة الجنة، رقم (٢٨٢٤).

ثم إذا أكلوها صارت مختلفة عما سبق، وهذا يعطي الإنسان زيادة في اللذة وشهوة الطعام.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن في الجنة أزواجًا مطهرة يتلذذ الإنسان بهن ويتمتع بهن؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥-٥٨]، وقال - تعالى - في سورة الرحمن: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٢-٥٦]؛ وهذا يدل على أنهم يتلذذون بهذه الزوجات في الجلوس على الأرائك والاتكاء عليها، مع تقديم الفواكه من الولدان والخدم.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل الجنة خالدون فيها، وقد بينت الآية الأخرى أن هذا الخلود خلود أبدي ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، ولا يُخْرَجُونَ منها.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الحث على الإيمان والعمل الصالح والتريث فيه؛ لأن الأمر بالبشارة في الجنة لمن آمن وعمل صالحًا يقتضي حث هؤلاء المبشرين على الإيمان والعمل الصالح.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

في هذه الآية يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ أيَّ مَثَلٍ كان؛ وذلك لأن الأمثال التي يضربها الله للناس فيها من العبر والمصالح ما يجعل ضربها من الحكم العظيمة التي ينتفع بها العباد؛ فقد ضرب الله مثلًا بالعنكبوت، ومثلًا بالذباب، وهنا قال: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، والرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يضرب هذه الأمثال من أجل العبر ومصالح العباد؛ ولهذا لا يستحي أن يضرب هذه الأمثال وإنْ قلَّت، قال هنا: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ البعوضة: واحدة البعوض وهو معروف، ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ كالذباب والعنكبوت؛ فالله لا يستحي من ذلك؛ لأنه حق، والله ـ تعالى ـ لا يستحي من الحق؛ لما في هذه الأمثال من المصالح والمنافع العظيمة.

ثم يبيِّـن الله ـ تعالى ـ في هذه الآية أن النـاس انقسموا نحـو هـذه الأمثال إلى قسمين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ لما تتـضمنه هـذه الأمثـال مـن المـصالح والمنـافع.﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، يقولون ذلك استهزاء، وسخرية، واحتقارًا لهذه الأمثال، وبيَّن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه يـضل بهـذا المثـل مـن يشاء، بل يضل به كثيرًا ممن اقتضت حكمته أن يضلوا، ويهدي به كثيرًا ممـن اقتـضت حكمتـه أن يهتـدوا؛ ولهـذا قـال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله.

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى انتفاء استحياء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مـن الحق؛ وهذا يدل على أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يستحي مـن غـير الحـق؛ لأن الحياء من غير الحـق وصـف كـمال، والله ـ سـبحانه وتعـالى ـ مُتَّـصِفٌ بصفات الكـمال؛ ولهـذا جـاء ثبـوت الحيـاءِ لله في حـديث رسـول الله ﷺ:«إنَّ الله حَيِيٌّ كريمٌ، يستحي إذا رفعَ الرجـلُ إليـه يديـه أَنْ يردهمـا صفرًا خائبتين»(١)؛ فالحياء ـ هنا ـ ثابت لله في هذا الحديث نطقًا صريحًا بدلالة المنطوق، وفي الآية الكريمـة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ ثابت لله بطريقة المفهوم، والحياء ـ كسائر صفات الله ـ يجب

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)؛ والترمذي: كتاب الدعوات، باب رقم (١٠٤)، حديث رقم (٣٥٥٦)، وقال:«هذا حديث حسن غريب»؛ وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥)؛ والحاكم (١/ ٦٧٥)، وصححه.

على الإِنسان اعتقاد ثبوته لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الله أثبته لنفسه، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بنفسه وبغيره، فإذا أخبر عباده بصفة من صفاته وجب عليهم قبول هذه الصفة، ولا يجوز لهم أن يعارضوها بما يظنونه عقلًا وهو وَهْمٌ في الواقع؛ وذلك لأن كلام الله اجتمع فيه كل الصفات التي تستلزم قبول الخبر؛ فإنه صادر عن تمام العلم، وتمام النصح والبيان، وكمال الفصاحة، وكمال الصدق، فالكمالات التي تكون في الكلام هي هذه الأوصاف الأربعة: العلم، والصدق، وحسن الإرادة والقصد، والفصاحة والبيان؛ **أما العلم**؛ فلا أحد يشك أو ينكر أن الله ـ تعالى ـ أعلم بنفسه من غيره، **وأما الصدق**؛ فكلام الله ـ تعالى ـ أصدق الكلام، **وأما الفصاحة**؛ فكلام الله ـ تعالى ـ أفصح الكلام؛ ولهذا عجز العرب ـ مع كمال فصاحتهم ـ عن الإِتيان بمثله.

وأما الإرادة؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي لئلا تضلوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦]، فإذا أخبرنا الله ـ تعالى ـ عن صفة من صفاته؛ وجب علينا قبول هذا الخبر واعتقاد مدلوله، ولا يجوز لنا أن نحرِّف معناه إلى ما يخالف ظاهره إلا بدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وهذه هي الجادة التي بنى أهل السنة والجماعة عقيدتهم عليها.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ من فوائد هذه الآية: ضرب الأمثال بتقريب المعقولات؛ لأن الأمثال تكون أمورًا محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة.

٢ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي لمن أراد الإيضاح والبيان ـ وكان ذلك يتوقف على ضرب المثل ـ أن يبين ذلك بالمثل؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الناس ينقسمون فيما ضرب الله من الأمثال إلى قسمين: قسم مصدق مؤمن موقن بأن ذلك حق، وقسم آخر مستكبر ساخر يقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، هكذا أخبر الله في هذه الآية، وهذا هو الواقع، ونظير هذه الآية الكريمة قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فهذا القرآن ينقسم الناس فيه إلى هذين القسمين، فمن اهتدى به فقد وُفِّق، ومن ضلَّ عنه واستكبر فقد حُرِم خيرًا كثيرًا.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾، وأخبر الله بذلك من أجل أن نلجأ إليه، وهنا فائدة تترتب على ما سبق؛ وهي اللجوء إلى الله ـ تعالى ـ لطلب الهداية منه والعصمة من الضلال، وألا يعتمد الإنسان على نفسه فيزكيها ولا يرى لله عليه فضلًا بالهداية، فالهداية بيد الله ـ عزَّ وجلَّ.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هداية الله وإضلاله مبنيان على الحكمة؛ لأن الله لا يضل إلا من كان أهلًا للإضلال؛ وهم الفاسقون، ونظير هذا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فمن كان طالبًا للخير، وسَلَكَ الأبواب التي توصله إليه، بل وسلك الطرق التي توصله إليه؛ وُفِّقَ له، ومن فسد وأعرض فلا يلومنَّ إلا نفسه.

٦ـ **ومن فوائد قوله ـ تعالى ـ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ إثبات الإرادة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والإرادة المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين: إرادةٍ شرعية، وإرادةٍ كونية.

فالإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٧]، **والإرادة الكونية** هي التي بمعنى المشيئة؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤]، ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا

﴿يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، والفرق بينهما أن الإِرادة الشرعية تتعلق بما أحبه الله، سواءٌ وقع أم لم يقع، والإِرادة الكونية تتعلق بما قدَّره وقضاه، سواء كان يحبه أم لم يحبه، والفرق الثاني أن الإِرادة الشرعية قد يقع فيها المراد وقد لا يقع، والإِرادة الكونية يقع فيها المراد بكل حال؛ لأن الله ـ تعالى ـ إذا أرد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون، ولا معقب لحكمه وهو السميع العليم.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فكان فسقهم سببًا في إضلال الله لهم.

٨ـ ومن فوائدها: الحذر من الفسق؛ وهو الخروج عن طاعة الله، والفسق قد يكون كفرًا؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ في وصف هؤلاء الفاسقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

هذه من أوصاف أهل الفسق؛ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛ وعهدُ الله الذي عهدَ إلى عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ فقد ركز الله ـ تعالى ـ في فطرة كل إنسان أن الربَّ هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه هو الذي يجب أن يُعبد؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه»

ومن أوصافهم أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من حقوقه وحقوق عباده، فهم لا يبالون بقطيعة شريعة الله والبعد عنها، بل يحرصون غاية الحرص على أن يصدُّوا عن سبيل الله من آمن ويبغونها عِوَجًا، وهم كذلك يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الأقارب، والجيران، واليتامى، والمساكين، وغير ذلك؛ لأنهم لا يؤمنون بما عند الله من الأجر والثواب، ومن فعل منهم شيئًا من هذه الصلات، صلات الخلق، فإنما يفعلها لا من باب التعبد، ولكن من باب العادة أو السجيَّة التي تقتضيها طبيعة المجتمع.

وأما الوصف الثالث من أوصاف أهل الفسق فهو أنهم يفسدون في الأرض بالمعاصي؛ فإن المعاصي سبب الفساد في الأرض؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٧٧٥)؛ ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٢٦٥٨).

بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]؛ فالفساد في الأرض ليس بتكسير الجسور، وحفر الخنادق للسقوط فيها، وما أشبه ذلك من الفساد، ليس بهذا فحسب، بل بكل معصية يعصون الله بها؛ لأنه سبب للفساد في الأرض.

ثم بيَّن الله نتيجة هؤلاء ومآلهم؛ فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾، هؤلاء يظنون أنهم على خير، وأنهم رابحون، ولكن الله ـ تعالى ـ بيَّن أنهم هم الخاسرون، وحصر الخسران فيهم؛ فقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾؛ وذلك لأن الربح إنما يكون لمن اتصف بالصفات الموجبة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، فالإنسان، ـ كل إنسان ـ خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- في هذه الآية الكريمة من الفوائد بيان أوصاف الفسقة، بل بيان شيء من أوصافهم، وهو أنهم ينقضون عهد الله بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض.

٢- ومن فوائدها: التحذير من هذه الصفات؛ لأنها صفات الفاسقين الذين هم أهل الضلال، وهم المستحقون لإضلال الله إياهم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الوفاءِ بعهد الله، ومَنْ أوفى بعهد الله؛ أوفى الله له بعهده؛ كما قال الله ـ تعالى ـ في بني إسرائيل: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠].

٤ـ **ومن فوائدها**: وجوب صلة ما أمر الله بصلته، وعلى رأس ذلك صلة الأرحام الشاملة لبر الوالدين، وصلة مَنْ عداهما؛ فالواجب على المسلم أن يصل ما أمر الله به أن يوصل، ولا شك أن في صلة ما أمر الله به أن يوصل فائدة عظيمة؛ فإن من وصل رَحِمَهُ وصله الله، ومن قطع رَحِمَهُ قطعه الله، فعلى المرء أن يكون قائمًا بالقسط والعدل؛ حتى تحصل له الصلة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ومن وصله الله فهو على خير.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الإشارة إلى أن الإفساد في الأرض من صفات الفاسقين؛ وعلى هذا فيكون الإصلاح في الأرض من أوصاف أهل الخير، والعدل، والاستقامة؛ فيتفرع على هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن كل ما يكون سببًا للإفساد، وأن يسعى في كل ما يكون سببًا للإصلاح.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن هؤلاء المتصفين بهذه الصفات؛ الفسق وما أضيف إليه من هذه الأوصاف هم الخاسرون الذين لا ربح لهم في الدنيا ولا في الآخرة.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨].

في هذه الآية استفهامٌ بمعنى التعجب والإنكار لأولئك القوم الذين يكفرون بالله، وهم يعلمون أنهم كانوا أمواتًا فأحياهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كانوا أمواتًا قبل أن ينفخ الله فيهم الروح؛ لأن الإنسان قبل نفخ الروح فيه ميت جماد، فيحييه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بنفخ الروح فيه، ويخرج إلى هذه الدنيا، ويعمل ويكدح، ثم يميته الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ثم يحييه الحياة الآخرة التي ليس بعدها موت، ويرجعه إليه؛ ليوفيه ما عمل، ففي هذه الآية الكريمة الإنكار على أولئك الذين كفروا بالله مع أنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ اعتنى بهم هذه العناية؛ فأوجدهم من العدم، وأحياهم من الموت، وكان من الواجب عليهم أن يقوموا بشكر هذا المُنْعِم عليهم ـ سبحانه وتعالى.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ **من فوائد هذه الآية:** أن الإنسان قبل أن تنفخ فيه الروح ميت جماد لا يتعلق فيه حكم من أحكام الإحياء؛ ويتفرع على ذلك أنه لو سقط قبل أن تنفخ فيه الروح في بطن أمه؛ فإنه لا يغسل، ولا يكفن، ولا يُصلَّى عليه، ولا يدفن مع الناس؛ لأنه عبارة عن قطعة لحم، يدفن في أي مكان من الأرض، ولا يحتاج إلى تسمية، ولا إلى عقيقة، فإن قال

قائل: متى تكون الحياة فيه؟ فالجواب: أنها تكون إذا تمَّ له أربعةُ أشهر؛ كما يدل على ذلك حديث ابن مسعود -رَضِيَ الله عَنْهُ- قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إنَّ أحدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطن أُمه أربعينَ يومًا، ثُمَّ يكون عَلَقَة مثل ذلك، ثُمَّ يكون مضغة مثل ذلَك، ثُمَّ يبعثُ اللهُ مَلَكًا، ويؤمر بأربع كلماتٍ، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد»[1]، فالأربعون الثلاث تكون أربعة أشهر.

٢- ومن فوائد هذه الآية: بيان قدرة الله -عَزَّ وَجَلَّ- بإحياء الموتى؛ فإنه لا أحد يستطيع إحياء الموتى إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ ولهذا لما حاجَّ إبراهيمُ ذلك الرجل الذي حاجَّهُ في الله، قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فبيَّن له إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أن ربه هو الذي يحيي ويميت؛ لأنه لا يملك ذلك إلا الله، وأما قول هذا المحاج: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهذا من باب التلبيس والتمويه؛ حيث زعم أنه يستطيع الإحياء والإماتة، ولما كان هذا أمرًا قد يخفى على الناس، أو يلتبس عليهم، قال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة -صلوات الله عليهم- رقم (٣٢٠٨).

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تقرير البحث بأحسن حجة، وذلك أن الإنسان كان جمادًا ميتًا، ثم أحياه الله، ثم يميته مرة ثانية، ثم يحييه؛ فالقادر على إحيائه أول مرة قادر على إحيائه في المرة الثانية؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الرجوع إلى الله ـ تعالى ـ للمجازاة على العمل؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٥ـ ومن فوائدها: أنه ينبغي للإنسان أن يستعد لهذه الرجعة إلى الله؛ لينظر ماذا يقابل به ربه؟ فليحرص على ألا يفقده الله حيث أمره، أو يراه حيث نهاه؛ لأنه سوف يرجع إلى الله وينبئه بعمله.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الموت قد يطلق على الشيء الذي لم تسبق موته حياة؛ لقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾؛ فإن المراد بالميت ـ هنا ـ من لم تنفخ فيه الروح.

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾؛ أي: أوجده لكم لمنافعكم ومصالحكم؛ عناية بكم ورحمة، و«ما» هنا: اسم موصول عام شامل لكل ما في الأرض، وأكد هذا العموم بقوله: ﴿ جَمِيعًا ﴾، ثم بعد خلق هذا ﴿ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ علا إليها، ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾؛ أي: أتمهن وأكملهن سبع سماوات، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾؛ فهو مع علوه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على هذه السموات السبع لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو بكل شيء عليم، وهذه الآية لها صلة بما قبلها؛ حيث تدل على عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنا، وتيسيره، وتسهيله.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ ـ **أن الخالق هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ** ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾، وأنه لا خالق إلا الله، وقد تحدَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخلق أن يخلقوا شيئًا ولو قلَّ؛ كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]،

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢]؛ فالله ـ تعالى ـ هو الخالق لكل ما في الأرض.

٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأصل في كل ما في الأرض من أعيان ومنافع الحِلُّ والإِباحة؛ لأن اللام بمعنى الإِباحة هنا؛ فكل ما في الأرض من الأعيان والمنافع الأصل فيه الحل، ومن ادعى تحريم شيء منه فعليه الدليل، وهذه القاعدة قاعدة مهمة نافعة تنفعك في كثير من المسائل، فعندما يختلف اثنان في حِلِّ هذا المأكول أو تحريمه نقول: الأصل الحِلُّ، فمن يدَّعي أنه حرام عليه الدليل، وعندما يختلف اثنان في عمل في الأرض، من حراثة أو غيرها، فإننا نقول: الأصل الحِلُّ إلا ما قام الدليل على تحريمه؛ وعلى هذه القاعدة يجوز للإِنسان أن يتمتع بكل ما في الأرض من مأكول ومشروب، ولا حرج عليه في ذلك إلا أن يقوم دليل على التحريم.

ولو تنازع رجلان في حلِّ حيوان، فقال أحدهما: هذا حلال، وقال الثاني: هذا حرام؛ فإن القول: قول من يقول بأنه حلال حتى يُوجِد مدَّعي التحريم دليلًا على أنه حرام.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان فضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على عباده؛ حيث وسَّع لهم هذه التوسعة البالغة بأن كل ما في الأرض فهو حلال لهم.

٤- ومن فوائدها: أن الأرض خلقت قبل السماء؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾، وهذا هو الذي تدل عليه آية فصلت؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

وأما الآيات في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] فإنها لا تنافي هذه الآية، ولا آية فصلت؛ لأن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يدل على أن دَحْوَ الأرض كان بعد خلق السماء، وأما خلق الأرض فإنه كان سابقًا على خلق السماء.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمـة: إثبـات علـو الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ بذاته؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾، وقد سبق أن ذكرنا هذا، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ فوق عباده، وأن له العلو المطلق، علو الذات، وعلـو الصفة؛ فعلو الذات هو أنه ـ سبحانه وتعـالى ـ فـوق كـل شيء، وعلـو الصفة هو أن جميع صفاته عليـا كاملـة، لـيس فيهـا نقـص بوجـه مـن الوجوه، وهذا مذكور في عدة آيات من القـرآن؛ في قولـه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنـون: ٨٦]، وفي قولــه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطـلاق: ١٢]، وأما الأرض فلم تذكر صريحة بهذا العدد في القرآن الكريم، ولكن في القرآن إشـارة إلى أنها سبع؛ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإن المثلية هنـا لـيست في الـصفة ولا في الحجم؛ لأن الـسماء أعظـم مـن الأرض، وأوسـع، وأكـبر، ولكنهـا في العدد، وأما السنة فقد جاءت صريحة بأن الأرضين سـبع: «مَـنْ اقتطـع شِبْرًا من الأرض ظُلْمًا؛ طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يوم القيامة من سبع أرضين»[1].

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عموم علم الله، وأنـه ـ سـبحانه وتعالى ـ عليم بكل شيء، وهذا مكرر في القرآن الكريم كثيرًا؛ مثل قوله ـ تعـالى ـ: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٠)، واللفظ له.

عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وهذا العلم علم كامل ليس فيه نقص بوجه من الوجوه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقوله: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١].

❁ ❁ ❁

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

. في هذه الآية الكريمة يبيِّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده ما جرى بينه وبين الملائكة حول خلق آدم وذريته، فيقول ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾، وهذا التركيب كثير في القرآن؛ أعني: «إذ» التي تُبدأ بها القصة، قال أهل العلم: وهي منسوبة لفعل محذوف تقديره «اذكر».

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾، والملائكة هم عالم غيبي خُلقوا من نور، خلقهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعبادته؛ فقاموا بها؛ فكانوا يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ أنه جعلهم رسلًا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، قال لهم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾، خليفة لمن سبقه؛ وذلك لأن الجان قد سبق خلقُهُمْ خلقَ آدم؛ كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن

صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧].

وكان الجن قد أفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما قال الربُّ - عَزَّ وَجَلَّ - للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا مستفهمين: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ مستفهمين بهذا الاستفهام؛ لأنهم يعلمون أن الله - تعالى - لن يفعل شيئًا إلا لحكمة، فقال الله لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: أن عنده - عَزَّ وَجَلَّ - من العلم ما ليس عند الملائكة، وهو عالم - جلَّ وعلا - بأن هذه الخليفة سيكون منها الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون، ونعم الخليفة يكونون لمن سبقهم.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- إثبات القول لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأنه يقول بصوت مسموع وحروف متتالية؛ لأن هذا هو الكلام المعروف في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، وعلى هذا جرى السلف الصالح ومن تبعهم من الأئمة بأن الله - تعالى - يتكلم بكلام مسموع بحروف متتالية، وأنه يقول كذلك قولًا بحروف متتابعة، وصوت مسموع، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عناية الله - عَزَّ وَجَلَّ - برسوله

محمد ﷺ؛ وذلك بإضافة ربوبيته ـ تعالى ـ إليه؛ أي: إلى الرسول ﷺ؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر وأتم؛ وذلك أن ربوبية الله ـ تعالى ـ عامة وخاصة؛ فالعامة الشاملة لجميع الخلق المقتضية للملك والتدبير، تدبير شئون الخلق عمومًا؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ـ٦].

فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، عمومًا الآيات في هذا كثيرة.

وأما الربوبية الخاصة: فهي التي يضيفها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى سادات البشر؛ كالأنبياء ونحوهم.

٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الملائكة؛ لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وأن الملائكة لهم عقول؛ فهم يتكلمون ويحاورون؛ فإن الله ـ تعالى ـ قال لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وفي هذا إبطال لقول من قال: إن الملائكة عبارة عن القوى الخيرية أو الخيِّرة، وليست أجسامًا تتكلم أو تسمع؛ فإن هذا قول باطل يرده الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات قيام الأفعال بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛

لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ فإن الجعل يقتضي إيجادًا بعد عدم، وهو كذلك، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ موصوف بصفات الذات اللازمة لذاته، وبصفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وحكمته، هذا هو مذهب السلف وأئمة الأمة.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أن للأرض عُمَّارًا قبل آدم وذريته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ أي: يخلفون من سبقهم.

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الأمم السابقة على آدم وذريته كان فيهم من الشر، والفساد، وسفك الدماء ما اقتضى أن تسأل الملائكة ربها ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: هل يجعل في هذه الخليفة من يكون كمن سبقهم؟ لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تعظيم شأن الدماء؛ ولهذا خصَّتها الملائكة بالذكر في قولهم: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، وإلا فمن المعلوم أن سفك الدماء من الفساد في الأرض، لكن لما عطف على العام وهو خاص؛ دلَّ ذلك على أهميته، وأنه من أعظم الفساد في الأرض.

٨ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد شغلوا أوقاتهم في تسبيح الله وتقديسه؛ وتسبيحُ اللهِ معناه

تنزيه عن كل عيبٍ ونقصٍ؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ منزَّهٌ عن العيوب والنقائص، سواء أكان النقص في صفة كماله، أو كان نقصًا مستقلًّا، وكذلك نقول في العيوب؛ فينزه الله ـ تعالى ـ عن الوصف بالعجز، والجهل، والعمى، والموت، وما أشبه ذلك من الصفات الناقصة، وتُنزه صفاته الكاملة عن أن يلحقها شيءٌ من النقص؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فمع خلق هذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة القصيرة لم يَلْحقه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لغوب؛ وهو التعب والإعياء، ويُنَزَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن مشابهة المخلوقين؛ لأن مشابهة الناقص نقص؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، إذن الذي ينزه الله عنه ثلاثة أشياء: مشابهة المخلوقين، والنقص المجرد، والنقص في صفات كماله. وقولهم ـ أي: الملائكة ـ: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ولم يقولوا: (نقدسك)، يُستفادُ منه إخلاص الملائكة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن اللام هنا للاختصاص، وإلا فإن الفعل يتعدى بنفسه، لكن عُدِّيَ باللام إشارة إلى إخلاصهم، وأن التقديس خالص لله ـ تعالى ـ وحده.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان كمال علم الله؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائدها**: إثبات التفضيل في صفاته؛ حيث قال: ﴿أَعْلَمُ

مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، وفي ذلك ردٌّ على مَنْ إذا مروا على مثل هذه الآية التـي فيها اسـم التفـضيل حولـوا اسـم التفـضيل إلى اسم فاعـل. وقـالوا: «أعلم»؛ أي: «عالم»؛ فإن هذا صرف للكلام عن ظاهره بـلا دليـل، وفي الوقت نفسه هو تنقيص من المعنى؛ لأن «**أفعل التفضيل**» تمنع المشاركة في الكمال، لكن «**اسم الفاعل**» لا يمنع المشاركة في الوصف، بل لا يمنع المساواة والمماثلة أيضًا، وفي هذا دليلٌ على نقص علـم المخلـوق؛ وعـلى هذا فإذا أشكل عليك شيء فَكِلْ علمـه إلى مـن هـو بكـل شيء علـيم، وهو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثـم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

يخبر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هـاتين الآيتـين عـن تعليمـه لآدم ـ وهـو أبو البشر ـ الأسماء كلها؛ فقد علَّمه أسماء كل شيء يحتاج إليه البشر، ثـم عرض هذه المسميات على الملائكة؛ فقـال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾؛ أي: أخـبروني ﴿بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ ليريهم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مقدار علمـه، وأن علمهم ناقص؛ حيث جهلوا أسماء هـذه المـسميات، فـإذا جهلـوا أسماء هذه المسميات؛ فإنهم بجهل المستقبل لهذه الخليفة التـي أخـبرهم

الله ـ تعالى ـ بأنه سيجعلها في الأرض من باب أولى وأحرى، وقال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ ولم يقل: «عرضها»؛ أي: الأسماء؛ لأنه عرض عليهم المسميات؛ كما يدل عليه قوله: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فيما عندكم من العلم، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: ننزهك أن يكون لدينا علم بشيء، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فوائد هاتين الآيتين:

١ـ في هاتين الآيتين إظهار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لفضل آدم؛ حيث علَّمهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أسماء كلِّ شيء يحتاج إليه؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

٢ـ ومن فوائدها: حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في امتحان الملائكة بعرض هذه المسميات التي عَلَّمَ آدم بأسمائها حتى يتبين نقصان علمهم.

٣ـ ومن فوائدها: إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه بصوت مسموع وحروف متتابعة؛ كما في قوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٤ـ تنزيه الملائكة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وتعظيمهم له؛ لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، وقد سبق ـ فيما مضى ـ ذكر ما ينزه الله عنه من النقائص، والعيوب، ومماثلة المخلوقين.

٥ـ أن جميع العلوم التي عند المخلوقات من عند الله؛ لقول الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وإن كان هذا في الملائكة الذين هم من المزية والفضل ما هم أهل له، فغيرهم من باب أولى؛ ولهذا لا أحد يحيط بعلم الله؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «العليم» و«الحكيم»؛ فأما العليم: فهو ذو العلم الكامل المحيط بكل شيء، وقد سبق لنا بيان إحاطة علم الله ـ تعالى ـ بكل شيء جملة وتفصيلًا، وأما الحكيم: فهو من الحكم والإحكام أيضًا؛ فالله ـ تعالى ـ له الحكم في الأولى والآخرة، له الحكم الكوني والشرعي؛ فلا حاكم في الخلق إلا الله، ولا حاكم بينهم إلا الله، وأما الحكمة أو الإحكام: فهو إتقان الشيء بحيث يكون كل شيء في موضعه؛ ولهذا قالوا: الحكمة هي وضع الشيء في مواضعه، وبذلك يتبيَّن كمال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في العلم والحكمة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

في هذه الآية ينادي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ آدم، فيأمره أن ينبئ الملائكة بأسماء هؤلاء المسميات؛ من أجل أن يظهر فضل آدم بما أعطاه الله من علم هذه الأسماء ومسمياتها، فلما أنبأهم آدم بأسمائهم؛ أي: بأسماء هذه المسميات، قال الله ـ تعالى ـ مخاطبًا الملائكة: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: ما غاب في السموات والأرض عن مشاهدة غير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ويشمل هذا ما غاب عن المخلوقين في مكان آخر ليسوا فيه، وما غاب عن المخلوقين من علم المستقبل، وكون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يعلم غيب السموات والأرض يقتضي ـ في الأولوية ـ أن يكون عالمًا بالشهادة، وقال: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾؛ أي: ما تبدونه وتظهرونه، وما كنتم تكتمون فلا تبدونه.

من أحكام وفوائد هذه الآية:

١ـ إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه يتكلم بصوت مسموع وحروف متتابعة، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بصوت مسموع وحروف متتابعة، يسمعه المخاطب ويفهمه.

٢ـ وفيها من الفوائد العظيمة: الرد على من زعم أن كلام الله هو

المعنى النفسي القائم بالنفس؛ فإن الكلام بهذا المعنـى لـيس بكـلام ولا يسمع.

٣ـ ومـن فوائـد هـذه الآيـة الكريمـة: فـضل آدم ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ بما علَّمَه سبحانه وتعالى من هذه الأسماء ومسمياتها.

٤ـ ومن فوائدها أيضًا: مِنَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الملائكـة بـما أظهر لهم من عِلْمه، وأنه محيط بكل شيء؛ فإن مـن تمـام نعمـة الله عـلى عبده أن يبين له الحق بالطرق التي يطمئن إليها، ولو شاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يبين الحق، ولترك الإنسان يعمه ويضيع في ضلاله؛ ويتفرع على هذا أنه يجب على الإنسان أن يشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما يُعَلِّمُه مـن الحق الذي قد يضل عنه كثير من الناس.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثباتُ عموم علـم الله؛ لقولـه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وذلـك أن العـالم بالغيـب عالم بالشهادة من باب أولى.

٦ـ ومن فوائدها أيضًا: تذكير المخاطب بما كان من قبـل؛ لأن الله ـ تعـــالى ـ قـــال للملائكـــة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقرر ذلك ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عليهم؛ ليبين لهم أن ما قاله لهم هو الحق المطابق للواقع.

٧ـ ومن فوائدها: عمومُ علمِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما فعله خلقـه؛

لقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن للملائكة إرادة وقدرة على أعمالهم وأفعالهم، وهذا فيه تكذيب دعوى من ادَّعى أن الملائكة ليس لهم عقول، بل الملائكة لهم عقول بلا شك، ولهم إرادات، ولهم قدرة على الأعمال، يُؤخذُ هذا من قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾؛ فإن هذا يدلُّ على أن الملائكة تبدي ما تبدي، وتكتم ما تكتم، وهذا لا يكون إلا عن علم، وإرادة، وقدرة.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

في قوله: ﴿وَإِذۡ﴾ كلمة مُقَدَّرةٌ يبينها السياق، والتقدير: «**واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**»؛ يعني: اذكر هذه القضية، منوهًا بفضل آدم ـ عليه الصلاة والسلام؛ حيث أُمرت الملائكة أن يسجدوا له؛ تعظيمًا واعترافًا بما وهبه الله من الفضل، لكن هذا السجود ليس سجود عبادة يكون كسجود المخلوق للخالق، بل هو سجود تعظيم مجرد من التعبد، وقوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يشمل جميع الملائكة؛ لأن الأصل في صيغة العموم أن تكون شاملة لجميع أفرادها ما لم يكن هناك دليل على التخصيص، أو إرادة التخصيص.

وبَيَّنَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن الملائكة لما أمروا بالسجود لآدم سجدوا

ولم يستنكفوا عن أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلا إبليس؛ فإنـه أَبـى واسـتكبر؛ أَبى أن يسجد، واستكبر عن السجود، والجمع بين الإِبـاء والاسـتكبار يدل على أن إباءه لم يكن لعذر أو لمانع يُعذرُ به، وإنما كان عـن اسـتكبار في قلبه، وقد بَيَّن اللهُ ـ سبحانه وتعـالى ـ في آيـات أخـرى سـبب إبائـه واسـتكباره؛ حيـث قـال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وقوله هنا: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ اختلف أهلُ العلم في هذا الاسـتثناء هـل هو استثناء متصل أم هو استثناء منفصل؟ فمنهم من قال: إن الاستثناء هنا متصل؛ لأنه الأصل في الاسـتثناء؛ أي أن الأصـل في الاسـتثناء أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ومنهم مـن قـال: إن الاسـتثناء منقطع؛ أي أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه؛ واسـتدل هـؤلاء بقولـــه - تعـــالى - : ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهـف: ٥٠]، فقـال: «إن إبلـيس كـان مـن الجـن»، ويقـول النبـيُّ ﷺ: «خُلِقت الملائكةُ من نور، وخُلِقَت الجانُّ مِنْ مارجٍ مِنْ نَارٍ، وخُلِقَ آدمُ مما وصف لكم»[1]، وهذا القول أرجح، لكنـه يـشكل عليـه كيـف يكون إبليس من غير الملائكة ويصح أن يتوجه إليه الخطـاب في قولـه: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦).

والجواب عن هذا أن نقول: صحَّ أن يتوجه إليه الخطاب؛ لأنه كان في عامتهم؛ أي: أنه كان معهم يعمل بعملهم، ويتعبد كما يتعبدون، لكن غلب عليه الطبع الخبيث، فلما أُمِرَ بالسجود لآدم رأى أنه فوق مرتبة آدم، وأن الأعلى لا يمكن أن يُعظِّم الأدنى، فحمله إعجابه بنفسه، واحتقاره لآدم على أن يستكبر عن أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وبهذا يزول الإِشكال، وهنا قال: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ كان من الكافرين بإبائه واستكباره؛ وعلى هذا فلا تكون «كان» هنا دالة على المضي، ومنهم من قال: إنَّ «كان» دالة على المضي، ولكنه كان في علم الله من الكافرين، والأول أصح؛ أي أن المراد بها مجرد بيان اتصاف اسمها لخبرها، وهذا موجود في القرآن كثيرًا؛ أي أن تأتي «كان» مسلوبة الدلالة على الزمن، ويكون المراد بها مجرد تحقيق الصفة، ويقع ذلك كثيرًا في صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ألم تر إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، مع أنه لم يزل ولا يزال كذلك؟

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان فضيلة آدم؛ حيث أُمر الملائكة الكرام بأن يسجدوا له.

٢ـ أن عبادة الله هي طاعته حتى في الأمر الذي لولا أمره به لكان شركًا؛ فالسجود لغير الله شرك، ولكن إذا كان بأمر الله كان طاعة؛ كما

أن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالًا لأمر الله كان من الطاعة؛ فهذا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمره الله أن يقتل ابنه، وقتله من كبائر الذنوب بلا شك، ومع ذلك كان امتثال إبراهيم لهذا الأمر من أرفع المقامات لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لما ابتلاه واختبره بهذا الأمر العظيم، وعلم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنَّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ منفذ لأمره حتى تلَّه للجبين ليذبحه نزل الفرج من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنسخ هذا الأمر: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٧]، أقول: إن في هذه الآية دليل على أن الشيء قد يكون كفرًا أو كبيرة فإذا وقع بأمر الله كان طاعة وقربة.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إجراء الأحكام على الظاهر، وأن من كان متظاهرًا بعمل قوم فهو منهم ظاهرًا؛ ولهذا صحَّ توجه الخطاب من الله للملائكة إلى إبليس مع أنه ليس من جنسهم، لكنه لما كان فيهم يعمل عملهم توجه الخطاب إليه، وهكذا كان الرسول ﷺ يعامل من تلبس بالإسلام ظاهرًا معاملة المسلمين؛ ولهذا لم يقتل المنافقين مع أنهم كفار؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣]، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عاملهم معاملة الظاهر.

٤- وفي هذه الآية الكريمة من الفوائد الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة؛ لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثة حتى استكبر وأبى؛ فرجع إلى أصله، فالواجب على المرء الحذر من مثل هذه السريرة التي تكون في القلب، وأن يصقل قلبه دائمًا منها؛ حتى لا توقعه في الهلاك، وقد صحَّ عن النبي ﷺ: أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار؛ ففي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- «أنَّ رسولَ الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مالَ رسولُ الله ﷺ إلى عسكره، ومالَ الآخرون إلى عسكرِهِم، وفي أصحاب رسول الله رجُلٌ لا يدع لهم شاذة ولا فاذة[1]، إلا اتبعه يضربه بسيفه؛ فقالوا: ما أجزأ منا اليومَ أحدٌ كما أجزأ فلان؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أما إنَّهُ من أهلِ النار»؛ فقال رجلٌ من القومِ: أنا صاحِبهُ، قال: فخرج معه، كُلَّما وقف وقَفَ معه، وإذا أسرعَ أسرعَ معه، قال: فجُرِحَ الرجلُ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذُبابَه[2] بين ثَدْييه، ثُمَّ تحامل على سيفه؛ فقتل نفسه، فخرج الرجلُ إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهدُ أنَّكَ رسولُ

---

(١) أي: أنه لا يدع أحدًا؛ على طريق المبالغة، قال ابن الأعرابي: يقال: فلان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا كان شجاعًا، لا يلقاه أحد إلا قتله.

(٢) ذباب السيف: طرفه.

الله، قال:«وما ذاك؟» قال: الرجل الذي ذكرت آنفًا أنه من أهـلِ النـارِ، فأعظم الناسُ ذلك، فقلتُ: أنا لكم به، فخرجـتُ في طلبـه، ثُـمَّ جُـرِحَ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموت، فوضع نصل سـيفه بـالأرض وذُبابَـهُ بين ثَدْييه، ثُـمَّ تحامـل عليـه؛ فقتـل نفـسه؛ فقـال رسـول الله ﷺ عنـد ذلك:«إنَّ الرجُلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجَنَّةِ فيما يبدو للناسِ وهو من أهـل النَّار، وإنَّ الرجل ليعمل عمل أهلِ النار فيما يبدو للناس وهو من أهـلِ الجنَّة»[(١)]، وهذا يدل على أن في قلب الرجل سريرة أدت به إلى أن يقتـل نفسه، فالواجب على المرء أن يتفقد قلبـه في كـل وقـت وفي كـل حـين؛ حتى يطهره ويمحصه؛ لئلا تسوء خاتمته.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ترك السجود لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كفرٌ، وقد استدل بهذه الآية من قال: إن تارك الصلاة يكفـر، فقـال: إن إبليس كفر؛ لترك سجدة واحدة أُمر بها لغير الله، فما بالـك بمـن يـترك صلاة أمر اللهُ بها، وأن تكون لنفسه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيكـون كفـره مـن باب أولى، والاستدلال بهذه الآية على هذه المسألة فيه شيء من البحـث والنظر ـ والله أعلم.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقال فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢).

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

في هذه الآية الكريمة يخبر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه قال لآدم ممتنًّا عليه: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وزوجه هي حواء التي خلقها الله ـ تعالى ـ من ضلع آدم؛ فهي من آب بلا أم، والمراد بالجنة: إما جنة الخلد التي هي مأوى المتقين، وإما جنة في الدنيا، بستان ذو أشجار كثيرة، للعلماء في هذا قولان؛ القول الأول: أنها جنة المأوى التي هي مأوى المتقين، والقول الثاني: أنها جنة في الدنيا في الأرض، وهي عبارة عن بستان ذي أشجار كثيرة، والأقرب ـ والله أعلم ـ أنها جنة المأوى، جنة الخلد التي وعد المتقون؛ لأنها هي المعلومة عند الإطلاق، والأصل أنه إذا كان للَّفظ معنى مفهوم عند الإِطلاق؛ فإنه يُحمَلُ عليه إلا بدليل يدل على خلاف ذلك، وهذه القاعدة مفيدة في علم التفسير وغيره، أن الأصل في النصوص حملها على ما هو معلوم ومفهوم حتى يقوم دليلٌ على خلاف ذلك.

وأذن الله لهما أن يأكلا من هذه الجنة رغدًا بطمأنينة، وسعة، وكثرة حيث شاءا من أي مكان إلا أنه ـ سبحانه وتعالى ـ نهاهما عن قرب شجرة عيَّنها لهما بالإِشارة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ ـ ولم يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ جنس هذه الشجرة؛ لأنه ليس هناك ضرورة إلى

معرفة جنسها، المهم معرفة القضية ومغزاها، وبَيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنهما إذا قربا هذه الشجرة وأكلا منها؛ فإنهما يكونان من الظالمين، الظالمين لأنفسهما؛ لتعرضهما لما حصل؛ حيث أَخْرَجَهُما أَكْلُهما من الجنة.

من فوائد هذه الآية:

١ـ إثبات القول لله، وأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يخاطب من شاء من عباده بصوت مسموع وحروف مرتبة ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ الآية.

٢ـ ومن فوائدها: امتنان الله ـ سبحانه وتعالى ـ على آدم؛ حيث أسكنه وزوجه الجنة.

٣ـ ومن فوائدها: بيان قدرة الله ـ جلَّ وعلا ـ حيث خلق حواء من ضلعِ آدم من أب بلا أم، قال أهل الجنة: والإنسان باعتبار مبدإ خلقه أربعَة أقسام: قسم خُلق بلا أم ولا أب؛ مثل آدم؛ فإن الله خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فكان، وقسم خلق من أب بلا أم وهي حواء؛ خلقت من ضلع آدم، وقسم خلق من أم بلا أب وهو عيسى ابن مريم، والقسم الرابع مَنْ خلق من أبوين؛ أي: من أم وأب وهم سائر البشر، ومع هذا فإن الله ـ تعالى ـ يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ

عَقِيمًا ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، ففي هذه ـ أيضًا ـ أن الناس أربعة أصناف من حيث الإنجاب وعدمه؛ فمنهم من يهبه الله ذكورًا بلا إناث، ومنهم من يهبه الله إناثًا بلا ذكور، ومنهم من يزوجه الله؛ أي: يجعل نسله صنفين، والزوج بمعنى الصنف في هذه الآية، ولها نظائر؛ أي: أن الزوج يُرادُ به الصنف؛ كما في قوله: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص: ٥٨]، وقوله: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي: أصنافهم ونظراءهم، والصنف الرابع من يجعله عقيمًا لا يولد له، وكل هذا بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته.

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان ربما يختار ما هو أدنى على ما هو خير، لما تسول به نفسه له، فهنا آدم وحواء أذن الله لهما أن يأكلا رغدًا من حيث شاءا ومنعهما من شجرة واحدة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ ومع ذلك حصلت منهما مخالفة.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن التعيين يكون بالإشارة كما يكون بالنطق؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾؛ ولهذا لو قال الرجل: «زوجتي هذه طالق»؛ طلقت، وإن لم يسمها، ولو قال الرجل: «زوَّجتك ابنتي هذه»؛ انعقد النكاح وإن لم يسمها ما دامت تعينت بالإشارة، فالمهم أن في الآية دليلًا على أن التعيين، كما يكون بالنطق يكون ـ أيضًا ـ بالإشارة.

٦ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا أُريد حِمى المحارم نُهي عن قربها، وذلك حيث تدعو النفس إلى فعل هذا المحرم والقرب منه، فإن النهي يأتي عن قربه؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ فإن الزنى قد تدعو النفس إلى قربه وانتهاكه، وكذلك مال اليتيم لما لم يكن له من يحميه فإن النفس قد تتجرأ عليه فَنُهِيَ عن قربه.

٧ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإقدام على المحارم ظلم؛ لقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، ووجه كونه ظلمًا أن نفس الإنسان عنده وديعة وأمانة فيجب عليه أن يرعاها حق رعايتها، وألا يقدم على شيء يكون فيه مضرتها، فإن فعل فقد ظلمها؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾؛ أي: أوقعهما في الزلل، أو أزاحهما، وأزلقهما.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: علم أو وصف لهذا المخلوق الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وهو من «شاط»؛ بمعنى: «غضب»، أو من «شطن»؛ بمعنى: «بَعُدَ»، والاشتقاق الأخير أصحُّ؛ فالنون فيه أصلية، ولا شك أن الشيطان أبعد من يكون عن رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾؛ أي: عن هذه الشجرة؛ وعلى هذا تكون «عن» للسببية؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]؛ أي: ما فعلته فعلًا صادرًا عن أمري، وهنا تكون ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾؛ أي: إزلالًا صادرًا عن هذه الشجرة، وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ يعود إلى الجنة؛ أي: أزلها الشيطان عن هذه الجنة؛ بسبب المعصية التي فعلها آدم؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ أي: كان سببًا في إخراجهما مما كانا فيه من النعيم في هذه الجنة؛ وذلك بأن وسوس لهما، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢٠ـ١٢١]، مع أن الله ـ تعالى ـ قد نهاهما عن ذلك، وحينئذ أمرهما الله ـ تعالى ـ أن يهبطا منها فقال:

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، والضمير في قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ يعود على آدم وحواء، ووجَّهَ الخطاب إليهما بصيغة الجمع إما لأن أقل الجمع اثنان ـ كما قيل به ـ، أو لأن الخطاب يشملهما ويشمل ذريتهما؛ فإن ذرية آدم في صلبه، فإذا هبط هبطت الذرية، وقيل: إن الضمير يعود على آدم، وحواء، وإبليس، وأن الله أمرهم أن يهبطوا إلى الأرض بعد أن كانوا في السماء.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني: أن الشيطان عدو لآدم، وزوجه، وبنيه؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقوله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ المستقر: موضع القرار، والمتاع: ما يتمتع به الإنسان من طعام، وشراب، ولباس، وغيره، ولكن هذا المستقر والمتاع مؤجلان إلى أجل، إلى حين، وهو موت الإنسان؛ فإن الإنسان إذا مات انقطع متاعه من الدنيا، وانتقل منها إلى دار الجزاء، وهذا «الحين» غير معلوم، لا بالنسبة لكل واحد من الناس، ولا بالنسبة للجميع؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، ومن جهل مكان موته فهو بجهل زمان موته أولى، وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن الساعة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فوائد وأحكام هذه الآية:

١- بيان عداوة الشيطان للإنسان؛ لقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾؛ فإن من عداوته أنه كان سببًا في إغواء آدم وزوجه حتى خرجا من هذه الجنة التي أسكنهما الله -عَزَّ وَجَلَّ- فيها.

٢-إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وسببُ هذا الإِخراج أنه لما أكل آدم وزوجه من الشجرة ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[الأعراف: ٢٢]، وأمرهما الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالخروج منها.

٣-ومن فوائد الآية الكريمة: إضافة الشيء إلى سببه، وأن للأسباب تأثيرًا في مسبباتها؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛لأن الذي أخرجهما هو الله -عَزَّ وَجَلَّ-، أمرهما أن يهبطا من الجنة، ولكن السبب في هذا الإِخراج هو الشيطان، فنسب الإِخراج إليه؛ لأنه سببه، ولا ريب أن الأسباب مؤثرة في مسبباتها، ولكن تأثيرها في مسبباتها من الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ فهو الذي أودع فيها هذه القوة المؤثرة.وقد انقسم الناس في الأسباب على طرفين ووسط؛ فطرف من الناس غلا في إثبات الأسباب حتى جعلها مؤثرة بنفسها، وأنكر ما يخرج عن سنة الأسباب، ومن الناس مَنْ فَرَّط فيها ولم يجعل لها أثرًا في مسبباتها، وقال: إن المُسَبَّب يحدث عند السبب لا بالسبب، وكلا القولين خطأ؛

فإنَّ من المعلوم بالحس والعقل أن الحجر إذا رُميَ على زجاجة انكسرت به، وأن الورق إذا أُلقي في النار احترق بها، ولا أحد ينكر ذلـك، ومـن قال: إنه احترق عند إلقائه في النار لا بالنار، أو أن الزجاجـة انكـسرت عند ملامسة الحجر لا بـالحجر فقـد أبعـد النجعـة، ولكـن نقـول: إن الزجاجة انكسرت بالحجر؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل هذه الـصدمة سـببًا للكسر، والورقة احترقت بالنار؛ لأن الله جعل النـار محرقـة؛ ولهـذا إذا أراد اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يتخلَّف المُسَبَّبُ عن الـسبب تخلَّـف؛ فهـا هـو إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُلقِيَ في النـار العظيمـة التـي أضرمها قومه المكـذبون لـه؛ ليحرقـوه بهـا، فقـال الله ـ تعـالى ـ للنـار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت بردًا وسلامًا عليه ولم يحترق بهـا، وهـذا دليـلٌ عـلى أن الله ـ تعـالى ـ هـو الـذي يـودع في الأسباب ما يجعلها مؤثرة. وأما من قـال: إن الأسـباب مـؤثرة بـذاتها، وإنه لا يمكن أن يتخلَّف المسَبَّب عن السبب؛ فقوله ـ أيضًا ـ خطأ؛ فإن هذا يستلزم إنكار خوارق العادات التي يجريهـا الله ـ تعـالى ـ عـلى غـير الأسباب العادية، ولا أحد عنده علم بالسمع أو عقل راجـح إلا أنكـر هذا القول.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن آدم وحواء عوقبـا بـالإخراج مـن الجنة؛ بسبب معصية واحدة، فما بالك بمن كان عنده من المعاصي ما لا يعلمه إلا الله؟!! أفلا يكون معرضًا نفسه للعقوبة العظيمة؟! وإن كـان

المعلوم في الشريعة الإسلامية أن المعاصي ـ ما عدا المعاصي المخرجة من الإسلام ـ تحت مشيئة الله؛ إن شاء الله عذَّب عليها، وإن شاء عفا عنها وغفر؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العداوة بين الشيطان وآدم وبنيه؛ لقوله:﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ ويتفرع من هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان أن يحترز غاية الاحتراز من كيد الشيطان، وألا يخنع له، وألا يأتمر بأمره؛ لأنه عدو، وكل عدو للإنسان فإنه لن يحمله إلا على أسوأ الحالات؛ ولهذا حذرنا الله ـ تعالى ـ من الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

٦ـ.ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأرض هي مستقر بني آدم، بل مستقر آدم وبنيه؛ لقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٧- ومن فوائدها: أن هذا المستقر والمتاع لن يدوم، ولن يؤبد؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، وما كان غير دائم ولا مؤبد فهو سريع الانتهاء؛ لأن هذا المؤجل ينطوي بالساعات، بل بالدقائق، بل باللحظات، ولا

يمكن للحظة مرت أن تعود إليك مرة أخرى؛ ولهذا قيل: كل يوم يمضي على ابن آدم فإنه يبعده من الدنيا، ويدنيه من الآخرة؛ فيجب علينا أن نستعد، وأن ننتهز الفرصة بعمل ما يقربنا إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

❁ ❁ ❁

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

«التلقي» بمعنى الأخذ عن الغير؛ أي: فأخذ آدم من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كلمات أعلمه الله ـ تعالى ـ بها، ومنها قوله ـ تعالى ـ عن آدم وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ثم قال: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ ﴾؛ أي: تاب الله على آدم، وكذلك على زوجه؛ لأن قضيتهما واحدة؛ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهذه الجملة تعليلٌ لما سبق؛ أي: تاب عليه؛ لأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تواب رحيم، يتوب على من تاب ويرحمه، حتى يكون ـ أحيانًا ـ بعد التوبة خيرًا منه قبل فعل الذنب؛ ولهذا لم يحصل الاهتداء لآدم ـ فيما نعلم ـ قبل أن يتوب إلى الله ـ تعالى ـ مما جرى منه من المعصية.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ـ مِنَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على آدم بما ألهمه من هذه الكلمات التي كانت بها توبة الله عليه؛ لقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ ﴾.

٢ـ أن ربوبية الله تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة تقتضي تمام الملك، والتدبير، والتصرف في الخلق، وهي شاملة لجميع المخلوقات، وربوبية خاصة تقتضي العناية والتربية الخاصة، وهي التي تكون لعباد الله المخلصين، ومنها قوله ـ تعالى ـ هنا ـ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾.

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ تعالى ـ تاب على عبده، بل قد قال الله ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وتوبة الله على العبد تتضمن العفو عن الذنب، وصفحه عن العباد، وعدم المؤاخذة عليهم، وما دمنا في الكلام عن التوبة؛ فإننا نقول: إذا تاب العبد إلى الله توبة نصوحًا؛ تاب الله عليه، **والتوبة النصوح هي التي جمعت شروطًا خمسة:**

الأول: الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بألا يحمله على التوبة إلا الخوف من الله ورجاء ما عنده من الثواب.

الثاني: الندم على ما وقع منه من الذنوب؛ بحيث يحزن، ويتأثر، ويتمنى أن لم يكن فعل هذه الذنوب.

الثالث: الإقلاع عن الذنب؛ بأن يتخلص منه، فإن كان واجبًا قام به، وإن كان محرمًا فارقه، وإن كان للعباد أدَّاه إليهم.

الرابع: العزم على ألا يعود في المستقبل.

الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبلُ فيه؛ وذلك بأن تكون قبل الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الشمس إذا طلعت من مغربها لا تُقبلُ التوبة، وإذا حضر الموت لم تقبل التوبة؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨]، ولقوله ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ «وبعض الآيات» هي طلوع الشمس من مغربها؛ كما فسرها بذلك النبي ﷺ(١)، نسأل الله أن يمنَّ علينا بالتوبة وقبولها؛ إنه جواد كريم.

٤ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله؛ وهما **«التواب»** و**«الرحيم»**؛ التواب: هو الذي يُوفِّقُ إلى التوبة، ويقبل التوبة من التائب؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ فهو التواب الذي يوفِّق للتوبة، وهو التواب الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، وجاءت بصيغة المبالغة

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، رقم (٣٠٧١).

«التوَّاب»؛ لأن هذه صفة لازمة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فمن صفاته الكاملة التوبة؛ ولأن المذنبين الذين يتوبون إلى الله كثيرون، وأما «الرحيم» فهو ذو الرحمة الواصلة إلى من شاء من عباده؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال أهل العلم: ورحمةُ الله ـ تعالى ـ نوعان: عامة وخاصة؛ فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق، فإن كل الخلق داخلون في رحمة الله العامة التي بها قوام البدن وقوام الحياة؛ ولهذا نقول: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد رحم الكفار بما أعطاهم من نعم الدنيا؛ من عقل، وصحة، وطعام، وشراب، ولباس، ومنكح، ومسكن، وغير ذلك، كما أنه راحم للمؤمنين بهذا؛ وأما الرحمة الخاصة: فهي التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذه خاصة بالمؤمنين؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ منَّ على المؤمنين بما رحمهم به من العلم النافع، والعمل الصالح، والإيمان، والتقوى، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

واعلم أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ تتضمن الدلالة على ذاته،

وعلى الصفة، وعلى الأثر والحكم إذا كانت متعدية؛ فالعظيم ـ مثلًا ـ اسم من أسماء الله دالٌّ على ذات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعلى عظمة الله، والرحيم اسم من أسماء الله دالٌّ على ذات الله، وعلى رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعلى الأثر المترتب على هذه الصفة؛ وهو أنه يرحم من يشاء؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

* * *

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾؛ كالتوطئة والتمهيد لما بعده؛ يعني: اهبطوا من الجنة جميعًا، وسوف يأتيكم الهدى مني.

وينقسم الناس في هذا الهدى إلى قسمين: قسم يتبع هدى الله؛ فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقسم آخر يكفرون ويكذبون بآيات الله؛ وهؤلاء هم أصحاب النار هم فيها خالدون.

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾، نقول في الخطاب ـ هنا ـ في قوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ ما قلناه في الخطاب السابق.

وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾، هذه الجملة شرطية؛ فيها: «إن» الشرطية المدغمة بـ«ما»، وفعل الشرط فيها «يأتينكم»، وجواب الشرط

مركب من قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والمعنى: إن أتاكم مني هدى فإن من اتبع هذا الهدى فليس عليه خوف مما يستقبل، ولا حزن على ما مضى، أما كونه لا خوف عليه في المستقبل؛ فلأنه عمل ما يحصل به الأمن من اتباع هدى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأما كونه لا يحزن؛ فلأنه استغل وقته في طاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ- فلا يحزن على ما مضى منه؛ لأنه لم يفرط بل اكتسب فيه خيرًا، والذي يحزن هو الذي يفوته مطلوبه أو يحصل له مرهوبه، وأما الكافر المكذب بآيات الله؛ فهذا جزاؤه أن يخلد في نار جهنم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وأصحاب النار هم أهلها الملازمون لها، والخلود هو المكث الدائم، هذا هو الأصل في الخلود إلا أن يقوم دليل على أن الخلود مؤقت فيتبع الدليل.

من فوائد هذه الآية:

١- أن من حسن التعليم، والتوجيه، والإرشاد التوطئة للكلام والتمهيد له، حتى وإن حصل في ذلك تكرار؛ لقوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، مع قوله فيما سبق: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

٢- أن الله -سبحانه وتعالى- برحمته وحكمته لم يكل الأمر في عبادته إلى عقول البشر، بل جاءهم بما فيه هدى، وذلك عن طريق الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ كما قال -تعالى-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا

رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

٣- أن ما جاء به الرسل هدى يهتدي بـه النـاس في ظلـمات الجهـل والكفر.

٤- أن الهدى من الله؛ ويتفرع عن هذا ألا تطلب الهدى إلا من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فتكون ـ دائمًا ـ مُلحًّا على ربك بطلب الهداية حتـى تـستقيم على أمر الله على بصيرة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٥- أن الله أضاف هذا الهُدى إلى نفسه؛ لـيُعلَم أن هـذا الهـدى حـق ليس فيه باطل، ولا تناقض، ولا اختلاف؛ قال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعـام: ١١٥]، وقال ـ تعـالى ـ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

٦- أن من اتبع هدى الله فقـد نجـا وسـلم، وأَمِـنَ مـن الخـوف في المستقبل، ومن الحزن على ما مضى.

٧- أن المؤمن المتبع لهدى الله هو الذي غنم؛ غنم وسلم، فلا يحـزن على ما مضى من زمانه؛ لأنه استغلَّه فيما ينفع، ولا يحزن على ما يستقبل؛ لأنه قد وُعد بالثواب الجزيل، والنجاة من العقاب؛ لاتباعه هـدى الله ـ عزَّ وجلَّ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

هذه الآية الكريمة قسيمة للآية التي قبلها؛ فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر في الآية التي قبلها ثواب الذين اتبعوا هدى الله بالإيمان والعمل الصالح، وذكر ـ هنا ـ ما يُقابِلُهم من الكفار الذين جمعوا بين الكفر والتكذيب، بين الكفر وهو الاستكبار عن آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وترك العمل بها، والتكذيب بالخبر؛ فهم كافرون بالأمر، مكذبون بالخبر، مكذبون ما أخبر الله به في كتبه المنزلة، وما أخبرت به رسله، وهؤلاء القوم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله هم أصحاب النار، أهلها الملازمون لها، المخلدون فيها.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ ـ كمال هذا القرآن؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا ذكر فيه أهل الجنة وثوابهم ذكر بعد ذلك أهل النار وعقابهم في الغالب، وهذا من معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر: ٢٣]. أي: تثنى فيه الأحكام والمعاني، ولا ريب أن هذا من كمال البلاغة؛ فإن الإنسان لو أتاه الخطاب بالرجاء دون التخويف لأدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، ولو جاءه الخطاب بالتحذير والتخويف لأدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله، فجاء القرآن الكريم النازل من

عند الله بالتقسيم والمقابلة، إذا ذكـر شـيئًا ذكـر مـا يقابلـه حتـى يبقـى الإنسان دائرًا بين الرجاء والخوف؛ ولهذا قـال الإمـام أحمـد: ينبغـي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا؛ فإن غلب أحدهما هلك صاحبه.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التكذيب بآيات الله كفـر موجـب للخلود في النار، ولكن التكذيب أحيانًا يـذكر وحـده، وأحيانًـا يـذكر مقرونًا بالكفر، فإذا ذكر مقرونًا بالكفر حُمل على تكذيب الخبر، وحُمل الكفر على ترك الأمر.

وآياتُ الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ تنقـسم إلى قـسمين: آيـات كونيـة، وآيات شرعية؛ فالآيات الكونية هي مخلوقات الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ؛ فإن المخلوقات آيات دالة على الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والتكذيب بهـا؛ أي: بالآيـات الكونيـة يكـون بإضـافة هـذه الآيـات إلى غـير الله؛ كالـذين يضيفونها إلى الطبيعة، أو بإثبات مشارك لله فيها؛ كالذين يقولون: هـذا الشيء أوجده الـولي الفـلاني مـع الله، أو باعتقـاد أن لله ـ تعـالى ـ فيهـا معينًا، فكلُّ هذا من التكذيب بآيات الله والإلحاد فيها.

وأما الآياتُ الشرعية فهي ما جاءت بـه الرسـل ـ علـيهم الـصلاة والسلام ـ من الكتب المنزلة من عنـد الله؛ لأن هـذه الكتـب فيهـا مـن التعظيم للخلق في عبـادتهم ومعـاملاتهم مـا يعجـز البـشر عـن مثلـه، والقرآن الكريم قد تحدَّى اللهُ بـه الخلـقَ جميعًـا أن يـأتوا بمثلـه؛ قـال ـ

تعالى ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨]، بل قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: ١٣]، بل تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨].

٣ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الكفار المكذبين بآيات الله ملازمون للنار؛ لأنهم أصحابها لا يخرجون منها أبدًا؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [الحجر: ٤٨].

٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الخلود في النار، وهو خلود مؤبد ذكَر الله ـ سبحانه وتعالى ـ تأبيده في ثلاث آيات من كتابه؛ في سورة النساء في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وفي سورة الجن في قوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة تأبيد الجنة وتأبيد النار أيضًا، وأنه لا فرق بينهما، وإن كان قد وُجِدَ خلاف يسير لكنه مرجوح، والخلاف الذي وقع هو أن بعض السلف رُوي عنهم أن

النار غير مؤبدة، لكنه قولٌ مخالفٌ لصريح القرآن؛ فلا يعوَّلُ عليه، قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

* * *

ثم قال الله ــ سبحانه وتعـالى ــ: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

الخطابُ هنا موجَّهٌ لبني إسرائيل؛ وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ ويعقوب هو أبو يوسف، وهو أبو بني إسرائيل؛ فإنهم كلهم يجتمعون فيه، ومعنى إسرائيل: العابد لله، ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: تَذَكَّروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم؛ لتقوموا بشكرها، فتتبعوا محمدًا ﷺ وتؤمنوا به، ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: في السابق واللاحق؛ لأن بني إسرائيل أمة واحدة سابقهم ولاحقهم؛ ولهذا يذكر الله ـ تعالى ـ ما أنعم به على بني إسرائيل في عهد موسى ممتنًّا به على بني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ؛ لأنهم أمة واحدة، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ يعني: أوفوا بعهدي الذي عاهدتكم به؛ وعليه أوفِ بعهدي الذي عاهدتكم به وعليه، وهذا العهد مُبَيَّـنٌ في قوله ــ تعالى ــ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا

وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، **فالعهد الذي أخذه عليهم هو قوله:** ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢].

والعهد الذي لهم على الله أوجبه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على نفسه: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا؛ ولهذا قيل: إنه يُرْجَعُ في تفسير القرآن إلى القرآن، ثم إلى السنة، ثم إلى تفسير الصحابة، ثم إلى تفسير كبار التابعين.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ كما أمرهم أن يوفوا بعهده ووعدهم أن يوفي بعهدهم أمرهم أن يرهبوه؛ حيث قال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾؛ والرهبة هي أشد الخوف.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ في هذه الآية من الفوائد تذكير بني إسرائيل بنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم في السابق واللاحق.

٢ـ **ومن فوائدها:** أنه يجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه وعلى من سبقه حتى يحدث بذلك شكرًا لله على هذه النعمة؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المتفضل بالنعم أولًا، وهو الذي يتفضل بها ثانيًا؛ بإعانة الإنسان على شكر هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه.

٣ـ **ومن فوائدها:** بيان كرم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث جعل على نفسه عهدًا أن يوفي لمن أوفى بعهده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها:** إثبات الصفات الفعلية لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها:** توحيدُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالرهبة؛ لقوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، والإنسان لابد له من رغبة ورهبة؛ رغبة فيما عند الله، ورهبة فيما يفعله من أسباب عقوبة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فالله عنده الثواب العظيم للمحسن، وعنده العقاب الأليم للمسيء؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل على سياق الخطاب السابق؛ فقد كان في المدينة من بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ ثلاث قبائل: «بنو النضير»، و«بنو قينقاع»، و«بنو قريظة»، فوجَّه اللهُ إليهم هذا الخطاب: أن يؤمنوا بما أنزل مصدقًا لما معهم؛ يعني: لما معهم من التوراة، والتصديق لما معهم له معنيان: **الأول**: أنه جاء مطابقًا لما أخبرت به، **والثاني**: أنه شاهد لها بالصدق؛ فهو مُصَدِّقٌ لها؛ أي: شاهد لها بالصدق، وهو مصدق لها؛ أي: واقع على حسب ما أخبرت به؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد شهد القرآن الكريم بأن التوراة والإنجيل كليهما من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ﴾، الخطاب ـ هنا ـ من الله لبني إسرائيل؛ حيث ينهاهم عن أن يكونوا أول كافر به،

وقد استشكل بعض أهل العلم قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾؛ حيث كان مفردًا مع أن الخطاب إلى جماعة، وأجيب عن ذلك بأن المراد: لا تكونوا أول فريق كافر به، والفريق جمع؛ يعني: لا تكونوا أول من يكفر به مع أن عندكم علمًا بأنه حق؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فإنه إذا كنتم أول فريق كافر به مع علمكم بأنه حق كان ذلك أشد وأقبح.

ثم قال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾؛ أي: لا تأخذوا ثمنًا قليلًا بدلًا عن العمل بآياتي، وذلك بتقديم الرئاسة على ما جاء به الرسول ﷺ؛ فإن بني إسرائيل كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون: سيُبعثُ نبيٌّ، ونتبعه، ونغلبكم، ولما بعث محمد ﷺ من بني إسماعيل حسدوهم، وقالوا: إن هذا ليس هو النبي الموعود، فاشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ليبقوا على رئاستهم، ولكن صار الأمر بالعكس ـ ولله الحمد ـ؛ فلم يبقوا على رئاستهم، بل فتح المسلمون بلادهم؛ ففتحوا بلاد الشام وهي مستوطن الروم النصارى، وفتحوا بلاد العراق وهي مستوطن المجوس الفرس، واستولى ـ ولله الحمد ـ المسلمون على بلاد هؤلاء، فأورثهم الله أرضهم، وديارهم، وأموالهم.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾، نقول في هذه الآية ما سبق في قوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، وهنا أمرهم بالتقوى؛ والتقوى: اتخاذ الوقاية

من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أن اليهود والنصارى مخاطبون بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ، ملزمون به، وعندهم شاهد على صدقه؛ حيث كان ما جاء به محمد ﷺ مصدقًا لما معهم؛ وعلى هذا فإذا كفروا به لم يكونوا مؤمنين، وإن قالوا: نحن نؤمن بالله واليوم الآخر، فإنهم لا يتم لهم ما أرادوا حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ ولهذا أقسم ﷺ أنه لا يسمع به يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جاء به إلا كان من أصحاب النار؛ حيث قال ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به إلَّا كان من أصحاب النَّار»[1].

٢ـ ومن فوائدها: أن القرآن منزل من عند الله، والقرآن ـ كما نعلم ـ كلام، فإذا كان نازلًا من عند الله وهو كلام؛ فلا يكون إلا بمتكلم به؛ فدلَّ هذا على أن القرآن كلام الله، وهذا ما أجمع عليه سلف الأمة: أن القرآن كلام الله منزل.

٣ـ ومن فوائدها: إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ والإنزال لا يكون إلا من فوق، وإذا كان الكلام كلام الله، وهو صفة من صفاته،

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٣).

ووصف بأنه منزَّل؛ دلَّ على أن المتكلم به عـالم فـوق العبـاد ـ سـبحانه وتعالى.

٤ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان كلما كان معه الحق يستطيع أن يتبعه، ولكن لو نكص على عقبيه كان أشد لومًا من الإنسان الجاهـل؛ لقولـه: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ فـإن قولـه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ كالبرهان الملزم لهـم بـالإيمان؛ لأنَّ هـذا القـرآن لم يـأتِ بـأمر غريب لا يعرفونه، بل أتى بأمر يعرفونـه ويعلمـون أنـه حـق، لكـنهم استكبروا وأبوا؛ حسدًا من عند أنفسهم.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن بنـي إسرائيـل ـ بـما عنـدهم مـن العلم بأن ما جاء به محمد ﷺ حـق ـ كـان الأليـق بهـم أن يكونـوا أول مؤمن به، ولكنهم كانوا كافرين بـه؛ ولهـذا قـال: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ مع أن قريشًا كانوا كفروا به من قبل، لكن لما كانت قريش لـيس معهم كتاب، وهؤلاء معهم كتاب يصدقه ما جـاء بـه محمـد ﷺ كـانوا أول كافر به مع العلم بأنه حق.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ما في الدنيا قليل ولو كثر؛ لقولـه: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يجوز طلب العلم الشرعي مـن أجل الدنيا؛ لأن طلب العلـم الـشرعي مـن أجـل الدنيـا نـوع مـن

الاشتراء بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ طلبَ علمًا وهو مما يبتغى به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عَرَضًا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة»(١).

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوبُ تقوى الله وإفراده بذلك؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾؛ فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، ولا ينافي هذا قوله -تعالى-: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ لأن المراد في قوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ اتقوا ما يكون في هذا اليوم مما يقدره الله -عَزَّ وَجَلَّ- من الأهوال العظيمة والعقاب لمن كذب.

* * *

ثم قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

فالخطاب هنا لبني إسرائيل؛ لأن السياق واحد، ومعنى قوله: ﴿تَلۡبِسُواْ﴾؛ أي: تخلطوا الحق بالباطل حتى يلتبس ويشتبه على الناس، والحق في اللغة: الشيء الحق؛ أي: الثابت الذي لا يتزعزع، والباطل عكسه؛ أي: الشيء الذاهب سدى، الذي لا يثبت، ولا يبقى، والمراد

---

(١) الحديث في أمالي ابن الشجري (١/ ٤٣)؛ وإتحاف السادة المتقين، للزبيدي (١/ ٣٦٣)؛ والمغني عن حمل الأسفار، للعراقي (١/ ٦١)؛ انظر موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف (٨/ ٣٦٩).

بالحق ـ هنا ـ ما جاءت به الرسل من وحي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ كـما قـال ـ تعالى ـ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، والباطل مـا خالف ذلك، وبنو إسرائيل عندهم الأحبـار والرهبـان يخلطـون الحـق بالباطل كالكُهَّان، يصدقون مرة واحدة ويكذبون مائة مـرة؛ فهـؤلاء ـ أيضًا ـ يأتون بالحق؛ ولكن من أجل التمويه حتـى يقـول القائـل: هـذا الذي قاله حق، ثم يلحق به كل ما قالوه مـن الباطـل؛ فيلتـبس الأمـر؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾؛ أي: لا تخلطوه به حتى يلتبس ويشتبه.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهذه طريقة أخـرى مـن طـرقهم أنهم يكتمون الحق، فلا يبدونه؛ خوفًـا مـن أن يتبعـه النـاس، وهـم لا يريدون من الناس أن يتبعوا الحـق؛ بـل يريـدون أن يتبعـوا أهـواءهم، وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حال من الفاعل في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾، وفي قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا﴾؛ أي: تعلمون أنكم فعلتم ذلـك فكتمـتم ولبـستم، وهذه الجملة الحالية تفيد بيان مأخــذ اللـوم علـيهم، وأنهـم لم يفعلـوا هذا الفعل ـ وهو لبس الحق بالباطل أو كتمان الحق ـ عن جهـل مـنهم، ولكن عـن علـم وإصرار، فيكـون هـذا أظهـر في عنـادهم وأَبْيَــنَ في استكبارهم عن الحق.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- **من فوائدها:** تحريم لبس الحق بالباطل؛ لأن الله ـ تعالى ـ نهى عنه بني إسرائيل، وما نُهِيَ عنه بنو إسرائيل مما هو قبيح لذاته يُنهى عنه سائر الأمم؛ ويتفرع عن هذه الفائدة التحذير مما يصنعه أهل البدع من زخارف القول التي يريدون بها أن يمكنوا بدعهم في قلوب الناس، فإنك إذا قرأت كتبهم ظننت أن الحق معهم، ولكن عند التأمل يتبين أنهم يريدون إلباس الحق بالباطل؛ ولهذا تجدهم يأتون بعبارات مجملة؛ فيقولون ـ مثلًا ـ: إن الله ـ تعالى ـ ليس في حيز، وليس في جهة، وليس بجسم، وما أشبه ذلك من العبارات التي يريدون بها التوصل إلى إنكار صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وإنكار علوه على خلقه، فإذا قرأ القارئ مثل هذا الكلام، وما نبهوا به من العبارات التي يحسبها الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، إذا قرأ القارئ هذا الذي كتبوا ظن أن هذا هو الصواب.

٢- **ومن فوائدها:** أن من سلك هذا المسلك من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود والنصارى، فعليه أن يحذر من ذلك؛ لأن من تشبَّه بقوم فهو منهم.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم كتمان الحق، وكتمان الحق يكون في حالتين: **الحالة الأولى:** أن يسأل سائل عن الحق فيُكْتَمُ الحق

عنه ولا يُجابُ به؛ لغرض من أغراض الدنيا، والحالة الثانيـة: أن يحتـاج الناس إلى بيان الحق وإن لم يسألوا، فإذا رأى العالم النـاس محتـاجين إلى الحق وجب عليه بيانه، وإن لم يسألوه، والفرق بـين الحـالتين أن الحالـة الأولى التي يكون فيها الكتمان عند سـؤال الـسائل يقـع الـسؤال فيهـا بلسان المقال، أما الثانية فيقع السؤال فيها بلسان الحال.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه إذا كتم الحق مع العلم به كان أشد قبحًا، أما إذا لم يعلم به الإنسان فإنه لا يجوز أن يـتكلم بـه أصـلًا؛ لأنه إذا تكلم بما لا يعلم فقد قال على الله ما لا يعلم، وهذا مـن المحـرم الذي حرمه الله في كتابه في قولـه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* * *

ثـم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ يعني: ائتوا بها مستقيمة تامـة، ولـيس المراد بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قوموا بالإقامة التي هي إعلام بالقيـام بالصلاة.

وقوله: ﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أعطوهـا لمـستحقها، والزكـاة هـي

جزء معين في أموال مخصوصة تدفع لمستحقها.

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ أي: اخضعوا لله -عَزَّ وَجَلَّ- مع الخاضعين له، فيكون المراد بالركوع -هنا- مطلق الذل؛ لأن الركوع في اللغة العربية يراد به مطلق الذل؛ كما في قول الشاعر:

ولا تُهِنِ الفقيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْ ... كَعَ يومًا والدهرُ قَدْ رَفَعَهْ

ويحتمل أن يكون المراد به ركوع الصلاة، ويكون تخصيصًا بعد تعميم؛ لأن قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يشمل إقامتها بقيامها، وركوعها، وسجودها، وقعودها.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- وجوب إقامة الصلاة؛ لأن الله -تعالى- أمر بها، والأصل في الأمر الوجوب، ولكن الإقامة -إقامة الصلاة من حيث الواقع- تنقسم إلى قسمين: **إقامة واجبة**؛ وهي أن يأتي بواجبات الصلاة، وأركانها، وشروطها؛ أي: أن يأتي بما لا تصح الصلاة إلا به، فهذه إقامة واجبة لابد منها، وإقامة غير واجبة؛ وهي أن يأتي بمكملات الصلاة التي تصح الصلاة بدونها، وكله مأمور به، لكن ما لا تصح الصلاة بدونه مأمور به على الوجوب، وما تصح الصلاة بدونه مأمور به على سبيل الاستحباب.

٢ـ ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب إيتاء الزكاة؛ وهي المال المدفوع لمستحقه من أموال معينة معروفة عند أهل العلم.

٣ـ ومن فوائدها: أهمية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأن الله أمر بهما وخصَّصهما بعد قوله: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ مع أن التقوى تشمل فعل جميع الأوامر وترك جميع النواهي.

٤ـ ومن فوائدها: فضيلة الركوع في الصلاة إذا قلنا بأن المراد بالركوع الركوعُ في الصلاة، أما إذا قلنا بأن المراد بالركوع التواضع لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والذل له؛ فإن في الآية فائدة وهي وجوب الذل لله والخضوع له.

٥ـ ومن فوائدها: ما استدل به بعضُ العلماء على وجوب صلاة الجماعة؛ لأنه قال: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وهذا الاستدلال محل نظر وتأمل؛ لأن الآية ليست صريحة في ذلك؛ إذ يحتمل أن يكون المعنى كونوا معهم في الجملة؛ أي: اركعوا كما يركع الناس، ولا يلزم أن يكون في ذلك مصاحبة، والعلم عند الله.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

الخطاب ـ هنا ـ لبني إسرائيل، والاستفهامُ للتوبيخ والإنكار؛ يعني: كيف تأمرون الناس بالبر وتتركون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟!

وقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾؛ البِرُّ هنا: كل ما يقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الطاعات، ويدخل في ذلك ـ أيضًا ـ ترك المعاصي؛ لأن البر إذا ذكر وحده شمل فعل الطاعات وترك المعاصي، وإذا قُرن بالتقوى صار المراد بالبر فعل الطاعات، والمراد بالتقوى ترك المحرمات.

وقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تتركونها، لا تأمرونها بالبر، ولا تهتمون بها، والحال أنكم تتلون الكتاب المُنَزَّل عليكم، وتعرفون ما فيه من بشاعة هذا المنهج؛ وهو أمركم الناس بالبر مع نسيان أنفسكم، ثم وبَّخَهُم اللهُ مرةً أخرى بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أن فعلكم هذا ليس فعل ذي عقل؛ لأن العاقل يبدأ أول ما يبدأ بنفسه، ثم يثني بإصلاح غيره.

فوائد الآية الكريمة:

١ـ الإنكار الشديد على من يأمر الناس بالبر ولا يفعله؛ لقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٢ـ أن هذا المنهج كما هو مخالف للشرع فهو مخالف للعقل؛ لقوله:

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

٣- أن هذا المنهج يوجب ألا يـأتمر النـاس بـأمر الآمـر ولا ينتهـوا بنهيه؛ لأنهم سيقولون: لو كان هذا خيرًا لكان أول من يفعله، ولو كان شرًّا لكان أول من يجتنبه، فكيف يأمرنـا ولا يفعـل أو ينهانـا ويفعـل؟ فيكون في هذا منع لسلوك الناس سبيل البر.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن الإنسان ينبغي له ـ إن لم نقل يجب عـليه ـ أن يبدأ بنفسه، وقد دَلَّت السنة على ذلك؛ قال النبي ﷺ: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك**»(١)، ولا ريـب أن أقرب شيء إليك هو نفسك، فكونك تـسعى لإصـلاح غـيرك مـع فساد نفسك، لا شك أن هذا خلاف الشرع وخلاف العقل.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العالم يلحقه من اللوم ومـن الـذم أكثر مما يلحق الجاهل؛ لقوله هنا: ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَـٰبَۚ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل ما يخالف الشرع فهـو مخـالف للعقـل، لكـن المـراد بالعقـلِ العقـلُ الـصحيحُ الـسالمُ مـن الـشبهات والشهوات، أما العقل الفاسد المغمـور بالـشهوات والـشبهات فلـيس بعقل؛ ولهذا يصف الله الكفار بـأنهم ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقـرة: ١٧١]، مع أنهم أذكيـاء، لكـن الـذكاء شيء والعقـل شيء آخـر؛

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس، ثم أهله، ثم القرابة، رقم (٩٩٧).

فالعقل ما يعقل الإنسانَ عما يضره ويمنعه مما يضره، والذكاء هو سرعة إدراك الأمور وفهمها.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

في الآية الكريمة الأولى يأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالاستعانة بأمرين: الصبر والصلاة؛ فالصبر حبس النفس عن التشكي والتسخط، والصلاة هي التعبد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالعبادة المعروفة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم، ويبين أن الاستعانة بالصبر والصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، أو أن الصلاة نفسها كبيرة إلا على الخاشعين؛ والخشوع هو الذل، بل هو أعظم الذل وأكمله، والمراد بذلك الخشوع لله ـ عزَّ وجلَّ.

أحكام وفوائد هذه الآية:

١ـ طلب الاستعانة بالصبر في مكابدة الأمور؛ لأن الإنسان الذي لا يصبر لا يتم له مطلوبه؛ فإن كثيرًا من الأمور لا تأتي الإنسان بسهولة، بل تحتاج إلى تحمل وصبر، وقد ذكر أهل العلم ـ رحمهم الله ـ أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فأما الصبر على طاعة الله فهو أن يقوم الإنسان بأوامر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ غير متضجر ولا ضائق بها صدره، بل

يتقبلها بانشراح وسرور، حتى يقوم بالعبادة وهـو يحـب أن يقـوم بهـا، وأما الصبر عن محارم الله فهو الكف عما حرم الله عليه، سواءٌ أكـان ممـا يتعلق بحقـوق الله، أو مـا يتعلـق بحقـوق العبـاد، فيكـف نفـسه عـن العدوان، والظلم، والكذب، وعما هو أعظـم مـن ذلـك مـن الـشرك، والكفر، ونحو هذا، والثالث: الصبر على أقـدار الله المؤلمـة؛ لأن أقـدار الله ـ تعالى ـ قد تكون ملائمة للإنسان يفرح بها، ويطمئن إليهـا، ويُـسَرُّ بها، وهذه لا تحتاج إلى صبر، اللهمَّ إلا إذا صبر على شـكرها، والثانيـة: أقدار مؤلمة شاقة على الإنسان، يتعب منها، فهذه تحتاج إلى مصابرة وإلى تحمل عنائها، فكلما مرَّن الإِنـسان نفـسه عـلى الـصبر والتحمـل؛ ازداد ثباتًا، وحصل له من مطلوبه مـا لم يحـصل لـهِ لـو تـضجر، وهـذا شيء مجرب؛ فإن الإنسان إذا تمـرَّن عـلى الـصبر والتحمـل صـار عنـده مـن مدافعة الأمور ما ليس عند غيره.

٢ـ الاستعانة بالصلاة على مكابدة الأمـور أيـضًا، وقـد ذكـر عـن رسول الله ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر ـ يعني كربه أو شقَّ عليه ـ فـزع إلى الصلاة[١]؛ وذلك لأن الصلاة تنسي الإِنسان الدنيا إذا كان مخلصًا فيها؛ فإن الإنسان يقـف بـين يـدي الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ يناجيـه ويتقـرب إليـه بتعظيمه وتلاوة كتابه، ويناجيه بالدعاء؛ يقول: رب اغفر لي، وارحمني،

---

(١) انظر منتخب كنز العمال (٣/ ١٤٨).

وما أشبه ذلك؛ فيتسلى بها الإنسان عن أمور الدنيا، وحينئذ يتحمل المشاق؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكُم النساءُ والطيبُ، وجُعلت قُرَّة عيني في الصلاة»(١)؛ فهي قرة عين المؤمن.

ويذكر عن عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ وهو من الفقهاء السبعة الذين اشتهروا في زمن التابعين ـ أنه أصابته آكلة في رجله، وقرر الأطباء أنه لابد من قطعها، ولم يكن في ذلك الوقت بِنْجٌ يُبَنَّجُ به الإنسان، فقال لهم: إذا دخلت في الصلاة فأتوا واقطعوها؛ لأنه إذا دخل في الصلاة اشتغل بها عما سواها؛ فتقطع رجله وهو لا يشعر؛ لشدة تعلقه بالله ـ سبحانه وتعالى.

٣ـ ومن فوائدها أيضًا: أن الخاشع المطمئن لأمر الله المُخبت له تسهل عليه الصلاة، ويسهل عليه الصبر، ولا تكون أمرًا شاقًّا عليه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

* * *

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أي: يتيقنون ذلك؛ كما قال الله ـ تعالى ـ:

---

(١) رواه الإمام أحمد؛ والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)؛ والحاكم؛ والبيهقي؛ ورمز له السيوطي بإشارة الحسن، انظر الجامع الصغير (١/ ٢٢٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]؛ فهم موقنون بأنهم ملاقو ربهم، راجعون إليه، وأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - سيحاسبهم على أعمالهم.

أحكام وفوائد هذه الآية:

١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات لقاء الله، وأن الإنسان سيلاقي ربَّه، وهو كذلك؛ قال - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

٢- ومن فوائدها: الثناء على الموقن بهذا اللقاء؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ أي: يتيقنون.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أن هذا اليقين أو العلم سبب للسعادة وللتَّقَوِّي على الأعمال الصالحة؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيرجع إلى ربه عمل لذلك عمله، بخلاف الإنسان الغافل الذي لا يهتم بما أمامه، فنسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلنا جميعًا من المهتدين بآياته، القائمين بمرضاته؛ إنه جواد كريم.

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

في هـاتين الآيتـين يُـذكِّرُ الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ بنـي إسرائيـل؛ وإسرائيل هو يعقوب ابن إسحاق بن إبـراهيم الخليـل ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ يُذكِّرُهم بنعمته التي أنعم الله بها عليهم، وما أكثر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل؛ ومنها أنه فضَّلهم على العالمين؛ أي: عـلى عالم زمانهم، ليس على العالمين إلى يوم القيامة؛ لأن هـذه الأمـة أفـضل الأمم وأكرمها على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ كما قال ـ تعـالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم يأمرهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يتقـوا ذلك اليوم الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئًا؛ فلا أحد يغني غيره، بل لكل امرئ يومئذ شـأن يغنيـه، ولا يقبـل مـن الـنفس شـفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ أي: فدية، بل كل إنسان مرهون بعمله لا يُنـصر، ولا يقبل منه شفاعة، ولا يؤخذ منه عدل.

ما يستفاد من هاتين الآيتين من صور:

١- بيان نعمـة الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ عـلى بنـي إسرائيـل؛ حيـث ذكَّرهم بهذه النعمة: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ﴾، وهـي مفـرد مـضاف؛ فيـشمل جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم.

٢- ومن فوائدها: أنه ينبغي لكل داعية أن يـذكِّر المـدعو بـنعم الله؛ لأن التذكير بنعم الله يستلزم أن يقوم المدعو بطاعة المنعِم؛ لأن ذلك هو حقيقة الشكر.

٣ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله فَضَّل بنـي إسرائيـل عـلى غـيرهم مـن العالمين، ولكن هذا خاص في زمانهم كما أسلفنا آنفًا، أما هـذه الأمـة فهي أفضل من بني إسرائيل.

٤ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** التذكير بيوم القيامة الـذي لا تجـزي فيه نفس عن نفس شيئًا.

٥ـ **ومن الفوائد:** وجوب تقوى هذا اليوم؛ وذلـك باتخـاذ الوقايـة من عذابـه، ولا وقايـة مـن عـذاب يـوم القيامـة إلا بفعـل أوامـر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن هذا هو الذي يقي من عذاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا المعنى الذي ذكرناه للتقوى هو أجمع ما قيل فيها.

٦ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** أنه لا تقبل الشفاعة مـن النفـوس في ذلك اليوم، وهذا عام أريد به الخاص؛ وذلك أن الذين لا تقبـل مـنهم الشفاعة هم الذين لا يرتضيهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأمـا مـن ارتـضاهم الله؛ فإنَّ الله ـ تعـالى ـ يقبـل مـنهم الـشفاعة، فـيمن يـستحق الـشفاعة والشفاعة لا تكون إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الله بها.

والشرط الثاني: أن يكون راضيًا عمن شَفَع وعمن شُفع له؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ

قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٧ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** أنه لا عدل يؤخذ عن الإنسان في ذلك اليوم بخلاف المضايق في الدنيا؛ فإن الإنسان قد يدعو عِدلًا عنه؛ أي: شخصًا يعدله بنفسه وينجو بهذا المعادل، لكن في يوم القيامة لا يمكن ذلك.

٨ـ **كذلك من فوائد هاتين الآيتين:** أن من لا تقبل منه الشفاعة ولا يؤخذ منه عدل؛ لا ينصر أيضًا، فلا يتناصر المجرمون في ذلك اليوم؛ لأن الأمر كله لله.

٩ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** التذكير العام لكل أحد بأهوال هذا اليوم العظيم، الذي لابد أن يصير إليه كل حي، فعليه أن يستعد له، وأن يتأهب له بالأعمال الصالحة المقربة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾، الخطاب لبني إسرائيل.

و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ هم أتباعه الذين يتولونه ويتوجهون بتوجيهاتـه؛ فآل فرعون كانوا يسومون بني إسرائيل سـوء العـذاب؛ يـستعبدونهم، يذبحون أبناءهم، يستحيون نساءهم؛ أي: يـستبقونهن، وهـذه سياسـة الجور والظلم؛ فهم يذبِّحون الأبناء؛ لئلا ينشئوا ويقاوموا آل فرعـون؛ ولأجل أن يَقِلَّ النسل في بني إسرائيل، ولأجل أن يكونوا أذلة أمـام آل فرعون؛ لأن النساء ـ مهما كُنَّ ـ فإنهن في مقام الذل أمام العدو.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: اختبـار عظـيم لكـم، هـل تصبرون على ما حصل لكم من الأذى؟ وهل شـكرتم لمـا أنجـاكم الله من هذا البلاء؟

ثم يذكرهم الله ـ تعالى ـ بنعمة أخرى؛ وهي أن الله فَرَقَ بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون؛ وذلك حينما خرج فرعون بجنوده تابعًا لموسى وقومه؛ ليقضي عليهم ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٣]، فدخل موسى وقومه في هذا الطريق وعلى أيمانهم وشمائلهم كتل الماء كالجبال، ولما نجوا دخل فرعون وقومه فأمر الله البحر فانطبق عليهم؛ فغرقوا عن آخرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ

تَنظُرُونَ ﴾ فكان في هذا نعمتان على بني إسرائيل؛ **إحداهما**: أن الله أنجاهم، **والثانية**: أن الله أغرق عدوهم.

من فوائد هاتين الآيتين:

١- أن الله - سبحانه وتعالى - نجَّى بني إسرائيل مرتين؛ المرة الأولى من آل فرعون حين كانوا يسومونهم سوء العذاب؛ فيذبحون الأبناء ويستبقون النساء، والمرة الثانية حين فَرَقَ بهم البحر، فأنجاهم من الغرق، وأغرق آل فرعون وهم يشاهدون ذلك.

٢- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: بيان شدة بطش آل فرعون لبني إسرائيل حين كانوا يمارسون معهم هذا الإذلال العظيم؛ وذلك بذبح الأبناء واستبقاء النساء؛ فإن ذلك أكبر إذلال للشعوب، أن يذبح رجالها، وتبقى نساؤها.

٣- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أن الله - سبحانه وتعالى - يبتلي عباده - أحيانًا - بالمصائب؛ ليعلم من يكون صابرًا ومن يكون ضاجرًا، وأحيانًا بالنعم؛ ليعلم من يكون شاكرًا ومن يكون بطرًا، ولله - سبحانه وتعالى - في خلقه شئون، والمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له؛ قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا المؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر**

فكان خيرًا له»(١).

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الحكمة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيما يقدره على عباده، وهذا من مقتضى اسمه «الحكيم»؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم فيما يقدره، وفيما يشرعه؛ وبه نعرف أنه لا يمكن أن يشرع شيئًا عبثًا، أو أن يقدر شيئًا عبثًا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، ولكن أحيانًا تخفى الحكمة علينا؛ لقصور أفهامنا، أو لتقصيرنا في طلب الحكمة، ولكن هذا لا يمنعنا من تمام الإيمان بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذو حكمة، وأنه لا يفعل شيئًا ولا يشرع شيئًا إلا لحكمة عظيمة.

٥- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن بلاء الله ـ أي: ابتلاءه ـ يتنوع؛ فمنه ابتلاء يسير، ومنه ابتلاء عظيم، وذلك حسب ما تقتضيه الحكمة؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يبتلي من هو قليل الصبر وقليل الشكر ببلاء يسير يُنَاسِبُ حاله، ويبتلي من هو قوي على الصبر وعلى الشكر ببلاء أعظم؛ ليكون ذلك مناسبًا لحاله؛ ولهذا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الأمثلُ، فالأمثلُ...»(٢)،

---

(١) سبق تخريجه ص(٣١).

(٢) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٣)؛ والدارمي (٢/ ٣٢٠).

والواقع شاهد على ذلك؛ فإن الابتلاء الذي يجريه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الأنبياء أعظم من الابتلاء الذي يجريه على من دونهم.

٦ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كيفية إنجاء بني إسرائيل وإغراق آل فرعون؛ وذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل هذا البحر الذي هو من الماء السائل واقفًا كالطود العظيم، في ضربة واحدة من موسى؛ أوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم؛ أي: كالجبل العظيم.

وقد ذكر بعض الناس أن الله جعل في هذه الكتل المائية؛ جعل فيها فرجًا ينظر الناس بعضهم إلى بعض؛ ليطمئن بعضهم على البعض الآخر.

٧ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** أنه من كمال طمأنينة العبد أن يرى عدوه أمامه وقد هلك؛ كقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ فإن الله لو أغرق آل فرعون أو أصابهم بعذاب لم يشاهده بنو إسرائيل لم تكن طمأنينة بني إسرائيل على هلاك فرعون وقومه كما لو كانت وهم ينظرون.

٨ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين:** الرد على الذين بهرتهم صنائع أعداء الله اليوم، وغرَّتهم حتى ظنوا أنه لا يمكن الانتصار عليهم، بل ربما

يتهكم بعضهم إذا قيل لهم: إننا لو رجعنا إلى دين الله حق الرجوع لانتصرنا على أعدائنا مهما بلغت قوتهم، فإننا نقول لهم: انظروا كيف كان هذا البحر طريقًا يبسًا في لحظة واحدة، وفتح الله فيه اثني عشر طريقًا بضربة واحدة بعصا موسى ﷺ، ثم بقيت كتل الماء كأنها جبال، وأغرق الله ـ تعالى ـ عدو بني إسرائيل وهم ينظرون إليهم، ثم انظروا ـ أيضًا ـ ما فعل الله ـ تعالى ـ بعادٍ من الريح العاصفة المدمرة، وما فعل الله ـ تعالى ـ بثمودٍ قوم صالح؛ حيث أخذتهم الصيحة؛ فأصبحوا في دارهم جاثمين، فنحن لو صدقنا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لهيأ لنا من أسباب النصر ما لا يخطر على البال.

* * *

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

في هاتين الآيتين يُذكِّر الله ـ تعالى ـ بني إسرائيل بنعمته عليهم بهذا العفو العظيم؛ وذلك أن الله ـ تعالى ـ واعد موسى ﷺ ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر؛ فصارت أربعين ليلة، فلما تأخر موسى ﷺ عن الموعد الذي ذكره لبني إسرائيل؛ فتنوا بعبادة العجل، وذلك أنهم صنعوا من الحلي من الذهب تمثالًا على هيئة العجل، وهو ولد البقر الصغير،

وجعلوه على شكل خوار كخوار العجل، وأضلهم السامري؛ فقال لهم: إن موسى نسي، وإن ربكم هذا العجل، وهو إلهكم وإله موسى؛ فعبدوا العجل وصاروا يعبدونه من دون الله، وذكَّرهم هارون أخو موسى ﷺ بأن إلههم هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠]، ولكنهم أصروا وأبوا وقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، فبقوا يعبدون هذا العجل حتى رجع إليهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولما رجع إليهم موسى ﷺ قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فجعل الله ـ تعالى ـ من توبتهم أن يجتمعوا جميعًا، ويأخذوا السكاكين والخناجر، ويقتلوا بعضهم بعضًا، ويصبروا على هذه المحنة العظيمة، فلما فعلوا ذلك؛ تاب الله عليهم؛ فهنا يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ معتدون في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث اتخذتم هذا العجل الذي صنعتموه بأيديكم إلهًا تعبدونه من دون الله، ولكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ذكَّرهم النعمة عليهم؛ حيث عفا عنهم من بعد ذلك؛ لعلهم يشكرون الله على نعمه، ويتوبون إليه، ويعودون إليه.

فوائد هاتين الآيتين:

١- أن الله - سبحانه وتعالى - واعد موسى ثلاثين ليلة، ثم أتمها حتى صارت أربعين ليلة، ووعد الله له ثلاثين ليلة مأخوذ من آية أخرى، لكنه - عَزَّ وَجَلَّ - مدَّ المدة لحكمة أرادها - سبحانه وتعالى.

٢- ومن فوائدهما: إثبات كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ فإن هذا الوعد لابد أن يكون بوحي أو بكلام من الله - سبحانه وتعالى - لموسى.

٣- ومن فوائدهما: أن بني إسرائيل حين اتخذوا العجل من بعد موسى كانوا عالمين بأنهم على غير هدى؛ لأنهم ظالمون؛ فإنهم كانوا يعبدون الله من قبل، وذكَّرهم هارون بأن ربهم الرحمن - عَزَّ وَجَلَّ -، ولكنهم أصروا واستمروا على ما هم عليه.

٤- ومن فوائدهما: أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - عفا عنهم بعد هذه الفعلة القبيحة والذنب العظيم؛ لعلهم يشكرون الله.

٥ - ومن فوائدهما: أن الإنسان إذا مَنَّ الله عليه بالعفو ووفَّقه للتوبة فإنه يجب أن يشكر الله على هذا التوفيق، فكم من إنسان حُرم التوبة وأَصَرَّ على ما هو عليه من الذنب حتى هلك.

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الحكمة لله - سبحانه وتعالى -

في أفعاله؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فإن «لَعَلَّ» ـ هنا ـ للتعليل، ولا ريب أن جميع أفعال الله مقرونة بحكمته، وكذلك تشريعاته مقرونة بحكمته؛ لأنه ـ جل وعلا ـ لا يفعل شيئًا سفهًا، ولكن الحكمة إما أن تكون معلومة لنا، وإما أن تكون مجهولة؛ لقصورنا عن إدراكها، أو تقصيرنا في طلبها.

وقبل أن أنهي الكلام عن هاتين الآيتين أنبه إلى أننا ذكرنا في أول الكلام عن الفوائد أن فيهما دليلًا على إثبات كلام الله، والحقيقة أن هذا قد لا يؤخذ من هاتين الآيتين على وجه يسلم من الاعتراض، ولكن يؤخذ من القصة في موضع آخر؛ حيث قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ومذهب أهل السنة والجماعة في كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه حق على حقيقته، وأنه ـ تعالى ـ يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء، يتكلم بحرف وصوت يسمعه من كلمه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا تجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه القصة لما كَلَّمَ موسى قال له موسى: ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفي هذه القصة دليل على أن كلام الله يتعلق بمشيئته، وليس كما أطلقه بعضهم قديمًا أزليًّا، بل إن الصواب في ذلك أن كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ باعتبار أصله وجنسه ـ أزلي أبدي لم يزل ولا

يزال متكلمًا ـ سبحانه وتعالى ـ، وأما باعتبار آحاده؛ فإنه متعلق بمشيئته متى شاء تكلم بما يشاء، هذا هو الذي مشى عليه أهل السنة والجماعة.

* * *

ثُمَّ قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

في هذه الآية يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن نبي الله موسى ﷺ أنه وعظ قومه هذه الموعظة العظيمة بهذا التلطف العظيم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾، وأي ظلم أشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلهًا يعبده؛ فإن هـــذا أظلم الظلم؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

فأعظم الظلم أن يجحد الإنسان حقَّ ربه حتى يجعل حقَّه لغيره، فيعبد غير الله مثلما يعبد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على لسان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾؛ أي: ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته، ومن الإشراك به إلى توحيده، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: ليقتل بعضكم بعضًا، وإنما عَبَّرَ بقتل النفس؛ لأن المؤمن أخو المؤمن، فكأنه هو نفسه؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ في قصة الإفك: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ

هَـٰذَآ إِفۡكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأخوك المؤمن بمنزلة نفسك، ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على لسان موسى عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ أي: توبتكم إلى الله بقتل أنفسكم ﴿خَيۡرٌ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾، وكل إنسان يحب أن يكون له الخير عند بارئه ـ تبارك وتعالى ـ؛ لأنه خالقه المدبر له كما يشاء، فلما قتلوا أنفسهم تاب الله عليهم؛ إنه هو التواب الرحيم.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ أن موسى عليه السلام ذكَّر قومه بهذه الفعلة القبيحة، وبما مَنَّ الله عليهم به من التوبة إليه، والتوبة عليهم.

٢ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية أن يتلطف مع من يدعوه، وأن يذكر الألفاظ التي تكون سببًا في إقبال المدعو على الداعي وتقبله ما يوجهه إليه من النصيحة؛ لأنه قال لقومه: ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي لمن ذكر الداء أن يذكر الدواء؛ فإن موسى ـ عَلَيۡهِ السَّلامُ ـ لما ذكر أنهم ظلموا أنفسهم عرض عليهم الدواء بالتوبة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهكذا ينبغي للداعية إذا ذكر الداء والأمراض التي في المجتمع أن يذكر لهم الدواء وطريق الخلاص منها حتى يجمع بين الأمرين.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية:** بيان سفه بني إسرائيل الذين عبدوا عجلًا صنعوه بأيديهم من الذهب، وعرفوا أنه تمثال، وأنه لا يستحق

من الربوبية شيئًا، ومع ذلك عبدوه، وهذا دليلٌ على سفههم.

٥ـ ومن فوائد هـذه الآيـة: وجـوب التوبـة إلى الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾، وله اليوم ـ أيضًا ـ وجـوب التوبـة إليـه؛ حيث إنه هو البارئ الذي خلق؛ فله الحق علينا أن نفر من معـصيته إلى طاعته، والتوبة لابد فيها من شروط خمسة:

الشرط الأول: أن يخلص العبدُ التوبة لله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ، وأن يكـون الحامل له عليها خوف الله، ورجاء ثوابه، والخلاص من الـذنب الـذي وقع فيه.

الشرط الثاني: الندم؛ بحيث يتحسر على ما حصل منه مـن ذنـب، فلا يكون الأمر عنده على حد سواء، بل يتأسف ويتندم على ما حـصل منه من الذنب.

الشرط الثالث: أن يقلع عـن الـذنب في الحـال؛ فـإن كـان متلبـسًا بمحرم تركه، وإن كان تاركًا لواجب أتى به إن كان يمكن تداركه، وإن لم يمكن تداركه أتى ببدله إن كان له بدل، وإلا كفته التوبة.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب في المـستقبل، فأمـا إن قال: أنا تائب إلى الله، وفي نيته أنه متى سنحت لـه الفرصـة عـاد إلى الذنب؛ فإنه ليس بتائب حقيقة.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبلُ فيه التوبة؛ وذلك بأن يكون قبل طلوع الشمس من مغربها وقبل حضور الأجل؛ لأنه إذا طلعت الشمس من مغربها فلا توبة، وإذا حضر الأجل فلا توبة؛ قال النبي ﷺ: «لا تنقطعُ الهجرةُ حتَّى تنقطعَ التوبةُ، ولا تنقطعُ التَّوبةُ حتى تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربها»(١)، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان منة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على هذه الأمة؛ حيث جعل توبة بني إسرائيل بهذا الثقل وهذه الآصار، وأنه لا تتحقق توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، أما هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ فإن التوبة تحصل بدون ذلك، تحصل بما ذكرنا من الشروط، وإن لم يحدث الإنسان ضررًا على نفسه.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الإقلاع عن الذنب والتوبة إلى الله منه خير من الاستمرار عليه، بل قد يكون الإنسان بعد التوبة خيرًا منه قبلها؛ أي: أن الإنسان إذا أذنب ثم تاب إلى الله؛ فإنه قد تكون حاله بعد التوبة من هذا الذنب خيرًا من حاله قبل أن يذنب؛ ألم تر إلى آدم ـ

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٤٦٣)؛ وأبوداود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

عليه الصلاة والسلام ـ حين أكل من الشجرة، قال الله ـ تعالى ـ في حقه: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، فحصل له الاجتباء والهداية بعد أن تاب من تلك المعصية.

٨ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان منة الله على عباده؛ حيث يقبل منهم التوبة إذا صدقوا الله ـ تعالى ـ في التوبة؛ ولهذا لما صدق بنو إسرائيل في التوبة، وقتلوا أنفسهم؛ تاب الله عليهم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: قَبِلَ توبتهم وعفا عنهم.

٩ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وهما «التواب» و«الرحيم»، وأن من مقتضاهما أن يتوب الله ـ سبحانه وتعالى ـ على من تاب ويرحمه؛ فالتواب كثير التوبة على عباده، فما أكثر ما تاب الله على عباده، وما أكثر الذين يتوبون إلى الله؛ فيتوب الله عليهم، أما الرحيم فهو ذو الرحمة المقتضية للإحسان إلى الخلق إحسانًا عامًّا؛ كما في الرحمة العامة، وإحسانًا خاصًّا؛ كما في الرحمة الخاصة.

واعلم أن الرحمة تنقسم على قسمين: رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ فالعامة هي الشاملة لكل الخلق، مؤمنهم وكافرهم، بَرّهم وفاجرهم، والرحمة الخاصة هي الرحمة بالمؤمنين؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَانَ

بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وهذه رحمة خاصة تتصل بها سعادة الدنيا والآخرة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات يُذَكِّرُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل بما جرى منهم، وبما كان من إحسان الله ـ تعالى ـ إليهم؛ فأمَّا الذي جرى منهم، فإنهم قالوا لموسى وهو يكلِّم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما شاء الله من الوحي، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾؛ أي: لن نؤمن لك أنك تكلم الله حتى نرى الله جهرة؛ أي: عيانًا، وهذا غاية في العناد، والاستكبار، والتكذيب، فلما قالوا هذه المقالة العظيمة صعقوا، أخذهم الموت فماتوا جميعًا، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنَّ عليهم فبعثهم؛ أي: أحياهم من بعد موتهم؛ لأن موسى دعا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ففرَّج الله عنهم ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ

أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ فبعثهم الله من بعد الموت؛ لعلهم يشكرون هذه النعمة إذا ذكروه.

والشكر هو القيام بطاعة المنعم، وليس الشكر مجرد قول القائل: أشكر الله؛ لأن القول باللسان - إن لم يصدقه العمل والاعتقاد - صار قولًا لا فائدة منه.

قال أهل العلم: والشكر يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فأما شكر القلب: فأن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من فضل الله وحده، وليست بحول المرء وقوته، وأما شكر الله باللسان: فالتحدث بهذه النعمة؛ إظهارًا لفضل الله لا افتخارًا على عباد الله، ويشمل - أيضًا - جميع ما يتكلم به العبد مما يقرب إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأما الشكر بالجوارح: فأن يقوم الإنسان بالعمل الصالح بجوارحه: اليدين، والرجلين، والعينين، وغير ذلك من أعضائه وجوارحه، وفي هذا يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجب

ثم يذكِّرهم الله - تعالى - نعمة ثانية بعد أن أحياهم من تلك الصعقة، وهي أنه ظلَّل عليهم الغمام من حر الشمس، فصاروا في ظل بارد؛ والغمام - كما قال أهل العلم -: هو السحاب الأبيض الحاجب من حر الشمس، ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ فالمن طعام يجدونه

منتشرًا على رءوس الشجر كأنه العسل، فيأكلونه، والسلوى هو الطائر المعروف بالسمانة، وهو من ألذ الطيور لحمًا، وسمي المنُّ منًّا؛ لأنه يحصل بدون تعب ولا مشقة، ومنه الكمأة؛ وهي الفقع؛ لقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الكمأةُ مِنَ المنِّ، وماؤها شفاء للعين»[1]، وهي وإن لم تكن مِنَ المنِّ الذي نزل على بني إسرائيل، فهي مِنَ المنِّ بالمعنى العام؛ لأنها توجد في الأرض بدون غرس، ولا بذر، ولا تعب في سقي وغيره.

ثم امتنَّ الله عليهم منة ثالثة بأن يَسَّرَ لهم أكل هذه الطيبات؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾، وهذه منَّةٌ ثالثة؛ لأن الإِنسان ربما يتيسَّرُ له الطعام والشراب، ولكن لا يتمكن من أكله وشربه لعلة فيه، فلا يحصل به كمال المنة، وربما يحرم من الطعام والشراب لقلتهما، المهم أن إيجاد الطعام أو الشراب نعمة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأَنَّ قدرة الإِنسان على تناول الطعام والشراب وتلذذه بذلك، وانتفاعه به من نعمة الله ـ تعالى أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾؛ أي: من طيبات ما أعطيناكم.

ثم قال: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾؛ أي: ما ظلمونا بمعاصيهم؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن يعبأ بأحد، ولن

---

(١) رواه البخاري: كتاب الطب، باب المن شفاء للعين، رقم (٥٧٠٨).

يتضرر بمعصية العاصين، ولن ينتفع بطاعة الطائعين؛ كما جاء في الحديث القدسي:«يا عبادي، إنكم لن تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفعِي فَتَنْفَعُوني»(١).

﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾؛ أي: ولكن كانوا يظلمون أنفسهم؛ فالإِنسان المفرط في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس ظالمًا لله؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا تنقصه ولا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولكنه قد ظلم نفسه وهضمها ونقصها حقها؛ فإن النفس أمانة عند الإِنسان يجب عليه أن يرعاها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ عتو بني إسرائيل، وشدة عنادهم وتكذيبهم؛ حيث قالوا لنبيهم وهم يسمعون كلام الله:﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾، وهذا غاية ما يكون في الطغيان والعناد.

٢ـ ومن فوائدها: أن الإنسان إذا فعل الجرم العظيم والمنكر الكبير فقد يعاجل بالعقوبة؛ ولهذا عاجل الله بني إسرائيل الذين قالوا: ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾، فعاقبهم بالصعق؛ فصعقوا في حال

---

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

قولهم هذا؛ ولهذا جاء بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على إحياء الموتى؛ حيث أحيا هؤلاء من موتهم؛ بدليل قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآيات:** أن الصاعقة أخذتهم وهم ينظرون؛ أي: ينظر بعضهم إلى بعض، يقع ميتًا حتى ماتوا عن آخرهم؛ أي: مات جميع من تكلموا بهذا القول، أو رضوا به في ذلك المكان.

٥- **ومن فوائدها:** أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينعم على العبد برفع الضرر عنه؛ من أجل أن يشكر نعمة الله؛ فإن أسباب شكر نعمة الله إما خير يجلبه الله لك، وإما شر يدفعه الله عنك، والذي حصل لهؤلاء دفع شر وحصول خير؛ دفع شر برفع الموت عنهم، وحصول خير بإحيائهم من بعد موتهم.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات حكمة الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقد سبق مرارًا ما يدل على إثبات الحكمة في أفعال الله ـ تعالى ـ كما هي ثابتة فيما شرعه؛ ولهذا يختم الله ـ سبحانه وتعالى ـ كثيرًا من آيات الأحكام بالعلم والحكمة؛ كما في آية قسم الصدقات: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ

وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، وكما في آية المواريث: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١].

٧ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾؛ ففي هذه الآية من الفوائد: بيان نعمة الله ـ تعالى ـ على بني إسرائيل بتظليلهم بالغمام من الحر، من حر الشمس؛ والغمام هو السحاب الأبيض، وهو من أبرد السحاب ظلًّا.

٨ـ ومن فوائدها أيضًا: بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأن كل شيء يكون فبمشيئته؛ فالسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لا يجري إلا بأمر الله وتدبيره ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا يخفى على كثير من الناس ما جرى للرجل الذي سمع قائلًا من السحاب يقول: اسقِ حديقة فلان، فنزل المطر على أرض، وسال الوادي إلى هذه الحديقة، فتابعه هذا الرجل الذي سمع الصوت من السحاب حتى وصل إلى صاحب الحديقة، وسأله ماذا يصنع فيها، فقال له: إني أقسم ريعها ثلاثة أقسام: فثلث أعيده فيها ـ يعني: يصلحها به ـ، وثلث لي ولعيالي، وثلث أتصدق به، ثم سأله صاحب الحديقة عن سبب سؤاله إياه، فأخبره أنه

سمع صوتًا في السحاب يقول: اسقِ حديقة فلان، ففي هذا دليلٌ على أن السحاب المسخَّر بين السماء والأرض يسير بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأمره.

٩ـ ومن فوائد الآية الكريمة: ما منَّ اللهُ به على بني إسرائيل من إنزال المن والسلوى، هذا الطعام الطيب اللذيذ الذي يأخذونه بدون كلفة ومشقة.

١٠ـ ومن فوائدها: أن الله ـ تعالى ـ أنعم عليهم بتيسير الحصول عليه والتمتع به؛ حيث قال: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾، وهذا الأمر للامتنان والإباحة.

١١ـ ومن فوائدها: أنَّ الله إنما أذن لعباده أن يأكلوا من الطيبات دون الخبائث؛ والخبائث كل ما حرمه الله على العباد، فهو خبيث، لا ينتفعون به، ولكن ربما يحرم الله على عباده بعض الطيبات؛ عقوبة لهم؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]، وقد يُحَرِّمُ الإنسانُ من الطيبات لا تحريمًا شرعيًّا، ولكن بما يُصابُ به من الأمراض التي تجعله لابد أن يمتنع عن بعض المأكولات والمشروبات، وهذا نوعٌ من التحريم، لكنه تحريم كوني لا شرعي؛ فقد

يبتلى الإِنسان العاصي بأمراض تمنعه من التمتع بالطيبات التي أحلها الله له.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنَّ** ما نتمتع به من مأكول ومشروب، فإنما هو رزق من الله، وعطاء منه، ومِنَّة، ليس بحولنا وقوتنا، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك في سورة الواقعة فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧].

ومن المعلوم أننا لسنا الذين نزرعه وننميه، ولكن الذي يزرعه وينميه هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أما نحن فمنا السبب، والله هو المسبب ـ جلَّ وعلا ـ، ثم قال ـ تعالى ـ في سورة الواقعةُ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٦٨ـ ٧٣]، فإذا علم العبدُ أن ما يتمتع به من النعمة هو من رزق الله؛ أوجب له ذلك الشكر لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على هذه النعم، وأجب له أن يتبرأ من حوله وقوته بإيجاد هذه الأرزاق، وأوجب له أن يعرف قدر نعمة الله عليه بهذه الأرزاق، التي قد يكون كثير من الناس محرومًا منها.

١٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن ينقص ملكه معصية العاصين ولن يضره ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ فالإنسان ـ مهما كان عليه من معصية ـ فإنه لن ينقص الله شيئًا، ولن يضر الله شيئًا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

١٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العاصي ظالم لنفسه، معتدٍ عليها، غير قائم بما يجب لها؛ لأن نفسك أمانة عندك، فكما أنه يجب عليك أن تتوقى ما يضر بدنك حسًّا، فإنه يجب عليك أن تتوقى ما يضر دينك، ومن المعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يلقي بنفسه إلى التهلكة في الأمور الحسية؛ كالأشياء التي تضره في بدنه؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكذلك ـ أيضًا ـ لا يجوز له أن يلقي بنفسه إلى التهلكة فيما يضره في دينه، بل إن ما يضره في دينه أولى بالمراعاة مما يضره في بدنه؛ لأن ضرر الدين ضرر في الدنيا والآخرة، أما ضرر البدن فهو ضرر في الدنيا فقط.

١٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان قصور الآدمي، وأنه عدو نفسه، يظلم نفسه وهو لا يشعر أنه ظالم لنفسه؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٦ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان بل يجب عليه أن يتبصر، ويتيقظ، وينظر مدى الخسارة العظيمة التي تلحقه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات حتى يحمي نفسه من هذا الظلم وهذا الضرر.

* * *

ثُمَّ قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم اللهُ بها عليهم، ولكنهم كفروها، فيقول لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وهذا القول يحتمل أن يكون قولًا كونيًّا أو قولًا شرعيًّا، ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ وهي القرية التي فتحوها، قيل لهم: ادخلوها، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ حلالًا لكم، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ سُجَّدًا لله ـ تعالى ـ شاكرين له هذه النعمة العظيمة التي منحكم إياها، ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ﴾؛ أي: قولوا احطط عنَّا ذنوبنا، واغفر لنا؛ ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ﴾؛ أي: نغفر لكم آثامكم وذنوبكم التي ارتكبتموها، وسنزيد المحسنين إحسانًا على التوبة، إذا أحسنوا في

معاملة الله، ولكن كانت النتيجة أن بدَّل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم.

وقال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، ولم يقل: «بدلتم»؛ إشارة إلى أنهم كانوا ظالمين فيما بدَّلوه؛ بدلوا قولًا غير الذي قيل لهم، قيل لهم: ادخلوا الباب سُجَّدًا، ولكنهم لم يدخلوا سُجَّدًا، بل دخلوا على أستاههم؛ أي: على ألياتهم وعجائزهم، وقيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾؛ أي: احطط عنا ذنوبنا، ولكن لم يقولوا ذلك، بل قالوا: حنطة؛ أي: سألوا طعامًا يملئون به بطونهم، فلم يسألوه مغفرة لذنوبهم.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، أنزل على الذين ظلموا؛ أي: عليهم، ولكنه كرَّر الظلم تشنيعًا عليهم، ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عَذَابًا من السَّماء، ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل بما أنعم عليهم من إباحة دخول هذه القرية فاتحين آكلين مما رزقهم الله أكلًا رغدًا لا شبهة فيه، ويُذَكِّرُهُمْ ـ أيضًا ـ بأنه أمرهم بما فيه مصلحتهم وحسن عاقبتهم، وهو أن يقولوا: «حطة»؛ أي: احطط عنا ذنوبنا واغفر لنا حتى يغفر لهم، ثم يذكرهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنهم بَدَّلُوا قولًا

غير الـذي قيـل لهـم، فلـم يـدخلوا سُـجَّدًا، ولم يقولـوا: حطَّـة ظلـمًا، وعدوانًا، وإنكارًا لفضل الله ـ تعالى ـ عليهم ونعمته؛ فكانـت عـاقبتهم أن أنزل الله عليهم رجزًا من السماء؛ بـسبب فـسقهم وخـروجهم عـن طاعة الله.

ما يستفاد من هذه الآية الكريمة:

١ ـ مِنَّة الله عليهم؛ أي: على بني إسرائيل بما أباح الله لهم من دخول هذه القرية، وما أباح لهم من أكل ما رزقهم منها رغدًا ليس فيـه حـرج ولا تبعة.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن الله أمرهم بأن يـدخلوا البـاب سُـجَّدًا؛ ويتفرع عن هذا مشروعية السجود، سجود الشكر عند تجدد النعم؛ كما هو المشروع في شريعتنا أن الإنسان إذا تجددت له نعمة، فإنه يُسنُّ له أن يسجد لله ـ تعالى ـ شكرًا؛ وسجود الشكر سجودٌ مجردٌ ليس صلاة، بـل يكبر الإنسان ويسجد، ويقول: سبحان ربي الأعـلى، سـبحانك اللهـم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، ثم يثني على الله ـ تعالى ـ بما أنعم بـه مـن هذه النعمة، ويشكره عليها، ثم يرفع بدون تكبير ولا تسليم.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه ينبغي للإنسان إذا نـصره الله ويسَّر له أسباب النصر ألا يغترَّ بنفسه، وألا يعجب بعمله، بل يسأل الله المغفرة، مغفـرة الـذنوب؛ حتـى لا يـشمخ، ويتعـالى، ويترفـع؛ لقولـه

ـ تعالى ـ:﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله ـ تعالى ـ وعد من استغفر وطلب منه مغفرة الذنوب أن يغفر له؛ لقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وهذا مشروط بما إذا كانت التوبة نصوحًا، وقد مَرَّ علينا من قبل بيان التوبة النصوح؛ وهي التي جمعت خمسة شروط.

٥ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله ـ تعالى ـ يزيد المحسنين من فضله إحسانًا وفضلًا، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أكرم من عبده وأجزل عطاء؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٦ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: أن بني إسرائيل من أبعد الناس عن شكر نعمة الله؛ ولهذا بدَّلوا قولًا غير الذي قيل لهم؛ فبدلوا قول الله لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ بدَّلُوه بأن دخلوا يزحفون على أستاههم وعجائزهم، وبدلوا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ بقولهم: «حنطة»؛ يعني: أنهم لم يهتموا بذنوبهم، وإنما كان همهم أمرًا ماديًّا، وهو أن يشبعوا بطونهم.

٧ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: أن من خالف أمر الله؛ فإنه حري بأن

يُعَـذِّبَ ويُعاقِـب؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

٨- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبـات الحكمـة والعلـة لأفعـال الله، وأن أفعال الله ـ تعالى ـ مربوطة بحكمها وأسبابها؛ لقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فـــإن قولــــه: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كالتعليل لإنزال الرجز؛ أي: أنهم إنـما أُنـزل علـيهم الرجـز لظلمهـم، وعلة أخرى وهي فسقهم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

٩- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الأسباب في المقتضيات لمسبباتها، وهذا ـ لا شك ـ من تمام حكمة الله أَنْ رَبَطَ الأشياء بأسبابها، وهـو دليل على أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يخلق خلقًا عبثًا، ولا يشرع تشريعًا باطلًا؛ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآية الكريمة يُذَكِّرُ اللهُ ـ تعالى ـ بني إسرائيـل بهـذه النعمـة

العظيمة التي يجريها على يد نبيه موسى ﷺ؛ فبينما كان موسى وقومه محتاجين إلى الماء استسقى موسى لقومه، فسأل الله ـ تعالى ـ أن يسقيهم، فأمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يضرب بعصاه الحجر، فضرب الحجر؛ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، حجرٌ واحد نبعت منه اثنتا عشرة عينًا على عدد أسباط بني إسرائيل؛ فإنهم كانوا اثني عشر سبطًا، هذه العيون توزَّعت، فعلم كل أناس مشربهم، هؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء مشربهم هذه؛ لئلا يحصل التزاحم بينهم والتقاتل على الماء.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فأباح الله لهم ـ امتنانًا منه وفضلًا ـ أن يأكلوا ويشربوا من رزق الله، وأن يقيدوا هذه النعم بشكرها؛ فلا يعثون في الأرض مفسدين، وإفساد الأرض ليس الإفساد الحسي الذي يكون بتدمير الديار، وتخريب الآبار والحروث، ولكنه بالمعاصي؛ كما قال كثير من السلف في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال: لا تفسدوها بالمعاصي، ولا شك أن المعاصي سبب في الدمار والفساد الحسي؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ ولقوله ـ تعالى ـ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - افتقار الخلـق إلى الله، ولـو كـانوا أعـلى أصـناف الخلـق وهـم الرسل؛ ولهذا استسقى موسى لقومه، واستسقى أشرف الأنبيـاء محمـد ﷺ لقومه حين دخل رجلٌ يوم الجمعة والنبـي ﷺ يخطـب فقـال: «يـا رسولَ الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فـادعُ الله يغيثنـا، فرفـع رسول الله ﷺ يديه ورفع الناس أيديهم، وقـال: «**اللهـمَّ أغثنـا**» ثـلاث مرات، قال أنس بن مالـك - وهـو راوي الحـديث «والله، مـا نـرى في السماء من سحابة ولا قزعة[1]، وما بيننا وبين سَلعٍ[2] من بيـت ولا دار - وسلع جبل صغير في المدينة يخرج من نحوه السحاب - قـال: فطلعـت من ورائه سحابة مثلُ التُّرس - والترس شيء يتقـي بـه المقاتـل الـسهام حين القتال حتى لا تصيبه، وهـو شيء يـشبه الطـست فلـما توسـطت السماء انتشرت، ثم أمطرت»، فما نزل النبـي ﷺ عـن المنـبر إلا والمطـر يتحادر من لحيته، الله أكبر! فبقي المطر أسبوعًا كاملًا، وسالت الأوديـة حتى سال الوادي قناة - وهو واد مشهور في المدينـة حتـى الآن - شـهرًا كاملًا، وفي الجمعـة الثانيـة دخـل رجـل أو الرجـل الأول والنبـيُّ ﷺ يخطـب - فقال: يا رسول الله، غرق المال وتهدم البناء، فادعُ الله يمسكها

(١) القزعة: هي القطعة من السحاب.

(٢) هو جبل معروف بالمدينة.

عنا، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: «**اللهمَّ حوالينا ولا علينا**»، ولم يقل: اللهم أمسكها عنا كما طلب الرجل؛ لأن إمساك المطر ليس من مصلحة الإنسان؛ ولكن من مصلحته أن ينزل المطر على وجه لا ضرر فيه، فقال: «**اللهمَّ حوالينا ولا علينا**»، وجعل يشير إلى المناحي بيده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيتمايز السحاب حيث أشار النبي و، وخرج الناس يمشون في الشمس»(١).

ففي هذه القصة، وفي قصة موسى ـ صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم ـ دليلٌ على أن الخلق مفتقرون إلى الله مهما بلغت منزلتهم عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن موسى قال الله عنه: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ومحمد ﷺ أعظم الناس وجاهةً عند ربه، ومع ذلك كل منهما مفتقر إلى الله، يسأله ويلجأ إليه، ويتضرع إليه، فإذا كان هذا مقام الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فما بالك بمقام من دونهم؟

ويتفرع عن هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان إذا أصابه الضر ألا يلجأ إلا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا يلجأ إلى فلان وفلان من الأحياء أو الأموات فيدعوهم ويستغيثهم، ويسألهم كشف الضر؛ فإن دعوة غير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ شرك، شرك أكبر مخرج عن الملة؛ قال الله ـ تعالى ـ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة، رقم (١٠١٤)؛ ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، ليس هناك إله مع الله يستطيع هذا.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان ما حصل من عصا موسى من الآيات؛ حيث ضرب بها الحجر فانفجر عيونًا، وهذه العصا حصل فيها ثلاث آيات عظيمة: إحدى الآيات: أنه إذا ألقاها صارت حية تسعى، والآية الثانية: أنه ضرب بها هذا الحجر فانفجر عيونًا، والآية الثالثة: أنه ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية**: بيان عظم قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث تفجر من هذا الحجر ـ الذي ضربه موسى بالعصا ـ اثنتا عشرة عينًا والناس ينظرون، فهذا دليل على كمال قدرة الله، وأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن؛ فيكون، قال أهل العلم: وما من آية لنبي إلا كان لنبينا ﷺ مثلها أو أعظم منها، إما على يد النبي ﷺ مباشرة أو على يد أتباعه الذين صدقوا في اتباعه، قالوا: وهذا الماء الذي تفجَّرَ من الحجر لموسى ﷺ حصل لنبينا ﷺ ما هو أعظم منه؛ فإن الناس في غزوة الحديبية أصابهم عطش وقلة ماء، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ، وكان بين يديه ركوة ـ إناء من جلد صغير ـ فقالوا: يا رسول الله، عطشنا ـ يعني: شكوا إليه قلة الماء ـ، فوضع النبي ﷺ يده في هذه

الركوة، وجعلت هذه الركوة تفور كأمثال العيون[(١)]؛ فارتوى الناس كلهم بإبلهم ورجلهم، وكانوا ألفًا وأربعمائة أو قريبًا من ذلك.

فخروج هذا الماء ونبوعه وفورانه من هذه الركوة أعظم من خروجه من الحجر؛ لأن الحجر جرت العادة أن تتفجر منه العيون؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: ٧٤]، أما الركوة فلم تجر العادة أن تتفجر العيون منها، ولكن الله ـ تعالى ـ على كل شيء قدير ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

٤ـ ومن فوائد هذه الآية: أنه ينبغي قسم الماء بين الناس عند الكثرة وتوزيعه عليهم؛ حتى لا يحصل الازدحام والاقتتال، والعداوة والبغضاء بينهم؛ لأن النفوس مجبولة على محبة الاستئثار بالشيء، فإذا توزَّعَ الشيء وصار كل طائفة لهم جهة معينة مخصوصة؛ كان ذلك أقرب إلى السلامة مما يترتب من الآثار السيئة على اجتماعهم على

---

(١) انظر البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٥٢)؛ ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم (١٨٠٧).

مشرب واحد.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان ما امتنَّ الله به على بني إسرائيـل من هذا الماء والطعام الذي أذن لهم في أكله وشربه؛ فقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز إضافة الماء النـابع إلى المخـتص به؛ لقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، وفي هـذه الإضـافة فائـدة وهي أن صاحبه يكون أحق الناس به، ولا يزاحمه أحد عليه، أما جـواز بيعه وعدمه فهذا له شأن آخر.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يجب على المرء ـ إذا أنعـم الله عليه نعمة ـ أن يجعل النعمة سببًا للقيام بطاعته، لا سببًا للأشر والبطر؛ ولهذا أعقب قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أعقبـه بقولـه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ لأن الطبيعة البـشرية إذا لم يؤيـدها الله ـ تعالى ـ بالوحي من طبيعتها أن تحملها سعة الرزق عـلى الأشر والبطـر؛ ولهذا نَهَى بني إسرائيل عن العثـو في الأرض فـسادًا، حيـث يـسَّر لهـم الأكل والشرب من رزق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ويتفرع عـلى هـذا أن يتـذكر الإنسان، ويفكِّر فيما منَّ الله عليه من النعم؛ حتى لا يجعلها سببًا للأشر والبطر، ونسيان أوامر الله، والكفر بشريعة الله.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

في هذه الآية يُذكِّرُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بني إسرائيل بما جرى لهم مع نبيهم موسى ﷺ حين قالوا له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، وهذا الطعام الواحد هو المن والسلوى الذي أنزله الله عليهم بدون كلفة وبدون مشقة، وهو من أطيب أنواع الطعام، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ لم يصبروا على هذه النعمة، وطلبوا من موسى ﷺ أن يدعو لهم ربه؛ ليخرج لهم مما تنبت الأرض لا مما ينزل من المن والسلوى.

﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ﴾، كل هذه الأنواع من الأطعمة هي أقل بكثير ودون ما أنزل الله عليهم من المن والسلوى؛ ولهذا قال لهم نبيهم موسى ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾، وهذا الاستفهام للإنكار عليهم؛ يعني: كيف يليق بكم أن تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ أي: أن تأخذوا الأدنى بالأعلى، هذا لا يليق بكم، وإذا شئتم هذا الأدنى؛ فلا

حاجة إلى دعاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يخرجه لنا.

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾؛ أي: أيُّ مصرٍ تهبطونه تجدون هذا الشيء؛ لأن هذه أنواع منتشرة، ليست أنواعًا من أطيب الأنواع التي لا توجد إلا في محل دون محل، ولا يقدر عليها إلا واحد دون آخر، بل هي أنواع موجودة مبذولة؛ ولهذا قال: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾، وليس المراد مصر المعيَّنة؛ بل المراد: أيُّ مصر كان تهبطونه؛ فإنكم ستجدون ذلك، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾، ومن أجل عدم الصبر على طعام واحد، ومن أجل المعاصي العظيمة التي ارتكبوها؛ ضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة، الذلة في القلوب، والمسكنة في الجوارح؛ فكانوا أذلَّ الناس، وأجبنهم، وأخوفهم؛ ولهذا تجد اليهود أذل الناس وأجبنهم؛ لأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾[الحشر: ١٤].

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: رجعوا بغضب من الله عليهم؛ حيث كفروا نعمته، وعصوا رسوله، ولم يصبروا على نعمه؛ قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾، وعلل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ يكفرون بآيات الله الكونية والشرعية؛ ففي الآية الكونية: لم يصبروا على طعام واحد، ولم يقتنعوا بهذه الآية

العظيمة، ويشكروا الله عليها، أن أنزل عليهم المنَّ والسلوى، وفي الآية الشرعية: قيل لهم: «قولوا حطة» فبدلوا وقالوا: «حنطة»، وأُمروا فلم يأتمروا، ونُهوا فلم ينتهوا؛ فكفروا بآيات الله، وبسبب هذا الكفر وقتلهم النبيين بغير حق ضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة، وكان هذا القتل للنبيين والكفر بآيات الله عصيانًا عظيمًا؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فكانوا عصاة معتدين، نسأل الله العافية.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- **في هذه الآية من الفوائد:** بيان سفه بني إسرائيل؛ حيث لم يصبروا على هذا الطعام الطيب الذي أنزله الله من السماء؛ تكريمًا لهم، وإتمامًا للنعمة، ولكنهم كفروا به وقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** جواز التَّوَسُّل بدعاء من تُرْجَى إجابته؛ فإن هؤلاء قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾، وقد قررت شريعتنا هذا النوع من التوسل؛ فإن الناس كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يدعو الله لهم؛ كما في قصة الرجل الذي دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السُّبل، فادع الله يغيثنا[1]، وكما قال عكاشة بن محصن - حين تحدث النبي ﷺ: أنه يدخل من أمته سبعون ألفًا، يدخلون الجنة بلا

(١) سبق تخريجه ص (١٧٤).

حساب ولا عذاب، فقال عكاشة بن محصن: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أنت منهم»(١).

فالتوسل إلى الله بدعوة من تُرْجَى إجابته جائز، ولكن هل هو أمر مطلوب أم لا؟ نقول: إن كان لأمر عام فهو أمر مطلوب؛ يعني: أنه يُسنُّ للإنسان أن يطلب أو أن يتوسل بدعاء مَنْ تُرجى إجابته في أمر عام للمسلمين؛ كما طلب عمر بن الخطاب -رَضِيَ الله عَنْهُ- من العباس بن عبد المطلب أن يستسقي للمسلمين(٢)، وكما في طلب الرجل الذي قال لرسول الله: «ادع الله أن يغيثنا...»، وأما إذا كان لأمر خاص فإن كان طالب الدعاء يريد بذلك ان ينفع المطلوب إذا دعا لأخيه بظهر الغيب؛ فإنه يكون محسنًا إليه ويُرجى أن تجاب دعوته، ويُعطى مثلها؛ لأن الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب؛ قال الملك: آمين ولك بمثلها(٣)، أما إذا قصد المتوسِّلُ بدعاء من تُرجى إجابته مصلحة نفسه الخاصة فهذا لا ينبغي، بل قد صرح بعض أهل العلم بأنه من المسألة

---

(١) انظر البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤٢)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، حديث رقم (٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢).

المذمومة، وأنت أيها الأخ المسلم إذا أردت الدعاء فادع الله بنفسك، لا تعتمد على غيرك؛ لأن دعاءك الله عبادة، وربما يحدث لقلبك من الإنابة إلى الله، والرجوع إليه، والافتقار إليه ما هو أفضل بكثير من إجابة دعوتك التي تريد.

٣ـ **ومن فوائدها**: إثبات أن بني إسرائيل يؤمنون بأنه لن يقدر على إنبات الزرع وإخراجه من الأرض إلا الله؛ لأنهم قالوا لموسى ـ كما ذكر الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾ الآية.

٤ـ **ومن فوائدها**: التوسل إلى الله ـ تعالى ـ باسم الرب عند الدعاء؛ لقولهم: ادع لنا ربك؛ ولهذا كان قول الداعي: يا رب، يا رب، من أسباب إجابة الدعاء؛ كما أشار إليه رسول الله ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب[1]، وكذلك إذا تأملت الدعاء المذكور في القرآن وجدت كثيرًا منه مصدرًا باسم الرب «**يا ربنا**».

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: انحطاط همم بني إسرائيل؛ حيث نزلوا من الأعلى إلى الأدنى؛ فطلبوا من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدعو الله أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من هذه الأنواع

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥).

التي تعتبر نازلة بالنسبة إلى المن والسلوى؛ ولهذا قال لهم نبيهم ﷺ كما ذكر الله ـ تعالى ـ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، وهذا يدل على سفههم وعدم صبرهم على ما مَنَّ اللهُ به عليهم.

٦ـ ومن فوائدها: جواز تفضيل الأطعمة بعضها على بعض، وأنه يجوز للإنسان أن يقول: هذا أدنى من هذا، أو هذا أعلى من هذا، أو هذا أردأ من هذا، أو هذا أطيب من هذا.

٧ـ ومن فوائدها: أنه لا يلام الإنسان إذا اختار الأطيب من الطعام، ولا يُعَدُّ ذلك من باب الإسراف؛ فقد أقرَّت شريعتنا هذا؛ فإن النبي ﷺ جيء إليه بتمر طيِّب فسأل: «**أكل تمر خيبر هكذا؟**» قالوا: لا، والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة؛ فقال رسول الله ﷺ: «**فلا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا**»[(١)]، وأرشدهم ﷺ إلى أن يبيعوا التمر الرديء بدراهم، ثم يشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا، ولم ينههم عن اختيار التمر الطيب يقدمونه إلى رسول الله ﷺ، فإذا اختار الإنسان من الطعام أطيب الأنواع، وكانت حاله تتحمل هذا، ولا يُعدُّ ذلك سَرَفًا بالنسبة إليه؛ فإنه لا بأس به، ولا يُلامُ الإنسان عليه؛ بل هذا من باب التمتع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠٢)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٣).

بنعم الله. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يحب من عباده أن يتمتعوا بنعمه، وينهاهم أن يحرموا شيئًا من الطيبات على أنفسهم؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧]؛ وذلك لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ كريم؛ والكريم يحب أن يتمتع من يناله كرمه بكرمه.

٨ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما كان موجودًا مبذولًا لا يحتاج الإنسان أن يدعو الله ـ تعالى ـ لحصوله؛ لأن الدعاء في مثل هذا سفه؛ فإنه موجود بين يديك، ولكن ادع الله ـ تعالى ـ ببقائه، واستمراره، وألا يرفعه عنك؛ لأن هذه الدعوة في محلها، أما أن تقول: اللهم ارزقني كذا وكذا، وهو بين يديك فهذا لا وجه له؛ ولهذا قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله ضرب على بني إسرائيل الذلة والمسكنة، فهم دائمًا في ذل، ودائمًا في مسكنة، حتى وإن اغتنوا؛ فإن قلوبهم فقيرة؛ ولهذا تجد اليهود أشد الناس طلبًا للمال وفناء في تحصيله؛ يحرصون على تحصيل المال بأي ثمن ولو بالطريق المحرم؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ

أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]؛ فهم أخّاذون للربا، أكّالون للسحت، ظالمون للعباد، فهذا دأب اليهود بالنسبة لأخذ المال، هم في مسكنة دائمة، وفي فقر دائم، لكنه فقر قلبي، وإن كان عندهم من الأموال عدد كثير.

١٠ـ **ومن فوائد هـذه الآية الكريمة:** حلول الغضب على بني إسرائيل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

١١ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ـ تعالى ـ لا يظلم أحدًا، لكن الذي يظلم هو الإنسان نفسه؛ ولهذا لما ذكر الله عقوبتهم بضرب الذلة والمسكنة وحلول الغضب عليهم بَيَّنَ أن هذا بسبب كفرهم؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾، فكفرهم بآيات الله معصية عظيمة أكبر المعاصي، وكانت سببًا لضرب الذلة والمسكنة عليهم.

١٢ـ **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات تعليل أفعال الله؛ أي: أن أفعال الله مُعللة؛ أي: مقرونة بالحكمة، فما من فعل يفعله الله ولا حكم يشرعه الله إلا مقرون بحكمته؛ ويتفرع على هذه الفائدة أنه كلما مرَّ بنا

شيء مقرون بمشيئة، فيجب أن نعلم أنها ليست مشيئة مجردة، وإنما هي مشيئة اقتضتها الحكمة، ويدل على هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأشار الله ـ تعالى ـ في هذه الآية إلى أن مشيئته مقرونة بحكمته فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠].

١٣ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن بني إسرائيل ـ مع عدوانهم في حق الله ـ معتدون على عباد الله؛ فهم يقتلون النبيين بغير الحق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس بغير الحق، وفي قوله: ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ تشنيعٌ عليهم، وأن قتلهم للأنبياء في غير محله؛ لأنه قتل بغير حق؛ فالصفة ـ هنا ـ ليست صفة مقيدة، وإنما هي صفة كاشفة موضحة أن قتل النبيين بغير حق، فيكون في هذا فائدة وهي زيادة التشنيع على بني إسرائيل بقتلهم النبيين.

١٤ – **ومن فوائد هذه الآية:** بيان عصيان بني إسرائيل واعتدائهم، وأنهم أصحاب معصية، واعتداء على الله، وعلى عباد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

في هذه الآية يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مُبيِّنًا كمال عدله، وأنه لا يـضيع عمل عامل عَمِلَ صالحًا وآمن؛ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ وهـم أتبـاع رسول الله ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾؛ الذين هادوا: هم أتباع موسى ﷺ، ووصفوا بهذه الصفة؛ لأنهم قالوا: إنا هُدنا إليك؛ أي: رجعنا إليك، والنصارى: أتباع عيسى بن مريم، وسُموا نصارى؛ إما نسبة إلى بلدة تسمى الناصرة، وإما من النصرة؛ لأن عيسى لما قال ـ كما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وأما الصابئون: فهم قوم لهم دين يتدينون به، وقيل: إن الصابئ في الأصل من لا دين له، ولكن الذين هادوا والنصارى والصابئين قُيِّدَ استحقاقهم الأجر بالإيمان بالله ﷺ اليوم الآخر، والعمل الصالح، أما المؤمنون فقد استحقوا هذا الوصف؛ فالقيد إن كان واردًا في حقهم فهو على سبيل التوكيد، وذلك أن الذين بقوا على اليهودية، والنصرانية، والصابئة بعد بعثة الرسول ﷺ ليسوا على حق، ولا يصدق عليهم أنهم مؤمنون بالله ﷺ اليوم الآخر؛ لأنهم لو آمنوا بالله ﷺ اليوم الآخر حقًّا لاتبعوا محمدًا ﷺ ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، والذي كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فهم - أعني: اليهود، والنصارى، والصابئين بعد بعثة محمد ﷺ لا يصدق عليهم أنهم يؤمنون بالله ﷻ اليوم الآخر، ويعملون صالحًا إلا إذا اتبعوا محمدًا ﷺ؛ يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾؛ الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته؛ فمن أنكر الله فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بربوبيته فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بألوهيته فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بأسمائه وصفاته، فيثبتها على ما جاءت في كتاب الله ﷻ سنة رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل؛ فليس بمؤمن؛ إذن الإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء: الإيمان بوجوده، وبتوحيده في الربوبية، وبتوحيده في الألوهية، وبتوحيده في الأسماء والصفات.

وأما قوله:﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ فالعمل الصالح: هو الذي اجتمع فيه شرطان:

الشرط الأول: أن يكون خالصًا لله، لا يشوبه إشراك.

والشرط الثاني: أن يكون مُتَّبِعًا فيه رسول الله ﷺ؛ فلا يشوبه ابتداع؛ ولهذا لا يكون العمل عملًا صالحًا إلا إذا كان لله خالصًا، ولشرعه موافقًا؛ فإذا اجتمع الإيمان بالله جل وعلا، واليوم الآخر، والعمل

الصالح؛ ثبت الأجر.

والإِيمانُ باليوم الآخر يتضمَّنُ الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيشمل الإِيمان بما يكون في القبر من سؤال الملكين الميِّتَ عن ربه، ودينه، ونبيه، ومن عذاب القبر ونعيمه، وكذلك ما يكون يوم القيامة من الجزاء ثوابًا وعقابًا، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتاب والسنة.

وأما الأجر: فهو الثواب على هذا العمل المبني على الإِيمان بالله ﷻ اليوم الآخر، وهو الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن قام بهذين الوصفين: الإِيمان والعمل الصالح؛ فإنه يأمن من كل خوف من مستقبل، وحزن على ما مضى.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأن من قام بالإِيمان والعمل الصالح؛ فإن له الأجر عند ربه، سواء أكان من المؤمنين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، أم من اليهود، والنصارى، والصابئين؛ فاليهود ـ مثلًا ـ حين كانت شريعتهم قائمة ـ إذا اتصفوا بالإِيمان والعمل الصالح ـ كان لهم أجرهم كاملًا مُوفَّرًا، وكذلك النصارى، وكذلك الصابئون، أما إذا كان دينهم منسوخًا؛ فإن الواجب عليهم أن يتحولوا عنه إلى الدين الناسخ، والملة الجديدة؛ ولهذا يعتبر اليهود كفارًا بالنسبة للنصارى؛ أي: كافرين بعيسى ابن مريم، ويعتبر النصارى كفارًا

بالنسبة لمحمد ﷺ؛ أي: كافرين بمحمد ﷺ، والكافر بمحمد ﷺ كافر حتى بنبيه؛ لأن الأنبياء قد بشروا به؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٧].

فمن كفر بمحمد ﷺ بعد بعثته؛ فإنه ـ حقيقة ـ لم يؤمن حتى برسوله؛ وعلى هذا فاليهود والنصارى والصابئون الموجودون اليوم لو قالوا: إنهم مؤمنون بالله ﷺ اليوم الآخر ويعملون عملًا صالحًا، فإننا نقول لهم: هذا لا ينفعكم؛ لأن الإيمان بالله ﷺ اليوم الآخر يستلزم الإيمان بمحمد ﷺ، والعمل الصالح لا يكون عملًا صالحًا إلا بموافقة شريعة محمد ﷺ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا من المخلصين له، المتبعين لرسوله.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية: أن العمل لا يثبت فيه الأجر إلا إذا كان عملًا صالحًا، والعملُ الصالحُ ـ كما أسلفنا ـ ما اجتمع فيه شرطان: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ ؛ فمن عمل عملًا يتضمن شيئًا من الشرك؛ فإن عمله ليس بصالح، وليس بمقبول عند الله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ

(١) أي: القرآن الكريم.

بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : أن الله قال: «**أَنَا أَغْنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِي غيري؛ تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ**»(١)؛ فمن تعبَّدَ لله عبادة يرائي فيها الناس؛ فإنها لا تُقبلُ منه؛ لأنها ليست عملًا صالحًا، ولكن ـ هنا ـ مسألة يشكو منها كثير من الناس؛ كثير من الناس يقول: إنني إذا هممت بعمل صالح أتاني الشيطان، وقال: إنك مراءٍ؛ فيقعدني عن العمل، فما الحل لهذه المشكلة؟

وجوابنا على هذا أن نقول: الحل لهذه المشكلة أن تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن تنتهي عن ذلك، وأن تستمر في عملك الصالح معرضًا عما يلقيه الشيطان في قلبك من أنك مُرِيدٌ للرياء، وفكِّر: فلو أنك سئلت هل أنت مراء بهذه العبادة؟ لقلت: لا، إذن لا يصدنك الشيطان عنها بهذه الوسوسة، فاستمر في العمل، ولا يهمنك ما يلقيه الشيطان في نفسك من وساوس.

ويشكو بعض الناس ـ أيضًا ـ أنه يدخل في العبادة ليس في قلبه رياء، ثم يحدث له الرياء في أثناء العبادة، فما الحل؟

جوابنا على هذا: أن يسعى في طرده، والتخلص منه، وأن يقبل على عبادة الله، ويعرض عما ألقى الشيطان في قلبه من الرياء، وهو إذا دافع

---

(١) سبق تخريجه (٢٠).

هذا الرياء؛ فإنه لا يضره، ولا يؤثر على عبادته.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية أيضًا**: أن العمل الذي لا يكون موافقًا لشريعة الرسول ﷺ لا يقبل حتى وإن كان بنية خالصة، ليس فيها شرك؛ لأن النبي ﷺ قال: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(١).

وبناء على ذلك فإن جميع العبادات البدعية التي يتعبد بها أهلها، مهما كثرت، ومهما أثرت من لين القلب ودمع العين فإنها لا تنفعهم عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنها على غير صراط الله؛ وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فأي إنسان يتعبد لله عبادة قولية كانت أم فعلية فعليه الدليل على أن هذه العبادة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، وإلا فإن عمله سيكون هباء، ويكون وبالًا عليه؛ لأنه ابتدع في دين الله؛ فقد قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكُمْ ومحدثات الأمور؛ فإن كلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»(٢).

والبدع ـ مهما حسنت في قلوب مبتدعيها ـ فإنها سيئة؛ لأن النبي ـ

---

(١) سبق تخريجه (٤٩).

(٢) رواه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)؛ والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)؛ والدارمي (١/ ٤٤، ٤٥).

عليه الصلاة والسلام ـ قال كلمة عامة شاملة: «كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ»، ولم يستثن النبي ﷺ شيئًا، والبدع ـ وإن حسنت في قلوب مبتدعيها ـ فإنها شر؛ تفرق الناس في دين الله، وتجعل كل طائفة من الناس تضلل الأخرى، ويكون كل حزب بما لديهم فرحون، كما هو الواقع الآن؛ لما انتشرت البدع في الأمة الإسلامية، ومنذ زمن بعيد صارت الأمة الإسلامية متفرقة يضلِّلُ بعضها بعضًا، وربما يصل الأمر إلى أن يُكفِّرَ بعضهم بعضًا، فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾، [الأنعام: ١٥٩].

وإنني بهذه المناسبة أوجه النصيحة إلى إخواني المسلمين أن يحرصوا على أن تكون أعمالهم كلها مبنية على شريعة الله، على ما جاء عن رسول الله ﷺ ؛ فإن هديه خير الهدي، وما خرج عن هديه فهو ضلال، وفتنة، وبدعة، وأن يحرصوا ـ أيضًا ـ على الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فلا يفعلوا العبادة من أجل مُرَاءَاةِ الخلق أو سماع الخلق؛ لأن الخلق لا ينفعونهم، فلا ينفعهم إلا الخالق ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية: الدليل على عظم الأجر على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله ـ تعالى ـ أضافه إلى نفسه؛ فقال: ﴿فَلَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وما كان من عند الله فهو من عند الكريم العظيم، وعطاء الكريم العظيم يكون عطاءً عظيمًا.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على عباده بهذا الثواب؛ حيث جعله بمنزلة الأجر اللازم الذي لابد من إيفائه، وهذا من نعمة الله؛ فهو الذي تكفَّلَ بذلك، وكتب على نفسه أن من عمل صالحًا؛ فجزاؤه عند الله ـ تعالى ـ الأجر الذي يستحقه.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه بالإيمان والعمل الصالح يُطردُ الخوف ويُطردُ الحزن في الدنيا وفي الآخرة؛ ولهذا كان أشرف الناس صدرًا، وأنعمهم بالًا، وأشدهم طمأنينة؛ أي: أشدهم طمأنينة في القلب هم المؤمنون العاملون عملًا صالحًا؛ ولهذا قال بعض السلف: «لو يعلم الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نَحْنُ فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

❁ ❁ ❁

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل؛ يُذَكِّرُهُم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما أخذ عليهم من الميثاق حين رفع فوقهم الطور ـ وهو الجبل المعروف ـ، وذلك بعد فسوقهم وعصيانهم، وأَمَرَهُم الله أن يأخذوا ما آتاهم من الشرع بقوة لا ضعف فيها ولا هوادة، وأن يذكروا ما في هذا الذي

آتاهــم من المواعظ والأحكام؛ ليصلوا بذلك إلى تقوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنهم تولوا بعد ذلك، ولولا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تداركهم بفضله ورحمته؛ لكانوا من الخاسرين أبد الآبدين.

فوائد هاتين الآيتين:

١ـ تذكير الإنسان بما أنعم الله به عليه من النعم؛ ليذكر هذه النعمة فيشكر الله عليها، ولا سيما مع طول العهد وتناسي هذه النعم.

٢ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أخذ العهد والميثاق على بني آدم أن يوحدوه ويؤمنوا به، وذلك بما ركب فيهم من العقول، وأنزل عليهم من الكتب، وأرسل إليهم من الرسل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾.

٣ـ بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وعظمته؛ حيث رفع هذا الجبل العظيم فوقهم؛ تخويفًا وإنذارًا، وهذه الأمة ـ أعني الأمة المحمدية ـ لم يكن فيها مثل هذا الإنذار، ولكن كان فيها إنذار من نوع آخر؛ مثل كسوف الشمس، وخسوف القمر؛ فإن النبي ﷺ لما كسفت الشمس في عهده بيَّن أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله؛ يخوِّف الله بهما عباده، وأنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فبيَّن النبي ﷺ أن الله يخوِّف بهما العباد؛ من أجل أن يرجعوا إلى ربهم؛ ولهذا شرع للناس الذين يرون الكسوف أو الخسوف أن يفزعوا إلى ذكر الله، واستغفاره، والصلاة، والصدقة، والعتق.

٤- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: وجوب أخذ الإِنسان بشريعة الله على وجه القوة التي ليس فيها ضعف ولا توان؛ لأن الإِنسان إذا قابل أوامر الله بالضعف والتواني استولى عليه الشيطان، واستحوذ عليه حتى يوصله إلى تركها، والتواني في أوامر الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: التواني في فعل المأمورات بأن يتكاسل في فعل الواجبات، ويتراخى في فعل المندوبات؛ فيضعف إيمانه بذلك وينقص.

والثاني: الضعف في ترك النواهي؛ بحيث يضعف الإِنسان أمام الشهوة الدافعة إلى فعل المعصية، وأعني بالشهوة شهوة الإِرادة لا شهوة الجنس، وشهوة الجنس تكون ـ بلا شك ـ أحيانًا ـ من الشيء المحرم إذا كانت على غير الأزواج وما ملكت اليمين، المهم أن الضعف كما يكون في فعل الأوامر يكون كذلك في ترك النواهي؛ بحيث يضعف الإِنسان أمام شهوات نفسه؛ فيعجز عن كبحها عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عليه.

٥- **ومن فوائد الآيتين الكريمتين**: وجوب ذكر ما في الكتب المنزلة من الوحي، وذكره على نوعين أيضًا: **النوع الأول**: أن يُذْكَرَ باللسان؛ وهذا يكون بتلاوة ما يُتلى، وتعليم ما يُعَلَّمُ، **والثاني**: أن يُذْكَرَ بالعمل؛ وذلك بالتطبيق؛ فإن تطبيق أوامر الله لا شك أنه ذكر له.

٦- **ومن فوائد هاتين الآيتين**: أن أخذ الشرائع بالقوة وذكر ما فيها على حسب النوعين السابقين يكون سببًا للتقوى؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والتقوى مأخوذة من الوقاية؛ وهي أن يتقي الإِنسان عذاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد فُسِّرَت التقوى بتفاسير متعددة، لكنها لا تخرج عما ذكرنا؛ وهي فعل أوامر الله ﷺ اجتناب نواهيه ـ تبارك وتعالى ـ؛ لأن الوقاية من عذاب الله لا تكون إلا بذلك.

٧- ومن فوائد الآيتين الكريمتين: إثبات الأسباب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ فإن «لعل» ـ هنا ـ للتعليل، والعلة: السبب، والناس في الأسباب انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

قسم أَفْرطوا فيها، وقسم فرَّطوا فيها، وقسم وسط.

فأما الذين أفرطوا فيها ـ أي: بالغوا وغالوا ـ؛ فإنهم أثبتوا الأسباب وجعلوها هي الفائدة المؤثرة التي لا يمكن أن يتخلف المُسَبَّبُ فيها عن السبب.

وأمَّا الذين فَرَّطوا في الأسباب؛ فهم الذين قالوا: إن الأسباب ليس لها تأثير في مسبباتها، وإن الذي يحصل بهذه الأسباب لم يكن بها، ولكنه عندها؛ مثال ذلك: لو انكسرت زجاجة بحجر رُميت به، فعند القسم الأول الذين أفرطوا في إثبات الأسباب يكون انكسار الزجاجة بها أمرًا طبيعيًّا لابد منه، وعند الآخرين لم يكن الانكسار بسبب اصطدام الحجر بالزجاجة، وإنما كان عند اصطدام الحجر بالزجاجة لا به، ولا شك أن هذين القولين بعيدان عن الصواب، وأن الصواب هو القول الثالث الوسط، الذين أثبتوا الأسباب وتأثيرها في مسبباتها، ولكنهم

جعلوا ذلك مما خلقه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيها من القوة؛ فهي لم تنفرد بالتأثير، ولكن خلق الله فيها هذا التأثير؛ **ويدل لذلك السمع والعقل.**

فأما السمع؛ فإن الآيات والأحاديث في إثبات الأسباب وتأثيرها لا تكاد تحصى كثرةً.

وأما الواقع أو العقل؛ فإن الحسَّ شاهد بذلك؛ فكل إنسان يعرف أن انكسار الزجاجة لرميها بالحجر، إنما كان بالحجر لا عند اصطدامه بها؛ ولهذا لو وضعت الحجر عليها وضعًا؛ لم يكن له تأثير فيها، ويدل على أن الأسباب لا تفعل بنفسها ولكنها تؤثر بما أودع الله فيها من القوة، أن النار المحرقة الحارة حين أمرها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم كانت بردًا وسلامًا عليه؛ فإن إبراهيم أُضرمت له نار كبيرة عظيمة وأُلقي فيها، حتى إن بعض العلماء قال: إن قومه لما أرادوا أن يلقوه في النار لم يتمكنوا من القرب منها فوضعوه في منجنيق ورموه بواسطته إلى النار، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانت بردًا وسلامًا عليه، ولم تؤثر فيه شيئًا، وهذا يدل على أن تأثير الأسباب ليس تأثيرًا ذاتيًا حتميًا لابد منه، بل بما خلقه الله فيها من القوة المؤثرة لا الفاعلة.

٨ـ **ومن فوائد هاتين الآيتين أيضًا**: أن بني إسرائيل ـ بعد هذا الإنذار الشديد ـ لم ينتفعوا بما أنذروا به، بل تولوا من بعده، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وأنهم من أشد الناس طغيانًا وضلالًا.

٩ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات فضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على بني إسرائيل، وما أكثر نعمه على بني إسرائيل، ولكنهم قوم لا يشكرون، بل كانوا يصفون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بما يُنَزَّهُ عنه؛ كقولهم: «يد الله مغلولة»؛ قـال الله ـ تعـالى ـ : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة: ٦٤].

ووصفوا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالفقر؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

١٠ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتدارك عبده بالفضل، قـال تعـالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

١١ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: تذكير آخر الأمة بما صنع أولها؛ لأنه إن كان خيرًا كان من الفضل أن يتبعوا من سبقهم فيـه، وإن كـان شرًّا كان من الحكمة والعقل أن يبتعدوا عنه، واستنبط بعضُ العلماء من هذا أن صنيع أول أمـة يـصح أن ينسب إلى آخرهـا؛ لأن الله خاطـب بنـي إسرائيل في عهد النبي ﷺ بما صنعه آباؤهم وأجدادهم، وهـذه الفائـدة محل نقاش ومحل تأمل.

١٢ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: أنه ينبغي للإنسان ألا يضيف ما مَنَّ

الله به عليه من فضل إلى مجرد فعله هو؛ فينسى بذلك نعمة الله ﷺ فضله، ويقع في الإِعجاب بالنفس الذي هو محط كل شر.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

يؤكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هاتين الآيتين، في خطاب بني إسرائيل، في عهد النبي ﷺ أنهم قد علموا حال الذين اعتدوا منهم في السبت ـ وهو اليوم الذي كانوا يعظمونه ـ؛ وكان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حَرَّمَ عليهم الصيد في هذا اليوم وابتلاهم؛ حيث كانت تأتيهم الحيتان في هذا اليوم شُرَّعًا، طافيةً على ظهر الماء، كثيرة، يسهل أخذها، وفي غير هذا اليوم لا تأتيهم الحيتان؛ فطال عليهم الأمد، وقالوا: لا يمكن أن ندع هذه الحيتان تأتي وترجع دون أن نصيدها، فعملوا لذلك حيلة؛ فوضعوا «شِبَاكًا» في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت وقعت في هذه «الشِبَاك»، وإذا كان يوم الأحد أتوا إلى الشِبَاكِ، فأخذوا ما فيها من الحيتان؛ فعاقبهم الله ـ تعالى ـ بهذه العقوبة العظيمة أن جعلهم قردة خاسئين ـ القردة: جمع قرد، والخاسئ: هو الذليل ـ بعد أن كانوا بشرًا سويًا ذا عناد ورفعة، فجعل الله هذه العقوبة نكالًا لما بين يديها للأمة المعاصرة لهم، وما خلف هذه الأمة الآتية بعدهم، وجعلها كذلك

موعظة للمتقين؛ أي: سببًا لاتعاظهم، وقد سبق الكلام عن التقوى.

في هاتين الآيتين يذكر الله ـ سبحانه وتعـالى ـ بنـي إسرائيـل الـذين كانوا في عهد النبي ﷺ بما حدث لمن سبقهم من بني إسرائيـل بـما ذكـر عن السبت.

فوائد هاتين الآيتين:

١ـ تذكير الأمة بما فعل سلفها؛ ليتخذوا منه عبرة.

٢ـ **ومن فوائدهما:** أن التَّحَيُّل على محارم الله لا يقلبها إلى حلال، بل إنَّ التَّحيُّلَ على المحارم لا يزيدها إلا قبحًا؛ لأن التحيُّل على المحارم فيه محذور فعل المحرم، ومحذور الخداع لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فيكون المُتَحَيِّلُ جامعًا بين فعل المعصية التي نهوا عنها وخيانة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وخداعه، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فأعظم فائدة تستنبط من هاتين الآيتين: هي أن التحيل على محارم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يقلبها حلالًا؛ بل إن التحيل على المحارم لا يزيدها إلا قبحًا؛ لأن المتحيل يقع في محظورين:

المحظور الأول: أن يقع بفعل هذا المحرم في المحظور.

الثاني: المخادعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ ولهذا نجد أن المنافقين أعظم ذنوبًا وأكبر جرمًا من الكافرين الصرحاء؛ كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وبَيَّـنَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أن المنافقين هم العدو الحقيقي الأكبر للمؤمنين؛ كما ذكره ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة «المنافقون» في قوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ ومن هنا نعلم أن الذين يتحيلون على الربا بالطرق الملتوية أشد إثمًا من الذين يأتون الربا على وجه صريح؛ لما في فعلهم من الوقوع في محظور الربا من وجهٍ ومن مخادعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ من وجهٍ آخر.

وهناك معنى ثالث في المخادعة؛ وهو أن المخادع يظن أنه على صواب، وأنه لم ينتهك المحرم؛ فلا يزال مستمرًا عليه، ولا يحدث نفسه بالتوبة منه، بخلاف الذي يأتي المحرم على وجه صريح؛ فإنه يرى نفسه مذنبًا مُقصِّرًا في حق الله؛ فيخجل من ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وربما يأتي اليوم الذي يتوب فيه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فيكون الآتي للمحرم صريحًا أقرب إلى التوبة من المخادع الماكر؛ ولهذا لُعِنَ الرجل الذي يتزوج امرأة؛ لتحليلها لزوجها الأول؛ كما جاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ **«لعن المحلِّلَ والمُحَلَّلَ له»**(١).

والتحليل هو أن الرجل يتزوج امرأةً طلَّقها زوجها ثلاثًا؛ من أجل

(١) رواه أبو داود: كتاب النكاح، باب في التحليل، رقم (٢٠٧٦)؛ والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في المحلل والمحلل له، رقم (١١٢٠)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»؛ والنسائي: كتاب الطلاق، باب إحلال المطلقة ثلاثًا وما فيه من التغليظ، رقم (٣٤١٦)؛ وابن ماجه: كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له، رقم (١٩٣٤، ١٩٣٥)؛ والدارمي (٢/ ١٥٨)؛ وغيرهم.

أن يجامعها فيحلها لزوجها الأول، وهذا لا شك أنه مُحَرَّمٌ، وأنه لا ينفع؛ ولهذا قال أهلُ العلمِ: إنَّ الرجل إذا تزوج امرأة على سبيل التحليل؛ فإنها لا تحل للزوج الأول ولو أن الثاني جامعها؛ وذلك لأن نكاح التحليل نكاحٌ لا يُرادُ به حقيقته؛ فإنه إنما يريد أن يتزوج هذه المرأة؛ من أجل أن يجامعها ثم تعود إلى زوجها الأول، قال أهلُ العلم: ومع ذلك فإنها لا تحل للزوج الأول؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال في كتابه: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾[1] [البقرة: ٢٣٠]

ونكاحُ التحليل ليس بنكاحٍ شرعي؛ لأنه نكاحٌ غير مقـصود؛ فـإن من المعلوم أن المقصود بالنكاح هو بقـاء المـرأة عنـد زوجهـا؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل من فوائد النكاح أن يـسكن الرجـل إلى زوجتـه وتسكن إليه، فإذا كان النكاح ليس نكاح رغبة، بل إنما تزوجها ليطلقها إذا أحلها للزوج الأول؛ فإن ذلك ليس بنكاح شرعي، وحينئذٍ لا تحـلُّ للـزوج الأول، وإنـما نبهـتُ عـلى ذلـك ـ وإن كـان ولله الحمـد قلـيلًا عندنا ـ؛ لأنه قد يخفى عـلى بعـض الجُهَّـالِ؛ فيريـدون فعـل المعـروف للزوج الأول، ولكنهم يسيئون إلى أنفسهم، ولا يفيدون الـزوج الأول شيئًا؛ لأن الزوجة لا تحل للـزوج الأول إذا كـان النكـاح الثـاني نكـاح تحليل لا رغبة.

---

(١) طلقها: أي: الطلقة الثالثة.

٣ـ ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن العقوبة تكون مجانسة للعمل؛ كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فهؤلاء القوم ـ لما تَحيَّلوا على فعل المحرم بما ظاهره الإِباحة؛ حيث نصبوا الشباك في يوم الجمعة، وأخذوا الحيتان الواقعة فيه في يوم الأحد، وظاهر هذا الفعل أنهم لم يصطادوا في يوم السبت، وأنهم فعلوا فعلًا حلالًا؛ قلبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أقرب الحيوانات شبهًا بالإِنسان وهي القردة.

٤ـ ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينقسم إلى قسمين: قول كوني؛ كما في هذه الآية: ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾؛ فإن هذا القول كوني وليس بشرعي؛ لأنه ليس باستطاعتهم أن يقلبوا أنفسهم إلى قردة، ولكنه القول الكوني الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وأما القول الشرعي؛ فهو ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فإن قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾: قول شَرعي يُؤمر به العبد ويمكنه امتثاله، والفرق بين القولين ـ الكوني والشرعي ـ أن القول الكوني لابد من نفوذه ووقوعه، أما القولُ الشرعي فإنه قد يمتثل المقول له وقد لا يمتثل، أما القول الكوني فلابد من وقوع مقوله بكل حال.

٥- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات القـول لله؛ فـإن الله ـ سـبحانه وتعالى ـ قائل ويقول، كما أنه متكلم ويتكلم، والكلام وصْفُهُ ـ سبحانه وتعالى ـ القائم به، وهو وصفٌ ذاتي فعلي؛ فـالكلام ـ باعتبـار أصـله ـ وصفٌ ذاتي لم يزل الله ﷻ لا يزال مُتَّصِفًا به، وباعتبـار آحـاده وصـفٌ فعلي يتكلم بما شاء متى شاء، وهذا هو مـا ذهـب إليـه الـسلف وأهـل السنة والجماعة من أن الكلام وصـفٌ لله ـ تعـالى ـ قـائم بذاتـه متعلـق بمشيئته.

٦- ومن فوائدهما: بيانُ قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث انقلب هـؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية؛ لقوله ـ تعـالى ـ: ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾؛ فكانوا قردة، ويبقى سؤالٌ يطرح نفسه؛ وهـو: هـل هـذه القـردة الموجـودة الآن مـن نـسل بنـي إسرائيـل أم هـي جـنسٌ مـن المخلوقات منفرد؟

وجوابنا على هذا أن نقول: هذه القردة الموجودة ـ الآن ـ جنس منفرد من مخلوقات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، مُستقلٌّ بنفسه، أما الَّذينَ قُلِبُوا قردةً من بني إسرائيل؛ فإنه ليس لهم نسلٌ، بل ماتوا، وهلكوا، وبادوا ـ كما قرَّر ذلك أهلُ العلم ـ؛ وذلك أن بني آدم من آدم، وآدم خلقه الله ـ تعالى ـ من تراب، ثم قال له: كُنْ؛ فيكون؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

٧ـ ومن فوائد هاتين الآيتين: تكذيبُ من زعم أن البشر أصلهم قردة، ثم تطوروا حتى صاروا بشرًا؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الإنسان قردًا ـ حينما أراد أن يعاقبه ـ؛ لمخالفته أمره، وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة الصريحة على أن آدم خُلِقَ من تراب، وأجمع على ذلك المسلمون، ولم يختلف فيه اثنان منهم، فمن اعتقد أن أصل بني آدم قردة؛ فإنه مُكَذِّبٌ بالكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين، فإن قالها عن جهلٍ ـ لكونه عاش في بيئة لا تعلم سوى ذلك ـ؛ فإنَّه يُعَلَّمُ، فإن أصرَّ على ما كان عليه؛ صار كافرًا، وإنْ لم يقلها عن جهل ـ بأن كان مقيمًا في بلاد المسلمين الذين يقرءون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإنه يكون كافرًا بمجرد قوله: إن بني آدم أصلهم قردة؛ لأن هذا تكذيبٌ صريحٌ لما عُلِمَ من دين الإسلام.

٨ـ ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن من رام المرتبة بغير استحقاق لها؛ فإنه يعاقب بنقيض قصده؛ لأن هؤلاء الذين اعتدوا، واستكبروا، وتعالوا عوقبوا بنقيض قصدهم؛ عوقبوا بأن حُوِّلُوا إلى قردةٍ خاسئة ذليلة، وهكذا كان من أراد علوًّا في الأرض أو فسادًا؛ فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يصلح عمله، بل يحطه وينزله؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ومن تواضع لله رفعه، ومن تعالى على الله ﷻ ضعه؛ ولهذا كان الإنسان كلما تواضع للحق وللخلق؛ ازداد رفعة عند الله ﷻ عند الخلق ـ أيضًا.

٩- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: إثباتُ العقوبة، وأن العقوبة لابد أن يكون لها تأثير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، ووجهُ ذلك أن كل من اطَّلَعَ على حال هؤلاء، فلابُدَّ أن ينكل؛ أي: يمتنع عما كان عليه من الإثم والعدوان، سواء كان ذلك بترك الواجب، أو انتهاك المحرم، واعلم أن «الجعل» ـ الذي أضافه الله لنفسه ـ ينقسم إلى قسمين: قسم كوني وقسم شرعي؛ فمن الكوني قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١].

ومن الشـــرعي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣]؛ أي: ما شرع هذه الأشياء.

١٠- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أنَّ الموعظة إنما ينتفع بها المتقون؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾؛ فمن ليس بمتقٍ فإنه لا ينتفع بالموعظة، وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أوعى للموعظة وأكثر انتفاعًا بها؛ وشاهِدُ هذا ظاهرٌ في المحسوس؛ فإنك تجد الرجل المتمادي في المعاصي، المنهمك فيها لا ينتفع بالموعظة والإرشاد، وتجد الرجل المستقيم المتقي إذا وُعِظَ انتفع، فإنْ كان في اتجاه إلى محرم عَدَل عنه، وإن كان متهاونًا في مأمور اتجه إلى فعله واستبق إليه.

١١- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن للتقوى فوائد؛ منهـا: الموعظة؛ أي: الاتعاظ بما يحصل من الآيات، آيات الله الكونية أو آيات

الله الشرعية، وللتقوى فوائد كثيرة ذكرها الله - تعالى - في كتابه العظيم:

منها: أنها سبب لتيسير الأمور؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

ومنها: أنها سبب لتفريج الكربات؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومنها: أنها سبب للهداية والنور؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، فإذا كانت التقوى بهذه المثابة؛ كان لزامًا على العاقل أن يلتزم التقوى؛ حتى تحصل له هذه الفوائد العظيمة التي رُتبت عليها.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا

كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٤].

في هذه الآيات الكريمة يُذَكِّرُ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بني إسرائيل بهذه القصة الغريبة العجيبة التي وقعت من بني إسرائيل؛ وذلك أنَّهم قتلوا نفسًا، فاختصموا فيها، وتدارءوا فيها، وكل قبيلة تدعي أن القبيلة الأخرى هي التي قتلت هذه النفس، واشتبه عليهم الأمر؛ فارتفعوا إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، ولكن لطغيانهم، وعتوهم، واستبعادهم ما عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ سخروا بموسى وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ أي: أتستهزئ بنا، فما شأن ذبح البقرة بهذه المشكلة، فقال لهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ الذين يجهلون حق البشر، أو الذين يعتدون على البشر؛ وذلك لأن الجهل قد يُرادُ به عدم العلم، وقد يُرادُ به العدوان؛ وهو الجهالة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

ومن ذلك - أيضًا - قولُ النبي - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قولَ الزُّور والجَهْلَ والعَمَلَ بِهِ؛ فَلَا حَاجَةَ لله في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ»(١)؛ يعني: الصوم، فالجهالة قد تكون بمعنى السفاهة، وسوء التصرف، والعدوان على الغير، وقد تكون بمعنى عدم العلم، فقول موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يحتمل المعنيين جميعًا، فلما رأوا موسى جادًّا فيما قالَ لم يمتثلوا - أيضًا - امتثالًا فوريًّا يدل على الانقياد التام، ولكنهم عاندوا بالاستفسار، فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾؛ أي: ما سنها؟ وما عمرها؟ وهل هي كبيرة أو صغيرة؟

﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾؛ يعني: أنها لا كبيرة ولا صغيرة، ولكنها عوان بين ذلك، ثم أمرهم أن يفعلوا ما أمروا به، ولكنهم لم يفعلوا ولم يمتثلوا أمر نبيهم، بل إن ظاهر الآية الكريمة أن الأمر في قوله: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ صادر من الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؛ أي: أنهم لم يمتثلوا ولم يفعلوا ما أُمروا به، بل ذهبوا يستفسرون استفسارًا آخر عن اللون،

---

(١) رواه ابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، رقم (١٦٨٩) بهذا اللفظ، ورواه - بنحوه - البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم (١٩٠٣).

فقال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾، قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنه ـ أي: الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾؛ فبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنها بقرة صفراء، فاقع لونها ـ أي: واضح الصفار ـ، تسرُّ الناظرين بحسنها وجمالها، ولم يقتصروا على ذلك، بل طلبوا تفصيلًا آخر فقالوا ـ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾؛ يعني: أنهم تشابه عليهم البقر الصفر؛ لأنهم كانوا يشاهدون بقرات صفراء، فقالوا: فماذا يراد منا أن نذبح من هذه البقرات؟ قال موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾؛ أي: أنها بقرة لا تستعمل في الحرث لا سقيا ولا إثارة، لا تثير الأرض بحرثها، ولا تسقي الزرع القائم ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾؛ أي: لا عيب وإنما قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ بعد قوله: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾؛ لئلا يظنوا أنها بقرة هزيلة عجفاء ليس بها حراك، فقال: إنها: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾؛ أي: ليس فيها عيب، وحينئذ قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾؛ أي: في هذا الحوار جئت بالحق.

وتأمل ماذا تدل عليه هذه الكلمة من الاستخفاف بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبيان أنهم لن يقبلوا من أمره إلا ما ظنوا أنه الحق؛ حيث قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ على الوصف الذي بيَّنَهُ

اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على لسان موسى عليه السلام، ومع ذلك ذبحوها وهم لم يقاربوا فعل الذبح؛ أي : من أجل تأخرهم، وتوانيهم، وتكاسلهم عن تنفيذ ما أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾؛ أي: ذبحوها بعد أن كادوا؛ أي: قاربوا ألا يفعلوا؛ لأنهم قوم عندهم من الطغيان والعتو على شرع الله ما لا نعلمه صَدَرَ عن أمة سواهم، اللهمَّ إلا ما ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن قوم نوح، حين قال نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

ثم بيَّن اللهُ القصة فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾؛ أي: قتلتم نفسًا محرمة؛ فاختلفتم فيها، فبيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما حصل بواسطة هذه البقرة التي ذُبحت، وذلك بأن يضربوا هذا القتيل ببعضها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، فضربوا بعضوٍ منها ـ ولا ضرورة لتعيينه ـ، ثُمَّ نطق القتيل، وقال: إنَّ الذي قتلني فلان، فبين الله ـ تعالى ـ ما كانوا يكتمون.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

في هذه الآية الكريمة يُبيِّنُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن بني إسرائيل بعد أن أنعم الله عليهم ببيان قاتل القتيل الذي ادَّارءوا فيه، وكادت تحصل فتنة عظيمة لولا أن الله مَنَّ عليهم بما ذُكر، بعد هذا ـ أي: بعد ما حصل من هذه النعمة الكبيرة ـ قست قلوبهم؛ أي: صَلُبَتْ وعظم استكبارهم، فكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وإنما ضرب الله المثل بالحجارة دون الحديد؛ لأن الحديد قد يلين مع النار، لكن الحجارة لا تلين، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، بل إن الحجارة خير من قلوبهم؛ لأن الحجارة يخرج منها ما فيه منافع للناس، ويهبط منها ما يهبط من خشية الله؛ فمن الحجارة ما تتفجر منه الأنهار، ومن الحجارة ما يـشَّقَّقُ ـ أي: يتشقق ـ فيخرج منه الماء، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله، ثم ختم الله الآية الكريمة ببيان كمال مراقبته وعلمه، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فوائد الآيات الكريمة:

١ ـ **من فوائدها**: أن الرجوع إلى الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في الأمور المهمة التي طريقها الشرع كان أمرًا فطريًّا، سار الناس عليه منذ زمن بعيد؛ ويتفرع عن هذه الفائدة: أن الواجب على الأمة إذا أشكل عليهم شيء من أمور دينهم أن يرجعوا إلى أهل العلم بشريعة الله؛ وذلك لأن شريعة الله تعالى لاسيما الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ فيها شفاء لكل داء، وفيها حلٌّ لكل مشكل؛ ولهذا قال الله ـ

تعالى ـ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ أي: إلى كتاب الله، وإلى الرسول ﷺ في حياته، وإلى سنته بعد مماته، ولم يأمرنا الله ـ تعالى ـ بالرجوع إلى الله ورسوله؛ إلَّا لأننا سنجد الحل الشافي الكافي في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما ضَرَّ الأمة وأوجد عندها المشاكل التي لا منتهى لها إلا غفلتهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: بيان عتوِّ بني إسرائيل، وتأخرهم في تنفيذ أوامر الله، وأنهم قوم معاندون متشددون؛ شددوا فشدد الله عليهم؛ لأنهم ذكروا استفصالات كثيرة في هذه البقرة التي أُمروا بذبحها، ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرة حينما أُمروا أن يذبحوا بقرة؛ لحصل لهم المقصود، لكنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة**: أن الأمر إذا جاء مطلقًا فإنه لا ينبغي أن يستفصل فيه؛ لأن الاستفصال قد يؤدي إلى إضافة شروط ثقيلة، فإذا جاء أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في زمن الوحي مطلقًا فإن الاستفصال عن قيود من شأن القوم الذين لا يريدون امتثال الأمر على وجه الفورية، أما بعد انقطاع الوحي فإنه لا حرج على الإنسان إذا ورد الأمر مطلقًا أن يبحث عن شيء مقيِّد له؛ وذلك لأن الشريعة قد تمت، ولا يمكن زيادة إضافات إليها، فهنا يُفَرَّقُ بين أن يجد الإنسان أمرًا مطلقًا في القرآن والسنة فيما بعد انقطاع الوحي وفيما كان في زمن

الوحي؛ فما كان في زمن الوحي فإنه لا ينبغي الاستفصال عن قيود فيه؛ لئلا ترد قيود تضيِّق الأمر، وأما بعد زمن الوحي فلا بأس من البحث عن قيود؛ لأن النصوص ـ أحيانًا ـ تأتي مطلقة في موضع، وتُقَيَّدُ في موضع آخر.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة:** بيان ما عليه بنو إسرائيل من سوء الظن؛ فإنَّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعظم أنبياء بني إسرائيل، ومع ذلك قال له بنو إسرائيل ـ حين أمرهم أن يذبحوا بقرة ـ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم الاستهزاء بالغير والسخرية منهم؛ لقول موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ فالاستهزاء بالغير والسخرية منهم جهالة وعدوان على المُسْتَهْزَأ به، المسخور منه، لا يقع إلَّا من سفيه أو جاهل بالشريعة.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يلجئون إلَّا لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وإذا كان الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا ملجأ لهم إلا الله؛ فما بالك بمن دونهم؟! ويتفرع عن هذا قطع الشرك الذي يقع فيه كثير من الناس، حينما يلجئون إلى الموتى من الأنبياء، أو ممن يزعمونهم أولياء، يلتجئون إليهم، ويستعيذون بهم، ويستعينون بهم؛ فإن الاستعاذة بغير الله ـ عَزَّ

وَجَلَّ ـ في أمر لا يقدر عليه المستعاذ به من الشرك، وكذلك الاستغاثة بغير الله في أمر لا يقدر عليه المستغاث به هو من الشرك أيضًا؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الملجأ الذي يلجأ إليه كل مخلوق، ولا عاصم من أمر الله إلا من رَحِمَ.

٧ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: أن المجمل إذا عُلِمَ المراد منه؛ فلا بأس أن يكون الجواب عليه مُفَصَّلًا، وإن كان هو مجملًا؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ...﴾ الآية؛ فإن قولهم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ﴾ مجمل مبهم؛ لأن الأسماء الموصولة من الأسماء المبهمة المجملة، فلا يُعلم ماذا يريدون بقولهم: «ما هي»؟ لكن إذا كان المخاطب يعلم المراد بهذا المجمل المبهم، فلا بأس أن يكون الجواب على حسب ما فهمه المخاطب؛ ولهذا قال لهم موسى ـ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ﴾ إلى آخر الآيات.

٨ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: إثبات قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ﴾.

٩ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مجيب لمن دعاه؛ لأن موسى دعا ربه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبيِّنَ له ما هي؟ فأخبره الله أنها بقرة لا فارض، ولا بكر، عوان بين ذلك.

١٠ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمة: أن أحسن شيء يُتَقَرَّبُ به إلى

الله ما كان فوق الصغر ودون الكبر الكثير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «لَا تَذْبحوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْسُرَ عليكم فتذبحوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ»(١)، فنهى النبيُّ ﷺ عن التقرب إلى الله بذبح الصغيرة، ومن المعلوم أنه كلما كبرت البهيمة قلَّ شأن لحمها وتردَّى؛ فلهذا يكون ما بين الصغيرة والكبيرة هو الأفضل فيما يُتقرَّبُ به إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

١١ ـ **ومن فوائد قوله ـ تعالى ـ:** ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾: أنه يجب على المأمور أن يمتثل ما أُمر به على الوجه الذي أُمر به؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾، و«ما» هذه موصولة تشمل عين المأمور ووصف المأمور، وما أُمر به شرعًا فإن الامتثال لا يحصل فيه إلا إذا فعله الإنسان على وجه ليس فيه زيادة ولا نقص؛ لأن الزيادة غلوٌّ والنقص تفريط.

١٢ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن بني إسرائيل عندهم من التهاون والتفريط في تنفيذ أوامر الله ما يتبيَّن من هذه القصة وغيرها؛ فهم حين طُلِبَ منهم أن يفعلوا ما يُؤمرون لم يفعلوا، بل ازدادوا تعنتًا وتشددًا، فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ الآية، ويستفاد من هذه الآية: شدة تعنت بني إسرائيل وتشددهم؛ وإلا فما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية، رقم (١٩٦٣).

شأن اللون بالنسبة للغرض المقصود من ذبح هذه البقرة، ولكنهم لتشددهم وتمنعهم في تنفيذ أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- صاروا يسألون عن اللون، ولعل هذا السؤال من حكمة الله -تعالى- أن يشدِّد عليهم؛ فإنهم لما شدَّدوا شدَّدَ الله عليهم.

١٣- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن ما كان جميلًا من الحيوان الذي يُتقرَّبُ به إلى الله فهو أكمل؛ لقوله -تعالى-: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾، فإن قال الإنسانُ: ما شأن هذا أو ما علاقة هذا بما يُتَقَرَّبُ به إلى الله؟ فالجواب عن ذلك أن نقول: إنه لما كانت هذه البقرة مما أمر الله به كانت قربة إلى الله؛ لأن موسى -عليه الصلاة والسلام- أمر قومه أن يذبحوا هذه البقرة؛ فامتثالهم لأمر موسى قربة لله -عَزَّ وَجَلَّ-، وإن كان الغرض من هذا هو الإرشاد فإن فيه شائبة القربة وقد يقال: إنه قربة محضة؛ لأنه يحصل به درء مفسدة وفتنة كادت تقع بين بني إسرائيل لولا أن الله -تعالى- أبان القتيل بهذه الوسيلة.

١٤- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أنه يجوز أن يحمل المخاطب الشيء المبهم المجمل على ما يظنه من المراد؛ حيث قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ الآيات؛ فإن ﴿مَا هِىَ﴾ هي الصيغة التي وردت في أول القصة في قوله: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾، ومع ذلك كان الجواب هناك بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا

بِكۡرٌ﴾ الآيـة، والجـواب هنـا بقولـه: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾، مـع أن جملـة الاسـتفهام واحـدة في صـيغتها، لكـن المخاطب يفهم من كل صيغة ما يقتضيه المقام.

١٥- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن بني إسرائيل لما قـالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ وفقهم الله ـ سبحانه وتعـالى ـ للهـدى في النهاية، ولو أنهم قالوا: «**وإنا لمهتدون**»؛ لم يوفقوا؛ أي: ولو أنهم عزمـوا علي أن يكونوا مهتدين بدون أن يقولوا: «**إن شاء الله**»؛ فإنهم حـريٌّ ألا يُوفقوا؛ لأن قرن الخبر بالمشيئة على فعل المستقبل أمـر مطلـوب؛ فـإن ذلك مما يسهل هذا الأمر؛ ولهذا لما قال سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **لأطُوفَنَّ الليلة على تسعين امـرأةً**[1] **كلهـن تـأتي بفـارس يجاهـد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قـل: إن شـاء الله، فلـم يقـل: إن شـاء الله. فطاف عليهن جميعًا؛ فلم تحمل منهن إلا امـرأة واحـدة، جـاءت بـشقِّ رجل**»، فقال النبـي ﷺ: «**لـو قَـالَ: إنْ شـاءَ اللهُ لكـان دَرَكًـا لحاجتـه، ولقاتلوا في سبيل الله**»[2]، وليس هذا من باب الخبر عن أمر واقـع؛ فـإن الخبر عن أمر واقـع لا يحتـاج إلى قـول: «**إن شـاء الله**»، إلّا عـلى سـبيل التبرك أو التعليل؛ ولهذا كان القول الراجح في قول الإنسان: أنا مـؤمن إن شاء الله، إذا كان غرضه الإخبار عن الأمر الواقع؛ فإنه لا يحتـاج إلى

---

(١) أي: بالجماع.

(٢) تقدم تخريجه (٢٣).

قوله: إن شاء الله؛ لأن هذا خبر عن شيء حصل إلَّا أن يريد بذلك أن إيمانه حصل بمشيئة الله، أو أنه يريد التبرك بهذا؛ أي: إضافة إيمانه إلى مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وبراءته من حوله وقوته؛ أي: من حول نفسه وقوتها إلى مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن هذا لا بأس به؛ ومن ثَمَّ كان الاستثناء في الإِيمان يختلف، فإن كان الحامل عليه الشك في وجود الإِيمان؛ فهذا حرام لا يجوز؛ لأن الإِنسان يجب أن يؤمن إيمانًا جازمًا لا شك فيه، وإن كان الغرض من ذلك التبرك أو بيان أن ما حصل واقع بمشيئة الله؛ فإن هذا لا بأس به، وبهذا التفصيل ينجلي الإِشكال الذي حصل عند كثير من أهل العلم: هل يجوز للإِنسان أن يستثني في إيمانه، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو لا يجوز؟

١٦ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أنه إذا ذكرت أوصاف في شخص يُخشى منها أن يتوهم المخاطب شيئًا خلاف الواقع فإنه لابد من ذكر قيد يرفع هذا التوهم؛ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ فإن في قوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ قد يقول قائل: إن فيها عيبًا؛ لأنها لا تقدر على أن تثير الأرض أو تسقي الحرث، فبيَّن الله ـ تعالى ـ أنها ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، وهذا يسمى بالاحتراز أو بالاحتراس في علم البلاغة.

وقد جاء ذلك في القرآن في مواضع؛ منها: قوله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، فقد قال الله بعد هذا: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]؛ فلما ذكر الله ـ تعالى ـ أنه فهَّم الحكم الصحيح سليمان، وكان ذلك يُخشى منه أن تهبط منزلة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيَّن الله ـ تعالى ـ أنه قد آتى داود وسليمان حكمًا وعلمًا، وأن الله سخر لداود الجبال تسبح معه والطير ... إلخ الآيات.

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [الحديد: ١٠]؛ فإن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ ﴾ قد يؤدي إلى انحطاط كبير في رتبة الآخرين الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، فرفع الله ذلك في قوله: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾، ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [النساء: ٩٥]؛ فلمَّا ذكر الله تفضيل المجاهدين على القاعدين قال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ لئلا يتوهم واهمٌ نزول رتبة الآخرين نزولًا فاحشًا.

١٧ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** بيان ما عليه بنو إسرائيل من التعاظم، والترفع، والاستعلاء؛ لقولهم ـ كما في قوله ـ تعالى ـ:

﴿آلْـَٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ فكأنهم هم الذين يحكمون على موسى - عليه الصلاة والسلام - بل هم الذين يحكمون على ما جاء به موسى من كونه حقًّا أو باطلًا؛ لقوله - تعالى -: ﴿آلْـَٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، ومن المعلوم أن موسى - عليه الصلاة والسلام - قد جاء بالحق في ذلك الآن وقبله.

١٨- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أنه يجوز حرث الأرض بالبقر، وسقي الحرث بها؛ لقوله - تعالى -: ﴿ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾.

١٩- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أنه ينبغي ألا نستعمل في حرث الأرض وسقي الزرع إلا ما كان ذلولًا طيعًا؛ وذلك لأن الشموس أو الصعب قد يفسد أكثر مما يصلح، ويمكن أن نفرع عن هذه الفائدة فائدة أخرى؛ وهي ألا نستعمل من الأشياء إلا ما دلَّت التجارب على أنه صالح فيها؛ حتى لا نقع في الخطأ والزلل.

٢٠- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن بني إسرائيل حين امتثلوا ما أمرهم موسى - عليه الصلاة والسلام - بذبح البقرة مع التشديد، والتعنت، والاستفصال لم يذبحوها عن انقياد تامٍ وتنفيذ فوري؛ وإنما ذبحوها ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: ما قاربوا الفعل؛ لكونهم متصفين بالعلو والاستكبار.

٢١- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أنه يجوز ذكر المسبَّب قبل ذكر السبب؛ فإن الذبح كان سببه الاختلاف الذي وقع بين بني إسرائيل

بشأن القتيل، ومع ذلك ذكر قبل أن يذكر السبب؛ لأنه هو محل العبرة، وهو الذي يكشف حال بني إسرائيل على وجه الحقيقة، وأنهم قوم لا يمتثلون لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ إلا بعد أن تقبله نفوسهم، وكأنهم يريدون أن يتبع الحق أهواءهم؛ ويدل لهذا قولهم: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢٢- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - حيث كان ضرب هذا القتيل سببًا لحياته؛ فإن إحياء الموتى لا يكون إلا بقدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ولهذا لما ناظر إبراهيم مَنْ حاجَّهُ في الله، قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، قال هذا المحاج: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهو كاذب فيما ادَّعاه؛ فإنه لا يقدرُ على الإحياء والإماتة إلا الله - سبحانه وتعالى.

٢٣- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن الله - سبحانه وتعالى - عليم بكل شيء، وأن ما كتمه الإنسان فإن الله - تعالى - سيخرجه، ولا سيما إذا كان في خروجه للعباد مصلحة؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٢٤- **ومن فوائدها:** أن القاتل لابد أن يخرجه الله تعالى يبينه؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]؛ فإن الآية الكريمة تدل على أن ولي المقتول له سلطان شرعي وسلطان قدري؛ فإن الله - تعالى - يبين هذا القاتل حتى يُقتل؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

٢٥- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: أن هذه القصة قصةٌ من خمس قصص في سورة البقرة، كلها في إحياء الموتى وسنبيِّن ذلك - إن شاء الله - فيما بعد.

٢٦- ومن فوائد الآيات المذكورة في هذه القصة: جواز الأمر بالمبهم إذا كان يمكن امتثاله؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ﴾؛ فإنَّ البعض يتناول أيَّ جزء من أجزائها؛ كاليد، أو الرجل، أو القلب، أو الكبد، أو أيِّ جزء من أجزائها؛ لقوله - تعالى -: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ﴾؛ وبناء على ذلك لو أنك قلت لشخص: افعل بعض هذه الأشياء وذكرت له أشياء محصورة فإن هذا الأمر صحيح، ويبرأ الإنسان الذي أمرته بفعل بعضه؛ أي بفعل ما شاء، أما إذا كان هذا الإبهام لا يمكن تحقيقه فإن الواجب الاستفسار؛ ولهذا لما قال الله - تعالى - للقلم: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هُوَ كائن إلى يوم القيامة؛ فكتب القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة، وذلك قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

٢٧- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - على إحياء الموتى، وقد ذكرنا فيما سبق أن الله ذكر خمس قصص في سورة البقرة فيها إحياء الموتى؛ فمن ذلك ما سبق في قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦]، ومنها ـ أيضًا ـ هذه القصة، قصة القتيل الذي اختلف بنو إسرائيل في قاتله، ومنها قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم، ومنها قصة الرجل الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنى يحيي الله هذه بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، والخامسة: قصة إبراهيم؛ حيث قال ـ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. والله ــ سبحانه وتعالى ــ قادرٌ على إحياء الموتى كلهم بكلمة واحدة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

٢٨ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرى عباده من آياته ما يكون به العقل والرشد؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وآيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية؛ **فالآيات الكونية:** ما يحصل بخلقه وتقديره؛ مثل السموات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والدواب. **والآيات الشرعية:** ما جاءت به الرسل من الأوامر، والنواهي، وغيرها من أقسام الوحي.

٢٩ـ **ومن فوائد الآيات الكريمات:** أن تدبَّر الآيات سببٌ للعقل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ والعقلُ عقلان: عقل إدراك وعقل تصرف؛ فعقل الإدراك: هو الذي يترتب عليه التكليف ويكون في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأما عقل التصرف: فهو ما يحصل به الرشد؛ وهو حسن التصرف في أفعال الإنسان وأقواله، وهذا خاص بمن آتاه الله الحكمة؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]؛ وعلى هذا فلو سألنا سائلٌ: هل الكفار عقلاء؟ فالجواب أن نقول: هم عقلاء من حيث عقل الإدراك الذي يترتب عليه التكليف، وليسوا عقلاء من حيث عقل التصرف الذي يحصل به الرشد؛ ولهذا ينفي الله عنهم ـ أي: عن الكفار ـ كثيرًا سمة العقل؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: ٥٥]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]؛ فالكفار ليس لهم عقل تصرف يوصلهم إلى الرشد، وإن كان عندهم عقل إدراك يترتب عليه التكليف والمؤاخذة.

٣٠ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** إثبات الأسباب في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقد تقدم الكلام فيما سبق عن ذكر اختلاف الناس في الأسباب وبيَّنَّا أن القول الوسط هو إثبات تأثير الأسباب لكن لا

بذاتها، ولكن بما أودع الله فيها من القوة التي تؤثر في المسبَّبات.

٣١ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن بني إسرائيل ـ بعد هذا كله ـ قست قلوبهم، ولم يزدادوا بهذه الآيات والنعم لينًا للحق وقبولًا له، ولكنهم قست قلوبهم من بعد ذلك.

٣٢ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: التحذير مما جرى لبني إسرائيل من قسوة القلوب بعد رؤية الآيات التي يرينا الله إياها؛ فمثلًا إذا رأينا من آيات الله ما تلين به القلوب، ويحصل به الرجوع إلى الله؛ فإن الواجب علينا أن نقوم بذلك ـ أي: بالرجوع إلى الله ـ وأن تلين قلوبنا لذكر الله، أما إذا كان الأمر بالعكس؛ لا يزداد الإنسان من رؤية الآيات إلا قسوة قلب وتمردًا في الفعل؛ فإن هذا وقوع فيما كانت عليه بنو إسرائيل ـ نسأل الله السلامة.

٣٣ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: التحذير من قسوة القلب بعد ظهور الآيات؛ لأن هذا أعظم شرًّا وأكبر إثمًا مما إذا لم يرَ الإنسان من آيات الله ما تقوم به الحجة، ومع الأسف أن بعض الناس بعد ظهور الآيات لا يزداد إلا كبرًا وعنادًا، فتجد من آيات الله ما يظهر ظهورًا بيِّنًا، سواء أكانت هذه الآيات من الأمور الفلكية، أو الأرضية، أو الواقعة بين الناس، فإن كثيرًا من الناس لا يهتم بها، ولا يذكرها إلا على سبيل أنها واقعة فقط؛ فعند كسوف الشمس أو خسوف القمر لا نجد كثيرًا من الناس يتأثر أو يقبل على المساجد؛ ليفعل ما أمر به

الرسـول ﷺ مـن الـصلاة، وعنـد حـصول الـزلازل والفيـضانات والعواصف الشديدة لا نجد كثيرًا من الناس يهتم بها، ويقلـق منهـا، ويخشى أن يصاب بمثلها، بل لا يذكرونها إلا على أنها حوادث وقعت، وكأنها ـ كما يقولون ـ كوارث طبيعية، لا يلتفت إليها، ونجد كثيرًا مـن الناس تقع بينهم الحروب والفتن، ويعتدي بعضهم على بعض بالقتـل، والنهب، وانتهاك الحرمـات، ومـع هـذا لا يعـدونها شـيئًا يُـذكر، بـل يذكرونها على أنها حوادث تاريخية، وليست من الآيات التحذيرية التي يحذر الله بهـا العبـاد؛ فتجـدهم بعـد أن تـزول هـذه الكـوارث وهـذه الحوادث العظيمة يرجعون إلى غيِّهم، بـل ربـما يرجعـون إلى أكـبر مـن غيهم ـ نسأل الله السلامة. والواجب عـلى المؤمن أن يتخـذ مـن هـذه الآيات عبرة، وأن يرجع إلى الله رجوعًا حقيقيًّـا؛ حتـى لا ترجـع هـذه الحوادث والكوارث على وجه أكبر مما كانت عليه من قبل.

٣٤- **ومن فوائد هذه الآيات الكـريمات**: أن قلـوب بنـي إسرائيـل التي قست كانت كالحجارة بل أشد.

٣٥- **ومن فوائدها**: أن من الحجارة ما هو خير من هـذه القلـوب؛ فمنها ما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما يشَّقق فيخرج منه الماء، ومنهـا مـا يهبط من خشية الله، وقلوب هؤلاء القوم التي قست لا يأتي منها خـير، ولا تلين لحق.

٣٦- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: عموم رقابة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ

ـ، وأنه على كـل شيء رقيـب، ولا يفوتـه شيء، ولا يخفـى عليـه شيء؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

٣٧- **ومن فوائد هذه الآيات:** تحذير المرء من العمل الذي لا يرضاه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنه مهما عمل فالله ـ تعالى ـ عالم بـه، مطَّلـع عليـه، رقيب عليه.

٣٨- **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** إثبات الوصـف السـلبي؛ أي: إثبات الصفات المنفية عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ يعني: الإيمان بـأن الله موصوف بالإثبات وبالنفي؛ أما وصف الله بالإثبـات: فكثـير جـدًّا في القرآن الكريم والسنة النبوية، وأما وصـف الله ـ تعـالى ـ بـالنفي: فهـو أقل من وصـفه بالإثبـات، ولم يـذكر الله ـ تعـالى ـ أوصـاف النفـي إلا لأسباب تقتضيها؛ مثل توهم النقص في صفاته؛ كما في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨]؛ لأن الشيطان قد يوقع في قلب المـرء ـ إذا علـم أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ـ أن الله ـ تعالى ـ يلحقه تعب أو لحقه تعب في ذلك فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾.

ومنها أن الصفات المنفية تذكر لدفع ما افتراه الكاذبون في حق الله؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنها أن الصفات المنفية قد تذكر للتهديد؛ كما في هذه الآية: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾؛ فإن المراد بهذه الجملة تهديد

المخاطب ببيان أن الله ـ تعالى ـ لن يغفل عما عمل من خير أو شر، قليل أو كثير، وقد ذكر أهل العلم: أن ما جاء من صفات النفي في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس بنفي محض، بل هو نفي متضمن للإثبات، وهذا الإثبات هو كمال ضد المنفي؛ فمثلًا يقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] المقصود بهذا النفي إثبات كمال قوته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه لكمال قوته لم يمسه تعب ولا إعياء، ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، يُرادُ بنفي الظلم هنا عن الله إثبات كمال عدله، وأنه لكمال عدله لا يقع في إثباته ظلم إطلاقًا، وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، يُرادُ بذلك إثبات كمال غناه عن كل أحد، وإثبات وحدانيته، وأنها وحدانية مطلقة ليس معه فيها إله، وعلى هذا فقِسْ.

فكل ما جاء من صفات منفية عن الله فليس المراد بها مجرد النفي، وإنما المراد بها إثبات كمال الضد مع نفي هذه الصفة المعينة التي جاء النفي عنها، ثم اعلم أن أهل السنة والجماعة ـ وأعني بذلك سلف الأمة ومَنْ تبعهم في هديهم ـ ليسوا كأهل البدع الذين لا يصفون الله ـ تعالى ـ إلا بصفات النفي، فتجدهم يكثرون من صفات النفي في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأما صفات الإثبات فإنهم لا يهتمون بها، ولو ذكروها لذكروها على وجه مُؤوَّلٍ تأويلًا بعيدًا عن الصواب، وحقيقته أنه تحريف وليس بتأويل.

٣٩ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: أن هذا القرآن الكريم جاء تفصيلًا لكل شيء يحتاج الناس إلى تفصيله؛ من أجل أن يكون موعظة تامة في جميع الأحوال؛ فإن في ذكر أخبار من سبق عبرة لمن اعتبر؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

في هذه الآيات يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مخاطبًا رسوله ﷺ وأصحابه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؛ أي: أهل الكتاب؛ يعني: أترجون أن يؤمنوا لكم، والحال أن فريقًا منهم يسمعون كلام الله ـ وهم العلماء منهم ـ يسمعون كلام الله في التوراة، أو يسمعون كلام الله الذي أوحاه إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات ربه ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾؛ أي: يصرفونه عن المراد به إلى معانٍ يريدونها هم، فيجعلون معنى كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ

تابعًا لأهوائهم، يفعلون ذلك بعد أن عقلوا المعنى وعرفوه، فهم يفعلون هذا عن عمد، وهم يعلمون أنهم يفعلون ذلك عن عمد، لكنهم يريدون أن يتبعوا أهواءهم، ومن شأن هؤلاء المحرفين أنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض: ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: أتحدثون المؤمنين بما فتح الله عليكم بما أعلمكم به، وأخبركم به من صفات محمد ﷺ ليحاجوكم به عند ربكم؛ لأنكم إذا ذكرتم أن محمدًا ﷺ جاء وصفه في التوراة، وأنه يبعث ويكون رسولًا إلى كافة الناس؛ فإنهم سوف يحاجونكم به عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ثم يوبِّخ هؤلاء أقوامهم فيقولون: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أفلا تكونون عقلاء، فامتنعوا عن تحديث محمد وأصحابه بشيء يحاجوكم به عند الله، قال الله ـ تعالى ـ رادًّا عليهم: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، فهم وإنْ أسروا وكتموا صفة محمد ﷺ أو أعلنوها؛ فإن الله ـ تعالى ـ عالم بصنيعهم، وسيجازيهم على ما فعلوا من كتمان الحق، وتحريف الكتاب، هذا هو معنى هذه الآيات، **أمَّا ما يستفاد منها من أحكام؛ فإنها تدل على فوائد كثيرة منها:**

١ـ تأييس النبي ﷺ وأصحابه من إيمان هؤلاء المعاندين المحرفين.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** أن المعاند الذي يعصي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن عناد؛ تبعد هدايته؛ لأنه لا خير فيه؛ ويدل لهذا قوله ـ

تعالى ـ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فالإنسان إذا رَدَّ الحق أول مرة مع علمه به وفهمه لـــه؛ فإنه يبعد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهديه؛ لأن قلبــه ـ والعياذ بالله ـ قـــد زاغ؛ قـــال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

٣ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: إثبات كلام الله ـ تعالى ـ وأن الله ـ تعالى ـ تكلم، وأن كلامه يسمع؛ لقولـــه ـ تعالى ـ: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وهـــذا يدل على أن كلام الله بصوت مسموع يسمعـــه مَنْ وُجِّهَ الخطاب إليـــه، وهـــذا أمر متفقٌ عليه بين أهل السنة والجماعـــة، ويـــدل عليه القـــرآن والسنة؛ قـــال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]؛ والمناداة والمناجاة لا تكونان إلا بصوت، لكن المناداة تكون بصوتٍ عالٍ لمن بَعُدَ، والمناجاة تكون بصوت خفيٍّ لمن كان قريبًا.

٤ـ ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: ذمُّ تحريف الكلم عن مواضعه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾، قال أهل العلم: تحريفُ الكلم ينقسم إلى قسمين: أحدهما: تحريف اللفظ، والثاني: تحريف المعنى؛ فتحريف اللفظ يكون بتغيير الشكل، أو تغيير بنية الكلمة، وما أشبه ذلك؛ مثل لو قرأ قارئ قولَ الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، فقرأ: «وكلَّم اللهَ موسى تكليمًا»؛ لكان محرفًا

للكلم، ولو قرأ: «الحمدُ لله ربَّ العالمين»؛ لكان محرفًا للكلم أيضًا، لكن الفرق بين هذا والذيَ قبله أن تحريف قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ يتغير به المعنى فيكون المُكلِّمُ موسى وليس الله، أما ﴿الحمدُ ربَّ العالمين﴾، فإنه لا يتغير به المعنى، ولكنه لا يجوز ارتكابه؛ لأنه تحريف للكلم.

وأما تحريفُ المعنى فإنه هو الذي وقع فيه كثير من الناس؛ بحيث يصرف معنى اللفظ عن ظاهره بدون دليل؛ مثل تحريف بعضهم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فقال معناه: الرحمن على العرش استولى، ولكنه أبقى اللفظ كما هو؛ فهذا تحريف معنوي، وهو بلا شك محرم؛ لأنه قول على الله بلا علم؛ فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما خاطبنا بالقرآن العربي؛ لنفهمه على مقتضى اللغة العربية، إذا لم ينقل المعنى إلى معنى شرعي، فإذا صرفنا المعنى إلى ما لا تقتضيه اللغة العربية كان ذلك تحريفًا للكلم عن مواضعه.

٥ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات:** شدة لوم هؤلاء الذين حرَّفوا ما سمعوا من كلام الله؛ حيث إنهم حرَّفوه بعد عقله وفهمه.

٦ـ **ومن فوائدها:** أن تحريف الشيء بعد عقله وفهمه أشد من تحريفه إذا لم يكن قد عقله الإنسان؛ لأنه إذا لم يكن قد عقله فقد يكون معذورًا لهذا التحريف؛ لأنه لم يعقله تمام العقل، فإذا كان قد عقله كان تحريفه أشد وأعظم.

٧ـ**ومن فوائد هذه الآيات**: أن هـؤلاء الـذين حرفـوا الكلـم عـن مواضعه بعد ما عقلوه إنما حَرَّفوه وهم يعلمون أنهم مُحرِّفون له؛ فيكون تحريفهم إصرارًا على عناد، وليس إصرارًا عن جهل أو تهاون، بـل هـو إصرار على خطأ متعمَّد ـ نسأل الله العافية.

٨ـ**ومن فوائد هذه الآيات**: أن هؤلاء ـ وأعني بهـم بنـي إسرائيـل الذين في عهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومـن سـلك مـسلك النفاق صاروا إذا لقوا الذين آمنوا قـالوا: آمنـا، ولكـنهم إذا خلـوا إلى قومهم صار بعضهم ينكر عـلى بعـض؛ لقولـه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾؛ أي: آمنا بمحمدٍ ﷺ، لكنهم على خلاف ذلك في الباطن.

٩ـ**ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن نبوة الرسول ﷺ كانت معلومة عند بني إسرائيل، وأنهم يعرفونها تمامًا، ويعدونها من الفتح الذي فتحه الله عليهم؛ لقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا أمر معلوم بيَّنهُ الله ـ تعالى ـ في كتابه، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد بشَّر به عيسى قومه، فقال: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، صلوات الله ﷺ سلامه عليه.

١٠- **ومن فوائد الآيات الكريمات:** بيان أن ما علمه أهل الكتاب من صفة النبي ﷺ هو فتح من الله، فتح الله به عليهم، وقد بين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا قبل بعث الرسول ﷺ؛ أي: أنهم يستنصرون بمحمد ﷺ على الكافرين؛ لأنهم يعلمون فيما علموه من التوراة أنه ﷺ منصور، وستكون له العاقبة، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ لما بان الحق واتضح، وبُعث النبي ﷺ صدَّهم الحسد عن الإيمان به ﷺ.

١١- **ومن فوائد هذه الآيات:** أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث؛ لقوله: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾، وقد اتفقت الرسالات السماوية كلها على إثبات البعث، وأن الناس سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

١٢- **ومن فوائد الآيات الكريمات:** أن الخصومة ستقع بين يدي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من المؤمنين والكافرين، يخاصم بعضهم بعضًا، فيفصل الله بينهم، ويقضي بينهم بحكمه؛ ويدل لهذا أيضًا قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وغير ذلك من الآيات الكريمات الدالة على أن أولياء الله ﷺ أولياء الشيطان يختصمون عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فيقضي بينهم بحكمه وعدله ـ جلَّ وعلا.

١٣ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: أن ما ذهـب إليـه هـؤلاء ـ الذين يقولون عند المؤمنين: آمنـا، وإذا خـلا بعـضهم إلى بعـض أنكـر بعضهم على بعض ـ مخالف للعقل؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ فإن مقتضى العقل أن الإنسان إذا آمن عن اقتناع آمن به ظـاهرًا وباطنًـا في حضور الخصم وحضور الولي، أما هؤلاء فكانوا مذبـذبين يؤمنـون عند المؤمنين، لكنهم إذا رجـع بعـضهم إلى بعـض وخـلا بعـضهم إلى بعض أنكروا ما حدث.

١٤ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: إثبات عموم علم الله ـ عَـزَّ وَجَلَّ ـ، وأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون؛ أي: ما يـسرونه مـن مخالفـة الحق وكتمانه، وما يعلنونه عند المؤمنين بقولهم: إنهـم آمنـوا، وإن صـفة النبي ﷺ موجودة عندهم في التوراة.

١٥ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمات**: تهديد المرء وتحـذيره عـن مخالفة أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والوقـوع فـيما يغـضبه، سـواء أكـان سرًّا أم علنًـا؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ فإن المراد بذلك تهديد هؤلاء وأمثالهم ممـن يظنـون أن الله لا يعلم إلَّا ما كان علنًا.

* * *

ثم قـال الله ـ تعـالى ـ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

يبيِّن الله في هذه الآية الكريمة أن من بني إسرائيل قومًا أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ؛ أي: إلا قراءة؛ فهم يقرءون التوراة، ولكنهم لا يفهمون معناها؛ ولهذا وصفهم الله ـ تعالى ـ بالأمية؛ والأمي هو الذي لا يعرف أن يقرأ أو يكتب؛ نسبة إلى الأم؛ لأن الإنسان إذا خرج من بطن أمه؛ فإنه لا يعلم شيئًا؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، فمن بني إسرائيل قوم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ، إلا قراءة، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ أي: ما هم إلا يظنون ظنًّا.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان أن من بني إسرائيل من لا يفهم المعنى، ولكنه يقتصر على اللفظ.

٢- **ومن فوائدها:** ذمُّ من لا يفهم معنى كتاب الله؛ لقوله: ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** الحثُّ على تعلُّم معاني كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فقد كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين يقرءون القرآن لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل؛ فتعلموا القرآن، والعلم، والعمل جميعًا.

٤- **ومن فوائدها:** الحثُّ على فَهْم كتاب الله، وأنه ينبغي للإنسان أن

يتعلم معاني الكتاب كما يتعلم لفظه، وأن من المؤسف أن واقع أكثر المسلمين - اليوم - على غير هذا المنهج؛ أي: أنهم يقرءون القرآن للتعبُّد بلفظه فقط، دون أن يفهموا معناه، أو أن يطبقوا أحكامه، وهذا - بلا شك - قصور عظيم؛ ولذلك ظهر أثر هذا على المسلمين؛ حيث تخلفوا كثيرًا عما كان عليه السلف الصالح من تطبيق القرآن لفظًا ومعنًى وعملًا؛ ففاتهم بذلك خيرٌ كثيرٌ.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من لا يعلم الكتاب إلا لفظًا يقع في الوهم، والظن، والتخبط بما لا يعرف؛ لقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ وعلى هذا فينبغي للمسلم أن يكون حريصًا على فهم كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -، يتلقى تفسيره من كتب التفسير المعتمدة الموثوق بها، أو من أفواه العلماء المخلصين الذين يوثَقُ بعلمهم.

* * *

ثُمَّ قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾.

ففي هذه الآية الكريمة تَوَعَّدَ اللهُ - سبحانه وتعالى - هؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، وفي قوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لهذه الكتابة أنها من عند أنفسهم، ثم يقولون للناس: هذا من عند الله، يفعلون ذلك لغرض من الدنيا؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا.

ثم بَين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن هذا الوعيد حاصل على أمرين: **الأمر الأول**: ما كتبوه، **والأمر الثاني**: ما كسبوه من هذه الكتابة؛ فإن هؤلاء يكتبون الكتاب ليس من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنه من عند أنفسهم؛ من أجل أن ينالوا جاهًا، أو مالًا، أو رئاسة، أو غير ذلك من متاع الدنيا، وهو قليل بالنسبة لمتاع الآخرة؛ فيأثمون على الأمرين: على الكتابة التي يضل بها الناس، وعلى ما كسبوه.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ تحريم أن يقول الإنسان القول من عند نفسه، أو أن يكتبه من عند نفسه، ثم يقول للناس: إن هذا من عند الله؛ من أجل أن يشتري به ثمنًا قليلًا، ووجه التحريم الوعيد الذي رُتِّب على هذا الفعل؛ لأن التحريم يستفاد إما من لفظ التحريم؛ مثل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]، وإما من النهي، وإما من ترتيب العقاب عليه، وإما من الوعيد عليه، وللعلم بالتحريم طرق معروفة في أصول الفقه.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من أسلوب القرآن الكريم تأكيد الشيء بما هو معلوم؛ لقوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ومن المعلوم أن الكتابة تكون باليد، لكن هذا من باب تأكيد هذه الكتابة، وأنها ليست من عند الله، بل هي بأيديهم.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان أن هؤلاء هم الذين كتبوا هذا الكتاب بأيديهم، وقالوا: إنه من عند الله؛ من أجل أن يشتروا به

ثمنًا قليلًا؛ وهو كل ما يكون من متعة الدنيا.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما يحصل من الدنيا مهما بلغ فإنه قليل بالنسبة إلى الآخرة؛ ولهذا جاء في الحديث: «إنَّ موضعَ سَوْطِ أحدكم في الجنَّةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها...»(١).

٥ـ ومن فوائدها: أن العمل إذا ترتب عليه سيئات؛ فإن الإنسان يُعاقب على كل سيئة ترتبت على هذا العمل السيِّئ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وإذا كان العمل السيئ يترتب عليه سيئات؛ فإنه يأثم به؛ فالعمل الصالح إذا ترتب عليه حسنات؛ فإن الإنسان يُثابُ عليه؛ لأن رحمة الله ـ تعالى ـ سبقت غضبه؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «مَنْ سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها بَعْدَهُ مِنْ غيْرِ أن ينقُصَ مِنْ أجورِهِمْ شيءٌ...»(٢).

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ مُبيِّنًا ما ادَّعاه هؤلاء المكذبون المفترون ـ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن

---

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠١٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وروى نحوه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم (٤٣٣٠)؛ ورواه الدارمي (٢/ ٣٣٢ـ ٣٣٣).

(٢) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، رقم (١٠١٧).

يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

هذه المقالة من مقالة اليهود؛ ادَّعوا أن النار لا تمسهم إلا أيَّامًا معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها، وقد كذبوا فيما ادعوه في الأول وفي الثاني؛ فالنار لن تمسهم أيامًا معدودة فحسب؛ بل هم خالدون مخلدون فيها إذا ماتوا ولم يدخلوا في دين محمد ﷺ؛ لقول النبي ﷺ: «والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ولا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرسِلتُ به؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَاب النَّار»[1]؛ فهم - أعني اليهود - من أصحاب النار، مخلدون فيها إذا لم يدخلوا في دين محمد ﷺ، وثانيًا: هم كاذبون في قولهم: إنكم تخلفوننا فيها؛ فإن المسلمين موعدهم الجنة، وهم أصحاب الجنة؛ فكل من مات مؤمنًا بمحمد ﷺ، متبعًا لشريعته؛ فإنه من أهل الجنة، وبيَّن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن هذه الدعوة كذب بطريق السبر والتقسيم، فقال: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾، فإن كان الأمر كذلك؛ فإن الله لن يخلف عهده، ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وإذا كان كذلك؛ فإنَّ هذه دعوى مجردة عن العلم فلا تكون مقبولة.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان كذب اليهود، وأنهم أهل كذب، كما أنهم أهل غدر

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣).

وخيانة، لا يوفـونَ بعهـد، ولا يقومـون بواجـب أمانـة، بـل صـفاتهم الكذب، والحسد، والخيانة، والمكر.

٢-ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حسن استدلال القرآن في مقابلة خصومه؛ حيث قال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذه الطريق من طرق الحجج مما يفحم الخصم، ومن نظائرها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[مريم: ٧٧ـ ٨٠].

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لن يخلف عهده؛ لأنه ـ جلَّ وعلا ـ أصدق القائلين، وأتم المعاهدين، وأقدر على تنفيذ وعده وعهده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

٤- ومن فوائد هذه الآية: أن اليهود لا يبالون إذا قالوا على الله ما لا يعلمون؛ لنيل مآربهم وأطماعهم.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

هذه الآية ردٌّ لدعوى اليهود الذين قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا

مَّعۡدُودَةً ﴾؛ بَيَّنَ الله فيها كذب هذه الدعوى، وأنها باطلة؛ لقوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾؛ أي: من كسب سيئة كبرى تكون سببًا لإحاطة خطيئته به حتى لا يبقى له حسنات؛ وذلك مثل سيئة الشرك والكفر، فهؤلاء هم أصحاب النار المخلَّدون فيها، وليسوا المسلمين كما زعم هؤلاء اليهود، وحينئذٍ يكون أحق الناس بالخلود في النار هم هؤلاء اليهود.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- إبطال ما ادَّعاه هؤلاء اليهود الذين ادعوا أنَّهم أولياء الله، وأنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها.

٢- **ومن فوائدها:** أن أحكام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الجزائية معلقة بأوصاف لا بأعيان؛ ولهذا قال: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾، من أي أحد من الأمم فله هذا الحكم، سواء كان من العرب، أم من بني إسرائيل، أم من غيرهم.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا يستحق الخلود في النار إلَّا من أحاطت به خطيئته، أما من لم تُحط به خطيئته، بأن كان عنده عمل صالح وآخر سيئ؛ فإنه لا يكون من أصحاب النار المخلدين فيها، ولكنه تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عاقبه بذنبه، وقد يحول بينه وبين العقوبة شفاعة ممن يشفعون عند الله، أو غير ذلك من الأسباب التي ترفع عنه العقوبة، وهذا هو مذهب أهل السنة

والجماعــة، أن العصاة من المسلمين تحت مشيئة الله إنْ شاء الله عاقبهم على معاصيهم، وإن شاء غفر لهم؛ كما يدل على هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما دون الشرك لمن يشاء.

وهذه الآية يذهب بعض الناس إلى التعلُّل بها، فتجده يعمل ما شاء من الذنوب، ويقول: إن شاء الله غفر لي، والذي لا يُغفر هو الشرك، فنقول له: وهل تعلم أن الله شاء أن يغفر لك؟ ربما لا تدخل أنت تحت من شاء الله أن يغفر لهم؛ لأن الله لم يقل: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وأطلق، بل قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ فأنت لا تعلم أنك داخل في هذه المشيئة، ولا يجوز أن تمني نفسك المحالَ، بل إن الحزم والعزم أن تتجنب معاصي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ خوفًا من أن ينالك عقابه.

٤ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن أصحاب النار هم أهلها الذين يبقون فيها؛ لأن مَنْ عُذب في النار بقدر ذنوبه، ثم خرج منها لا يُعَدُّ من أصحابها في الواقع؛ إذ إن المصاحبة هي الملازمة؛ وعلى هذا يكون في الآية دليل على أن أصحاب النار مخلدون فيها تخليدًا أبديًّا؛ كما جاء ذلك في آيات أخرى؛ فقد ذكر الله تأبيد الخلود في ثلاث آيات من كتابه، فقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣]، فهذه آيات ثلاث فيها التصريح بأن أصحاب النار خالدون فيها أبدًا، وبعد هذا التصريح لا يمكن أن نعارض لمجرد أقيسة عقلية، ونصوص عامة؛ لأن اللفظ الصريح لا يرفعه إلا لفظ صريح، ثم إن الظاهر أنه لا يمكن أن يقع لفظ صريح يخالف هذا؛ لأن هذا خبر؛ وخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يناقض بعضه بعضًا، والأحكام الشرعية يمكن أن يدخلها النسخ، أما الأحكام الخبرية فإنها لا يمكن أن يدخلها النسخ؛ لأننا لو جوَّزنا نسخ أحد الخبرين بالآخر لزم منه تكذيب أحد الخبرين بالآخر، وهذا محال في كلام الله، وكلام رسوله ﷺ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

هذه هي طريقة القرآن: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا ذكر أصحاب النار وعقوبتهم، ذكر أصحاب الجنة ومثوبتهم؛ لأن القرآن مثان تُثنى فيه الأحكام والمعاني، ولأجل أن يكون الإنسان دائرًا في عبادته بين الخوف والرجاء؛ يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ آمنوا بالغيب الذي يجب الإيمان به، وقد بَيَّنَ النبي ﷺ

أركان الإيمان، حين سأله جبريل عن الإيمان قال: «... أن تُـؤْمِنَ بـالله، وملائكتِـهِ، وكُتُبِـهِ، ورُسُـلِهِ، واليـومِ الآخـرِ، والقَـدَرِ كلـه خـيره وشرِه...»[1].

وأما عمل الـصالحات؛ فهـو القيـام بـالأعمال الـصالحة، والعمـل الصالح هو ما جمع بين وصفين: **الوصف الأول**: الإخلاص لله ـ تعالى ـ بألا يريد بعمله إلا وجه الله ﷺ الدار الآخرة، لا يريد شيئًا من الدنيا. **والثاني**: المتابعة لرسول الله و؛ بحيث يكون متأسـيًا بـه ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ، فإن فُقد الإخلاص صار في عمل الإنـسان إشراك، والله لا يقبل الشرك؛ كما جاء في الحديث الصحيح الـذي رواه النبـي ﷺ عـن ربه: «إن الله قال: **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِـلَ عَمَـلًا أَشْرَكَ فيهِ مَعيَ غيري؛ تَركتُهُ وشِرْكَهُ**»[2]، وإذا لم يكن متبعًـا فيـه الرسـول ﷺ كان عملًا بدعيًّا؛ والعمل البدعي مردود؛ لقول النبي ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنا هذا ما لَيسَ مِنهُ؛ فهو ردٌّ**»[3]، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لـيسَ**

---

(١) رواه ـ عن أبي هريرة ـ البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي و عن الإيمان والإسلام...، رقم (٥٠)؛ وورواه ـ ضمن حديث طويل عن عمر ـ مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان، والإسلام، والإحسان، رقم (٨).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٠).

(٣) رواه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور؛ فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)؛ ومسلم:، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

عليه أمرنا؛ فَهُوَ ردٌّ»[1]؛ فالعمل الصالح هو ما جمع هذين الوصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

ثم بيَّن - عَزَّ وَجَلَّ - جزاء هؤلاء الذين اتصفوا بهذين الوصفين: الإيمان والعمل الصالح، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ الجنة: هي الدار التي أعدَّها اللهُ للمتقين، وفيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان جزاء المؤمنين الذين عملوا صالحًا، وهو أنهم مخلدون في الجنة.

٢- ومن فوائدها: أنه لا يتم دخول الجنة إلا بهذين الأمرين: الإيمان والعمل؛ فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل وحده لا يكفي؛ لابد من إيمان وعمل؛ ولهذا ينبغي أن نركز في خطابنا في الوعد والدعوة إلى الله على الأمرين معًا: على الإيمان الذي هو أساس العقيدة، وعلى العمل الصالح الذي به تتم هذه العقيدة.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحًا، وهو ما جمع بين الإخلاص والمتابعة لرسول الله ﷺ كما أسلفنا في تفسيرنا لهذه الآية.

---

(١) سبق تخريجه ص (٤٩).

٤ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بطلان العمل الذي فيه الـشرك؛ لأن الله اشترط لتأثير العمل واستحقاق الجزاء عليـه أن يكـون عمـلًا صالحًا.

٥ـ ومن فوائد هذه الآيـة الكريمـة: أن أهـل الجنـة مخلـدون فيهـا، وتخليدهم أبدي؛ كما دَلَّت على ذلك آيات كثيرة، وأجمـع عليـه سـلف الأمة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ﴾؛ الضمير في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾ راجع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وجاء بهذه الصيغة تعظيمًا لله؛ لأنه ـ سبحانه وتعـالى ـ يعبر عن نفسه أحيانًا بصيغة الجمع، وأحيانًا بـصيغة الإفـراد، والتعبـير بصيغة الإفراد ما هو معلوم بأن الله ـ تعـالى ـ واحـد، والتعبـير بـصيغة الجمع للدلالة على العظمة؛ وذلك لأن ضمير الجمع تارةً يُرادُ به الجمع الذي هو العدد، وتارةً يُرادُ به التعظيم؛ كما في هـذه الآيـة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ والميثاق هو العهد، وسُمي ميثاقًا؛ لأنه توثقة بـين المتعاهدين، وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم

أبناء عم للعرب؛ لأن العرب من ذرية إسماعيل، وبنو إسرائيل من ذرية إسحاق؛ وإسماعيل وإسحاق أخوان، أبوهما إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، **هذا الميثاق هو:**

أولًا: ألا يعبدوا إلا الله؛ لا يعبدون ملكًا، ولا رسولًا، ولا حجرًا، ولا شجرًا، ولا غير ذلك مما سوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

الثاني: أن يحسنوا إلى الوالدين بالبر إليهما وعدم العقوق.

الثالث: أن يحسنوا إلى ذوي القربى بالصلة وعدم القطيعة.

الرابع: أن يحسنوا إلى اليتامى؛ وهم الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا، ويشمل الذكور والإناث من اليتامى.

الخامس: الإحسان إلى المساكين؛ وهم الفقراء المعدمون، وسموا بذلك؛ لأن الفقر أسكنهم وأذلهم؛ فإن الفقر يوجب سكون الإنسان وذله ـ نسأل الله أن يغنينا بفضله عن خلقه ـ.

أما السادس: أن يقولوا للناس حسنًا، وهذا يشمل المخاطبة فيما بينهم وبين الناس، ويشمل ما يدعون الناس إليه مما يكون شريعة؛ بحيث لا يقولون للناس إلا ما هو حسن، ولا يكون المدعو إليه حسنًا إلا إذا كان موافقًا لشريعة الله.

السابع: إقامة الصلاة؛ أي: أداؤها على الوجه الذي أمر الله به.

الثامن: إيتاء الزكاة؛ أي: إعطاء ما يجب إعطاؤه من المال إلى أهله.

ولكن هل هؤلاء الذين أُخذ عليهم الميثاق قاموا بذلك؟ يقول الله

ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾، والخطاب في قوله: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ لبني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ إلا قليلًا منهم فإنهم قاموا بهذا العهد، وآمنوا بمحمد ﷺ؛ مثل عبدالله بن سلام، والنجاشي؛ وعبدالله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، فهذان وأمثالهما ممن لم يتولوا، بل قاموا بالعهد والميثاق على ما عاهدوا عليه، وواثقوا عليه، ثم قال: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: أنهم تولوا وهم معرضون، ليس فيهم شيء من الإقبال على ما جاء به محمد ﷺ.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١ـ بيان عتو بني إسرائيل، وأنهم مع العهود والمواثيق لا يفون.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية**: التحذير مما وقع فيه هؤلاء من مخالفة الميثاق، وعدم الوفاء به؛ لأن الله ـ تعالى ـ إذا ذكر أخبار من سبق؛ فإنه لا يذكرها على سبيل التلهي بها والنظر المجرد، ولكنه يذكرها ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ من أجل أن نعتبر بها، وأن نأخذ منها عبرة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية**: أن الدعوة للإخلاص في جميع الأمم؛ لقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ وهذه الدعوة جاء بها كل الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكما قال الله ـ

تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤- **ومن فوائد هذه الآية:** وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ والإحسان يكون بالقول، ويكون بالفعل؛ فالإحسان بالقول معناه أن يُلين الإنسان لهما قوله، وأن يكون قولًا كريمًا طيبًا سمحًا، والإحسان بالفعل يكون ببذل المال، وبخدمة البدن، وغير ذلك مما يكون إحسانًا، والآية مطلقة ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾، وليعلم أن أحق الوالدين بالصحبة هي الأم؛ كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين سئل: مَنْ أحقُّ الناس بِحُسْنِ صحابتي[1]؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثُمَّ أَبُوك»[2]، ولكن هذا لا يعني ألا نعطي الأب حقه، بل له حق وللأم حق، لكن لما كانت الأم أنثى والغالب عليها الضعف، وأنها تحتاج إلى لينٍ أكثر صارت أحق الناس بصحبة الولد.

والإحسان للوالدين بالفعل: يكون ببذل ما يحتاج إليه الوالدان من المال من نفقة، وكسوة، وغير ذلك بقدر المستطاع، ويكون أيضًا بالبدن؛ وهو القيام بخدمة الوالدين حينما يحتاجان لذلك؛ ولهذا قال

---

(١) الصحابة ـ هنا ـ بمعنى الصحبة.

(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن صحابتي، رقم (٥٩٧١)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٨).

الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

٥ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوب الإِحسان إلى ذي القربى؛ أي: إلى أصحاب القرابة، سواء أكانوا من قبل الأم أم من قبل الأب، والإِحسان إليهم يكون كالإحسان إلى الوالدين؛ أي: بالقول وبالفعل، ولكن الإِحسان إلى الوالدين أوكد وأعظم؛ لأنهم أقرب القربى إليك.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الإِحسان إلى اليتامى؛ وهم الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا؛ وذلك لأن هذا اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه وراعيه، فكان من رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وحكمته أن أوصى بالإِحسان إليه.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الإِحسان إلى المساكين عند الضرورة إلى ذلك، ومشروعيته على سبيل الاستحباب إذا لم يكن هناك ضرورة؛ وذلك لأن المساكين قد أسكنهم الفقر وأذلهم؛ فهم بحاجة إلى مَنْ يجبرهم بالإِحسان إليهم؛ ولهذا وصَّى الله بذلك، وجعله من العهود والمواثيق على بني آدم.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوبُ القول الحسن في مخاطبة

الناس، وفي دعوتهم؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، والظاهر - والله أعلم - أن القول الحسن إن كان المراد به ما هو ضد القول السيئ؛ فإن القول الحسن هنا يكون واجبًا؛ أي: أنه يجب على الإنسان أن يخاطب الناس بما لا يسيء إليهم، بل بما يكون فيه منفعتهم الدينية والدنيوية، ومن القول الحسن: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله؛ فإن هذا كله من القول الحسن، وضده القول السيئ الذي يكون به الإساءة والعدوان على الناس؛ فإنه مُحَرَّمٌ.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: وجوبُ إقامة الصلاة؛ أي: الإتيان بها على الوجه المشروع، إلزامًا في الواجبات، وندبًا في المستحبات، والصلاة معروفة؛ وهي موجودة في جميع الملل؛ كما يفيده قوله - تعالى -: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وكما تفيد هذه الآية الكريمة من أن بني إسرائيل قد أُخذ عليهم الميثاق بأن يقيموا الصلاة.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوبُ إتيان الزكاة، وهي القدر المفروض في المال الزكوي، يؤتى إلى أهل الزكاة لا إلى غيرهم.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان عتوِّ بني إسرائيل، وأنهم - مع هذا العهد والميثاق على هذه الخصال الحميدة - لم ينقادوا، ولم يفوا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛

وذلك باستثناء هؤلاء القليل ممن تولى؛ إذ لم يحكم بالتولي على جميع بني إسرائيل، وإنما حكم به على من قام به واستحقه، وهذا من كمال عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

١٣ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني إسرائيل ـ مع توليهم ونكثهم لهذا الميثاق ـ كانوا مُعرضين عن الحق، غير متجهين إليه؛ فجمعوا بين الانحراف القلبي والانحراف البدني.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

بَيَّنَ الله ـ تعالى ـ في هاتين الآيتين أنه ـ تعالى ـ أخذ ميثاقًا آخر على بني إسرائيل؛ وهو عدم عدوان بعضهم على بعض؛ كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾؛ قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ يعني: لا تريقونها بالقتل، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾، وإنما أضاف الدماء إليهم

والإِخراج إلى الأنفس؛ لأن الأمة الواحدة كأنها نفس واحدة؛ فإخراج بعضهم يكون كإخراج أنفسهم هم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾؛ أي: من كان منكم من دياركم، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؛ أي: أنكم مقرون بهذا الميثاق، شاهدون به، ولكن هل استمروا عليه؟ الجواب: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾، فلم تفوا بالميثاق، بل قتلتم أنفسكم وأخرجتم فريقًا منكم من ديارهم، أخرجتموهم على وجه من العلو والاستكبار عليهم، ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، ومع ذلك إذا أتوكم أسارى فاديتموهم؛ يعني: لو اسرو؛ فإنكم تحرصون على أن تفادوهم مع أن إخراجهم في الأصل حرام عليكم، ففي هذا الفعل تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾؛ مثل إنقاذ من أُسر منكم بالمفاداة ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ مثل قتل بعضكم بعضًا وإخراج بعضكم بعضًا من ديارهم؛ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جزاء؛ أي: مجازاته ومكافآته على عمله، وقوله: ﴿مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ احتراز من العموم؛ لأنه ليس كلهم يفعلون هذا، ولكن من يفعل هذا فهذا جزاؤه الخزي في الحياة الدنيا وبيان عيبه، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وإنما يردون إلى أشد العذاب؛ لنكثهم العهد والميثاق الذي بينهم وبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ثم ختم الله

الآية ببيان كمال علمه ومراقبته في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

١- العدول عن الكلام بصيغة الغيبة إلى الكلام بـصيغة الخطـاب؛ لأنه أشد وأوقع في النفس؛ ففي الآية التي سبقت هاتين الآيتـين يقـول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وفي هـذه الآيـة يقـول: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾، فعدلَ عن الكـلام بالغيبـة إلى الكلام بالخطاب؛ لأنه أبلغ وأشد.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم الدماء في الأمم السابقة كما هو محـرم في هــذه الشريعة، وقد أعلـن النبـي ﷺ هـذا التحـريم في أكـبر مجتمع اجتمع به مع أمته، وذلك في حجة الـوداع؛ حيـث سـألهم: «أي يوم هذا؟ وأي شهر هذا؟ وأي بلد هـذا؟»، «فـإنَّ دمـاءَكُمْ، وأموالكم، وأعراضكم بينكم حرامٌ؛ كحرمةِ يَوْمكمْ هـذا، في شـهركم هذا، في بلدكم هذا»(١).

والدماء من أعظم العدوان حرمة وجزاء؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٣]، وأخبر النبيُّ ﷺ بذلك؛ فقال:

---

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع»، رقم (٦٧)؛ ومسلم: كتاب القسامة، باب تحريم الدماء، والأعراض، والأموال، رقم (١٦٧٩).

«أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة الدماء»[١].

٣-ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم إخراج الإنسان من بلده إلا بمقتضى الشرع؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾.

٤-ومن فوائد هذه الآية الكريمة: استعمال ما يوجب العطف، والحنان، والرحمة في الخطاب؛ لقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾؛ حيث جعل دماء الغير كدماء الإنسان نفسه، وجعل إخراج الغير كإخراج الإنسان نفسه.

٥-ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان عتوِّ بني إسرائيل؛ حيث إنهم أقروا بهذا الميثاق، وشهدوا به، ولكنهم لم يقوموا بتطبيقه والعمل به.

٦-ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من العمل بما عمل به هؤلاء من أخذ الميثاق بين العبد وبين ربه، ثم بعد ذلك ينكثه، ولا يفي به.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن هؤلاء الذين لم يطبقوا الميثاق وصاروا يقتلون أنفسهم، ويخرجون فريقًا منهم من ديارهم

---

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، كتاب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)؛ ومسلم: كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم (١٦٧٨).

يعتبرون مؤمنين ببعض الكتاب وكافرين ببعض، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كفر به جميعًا؛ لقوله: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ ﴾؛ وأشد العذاب لا يكون إلا للكافرين؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]؛ فبيَّنَ اللهُ أنَّ هؤلاء الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كافرون حقًّا، وهذه مسألة خطيرة عظيمة؛ لأن بعض الناس يؤمن ببعض الشريعة ويكفر ببعضها، ثم يقول: إنه مؤمن باعتبار أصل عقيدته، وهذا لا ينفعه؛ إذ لابد في الإيمان من أن يكون إيمانًا شاملًا لكل ما جاءت به الشريعة.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تناقض بني إسرائيل؛ حيث إنهم يخرجون فريقًا منهم من ديارهم متعالين عليهم بالإثم والعدوان، ثم إذا أتوهم أسارى فادوهم، وهذا تناقض؛ كيف يخرجونهم من ديارهم، ثم يفادونهم إذا أتوهم أسارى؟

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة الثانية:** أن عمل بني إسرائيل من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كان سببًا لهذه العقوبة العظيمة، أنهم يخزون في هذه الدنيا، وفي يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب.

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة الثانية:** بيان عدل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في

الاحتراز من العموم إذا لم يكن الحكم عامًّا؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾، ولم يقل: «فما جزاؤكم» مع أن الخطاب في الأول كان للجميع؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾، وهذا من باب الاحتراز الدال على كمال عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى في التحدث عن الغير.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: أنه يجب على الإنسان مراعاة العدل فيما يخاطب به غيره؛ فلا يتكلم عن أمة في مدح أو قدح على سبيل العموم إذا لم تكن كذلك، ولا يتكلم أيضًا عن أفعال الشخص المعين من قدح أو مدح على سبيل العموم إذا لم يكن كذلك؛ لأن هذا هو الحق والعدل.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: إثبات يوم القيامة والجزاء فيه؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٣- ومن فوائدها: أن العذاب مراتب، بعضه أشد من بعض؛ لقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٤- ومن فوائدها: إثبات الصفات المنفية في صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ - بمعنى أن الله موصوف بالإثبات وموصوف بالنفي، في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، لكن لِيُعْلم أن الصفات المنفية عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يراد بها مجرد النفي؛ وإنما يُرادُ بها بيان كمال

ضدها؛ فإذا قـال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ كـان دالًّا عـلى كـمال علمه، وكمال مراقبته لعباده ـ عَزَّ وَجَل ـ، وأنه ليس بغافل عنهم.

١٥- ومن فوائدها: بيـان كـمال الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ في عمـوم علمـه ومراقبته؛ لقولـه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأن «مـا» مـن صـيغ العموم، والعموم في اسم الموصول أو غيره يدل على السعة والشمول.

* * *

ثُمَّ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

الإِشارة في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِك﴾ إلى هؤلاء الذين نكثوا العهد من بني إسرائيل، فبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنَّ هؤلاء الذين نكثوا العهد إنـما نكثـوه لأغراض الدنيا وأعراضـها؛ ولهـذا قـال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ أي: أخذوا الدنيا بدلًا عن الآخرة، وهؤلاء حكمهم في الآخرة أنه لا يُخففُ عنهم العذاب ولا هـم ينـصرون؛ لأنهـم مـاتوا وهم ناكثون لعهد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- بيان أن من خالف امر الله ـ عزَّ وَجَلَّ ـ فإنما يخالفه لغـرض مـن الدنيا.

٢- ومن فوائدها: بيان سفه هؤلاء الذين نكثوا عهد الله؛ حيث اختاروا الدنيا على الآخرة مع أن الآخرة خير وأبقى؛ كما قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

٣- **ومن فوائدها**: التحذير من اختيار الدنيا على الآخرة، ومن ذلك أن يتعامل الإنسان مع الناس بمعاملات محرمة؛ كالربا، والغش، والكذب، وغير ذلك؛ من أجل أن ينال عَرَضًا من الدنيا؛ فإن هذا من السفه والخطأ؛ لأن الدنيا زائلة فانية، والآخرة هي الباقية، وقد حَذَّر النبي ﷺ من هذه الفتنة في قوله ﷺ: «**إنها ستكون فتن؛ كقطع الليلِ المُظْلِم، يُصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا، يبيعُ دينَهُ بِعَرَضٍ من الدنيا**»(١).

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات العذاب والجزاء، وأن من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة لا يخفف عنه العذاب؛ لأنه اختار الدنيا على الآخرة؛ فيبقى مخلدًا في النار لا يُخفف عنه العذاب، وليُعلَم أن أصحاب النار فيها ـ والعياذ بالله ـ يقولون لمالك: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ويقولون لخزنة جهنم: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩]، فأما جواب مالك لهم فيقول لهم: ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وأما جواب خزنة النار فيقولون لهم: ﴿ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٥٠].

---

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨).

٥ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أصحاب النار ـ الذين هم أهلها ـ لا تنفع فيهم الشفاعة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، والشفاعة نوع من النصر، ولكن هؤلاء المستحقين الخلود في النار لا تنفع فيهم الشفاعة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآية: إنه أعطى موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ، ويؤكد ذلك الإعطاء بالقسم المقدر، واللام، وقد، وهذا الكتاب الذي أوتي موسى لم يكن آخر كتاب نزل على بني إسرائيل، بل إن الله ـ تعالى ـ قَفَّى من بعده بالرسل، فأرسل إلى بني إسرائيل الرسل تباعًا، وختم رسل بني إسرائيل بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: الآيات البيِّنات، وهي ما حصل من حمل أمه به من غير أب، ومن نطقه في المهد، ومما جاء به من إخراج الموتى من قبورهم، وإحياء الموتى قبل الدفن، وإبراء الأكمه والأبرص ـ بإذن الله ـ، كل هذه الآيات التي جاء

بها آيات بينات، لكن فيها آيات سبقت وجوده ـ أي: وجود عيسى ـ، وآيات بعد وجوده ورسالته، ومع هذا فإن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه أوتي البينات قد أيده الله ـ تعالى ـ بروح القدس؛ وهو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أَيَّد اللهُ به عيسى؛ أي: قوَّاه به ونصره، ثم قال مخاطبًا بني إسرائيل وموبخًا لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ يعني: أفتبلغون إلى هذا الحال إذا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، وإذا جاءكم رسول بما تهوى أنفسكم قبلتم، ولكن هذا الأخير قد لا تدل عليه الآية الكريمة؛ لأن جميع الرسل الذين جاءوا بالحق إلى بني إسرائيل جاءوا بما لا تهوى أنفسهم ـ أي: أنفس بني إسرائيل ـ، ثم انقسم بنو إسرائيل ـ بالنسبة إلى هؤلاء الرسل ـ إلى فريقين: ففريقًا كذبوا وفريقًا قتلوا، وآخر من كذبوه هو محمد ﷺ؛ فإنهم كذبوه بعد أن جاءهم بالبينات حتى كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم استكبروا، ولم يقبلوا ما جاء به، بل عاهدوه ونقضوا العهد معه، وقاتلوا أصحابه، وما زالوا إلى يومنا هذا أعداء لأتباع محمد ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حال بني إسرائيل مع الرسل أنهم على هذين القسمين: إما أن يكذبوا وإما أن يقتلوا؛ فتكذيبهم تكذيب بالحق، وقتلهم قتل بغير حق؛ كما قال الله ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[آل عمران: ٢١].

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١ـ بيان ما منَّ الله به على موسى ﷺ من إتيان الكتاب، وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أفضل أنبياء بني إسرائيل، والتوراة هي أعظم الكتب المنزلة على بني إسرائيل؛ ولهذا يقرن الله ـ تعالى ـ بينها وبين القرآن أحيانًا؛ لأن القرآن أفضل الكتب المنزلة على الأنبياء، والتوراة أفضل الكتب المنزلة على بني إسرائيل.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات نبوة موسى ﷺ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يهمل الخلق بلا رسل؛ فإنه قفَّى من بعد موسى بالرسل تباعًا؛ من أجل هداية الناس، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، فكل أمة خلا فيها نذير؛ لتقوم الحجة على العباد؛ فإن العباد إذا لم يأتهم رسل قد يكون لهم حجة على ربهم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ منع هذا الاحتجاج بإرسال الرسل؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

٤ـ **ومن الفوائد المستنبطة المأخوذة من هذه الآية:** أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قفَّى من بعد موسى بالرسل؛ من أجل أن تبقى آثار الرسالة في العباد.

٥ـ **ومن فوائدها:** إثبات نبوة عيسى ﷺ؛ حيث قال: ﴿وَءَاتَيْنَا

عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

٦ـ **ومن فوائدها:** أن الله أعطى عيسى ابن مريم بينات من الأمر تبين رسالته، وأنه عبد الله ﷺ رسوله، والبينات هذه شاملة جميع الرسل؛ فما من رسول إلا آتاه الله ما على مثله يؤمن البشر؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

٧ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث إنه ـ جلَّ وعلا ـ إذا أرسل الرسل جعل معهم بينات تشهد لهم بالصدق، وهذا من كمال حكمته، وكمال رحمته أيضًا؛ لأنه لو جاء رسول من الخلق دون أن تكون معه آية تدل على صدقه؛ لم يقبل الناس منه، ولكن الله ـ تعالى ـ بحكمته ورحمته ـ جعل مع كل رسول آية تدل على صدقه، وأنه رسول الله حقًّا.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** مِنَّةُ الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم؛ حيث أيَّده بروح القدس جبريل ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ.

٩ـ **ومن فوائدها:** بطلان دعوى النصارى بألوهية عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه أُيِّد بروح القدس، ولو كان إلهًا لم يحتج إلى تأييد أحد، ولكنه عبد الله ورسوله؛ كما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسولُهُ، وأن عيسى عبدُ الله ﷺ رسولُهُ، وكلمتهُ ألقاها إلى مريم**

وروحٌ منه...»[(١)]، وقد تَبَرَّأَ عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من دعوى من ادَّعى أنه إله معبود مستحق للعبادة في قوله ﷺ حين يسأله الله يوم القيامة: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

١٠- **ومن فوائد هذه الآية: إثبات الملك الكريم جبريل** ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي وصفه الله بأنه روح القدس في هذه الآية وفي غيرها؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

١١-.**ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن بني إسرائيل لا يقبلون** ما جاءت به الرسل، بل كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ـ أي: بما لا يعتقدون أنه حق ـ استكبروا.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني إسرائيل انقسموا في**

---

(١) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾، رقم (٣٤٣٥)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب من لقي ربه بالإيمان ـ وهو غير شاك فيه ـ دخل الجنة، رقم (٢٨).

جانب الرسل إلى قسمين: فريق كذبوا الرسل، وفريق قتلوهم؛ لقوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير يعود على بني إسرائيل؛ لأن هذه الآيات كلها في التحدث عنهم، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي: مغلفة لا يصل إليها ما جاء به محمد ﷺ من الحق، فبيَّن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بطلان دعواهم هذه في قوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: أن الله طردهم وأبعدهم عن رحمته بكفرهم، فران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وإذا ران على القلب عمل العبد؛ فإنه لن يصل إليه الخير، يُطبع على قلبه فلا يصل إليه الخير، فيظن أن قلبه لم يُخلق منفتحًا لهذا الخير، ويَدَّعي أن قلبه أغلف، ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أن إيمانهم قليل؛ بسبب لعنة الله لهم بكفرهم.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١ ـ أن بني إسرائيل يدَّعون ما ليس بحق حينما يدعوهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو غيره من أنبيائهم فيقولون: إن قلوبهم غلف؛ يعني: مغلفة لا يصل إليها ما دعوتم إليه، ووجه إبطال هذا قوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: بل ليس الأمر ما يدَّعون، وإنما

الأمر أنهم كفروا؛ فلعنهم الله فلا يصل إلى قلوبهم الخير.

٢ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: بيان عقوبة الله لهؤلاء باللعنة؛ وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

٣ـ **ومن فوائدها**: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فإن الباء ـ هنا ـ للسببية.

٤ـ **ومن فوائدها**: أن الكفر ـ والعياذ بالله ـ يوجب انطماس القلب، والطبع عليه؛ بحيث لا يصل إليه الخير؛ لقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها**: أن بني إسرائيل يقل فيهم الإيمان، والقلة هنا إما أن يكون المراد بها العدم، لقوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وإما أن يراد بها أنه قد ترد على قلوبهم أحيانًا واردات يكون فيها شيء من الإيمان، ولكنه شيء قليل لا يصل إلى إزالة الكفر عن هذه القلوب.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المراد به القرآن؛ فهو من عند الله؛ لأن الله ـ تعالى ـ تكلم به وتلقاه جبريل، ثم نزل به على قلب النبي ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: أن هذا القرآن مصدق ما معهم من الكتب؛ وتصديق القرآن لما معهم من الكتب على

وجهين: الوجه الأول: أن حكم بصدق هذه الكتب السابقة، وأوجب على الناس أن يؤمنوا بها؛ وهذا يعني أنه قال: إنا صادقة.

والوجه الثاني من التصديق: أن الكتب السابقة أخبرت به؛ فجاء مصدقًا لما أخبرت به مطابقًا له، وكلا الوجهين حق، لما جاءهم هذا الكتاب من عند الله مصدقًا لما معهم.

﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ يعني: أن هؤلاء اليهود كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفرا؛ أي: يستنصرون عليهم بالرسول الذي وُعدوا به، وكانوا يقولون: إنه سيبعث نبي، وسنكون من أتباعه، وسننتصر عليكم، يقولون ذلك للكافرين، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾؛ أي: جاءهم ما عرفوا أنه الحق، وأنه الرسول الذي كانوا ينتظرونه؛ ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ لم يقبلوا ما جاء به؛ ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ يعني: أن هؤلاء لما كفروا بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي عرفوه كما يعرفون أبناءهم استحقوا اللعنة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهنا قال ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقل: «**فلعنة الله عليهم**»، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد؛ منها: الحكم على مرجع الضمير بهذا الوصف الظاهر الذي حلَّ محل الضمير، ومنها: إرادة التعميم فمثلًا لو قال: «**فلعنة الله عليهم**» لم تشمل غيرهم، ولكن إذا قال: «**على الكافرين**» شملتهم وشملت غيرهم من الكفار، ثم لو قال: «**فلعنة الله عليهم**» لم

يتبين أنهم كفار بهذا الكفر، ولكنه قال: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ ليحقق بذلك اتصافهم بالكفر.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ أن بني إسرائيل قد امتد طغيانهم وعتوهم وتكذيبهم للأنبياء حتى آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ.

٢ـ **ومن فوائدها**: أن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله ليس منقولًا عليه.

٣ـ **ومن فوائدها**: إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن القرآن كلام بلا شك، فإذا كان من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ دلَّ هذا على أنه كلامه، وهذا هو ما يذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن القرآن كلام الله، حروفه ومعانيه، وأنه منزَّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

٤ـ **ومن فوائدها**: الثناء على كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ القرآن؛ لكونه مصدقًا لما سبقه من الكتب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها**: أن الحجة على بني إسرائيل كانت معهم، وبين أيديهم؛ فكتبهم كلها ناطقة متحدثة عن هذا القرآن الكريم، مصدقة له، مخبرة به، ومع ذلك كفروا به عتوًّا وطغيانًا.

٦ـ **ومن فوائدها**: بيان الحسد العظيم في بني إسرائيل؛ حيث كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ظنًّا منهم أن النبي الذي تحدثت عنه كتبهم سيكون من بني إسرائيل؛ فلما تبين أنه من بني إسماعيل

كفروا به؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٧ـ **ومن فوائدها:** أن بني إسرائيل كفروا عن عناد وبيان؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

٨ـ **ومن فوائدها:** أن الكفر عن معرفة أشد من الكفر عن جهل؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾، ولم يقل: «**فلما جاءهم الرسول**»، أو «**جاءهم صاحب هذا الكتاب**»، أو ما أشبه ذلك؛ بل قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾؛ بيانًا لشناعة ما حصل منهم.

٩ـ **ومن فوائدها:** أن بني إسرائيل لما كفروا استحقوا اللعنة التي أوجبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل كافر؛ أي: أن لعنة الله حاقة على كل كافر؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبينًا قبح ما ذهبوا إليه؛ لكونهم اختاروا لأنفسهم الكفر بما أنزل الله؛ حسدًا وبغيًا منهم أن ينزل الله من

فضله على من يشاء من عباده؛ فإنهم حسدوا العرب حينما جاء النبي ﷺ منهم، واختاروا لأنفسهم الكفر على الإيمان، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾؛ أي: أنهم أتوا بغضب على غضب، وهذا لا يعني أنهم باءوا بغضبين فقط، بل بأكثر؛ فهم استحقوا غضب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بعبادة العجل في زمن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبتكذيب عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبتكذيب محمد ﷺ؛ فهم باءوا بغضب على غضب؛ أي: رجعوا به ـ والعياذ بالله ـ والغضب الذي رجعوا به هو غضب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ثم قال: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وهذه عامة وأول من يدخلها هؤلاء الذين كفروا بمحمد ﷺ؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم الكفر، وإنما قال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ لأنهم كفروا استكبارًا وتعاظمًا وعلوًّا؛ فكان جزاؤهم هذا العذاب الذي يهينهم ويلحقهم الذل والهوان.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١ـ بيان قُبح ما اختاره هؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل؛ لقوله: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: إثبات أن ما جاء به محمد ﷺ من عند الله؛ لقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٣ـ ومن فوائدها: أن الذي حملهم على ذلك هو البغي والعدوان،

وهذا من طبيعة بني إسرائيل، أنهم بغاة عتاة متمردون على الحق.

٤- ومن فوائدها: بيان أن العلم الذي يهبه الله ـ تعالى ـ للشخص في شريعة الله من فضله، بل هو أعظم فضل يمن الله به على العبد بعد هدايته لدينه أن يرزقه الله ـ تعالى ـ العلم، والعلم أفضل من المال؛ لما فيه من النفع الكثير الواسع؛ وقد جاءت آيات كثيرة، بل وأحاديث كثيرة تدل على بيان فضل العلم، وأنه أعظم نعمة مَنَّ اللهُ بها على العبد.

٥- ومن فوائدها: إثبات المشيئة لله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، ومشيئة الله ـ تعالى ـ عامة، عامة في كل شيء، فيما يفعله هو بنفسه، وفيما يفعله العباد.

٦- ومن فوائدها: أن هؤلاء الذين اختاروا لأنفسهم الكفر بمحمد ﷺ قد باءوا بغضب على غضب؛ أي: تراكم عليهم الغضب من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وهذا يدل على أن الغضب إذا تكرر كان أعظم قبحًا مما إذا كان غير متكرر.

٧- ومن فوائدها: إثبات العذاب للكافرين، وأنه عذاب مهين يلحقهم بالذل والهوان؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لبني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ ﴿ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهو هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ لم يقبلوا هذا القول، بل يردونه بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من الكتب التي نزلت عليهم كالتوراة على اليهود، والإنجيل على النصارى، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ أي: بما سواه، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ يعني: أن الذي كفروا به هو الحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾، والحق هو الشيء الثابت، وضده الباطل الزائل.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾؛ أي: أن القرآن الكريم صدق ما معهم من كتب، وكان تصديقه لها على وجهين: **الوجه الأول**: أنه بيَّن أنها كتب مشتملة على الصدق، **والوجه الثاني**: أنه صدقها؛ حيث كانت تتحدث عنه، وتبينه، وأنه سيكون فكان؛ يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إذا كنتم تدعون أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، فَلِمَ تقتلون أنبياء الله الذين جاءوا بالوحي من الله؟ وهل هذا إلا كذب منكم وعدوان واستكبار على الحق؟! ولو كنتم مؤمنين حقًّا ما قتلتم الأنبياء الذين جاءوا منكم، وأتوا بالكتب منزلة عليكم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان تعصب اليهود والنصارى لما هم عليه من الطريق، ولو كانت طريقًا خاطئة؛ لأن رسالتي اليهود والنصارى نُسِخَتا بمجيء محمد ﷺ، وصارتا غير مقبولتين عند الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢- **ومن فوائدها:** التحذير من التعصب لما مع الإنسان إذا كان باطلًا؛ لأن الله ذكر هذا عن بني إسرائيل؛ تحذيرًا من طريقتهم.

٣- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء - أعني: بني إسرائيل - إذا عرض عليهم الحق ردوه، وتعصبوا للباطل الذي هم عليه، وكفروا بما سواه؛ لقوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أنهم - أعني بني إسرائيل - يردون الحق المصدِّق لما معهم، وكان الذي يجب عليهم - عقلًا وشرعًا - أن يقبلوا الحق، ولا سيما أنه مصدق لما معهم، ومبين أنه الحق؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** إقامة الحجة على كذب هؤلاء، الذين يَدَّعون أنهم يؤمنون بما أُنزل إليهم؛ لأنهم كانوا يقتلون الأنبياء، ولو كانوا صادقين في الإيمان بما أنزل إليهم ما قتلوا الأنبياء.

٦- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي عند المحاجة أن يذكر المحاج ما يفحم

به الخصم، ويبيِّـن كذبـه، وبطـلان دعـواه؛ لقولـه: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها**: بيان أن بني إسرائيل لا يقبلون الحق من كل مـن جاء به، ولكن إذا جاءهم ما تهوى أنفسهم سكتوا، وإذا جـاءهم مـا لا تهوى أنفسهم قتلوا أو يكذِّبون ويصرِّحون بالتكـذيب إذا لم يبلغـوا إلى حد القتل كما سبق في آية قبل هذه.

* * *

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: ٩٢].

في هذه الآية يخاطب الله بني إسرائيل موبخًا لهـم عـلى مـا حـصل منهم؛ حيث إن موسى عليه السلام جاءهم بالآيات البينات الدالة على رسالته، وصدق دعوته، ومع ذلك اتخذوا العجل من بعـده إلهًـا وهـم ظالمون؛ أي: ظالمون لأنفسهم بهذا الاتخاذ

وسبب ذلك أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعده الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر؛ فبقي غائبًا عن قومه أربعين ليلة، وكان قد خلف عليهم هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلمَّا تأخر عن الثلاثين؛ فُتنوا بما صنعه السامري من العجل المكون من الذهب الذي استعاروه، وقال لهم: إن هذا هو إلهكم وإله موسى؛ فعبدوا العجل وهم يعلمون أنه من صنعهم، وأنهم هم الذين صنعوه

وأحدثوه، ومع ذلك اتخذوه إلهًا، وقد نصحهم هارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولكنهم ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، وهذا ـ لا شك ـ دليل على سفههم، وعتوهم، وطغيانهم، أن يتخذوا إلهًا على صورة العجل، هم الذين صنعوه بأنفسهم وهو من جملة القبائح التي هم عليها.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- في هذه الآية بيان واحد من أمور كثيرة تدل على عتو بني إسرائيل، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم.

٢- **وفيها ـ أيضًا ـ من الفوائد:** المناداة إلى سفه هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهًا؛ فعبدوه مع أنه لا يرجع إليهم قولًا، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا.

٣- **ومن فوائد هذه الآية:** أنهم اتخذوا العجل على حال ظلم؛ لأنهم يعلمون أن هذا العجل هم الذين صنعوه، وأنه ليس إلهًا، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ تعنتوا هذا التعنت، ونصحهم هارون، ولكنهم لم يقبلوا هذا النصح.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ

إِيمَـٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

هذه الآية خطاب لبني إسرائيل في عهد الرسول و، ولكنهم لما كانوا أمة واحدة مع من سبقهم صحَّ أن يُوجَّه الخطاب إليهم بالشناعة عليهم بفعل غيرهم، فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَكُمۡ﴾؛ أي: العهد الثقيل الموثق، ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾؛ وهو الجبل المعروف، رفعه الله عليهم؛ تخويفًا وإنذارًا حتى صار كالظلة فوق رءوسهم، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة؛ أي: أن يأخذوا الكتاب الذي أنزله الله إليهم ـ وهو التوراة ـ بقوة في تصديق أخباره، والعمل بأحكامه، وأمرهم أن يسمعوا، ولكنهم عتوا وقالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ ، وكان الواجب عليهم ـ وهم عباد الله الذين خُلقوا لعبادته ـ أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، وكان هذا العصيان والتمرد نتيجة ـ والله أعلم ـ لما أُشرب في قلوبهم من حب العجل؛ فإن هذا العجل الذي صنعوه وعبدوه تمكَّن في قلوبهم حتى شربته؛ أي: شربت حبَّهُ؛ بسبب كفرهم بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فهم لما عدلوا عن الحق عوقبوا بالإغراء بالكفر؛ لأن القلوب إما على حق وإما على باطل، فإذا انتفى الحق ثبت الباطل؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمۡ﴾؛ أي: بئس الأمر الذي يأمركم به إيمانكم من عبادة العجل، والطغيان، والعتوِّ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ومن المعلوم أن من عبد مع الله غيره؛ فليس بمؤمن ولو ادَّعى أنه مؤمن، ولكن هذه الصيغة التي جاءت في آخر الآية من باب

التحدي لهم؛ إذا كانوا مؤمنين فلماذا يعبدون العجل؟! هل الإيمان يأمر بعبادة غير الله؟! لا.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- **من فوائدها:** قدرة الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ حيث نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، مع أن الجبل من الرواسي؛ فإن الجبال جعلها الله -تعالى- رواسي ثابتة في الأرض، ولكنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون.

٢- **ومن فوائدها:** بيان بلوغ الغاية في عتوِّ بني إسرائيل؛ حيث إنهم قيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾، ولكنهم قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** أن السمع يطلق على الاستجابة والقبول؛ لقوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ أي: اقبلوا واستجيبوا، لكنهم قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** وجوب الأخذ بقوة فيما نزل على الإنسان من وحي الله، وألا يقابل هذا الوحي بالكسل والضعف؛ يشهد لهذا قول النبي ﷺ: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شيْءٌ فلا تَقُلْ: لَو أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قل: قَدَرُ الله

وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[١].

٥- ومن فوائدها: أن الإنسان قد يُبْتَلَى بحب الباطل إذا أعرض عن الحق؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٦- ومن فوائدها: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فإن الباء هنا للسببية.

٧- ومن فوائدها: التحذيرُ من ردِّ الحق، وأن الإنسان قد يُبتلَى إذا ردَّ الحق بمحبة الباطل؛ حتى يبقى عليه، وقد حذَّر اللهُ - سبحانه وتعالى - من هذا بما ذكره في قوله - تعالى -: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فإن الإنسان إذا ردَّ الحق، ولم يستجب له من أول الأمر قد يُبتَلَى بأن يُقلِّب اللهُ - تعالى - قلبه وبصره؛ حتى يكون في أمر مريج.

٨- ومن فوائدها: تقبيح ما ذهب إليه هؤلاء من محبة العجل، وعصيانهم، وكفرهم؛ لقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٩- ومن فوائدها: أنه ينبغي عند المحاجة أن يسلك المحاج ما فيه التحدي لخصمه؛ حتى يتبين قدرته على المدافعة؛ لأن مقام المتحدِّي أعلى وأقوى من مقام المتحدَّى، وقد جاء في القرآن الكريم كثير من هذا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز...، رقم (٢٦٦٤)

النوع ـ أعني: التحدي ـ؛ أي: تحدي الخصم حتى يتبين عجزه، وأنه ليس على حق؛ من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]، ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها تحدي الخصم حتى يتبين عجزه.

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ؛ أمره الله ـ تعالى ـ أن يقول لهؤلاء الموجودين في عهده من بني إسرائيل: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾؛ وذلك أنهم كانوا يدَّعون أنهم هم أهل الجنة، وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها، ويدَّعون أنهم أبناء الله تعالى

أحباؤه، وأنهـم خلاصـة الله ـ تعـالى ـ مـن البشر، إلى غـير ذلـك مـن الدعاوى الباطلة التي يشهد ببطلانها حالهم التي هم عليها، فيقـول الله ـ تعـالى ـ لنبيـه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ومن المعلـوم أنهم لن يتمنوا الموت؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل؛ ولهذا قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي بسبب مـا قـدمت أيـديهم مـن الكفر، والظلم، والطغيان، ومن كانت هـذه حالـه؛ فإنـه لا يمكـن أن يتمنى الموت؛ لأنه لو تمنى الموت في هذه الحال لكان معنـاه أنـه يتمنـى اسـتعجال العقوبـة عـلى نفسه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هـذه جملـة استئنافية تبين أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أن هؤلاء ظلمة، وأنهـم لا يمكن أن يتمنوا الموت؛ لما هم عليه من الظلـم، ثـم قـال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾؛ أي: لتجدن هؤلاء الموجودين من بني إسرائيل أحرص الناس على حياة، وإن كانت قليلة، يتمنون أن يبقوا في هذه الحياة الدنيا ولو قليلًا؛ ليتمتعوا بها فيها من اللذات التي لا تنفعهم يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾؛ يعنـي: ولتجـدنهم أحرص الناس على حياة حتى من الذين أشركوا؛ يعني: فهـم أحـرص النـاس عـلى حيـاة، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ يعنـي: يحـب ويتمنى أن يعمَّر ألف سنة، ولكنـه لـو عمِّـر لم ينفعـه ذلـك، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾،

وسيجازيهم الله على أعمالهم بما يستحقون.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمات:

١- تحدي هؤلاء الذين ادَّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة لهم، وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، تحديهم بأمر هم قادرون عليه لو شاءوا؛ وهو تمني الموت إذا كانوا صادقين بأن الدار الآخرة لهم.

٢- **ومن فوائدها: أن هؤلاء الموجودين من بني إسرائيل في عهد** النبي ﷺ لا يمكن أن يتمنوا الموت؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل؛ ومن كان يعلم أنه على باطل فلا يمكن أن يتمنى الموت؛ لأنه لو تمناه لكان يستعجل العذاب لنفسه.

٣- **ومن فوائدها:** بيان علم الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أنَّ التأبيد إنما يكون بحسب الحال والقرينة، فلا يكون تأبيدًا مطلقًا أبدًا؛ وذلك لأن أهل النار في النار يتمنون الموت؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وهؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل هم من أهل النار؛ كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: **«والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذهِ الأُمَّةِ يهوديٌّ ولا نَصْرانيٌّ، ثم يَمُوْتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ**

بالَّذي أُرسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار»

٥ـ **ومن فوائدها**: بيان أن بني إسرائيل أحرص الناس على حياة، وإن كانت حياة زهيدة قليلة؛ لقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾.

٦ـ **ومن فوائدها**: أن المشركين أحرص الناس على حياة، ولكن هؤلاء اليهود من بني إسرائيل أشد حرصًا على الحياة من المشركين.

٧ـ **ومن فوائدها**: أن طول العمر لا يغني شيئًا إذا لم يكن الإنسان على حق وعلى خير؛ ولهذا جاء في الحديث: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: مَنْ طَالَ عُمرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، قال: فأي الناس شر؟ قال: مَنْ طَالَ عُمرهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[2].

٨ـ **ومن فوائدها**: أن عمر الإنسان حقيقة ما أمضاه في طاعة الله، وليس عمر الإنسان ما طال؛ فإن الإنسان قد يكون قصير العمر، ولكن يجعل الله في عمره بركة؛ ينتفع بنفسه وينتفع غيره؛ كما يوجد من بعض العلماء الذين عمّروا قليلًا، ولكنهم خلفوا خيرًا كثيرًا للأمة.

٩ـ **ومن فوائدها**: أنه ينبغي لمن دعا لشخص بطول العمر أن يقرن

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤١)

(٢) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب منه، رقم (٢٣٣٠)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ وأورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٥٤)، وقال: "رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح؛ والطبراني بإسناد صحيح؛ والحاكم؛ والبيهقي في الزهد وغيره".

ذلك بطاعة الله فيقول: أطال الله عمرك على طاعته؛ لأن طول العمر بدون طاعة لا يفيد الإنسان شيئًا، بل إذا كان في معصية؛ فإنه لا يزيده إلا شرًّا.

١٠- ومن فوائدها: إثبات عموم علم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وهذا قد دلَّت عليه النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة؛ حيث دلت على عموم علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل شيء، سواء من أفعاله أو من أفعال عباده، ذكر الله ذلك جملة، وذكره تفصيلًا؛ فذكره جملة مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والتفصيل مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. ومثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩] ومفاتح الغيب هي الخمس المذكورة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، وآيات العلم كثيرة في كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وكذلك أحاديث النبي ﷺ في علم الله، والفائدة من علمنا بذلك

هي: أن يكون الإنسان مراقبًا لربه، يخشى ربَّه في السر والعلانية، لا يكتم شرًّا، ولا يقول شرًّا، ولا يفعل شرًّا، ولقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ فبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه يعلم ما توسوس به نفس الإنسان؛ تحذيرًا من أن يضمر الإنسان في قلبه ما لا يرضاه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات الكريمات يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لكل من كان عدوًّا لجبريل: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ حيث إن جبريل نزَّلَ هذا القرآن على قلب النبي ﷺ بإذن الله، وأول من صرح بأنه عدوٌّ لجبريل هم اليهودُ؛ وذلك لأن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينزل بهذا الوحي من عند الله، فيفضحهم، ويبين جبروتهم وطغيانهم؛ فكان عدوًّا لهم، فأمر الله نبيه بهذه الآية أن يقول: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ولا يضر جبريل أن يكون

هؤلاء عدوًّا له، وإنما خصَّ الله التنزيل على القلب؛ لأن القلب هو محل الوعي، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فقد سبق الكلام على معناه، وأما قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالمعنى: أن هذا القرآن هدى وبشرى للمؤمنين؛ هدى يهديهم، ويبين لهم الحق، ويبشرهم بما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم على إيمانهم.

ثم قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، هذه الجملة الشرطية فيها بيان أن من كان عدوًّا لله؛ فإنه يكفر، وكذلك من كان عدوًّا لملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال؛ وجبريل وميكال من الملائكة، ولكنهما خُصَّا بالذكر؛ لأن جبريل يتنزل بما فيه حياة القلوب، وميكائيل مأمور بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض.

وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ إذ كان مقتضى السياق أن يقول: فإن الله عدوٌّ له، ولكنه أظهر في موضع الإضمار؛ لبيان حكم من كان عدوًّا لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال؛ فإنه كافر، ولأجل أن يكون هذا عامًّا في كل كافر، سواء أكان كفره بسبب عداوته لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال، أم بسبب آخر، ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ

إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾، يؤكد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن الله أنـزل إلى رســـوله ﷺ آيات بينات، وهي هذا القرآن العظيم الذي بيَّـن اللهُ فيه كل ما تحتاجـه الأمـة في معاشـها ومعادهـا، ومـا يكفـر بهـذه الآيـات إلا الفاسـقون الخارجون عن طاعة الله.

فوائد هذه الآيات الكريمات:

١ ـ **من فوائدها**: إثبات أن جبريل ـ عليـه الـصلاة والـسلام ـ نـزل بالقرآن الكريم عل قلب النبي ﷺ.

٢ـ **ومن فوائدها**: بيان فضيلة جبريل؛ حيـث كـان مـوكلًا بتنزيـل الوحي على رسول الله ﷺ .

٣ـ **ومن فوائدها**: أن القلب هو محل الوعي والحفظ.

٤ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن نزول جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ كان بإذن الله الشرعي والقدري، وقد قسَّم أهل العلم إِذْنَ الله ـ تعالى ـ إلى قسمين: إذن كوني، وإذن شرعي: فما تعلَّق بالمخلوقات فهو من الإِذن الكوني، وما تعلَّق بالوحي فهو من الإِذن الشرعي، ومثال الإِذن الشرعى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، ومثال الإذن الكوني قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: بإذن الله الكوني.

٥ـ ومن فوائدها: بيان أن جبريل ـ عليه الصلاة ﷺ السلام ـ وإن كان من الملائكة ـ له أعداء من البشر من بني آدم، ومن أولهم اليهود، كما ذكر ذلك المفسرون.

٦ـ ومن فوائدها: أن هذا القرآن لا يهتدي به وينتفع به إلا المؤمن، ولا يكون بشرى إلا للمؤمن، أما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بهذا القرآن، ولا يكون القرآن بشرى له.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، من الفوائد:

١ـ أن كل من كان عدوًّا لله، أو لملائكته، أو لرسله، أو لجبريل وميكال؛ فإنه كافر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: أن كلَّ كافر هو عدو لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ويشهد لهذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ١].

٣ـ ومن فوائدها: أن كلَّ من كان عدوًّا لله؛ فإنه يجب أن يكون عدوًّا للمؤمنين؛ لأن من أحب أحدًا كان وليًّا لمن والاه، وعدوًّا لمن عاداه.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾.

هذه الآية فيها تأكيد من ثلاثة وجوه: اللام، وقد، والقسم المقـدر؛ يؤكد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيها أنه أنزل إلى الرسول ﷺ آيات بينات.

من فوائد هذه الآية:

١- **من فوائدها:** تأكيد أن القرآن نزل من عند الله، والآيات في هـذا كثيرة جدًّا.

٢- **ومن فوائدها:** أن القرآن آيات بينات، ليس فيهـا غمـوض ولا إشكال.

٣- **ومن فوائدها:** الرد على من قال: إن في القرآن آيـات مـشتبهات لا يعلم معناها الناس؛ فإن جميع آيات القرآن الكـريم معلومـة المعنـى، وليس فيها شيء مجهول المعنى لجميع الأمة، فلو كان فيهـا شيء مجهـول المعنى لجميع الأمة لم يكن القرآن بيانًا، بل كان بعضه بيانًا وبعـضه غـير بيان.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا يكفر بهذه الآيات التي أنزلها الله على محمـد ﷺ إلا الفاسق الخارج عن طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٥- **ومن فوائدها:** أن كل من كـان أطـوع لله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ وأقـوم لطاعته؛ كان ظهور الآيات الكريمات في القرآن أبين عنـده وأوضـح؛ لأن الحكم إذا رُتِّبَ على شيء ـ أي: على وصـف ـ فإنـه يثبـت بثبوتـه، وينتفي بانتفائه.

٦- **ومن فوائدها:** أنه يجب علينا أن نعتني بهذا القرآن الكريم، وأن

نستبين ما فيه من الآيات؛ حتى ننتفع به، وحتى يكون منهجًا نسير عليه في اعتقاداتنا، وفي عباداتنا، وفي معاملاتنا؛ فإن هذا القرآن شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآية موبخًا هؤلاء القوم؛ بنبذ فريق منهم لما عاهدوا عليه ـ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، ثم يبين أن هذا النبذ بالعهد؛ لكون أكثرهم لا يؤمنون ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ توبيخ من عاهد عهدًا فنبذه.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنه إذا وقع الخطأ من بعض قوم؛ فإنه لا يُنسب الخطأ إلى الجميع، بل العدل أن يشار إلى أن هذا الذي حصل إنما كان من فريق منهم؛ لئلا يلحق العار جميع القوم مع براءة بعضهم منه.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن نقض العهد علامةٌ على نقص الإيمان؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن من خصال النفاق الغدر بالعهد.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وهذه الآية كسابقتها، فيها التوبيخ لهؤلاء القوم الذين عرفوا الحق، ولكن فريقًا منهم نبذه، وكأنهم لا يعلمون بـه، فيقـول ـ جـل وعـلا ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ وهـــو محمـــد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، وذلك من وجهين:

الأول: أن القرآن شهد بصدق ما جاء به موسى وعيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

والثاني: أنه صدَّق ما أخبرا به عن هذا الرسول الذي بُشِّرَ به بنو إسرائيل؛ كما قال عيسى ابن مريم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ويبيِّـنُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآيـة ـ أعنـي آيـة البقـرة ـ أنـه لما جاءهم هذا الرسول المصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله ﷺ راء ظهورهم، ولم يقل: «نبذ فريق منهم» بـل قـال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ زيادة في التشنيع عليهم؛ حيث أوتـوا الكتـاب، وعرفوا الحق، ولكنهم نبذوه، والذي نبذه فريق منهم، ومنهم من آمـن به وصدقه؛ كالنجاشي ـ رحمه الله ـ وكعبدالله بن سـلام ـ رَضِيَ الله عَنْـهُ

ـ؛ فالنجاشي كان من النصارى، فلما بلغته رسالة النبي ﷺ آمن به، وعبدالله بن سلام كان من اليهود، فلما قدم النبي ﷺ المدينة أتى إليه، وآمن به، ولم يكن كل اليهود أو النصارى كفروا بمحمد ﷺ ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ثم يبين اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون الحق، كأنهم جُهَّالٌ به وهم عالمون به.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ صدق رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ رسول الله ﷺ مرسل إلى بني إسرائيل، كما أنه مرسل إلى الأميين ـ وهم العرب ـ، بل وإلى الناس أجمعين؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالَّذي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ**

أصحابِ النَّار»(١).

٣- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن رسول الله ﷺ كان مصدقًا لما جاءت به الرسل السابقة؛ أي: مُقِرًّا بأنها صدق، وشاهدًا بصدقها؛ حيث أخبرت به فجاء طبقًا لما أخبرت به.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: قيام الحجة على بني إسرائيل؛ حيث كان محمدٌ ﷺ مصدقًا لما معهم، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم من بني إسرائيل نبذوه عن علم؛ لأنهم أوتوا الكتاب، وعرفوا الحق، وقد بيَّنَ اللهُ ـ تعالى ـ أنهم يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وهذا أشد لومًا، وتوبيخًا، وجريمة ممن لا يعلم ولم يؤت من الكتاب شيئًا.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن نبذ هؤلاء الفريق من الذين أوتوا الكتاب نبذ لا يُرجى معه إقبال؛ لقوله: ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾، والذي ينبذ كتاب الله وراء ظهره في الدنيا؛ يؤتى كتابه يوم القيامة من وراء ظهره؛ جزاءً وفاقًا.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن من نبذ عن علم أشد قبحًا ولومًا

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤١)

ممن نبذ عن جهل؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** التحذير من رد الحق بعد العلم به؛ لأن الله ساقَ هذه الآية على وجه اللوم والتوبيخ لهؤلاء الذين نبذوا الحق بعد أن عرفوه.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن من نبذ الحق بعد العلم به؛ ففيه شبه من بني إسرائيل من اليهود والنصارى الذين ردوا الحق بعد أن علموا به.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾.

في هذه الآية يبين الله ـ تعالى ـ أن قومًا من بني إسرائيل اتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان؛ وكانت الشياطين تتلو ما تتلوه من أنواع السحر، بل ومن أنواع الكفر أيضًا، فتمليه على الناس بما تلقيه في قلوبهم من ذلك.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾؛ لأن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد آتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وسخَّرَ له الريح، وسخَّر لـه الشياطين كل بناء وغوَّاص، وسليمان هو ابنُ داود، وهـو مـن أفـضل أنبياء بني إسرائيل، وهو من بعـد موسـى بأزمنـة طويلـة، يقـول ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ: ﴿كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾؛ يعني: أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يُعَلِّمِ الـشياطين ما تتلوه من السحر فيكون بذلك كافرًا، بل هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ نبيٌّ رسولٌ معصومٌ من الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ ومِـنْ كفـرهم أنهـم يعلمـون النـاس الـسحر؛ والسحر ـ بالشعوذة، ودعاء الشياطين، والاستعانة بهم على إيذاء الخلق ـ نوعٌ من الكفر؛ ولهذا قـال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

قال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾؛ يعني: أن ما أُنزل على الملكين ببابل ـ وبابل اسم مكان ـ، والملكان أحدهما هاروت، والثاني ماروت، وهما ملكان من الملائكة أنزلهما الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى الأرض؛ من أجل اختبار الناس، يعلمان الناس السحر بأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنهما ـ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فيتعلم الناس منهما على بصيرة وعلى علم، يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه من السحر، وهو ما

يسمى بالعطف والصرف، وهو نوعٌ خبيثٌ من أنواع السحر، ومن أشد أنواع السحر ضررًا؛ حيث يفرق به بين المرء وزوجه، ومن المعلوم أن الصلة بين المرء وزوجه من أقوى الصلات؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فهذان الملكان يعلمان الناس، ويقولان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، ولكن بعض الناس يصمم على أن يتعلم، وهذا من اختبار الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعباده، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أن ما يحصل من الضرر بالسحر صادر عن إذن الله وإرادته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولو شاء الله ـ تعالى ـ لم يؤثر السحر شيئًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ يعني: يتعلمون من السحر ما هو ضرر لهم في دينهم ودنياهم، ولا ينفعهم، وإنْ قُدِّر أنهم انتفعوا به في الدنيا فإن ضرره أكبر من نفعه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾؛ يعني: علم هؤلاء الذين أصروا على تعلم السحر أن من اشتراه ـ أي: تعلمه ـ ما له في الآخرة من خلاق؛ يعني: ليس له في الآخرة نصيب؛ وذلك لأنه أتى الكفر؛ والكافر ليس له نصيب في الآخرة، إنما يُمتَّعُ في الدنيا كما تُمَتَّعُ الأنعام، والنار مثوى له، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ

أنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾، في هذا قدح لهذا العلم الذي تعلموه، وأنه جدير بالذم والتقبيح؛ ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لبئس ما باعوا به أنفسهم، وهو هذا السحر الذي تعلموه، ثُمَّ قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾؛ يعني: لو كانوا من ذوي العلم لعرفوا قبحه، وابتعدوا عنه، ولم يحاولوا تعلُّمه، هذا معنى الآية إجمالًا، أما ما يستفاد منها من الأحكام والفوائد فكثيرة.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سخّر الشياطين لسليمان، وامتحن الناس بهم؛ لقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾.

٢ـ ومن فوائدها: أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكفر بكفر هؤلاء الشياطين الذين تعلموا السحر، وصاروا يتلونه ويلقونه على الناس؛ وذلك لأن الأنبياء معصومون من الكفر والشرك.

٣ـ ومن فوائدها: أنَّ العمل بالسحر كفر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا﴾.

٤ـ ومن فوائدها: أنَّ تعليم الناس السحر من الكفر؛ لقوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، والسحر نوعان:

النوع الأول: سحر الشياطين الذي يكون بالاستعانة بهم، والتعوذ بهم، والالتجاء إليهم، وهذا كفر لا شك فيه.

والثاني: سحر بالأدوية، والأوراق، والأشجار، وما أشبه ذلك مما

لا علاقة للشياطين به، فهذا لا يصل إلى حد الكفر، لكنه مُحَرَّمٌ تحريمًا شديدًا؛ لما يحصل فيه من الأذية والضرر على الغير، وإذا ثبت السِّحر على شخص: فإن كان من النوع الأول فإنه يُقتل كفرًا وردةً، وإن كان من النوع الثاني فإِنَّهُ يُقتلُ؛ لاتِّقاء شره وأذيته على المسلمين.

٥ـ ومن فوائدها: أنَّ الحق ما أذن الله فيه وأمر به، ولو كان في نفسه باطلًا؛ فهذان الملكان نزلا إلى الأرض؛ ليعلما الناس السحر، وتعليم السحر ـ كما سبق ـ كفرٌ، لكن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أباح لهذين الملكين أن يعلما الناس من أجل هذا الامتحان الذي حصل بتعليمهما، والشيء قد يكون كفرًا، وقد يكون طاعة، ولو كان واحدًا من نوعه، وأضرب لهذين مثلين:

المثل الأول: السجود لغير الله كفر وشرك، وإذا سجد الإنسان لغير الله بأمر الله كان عبادة؛ ألَمْ تر قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، فهنا نجد السجود لغير الله كان طاعة وعبادة؛ لأن الله أمر به، ويكون شركًا في الحالة التي لم يأمر الله به فيها.

والمثل الثاني: قتل النفس فإنه من كبائر الذنوب، ولا سيما إذا كان المقتول من أقارب القاتل، ومع ذلك كان طاعة يُمدحُ عليه، وذلك كما في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل؛ فإنَّ إبراهيم رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، فقصَّ الرؤيا على ابنه؛ فقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ

سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فأسلما أمرهما لله، واستسلما لقضاء الله ﷻ شرعه، فلما تلَّ ابنه للجبين ليذبحه؛ جاء الفرج من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٤ـ١٠٦].

فامتحن الله إبراهيم بأمره بقتل ابنه حتى أسلم لله وانقاد؛ فصار ذبح ابنه طاعة لله، ولكنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ تداركه بلطفه وإحسانه فكتب له أجر الممتثل، وقال له: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، فالملكان اللذان نزلا يعلمان الناس السحر نزلا بأمر الله، وبإذن الله، فكان تعليمهما للسحر طاعة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لكنه ـ باعتبار المُعَلَّم ـ كفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

٦ـ ومن فوائدها: أن الله ـ تعالى ـ قد يسر للإنسان أسباب المعصية؛ ليبلوه هل يعصي الله أم لا يعصى الله؟ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يسر للناس تعلُّم السحر بما أُنزل على الملكين، وبما بذلاه من أنفسهما لتعليم الناس.

٧ـ ومن فوائدها: أنه يجب أن يُبيَّن الأمر لطالبه على وجه صريح، لا لبْس فيه؛ فإنَّ هذا من تمام النصح والبيان؛ لأن الملكين لا يعلمان من أحد حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فيبينان حالهما، وحال

المتعلَّم منهما؛ يبينان حالهما أنهما نزلا فتنة، ويبينان حال المتعلِّم منهما بأن تعلُّمه كفر.

٨- ومن فوائدها: أن من أعظم أنواع السحر التفريق بين الرجل وزوجته؛ لقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾، وهذا ما يسمى بالعطف والصرف؛ فإن من أنواع السحر ما إذا سُحِرَ به الإنسان انعطف على غيره انعطافًا بالغًا شديدًا لا يملك أن يتصرف بنفسه معه، حتى يكون وراء هذا الشخص الذي عُطِفَ عليه؛ كما تكون الشاة وراء الراعي الذي يدعوها، ومن السحر ما يكون بالعكس، يوضع للشخص ليفرق بينه وبين حبيبه؛ مثل أن يفرق بينه وبين زوجته، فيصبح يرى زوجته وكأنها من أعدى أعدائه أو العكس، وهذا من أشد أنواع السحر إيذاء وضررًا.

٩- ومن فوائدها: أنَّ ما يقع من تأثير السحر إنما يقع بأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وإرادته؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠- ومن فوائدها: أنَّهُ متى لجَأَ الإِنسانُ إلى ربِّه، واستعاذ به، واستغاثه من الأمر الذي نزلَ به؛ فإنَّ الله -سبحانه وتعالى- قادر على أن يصرفه عنه، ولو كان قد نزل به الشر؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١١- ومن فوائدها: الإِشارة إلى أنه ينبغي للمسحور أن يلجأ إلى

الله ـ تَعَالَى ـ وأن يسأله رفع ما نزل به بصدق، وإخلاص، وضرورة؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، وقد يكون لجوء الإنسان إلى الله ـ في الحال التي يصاب فيها بالسحر ـ وشدة تضرعه إليه من أقوى الأدوية تأثيرًا إن لم يكن أقوى الأدوية تأثيرًا؛ ولهذا لما سُحِرَ النبي ﷺ بسحر عظيم؛ أنزل الله عليه سورتي المعوذتين: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾؛ فرقاه بهما الملَك؛ فشفاه الله ـ تعالى ـ من ذلك.

١٢ـ **ومن فوائدها:** أنَّ السحر ضرر على الساحر كما هو ضرر على غيره، وإنْ ظنَّ الساحر أنه ينتفع بذلك، وأنه يكسب من ورائه؛ فإنَّ هذا الكسب الذي حصده كسب خبيث لا يزيده من الله إلا بُعدًا، ولا يزيده إلا خسارًا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾.

١٣ـ **ومن فوائدها:** أنَّ الساحر كافر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ﴾.

١٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تقبيح ما حصل من هؤلاء من تعلُّم السحر؛ حيث قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾.

١٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن هؤلاء باعوا أنفسهم وخسروها؛ من أجل تعلم هذا السحر القبيح الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾.

١٦ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ هؤلاء الذين اختاروا تعلُّم السحر وأهلكوا أنفسهم به كانوا من أجهل الناس، سواء علموا ذلك أو لم يعلموه، مع أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يدل على أنهم يعلمون أن الساحر ليس له نصيب في الآخرة، فيكونون قد خالفوا وعصوا على بصيرة ـ والعياذ بالله.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

في هذه الآية يَعْرِضُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على هؤلاء الذين كفروا بتعلُّم السحر، يَعْرِضُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عليهم الإيمان والتقوى، ويبين أن المثوبة التي عند الله لهم بإيمانهم وتقواهم خير مما يُحَصِّلُونَهُ في الدنيا من جزاء السحر لو كانوا من ذوي العلم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ سَعَةُ فضلِ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وإحسانه، وكرمه؛ فهؤلاء الذين عتوا وبغوا على الخلق بما يتعلمونه من السحر، ويضرون به الناس يَعْرِضُ الله عليهم أن يؤمنوا ويتقوا؛ حتى يكون لهم المثوبة، وهذا أنموذج من نماذج سعة رحمة الله، وفضله، وإحسانه؛ ومن نماذجه:

أن الله ـ تعالى ـ قال في سورة البروج ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]؛

فهؤلاء الذين قتلوا أولياءه وأحرقوهم في النار يَعْرِضُ الله عليهم التوبة فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، فلو تابوا لنجوا من عذاب النار، هؤلاء أيضًا لو أنهم آمنوا ـ أعني: الذين تعلموا السحر وأضروا الناس به ـ لو أنهم آمنوا واتقوا؛ لمحا الله عنهم الآثار السيئة لهذا السحر، وأثابهم على ذلك، وكان خيرًا لهم.

٢ـ ومن فوائدها: أنَّ ما عند الله من الثواب خير مما يحصل في الدنيا من المكاسب، وهذا ظاهر بالأثر والنظر؛ أما الأثر فقد بيّن الله ـ تعالى ـ في غير آية أن الآخرة خيرٌ من الدنيا؛ فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال للنبي ﷺ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ الآية [الشورى: ٣٦]؛ يعني: لمن اتقى، والآيات في هذا كثيرة، وقال النبي ﷺ: «... وموضعُ سَوطِ أحدِكُمْ من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها...» (١)، وهنا قال ـ تعالى ـ: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ هؤلاء الذين تعلموا السحر ـ مع علمهم بأن من اشتراه لا خلاق له في الآخرة ـ من ذوي الجهالة،

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

وكأنهم لا يعلمون؛ لذا قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الحث على العلم والعمل به، وأن من لم يعمل بعلمه فهو كالجاهل، بل أشد قبحًا من الجاهل؛ لأن الجاهل قد يُعْذَر، وقد يستقيم إذا علم الحق، بخلاف من خالف الحق مع علمه به؛ فإنه ليس بمعذور، ورجاء رجوعه إلى الحق بعيد.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

يخاطب الله ـ تعالى ـ المؤمنين بصفة الإيمان؛ لينهاهم عن هذه الكلمة التي كانت اليهود تقولها لرسول الله ﷺ ﴿رَٰعِنَا﴾؛ يريدونها من الرعونة لا من الرعاية، فتكون ﴿رَٰعِنَا﴾؛ يعني: «إنك ذليل»، وليس المراد الرعاية؛ فنهى الله عباده المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة، ولكنه أرشدهم إلى كلمة خير منها، وهي بمعناها قال: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ يعني: اسمعوا ما نهيتكم عنه، ولا تخالفوه؛ فإن مخالفته من الكفر.

﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم؛ لأنه شديد ـ والعياذ بالله ـ كما بيَّنَ الله ـ تعالى ـ شدة عذاب النار في آيات كثيرة من القرآن، وبيَّنَها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة من السنة.

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله المؤمنين بوصف الإيمان ويناديهم

بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أن من خصال المؤمن أن يمتثل؛ لأنه مؤمن؛ والمؤمن يهديه إيمانه إلى امتثال أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنه ينبغي أن يُنادى الإنسان بأحب الأوصاف إليه، ولا شك أن أحب أوصاف المؤمن إليه أن ينادى بإيمانه.

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: أن مخالفة ما ذكر نقصٌ في الإيمان، وأن موافقته من مقتضى الإيمان؛ ولهذا وُجِّه الخطاب إلى المخاطب بوصف الإيمان.

٤ـ ومن فوائدها وأحكامها: تحريم الخطاب بالكلمات المحتملة للحق والباطل بالنسبة لرسول الله ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾.

٥ـ ومن فوائدها: النهي عن مشابهة غير المؤمنين؛ لأن هذا الخطاب «راعنا» مما يدندن به اليهود إذا خاطبوا النبي ﷺ.

ومن فوائد وأحكام قوله: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾:

١ـ أنه إذا ذكر باب ممنوع مسدود أمام الناس؛ فإنّ الحكمة تقتضي أن يُذكر لهم ما يستغنون به عنه من الأشياء المباحة؛ ولهذا قال: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾؛ فهو لم ينههم ويجعلهم عائمين لا يدرون ما يقولون، بل

أرشدهم إلى القولة المباحة؛ وهي قوله: ﴿ٱنظُرْنَا﴾، فإذا نهيت الناس عن شيء يحتاجون إليه فافتح لهم بابًا يغني عنه؛ حتى يسهل تركهم لما نُهوا عنه، وفعلهم هذا الذي أُرشِدوا إليه، ونظير ذلك ما ثبت في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ أُتِي إليه بتمر جيد؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: كنا نأخذ الصاع بالصاعين، والصاعين بالثلاثة - أي: نأخذ الصاع من هذا التمر بالصاعين من الرديء، والصاعين بالثلاثة - فأخبرهم النبي ﷺ أن هذا عين الربا[1]، وأرشدهم إلى أن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم، ثم يشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا، ومنعهم من أخذ الصاع بالصاعين أو الصاعين بالثلاثة؛ لأنه ربا؛ فإن بيع التمر بالتمر يجب فيه التساوي في الكيل والتقابض في مجلس العقد، ولما أخذوا الصاع بالصاعين لم يلتزموا بالتقابض؛ فأرشدهم النبي ﷺ وبَيَّنَ لهم أن هذا ممنوع، وأرشدهم إلى البيع المباح بأن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم، ويشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا، وهذا نظير هذه الآية الكريمة: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ هذا ممنوع، ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ هذا بدل عنه.

٢- ومن فوائدها: وجوب السمع والطاعة لأوامر الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول ومن غير علم...، رقم (٧٣٥٠، ٧٣٥١)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلًا بمثل، رقم (١٥٩٣).

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: ثبوت الجزاء على العمل؛ لقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها**: أنَّ مخالفة أمر الله ورسوله من الكفر؛ لأنه أعقب النهي عن قول: «راعنا» والإذن في قول: «انظرنا» ـ أي: الإرشاد إليه والأمر بالسماع ـ بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فدلَّ هذا على أن المخالفة لأمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نوع من أنواع الكفر.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿مَّا يَوَدُّ﴾؛ يعني: ما يحب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ يعني: ولا الذين كفروا من المشركين، لا يودون أن ينزل إلى رسول الله ﷺ وأمته من خير؛ لأنهم حسدة؛ والحاسد لا يحب أن ينزل الله الخير على غيره؛ ولهذا قال: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يخص من شاء من عباده رحمة خاصة غير الرحمة العامة لجميع الخلق؛ لأن رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نوعان: رحمة عامة: تشمل جميع الخلق حتى الكُفَّار؛ فإن الله ينزل عليهم الغيث، ويخرج لهم الزرع، ويكثر لهم المال والولد، وهذه رحمة ـ وكذلك يفعل بالمؤمنين ـ،

والرحمة العامة رحمة متعة فقط، يستوي فيها جميع الخلق حتى البهائم.

أما الرحمة الخاصة: فهي التي قال الله عنها: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾؛ يعني: فليس لأحد أن يحجر على الله أن ينزل فضله على مَنْ يشاء من عباده.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: صاحب الفضل العظيم، العظيم كميةً، والعظيم كيفيةً، والعظيم شمولًا في المكان، وشمولًا في الزمان، فبيَّن اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - في هذه الآية حقد الكفار من المشركين، واليهود، والنصارى الذي بلغ بهم إلى هذا الحد.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - بيان أن اليهود، والنصارى، والمشركين لا يودون الخير للمسلمين، وهذا ليس خاصًا بزمن الرسول؛ بل هو عام إلى يوم القيامة؛ لأن الكفار من اليهود، والنصارى، والمشركين أعداء لنا، وأعداء لربنا، وأعداد لكتابنا، وأعداء لرسولنا، ومن كان كذلك فإنه لا يمكن أبدًا أن يحب نزول الخير إلينا.

٢- **ومن فوائدها وأحكامها:** الحذر من مكر الكفار من اليهود، والنصارى، والمشركين؛ فلا نغتر بما يبذلونه لنا من حلاوة اللسان، وإظهار انشراح الصدر بنا؛ لأنهم إنما يفعلون ذلك من أجل خير عائد عليهم أكثر مما يتحملونه من كراهتهم للخير النازل إلينا؛ أو لأنهم

يتربصون بنا الدوائر حتى يقضوا على ما لنا من الخير.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ من كره الخير للمؤمنين عمومًا، أو لبعض منهم على سبيل الخصوص؛ فإن فيه شبهًا من اليهود، والنصارى، والمشركين.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: تحريم كراهة نزول الخير للمؤمنين، وكراهة نزول الخير للغير هو الحسد؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: إنَّ التفسير الصحيح للحسد ليس أن يتمنى الإنسان زوال نعمة الله على غيره، ولكن التفسير الصحيح هو أن يكره الإنسان ما أنزل الله على غيره من الخير، سواء تمنى زواله أو لم يتمنَّ، وهذا التفسير ـ لشيخ الإسلام ـ هو الأقرب.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان ما منح اللهُ هذه الأمة من الربوبية الخاصة؛ ولهذا قال: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وربوبية الله لعباده المؤمنين ربوبية خاصة، والربوبية نوعان: عامة وخاصة؛ فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق؛ ومنها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

والخاصة: هي الربوبية المضافة للمؤمنين أو للرسل؛ مثل قوله عن عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

فإن هذه الربوبية خاصة، وقد اجتمع النوعان في قوله ـ تعالى ـ:

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هذه الربوبية العامة، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ هذه الربوبية الخاصة.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ فضل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد يختص لأناس دون آخرين؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

ولا شك أن ما كان من أفعال الله؛ فإنه صادر عن مشيئة منه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وكذلك ما صدر من أفعال العباد؛ فإنه صادر عن مشيئة منه وإذن منه بذلك؛ كما مرَّ علينا في قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فكل شيء يقع في السموات والأرض ـ من أفعال الله أو أفعال الخلق ـ؛ فإنه واقعٌ بمشيئة الله؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ولكن هل في هذه الآية وما في معناها من النصوص حجة للعاصي على معصيته؛ بحيث يقول: إن معصيتي لله ليست بمشيئتي ولكنها بمشيئة الله؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ويقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ويقول:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]؟.

وجوابنا على هذا أن نقول: ليس للعاصي حجة على معصيته؛ لأن الله ـ تعالى ـ أمدَّه وأعدَّه؛ أمده بالعقل؛ وأعدَّهُ لمعرفة الهدى والحق، وأرسل إليه الرسل، وقد قطع الله الحجة على الخلق بإرسال الرسل؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

فالعاصي ليس له حجة على معصيته، بل ليس له حجة على الله في معصيته؛ لما ذكرنا؛ ولهذا نجد العاصي يختار من الأمور ما شاء، ويُقدم عليه؛ يختار أن يسافر إلى مكة، يختار أن يسافر إلى المدينة، يختار أن يسافر إلى البلد الفلاني أو الفلاني بإرادته وقدرته، ولا يحتج بالقدر على ذلك، فإذا كان هكذا فلِمَ يحتجُّ بالقدر على معصية الله ولا يحتج بالقدر على السفر، والذهاب، والمجيء، والأكل، والشرب، واللباس، وغير هذا؟ ثم إنَّ القدر سرٌّ مكتوم لا يُعلمُ عنه إلا بعد وقوعه، فكيف يحتج العاصي بالقدر على معصيته قبل أن تقع المعصية؟ لماذا لم يقدر هذا العاصي أن الله كتب له أن يكون من المتقين؟ فيتقي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ولهذا أبطل اللهُ هذه الحجة في قوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

فهنا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ﴾، ومن المعلوم أنهم لن يذوقوا بأس الله إلا حين يرتكبون معصيته، وتبطل حجتهم بما احتجوا به من مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات أن الله ـ تعالى ـ موصوف بالفضل العظيم؛ حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أَنَّهُ لا يليق بالإنسان أن يطلب الفضل من غير الله؛ بل يجب أن يطلب الفضل من الله وحده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، والإنسان إذا طلب الفضل من الله؛ فقد طلب الفضل من أهله؛ وهو ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا دعاه الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ سهَّل اللهُ أمره، وآتاه من فضله.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

قوله - تعالى -: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ النسخ بمعنى الرفع والإزالة؛ أي: ما نرفَع آيةً أو حكمها؛ إلا أتينا بخير منها أو مثلها؛ وذلك أن النسخ يكون إلى ما هو خير من المنسوخ، أو إلى ما هو مثله، أو إلى ما هو دونه؛ فأما النسخ إلى ما هو خير من المنسوخ فلا ريب في أنه خير، والنسخ إلى مثل المنسوخ لا ريب أنه خير؛ لأنه يكون مماثلًا للمنسوخ من حيث العمل، ولكنه ليس مماثلًا له من حيث النتيجة، والثواب، والأجر - كما سنبينه - إن شاء الله - تعالى -؛ وأما النسخ إلى ما هو دونه فإن ذلك لن يكون، ولن يليق بحكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن النسخ إلى ما هو دون المنسوخ يكون تدنيًا من الأعلى إلى الأسفل؛ وهذا لا يليق بجلال الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

يقول - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ أي: ننسخ لفظها أو حكمها، ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾؛ أي: ننسها رسول الله ﷺ؛ حتى لا يذكرها، ما يحصلُ هذا إلا أتى الله بخير منها أو مثلها؛ بخير منها عملًا وثوابًا، أو مثلها عملًا وخير منها ثوابًا، ثم قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومن قدرته - عَزَّ وَجَلَّ - أن يمحو ما يشاء ويثبت، وينسخ ما يشاء ويُحكم.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وإذا كان له ملك السموات والأرض فهو - عَزَّ وَجَلَّ - له التدبير المطلق في هذا الملك، ولا أحد ينازعه في ملكه، لا تقديرًا ولا تدبيرًا، ﴿وَمَا لَكُم مِّن

﴿دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ فهو الذي يتولى أموركم، وهو الذي ينصركم إذا استنصرتموه وقمتم بأسباب النصر، هذا هو معنى الآيتين الكريمتين.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريمتين:

١ـ ثبوت النسخ في آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وهو رفع الحكم أو اللفظ، أو اللفظ والحكم جميعًا؛ فالنسخ يكون على ثلاثة أقسام: نسخ اللفظ وبقاء الحكم، ونسخ الحكم وبقاء اللفظ، ونسخهما جميعًا؛ فأما نسخ اللفظ وبقاء الحكم فمثَّل له العلماء بآية الرجم؛ أي: بآية رجم الزاني إذا زنى وهو محصن؛ فإنه يُرجم بالحجارة حتى يموت، سواء أكان رجلًا أم امرأة؛ واستدلوا على ذلك بما ثبت في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أنه قال ـ وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم؛ قرأناها، ووعيناها، وعقلناها، فرجم رسولُ الله ﷺ وَرَجَمْنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ أن يقول قائلٌ: ما نجد الرجم في كتاب الله؛ فيضِلُّوا بترك فريضة أنزلها الله، وإنَّ الرجم حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف»[1]، فهنا لا نجد في القرآن الكريم

---

(١) رواه البخاري: كتاب الحدود، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، رقم (٦٨٣٠)؛ ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا، رقم (١٦٩١)، واللفظ له.

الذي بين أيدينا آية تـدل عـلى الـرجم في حـق الـزاني المحـصن؛ فهـي منسوخة لفظًا باقية حكمًا.

وأما نسخ الحكم وبقاء اللفظ؛ فمنه: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦]، فالآية الأولى نُسخت بالثانية، وبقيت الأولى متلوة في كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وأما نسخهما معًا ـ أعني: اللفظ والحكم ـ فمثلوا له بحديث عائشة الثابت في صحيح مسلم، أنها قالت: «كانَ فيما أُنْـزِلَ مـن القـرآن عـشرُ رضعات معلومات يُحَرِّمنَ، ثُـمَّ نُـسِخْنَ بِخَمْـس معلومـاتٍ، فتـوفي رسول الله ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأ من القرآن»(١)، ونحن لا نجد هذه الآيـة ـ أعني أن عشر رضعات معلومات يحـرمن، لا نجـدها ولا نجـد خمس رضـعات معلومـات يحـرمن ـ أيـضًا ـ فيكـون النـسخ باعتبـار عـشر رضعات نسخًا للحكم واللفظ، وباعتبـار الخمـس نـسخًا للفـظ دون الحكم، ولا يشكل على هذا قولها ـ رضي الله عنها ـ: «فتوفي رسـولُ الله ﷺ وهُنَّ فيما يُقرأُ من القرآن»؛ لأن الذين يتلونها من القرآن لم يعلمـوا

(١) رواه مسلم: كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم (١٤٥٢).

بالنسخ فصاروا يتلونها؛ فهذه أقسام ثلاثة للنسخ.

فإن قال قائل: ما الحكمة من نسخ اللفظ وبقاء الحكم؟

قلنا: الحكمة في هذا ـ والله أعلم ـ في آية الرجم هي بيان فضل هذه الأمة؛ حيث عملوا بالرجم بشيء لا يجدونه في القرآن، على العكس من أهل الكتاب ـ اليهود ـ الذين كتموا آية الرجم، ولم يعملوا بها مع أنها موجودة نصًّا في التوراة.

وأما نسخ الحكم وبقاء اللفظ: فالحكمة من ذلك أن يتعبد الناس بتلاوته، وأن يذكروا نعمة الله عليهم بهذا النسخ الذي كان فيه التخفيف.

وأما نسخهما معًا: فالحكمة فيما نسخ لفظًا وحكمًا هو أن هذا الذي نسخ لفظًا وحكمًا لم يبقَ له أثر بالنسبة للعمل به، ولا بالنسبة لتلاوته، فصار من الحكمة أن ينسخه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لفظًا وحكمًا.

٢ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن الله ـ تعالى ـ قد يُنسي الرسول ﷺ الآية من كتاب الله إذا شاء اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ألا يبقى حكمها في عباده؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن النسخ إذا وقع فإنه يكون إلى خير من المنسوخ، لكنه خير منه أو مثله، والخير قد يكون بالنسخ من الأخف إلى الأشد، أو من الأشد إلى الأخف، أو من مماثل لمماثل، وكل ذلك

مطابق للحكمة؛ فالنسخ من الأسهل إلى الأصعب نسخ الصيام؛ حيث كان الصيام أول ما فرض مخيرًا فيه بين الصوم والإطعام، ثم بعد ذلك تعيَّن الصيام؛ فإن التخيير بين شيئين أيسر من تعيُّن أحدهما، ولكن الله بحكمته جعل فرض الصوم متطورًا هكذا؛ ليسهل على النفوس قبوله، والخيرية في النسخ من الأخف إلى الأشد هي استكمال الأجر في هذا الأشد من وجه، وبيان حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - في تشريعه لعباده؛ حيث كان يدرجهم من الأسهل إلى استكمال الشرع بأشد.

وأما العكس - وهو النسخ من الأشد إلى الأخف - ففيه الخير، وهو التيسير على العباد، ومن ذلك ما ذكرناه في آيتي المصابرة؛ حيث فرض الله في الآية الأولى المنسوخة أن يصابر الإنسان عشرة، ثم خفّف ذلك، وأوجب أن يصابر الإنسان اثنين، ولا شك أن هذا تخفيف من الله - تعالى - على العباد، وتيسير عليهم.

وأما إذا كان النسخ لمماثل ففيه خير - أيضًا - وهو بيان امتثال المكلَّف؛ ومن ذلك نسخ القِبْلَةِ من بيت المقدس إلى الكعبة؛ فإن هذا النسخ باعتبار عمل المكلف لا يختلف؛ لأن المكلف ليس عنده فرق بين أن يستقبل بيت المقدس أو أن يستقبل الكعبة من حيث تكلُّفِ العمل والمشقة فيه، ولكن فيه خير باعتبار بيان امتثال المكلف، وأنه تابع لأمر الله، إذا أمره بشيء فعله، وإذا نهاه عن شيء تركه، ويشير إلى هذا قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن

يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وعلى هذا يكون المراد بقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾؛ أي: مثلها في العمل، وليس المعنى: أو مثلها في الخيرية؛ لأنه لو كان هذا هو المعنى؛ لكان النسخ عبثًا لا فائدة فيه.

٤ـ ومن فوائد هذه الآية: إثبات القدرة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأن القدرة متقررة عند الإنسان بفطرته.

٥ـ ومن فوائد هذه الآية: عموم قدرة الله في كل شيء، في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فهو قادر ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على الموجود أن يعدمه، وعلى المعدوم أن يوجده.

٦ـ ومن فوائد الآية الثانية: تقرير ملك الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ للسموات والأرض؛ لقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٧ـ ومن فوائدها: اختصاص ملك السموات والأرض لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا يملكهما أحد سواه؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]؛ فملك السموات والأرض لله وحده، لا

يشاركه أحد في ذلك.

فإن قال قائل: أليس الله ـ تعالى ـ قد أثبت للإنسان ملكًا فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ ﴾ [النور: ٣٣].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦].

فالجواب: بلى، أثبت الله للإنسان الملك، ولكن ملك الإنسان لما يملكه مُلْكٌ مُقَيَّد؛ مقيَّدٌ من جهة العموم؛ حيث لا يملك الإنسان كل شيء، لا يملك إلا ما كان في حوزته، مقيد من حيث التصرف والتدبير؛ فالإنسان لا يملك أن يفعل في ملكه ما شاء؛ لأنه مقيد بالشرع، فلا يتصرف في ملكه إلا بما تقتضيه الشريعة، مقيَّدٌ من جهة الزمن؛ فملك الإنسان لما يملكه ليس دائمًا، قد يتلف هذا المملوك، وقد يبيعه الإنسان بخلاف ملك الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإنه مُلْك شامل دائم، فلا منافاة بين ما أثبت الله للعبد من الملك، وبين ما أثبته لنفسه من الملك.

٨ ـ **ومن فوائد الآيتين:** بيان أَنَّهُ لا ولي لأحد إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولا ناصر لأحد إلا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وليُعْلَم أن ولاية الله عامة وخاصة؛ **فالعامة:** هي تولي أمور الخلق، وهذه عامة لكل أحد حتى للكفار؛ **وخاصة:** وهي الولاية التي تتضمن العناية والتوفيق والسداد، وهذه خاصة بالمؤمنين.

فمن المعنى الأول قوله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ

تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

ومن المعنى الثاني قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

الخطاب في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ لهذه الأمة، لأصحاب النبي ﷺ والمراد: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ محمد ﷺ، يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: أتريدون أن تسألوا النبي ﷺ آيات تقترحونها كما سُئِلَ موسى من قبل فقيل له: أرنا الله جهرة؟ وهذا الاستفهام للإنكار عليهم؛ يعني: لا تسألوا الآيات وتقترحوها كما فعل ذلك من قبلكم؛ فإن هذا نوع من الكفر؛ لأن الإنسان إذا كان لا يؤمن إلا حيث أُتي بالآيات التي يقترحها صار إيمانه تبعًا لهواه لا تبعًا لهداه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: يأخذ الكفر بدلًا عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ سواء السبيل؛ وسواء السبيل: وسطه المستقيم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ توبيخ الأمة لو سألت كما سأل أصحاب موسى.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** بيان حال قـوم موسـى مـن التعنُّـت، والتشدُّد، واقتراح الآيات.

٣ـ **ومن فوائـدها وأحكامهـا:** إثبـات أن موسـى ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ رسول.

٤ـ **ومـن فوائـدها وأحكامهـا:** بيـان أن موسـى ـ عليـه الـصلاة والـسلام ـ قـد أوذي مـن قبـل، وأن إيـذاء الرسـل ـ علـيهم الـصلاة والسلام ـ من ديدن المكذبين الذين أشركوا برسالتهم.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن من أخذ الكفر بديلًا عن الإيـمان؛ فإنه ضال مخطئ مهما ازدهرت له الدنيا، ومهـما زانـت في وجهـه؛ فإنـه ضال سواء السبيل.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ من تبدل الإيمان بالكفر فقد هدي؛ ويتفرع على هذه القاعـدة أنـه إذا مـنَّ اللهُ عليـه بالهدايـة بعـد الـضلال فليحمد الله على ذلك؛ فإنه قد أصاب سواء السبيل.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن جميـع الكفـار قـد أخطئـوا سـواء السبيل، ووقعوا في السبيل المعوج الذي يتيهون به عن طريق الحق.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿وَدَّ﴾؛ يعني: أحبَّ، والودُّ خالص المحبة، ففي هذه الآية يخبر الله أن كثيرًا من أهل الكتاب يودون أن يردوا أصحاب رسول الله ﷺ كفارًا من بعد الإيمان، وأنه لا يحملهم على ذلك إلا الحسد، حسد المسلمين على ما أنعم الله به عليهم من اتباع محمد ﷺ، وكان هؤلاء اليهود ـ فيما سبق ـ يستفتحون على الذين كفروا ويقولون: سيبعث نبيٌّ وسوف ننصر به عليكم، فلما جاءهم ما عرفوه كفروا به ـ والعياذ بالله ـ؛ حسدًا من عند أنفسهم، وهذا الحسد من عند أنفسهم كان بعد أن تبين لهم الحق، وأن الحق مع ما جاء به النبي ﷺ، وما كان عليه أصحابه، وفي هذه الحال أمر الله المؤمنين أن يعفوا ويصفحوا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أن يعفوا فلا يؤاخذوهم بالذنب ويصفحوا؛ فيعرضوا عما حصل إعراضًا كليًّا.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ وهو الأمر بقتالهم، وهذا حكم مغيَّى بغاية، والحكم المغيَّى بغاية يزول بزوال الغاية وانتهائها، فلما جاء الله بأمره وأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، صار هذا الحكم ـ وهو العفو والصفح ـ منتهيًا بانتهاء مدته وأَمَدِهِ الذي جعله

الله ـ تعالى ـ له، وبيَّن الله ـ تعالى ـ في ختـام الآيـة أن الله عـلى كـل شيء قدير، فلا يعجزه شيء، ولا يمنعه شيء.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان ما عليه أهل الكتاب من الحسد العظيم لهذه الأمة.

٢- **ومن فوائدها:** أن من كان فيه حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله؛ فإن فيه شبهًا باليهود.

٣- **ومن فوائدها:** الحذر من كيد الأعداء ومخادعتهم؛ لأنهم يودون أن يردونا كُفَّارًا؛ فإنهم لم يألوا جهدًا في سبيل الوصول إلى هـذه الغايـة منذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا؛ ولهذا نجد النصارى يرسلون الفـرق والطوائف المنصِّرة إلى البلاد الإسلامية، ولا سيما الـبلاد الفقـيرة التـي يسيطرون عليها من هذه الزاوية؛ ليخرجوا الناس من الـدين الحـق إلى الدين المنسوخ الذي لا يقبله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٤- **ومن فوائدها:** أن هذا الحسد من أهـل الكتـاب نـابع مـن عنـد أنفسهم، لم يؤذن لهم فيه، ولم يكن عن رويَّة وتعقُّل.

٥- **ومن فوائدها:** الحذر من محبة المسلمين للكفـر، وكـذلك يجـب الحذر من محبة المعاصي أن تنتشر بين المسلمين.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** أن هـؤلاء الـذين يـودون هـذا لهـذه الأمة يودونه عن عمدٍ وعنادٍ من بعد ما تبيَّن لهم الحق.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها:** التدرج في معاملة الكفار؛ حيـث أمـر

الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية أن نعفو ونصفح حتى يأتي الله بأمره.

٨ ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ الأحكام التي يحكم الله بها تنقسم إلى قسمين: أحكام مؤمَّدة ـ أي إلى أمد ـ وأحكام مؤبَّدة ـ أي إلى الأبد ـ فمن الأحكام المؤمَّدة: هذه الآية: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥]، فهنا قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾، وقد جعل الله لهن سبيلًا؛ فقد أعلن ذلك رسولُ الله ﷺ؛ حيث قال: «... البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم»[(١)].

٩ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ الإِنسان يُعذر بجهله إذا خالف الأمر أو النهي؛ لقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، وهذا الأصل قد دلَّ عليه الكتاب والسنة؛ ففي القرآن يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم (١٦٩٠).

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥]، ويقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

وأما السنة: فمن أدلتها أن النبي ﷺ لم يأمر المسيء في صلاته أن يقضي ما فعله جاهلًا ـ وكان المسيء في صلاته لا يطمئن في ركوع، ولا سجود، ولا قيام، ولا قعود ـ حتى بيَّن له النبي ﷺ، ولم يأمره بالإعادة ـ أي: بإعادة ما سبق من الصلوات ـ مع أنه كان لا يطمئن، فالقول الصحيح الراجح أن من لم تبلغه الدعوة؛ فإنه ليس عليه حرج فيما إذا مات وهو مسلم، لكن يفعل ما يخرج من الإسلام جهلًا، أو يترك ما يجب الإيمان به جهلًا.

١٠ـ ومن فوائدها وأحكامها: إثبات عموم قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ولا يستثنى من هذه القضية الكلية العامة شيء؛ كل شيء فالله قادر عليه؛ قادر على إيجاد المعدوم، وعلى إعدام الموجود، وعلى تغيير الشيء من حال إلى أخرى، وهنا نذكر ما يقوله بعض الناس عند الحديث عن قدرة الله؛ حيث يقول: إنه على ما يشاء قدير؛ فإن هذا يقتضي تقييد القدرة بما يشاء الله، والله ـ تعالى ـ قادر على ما يشاء وما لا يشاء، وتقييد القدرة بما يشاء تضييق لمعناها العام الذي أراده الله ـ تعالى ـ بها؛ فالواجب أن تجرى على عمومها

بدون استثناء، ويُقال: إن الله على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

في هذه الآية يأمر اللهُ ـ تعالى ـ بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصلاة تشمل الفرض والنفل، وهي معروفة، والزكاة هي الفرض فقط؛ لأن ما سوى الزكاة يسمى صدقة أو نفلًا، أو ما أشبه ذلك؛ والزكاة هي المال الذي أوجبه الله ـ تعالى ـ على عباده في أشياء معينة من الأموال، ويخرج منها الإنسان قدرًا معينًا حسب ما عليه من المئونة؛ ففي الحبوب والثمار: يكون فيما سُقي بلا مئونة العشر كاملًا، وفيما سُقي بمئونة نصف العشر، حسب ما ينظر ولي الأمر في ذلك، ثم بيَّنَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن كل ما نقدمه من الخير فإنما نقدمه لأنفسنا، ونجد ثواب ذلك عند الله ـ تعالى ـ مُدَّخرًا؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ ﴾، ثمَّ بَيَّنَ الله ـ تعالى ـ أنه عليم بكل ما نعمل، بصير به، لا يخفى عليه شيء من أعمالنا.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله ـ تعالى ـ عباده أن يقيموا الصلاة

وأن يأتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ويتموا ذلك بمكملاتها، وأن يؤتوا الزكاة؛ أي: يعطوها أهلها المستحقين لها؛ والزكاة هي المال الواجب أو هي نصيب يقدر شرعًا في مال مخصوص.

ثم يبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن ما نقدمه لأنفسنا من الخير فإنه لن يضيع، بل سيوجد عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وفي آية أخرى يقول ـ تعالى ـ: ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠].

ويختم الله الآية بأنه بصير بما نعمل؛ حثًّا منه لنا على العمل الصالح، واجتناب العمل المحرم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ وجوب إقامة الصلاة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهذا ـ أعني: إقامة الصلاة الواجبة ـ فيما هو واجب؛ كالشروط، والأركان، والواجبات، أما ما كان مستحبًّا؛ فإن الأمر بإقامته على سبيل الاستحباب.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أعطوها مستحقها، وقد بيَّنَت السُّنَّةُ كيف تكون إقامة الصلاة، وكيف يكون إيتاء الزكاة على وجه مبيَّن مُفَصَّل؛ فما توفي رسول الله ﷺ إلا وقد أبان للأمة كل ما تحتاج إليه في أمور دينها ودنياها؛ قال أبو ذر ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ: لقد توفي رسول الله ﷺ

وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الحث على تقديم الخير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها أيضًا**: أن ما نقدمه من الخير لن يضيع، بل سنجده عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مُدَّخرًا، أحوج ما نكون إليه، ولكن يجب أن ننتبه هنا إلى أن ما نجده يوم القيامة من الخير قد يكون لغيرنا؛ كما قال النبي ﷺ: «**أتدرونَ مَا المُفلسُ؟**» قالوا: المفلس فينا مَنْ لا دِرهَم له ولا متاعَ؛ فقال: «**إنَّ المُفْلِسَ من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتمَ هَذَا، وقذفَ هذا، وأكل مالَ هذا، وسَفَكَ دمَ هذا، وضربَ هذا؛ فَيُعْطَى هَذَا من حسناتِهِ، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه؛ أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه؛ ثُمَّ طُرِحَ في النَّار**»(١).

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصير بكل ما نعمل من خير وشر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٦ـ **ومن فوائدها**: تحذير العباد من المخالفة؛ لأن الله ـ تعالى ـ إنما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ تحذيرًا من أن نخالف أوامره،

---

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

وأن نقع في نواهيه، فإننا إن فعلنا ذلك؛ لن يخفى عليه ـ سبحانه وتعالى ـ شيء من أحوالنا.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: اليهود والنصارى: ﴿يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ يقوله اليهود، ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ يقوله النصارى؛ يعني: وأنتم أيها المسلمون لن تدخلوا الجنة، لكن الله ردَّ عليهم زعمهم هذا؛ فقال ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ أي: هذه أماني وأوهام باطلة لا تستند إلى شيء من الوحي المنزَّل على الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: قل لهؤلاء القائلين هذه المقولة متحديًا لهم: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: أعطونا حجتكم التي تثبتون بها ما زعمتم من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون، ومن المعلوم أنهم لن يجدوا حُجَّة لما قالوه؛ ولهذا قال بعدها: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ «بلى»: فيها إبطال لما سبق من دعواهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، ثم يبيِّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من الذي يدخل

الجنة؛ حيث يقول: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ أي: جعله مستسلمًا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، مقبلًا عليه.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله؛ والإحسان هو اتباع شريعة النبي ﷺ، فشرط الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمرين:

الأمر الأول: الإخلاص؛ بأن يكون أسلم وجهه لله.

والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ؛ بأن يكون قد أحسن، فهذا له أجره عند ربه؛ أي: ثوابه، وسمَّى اللهُ الثواب أجرًا؛ لأن الله ـ تعالى ـ التزم به لمن عمل صالحًا؛ فصار بمنزلة الأجر الذي يستوفيه المستأجَر على العمل ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل من أمرهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى من أمرهم.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

في الآية الأولى من الفوائد والأحكام:

١ـ بيان دعوى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مثلهم؛ يهوديًا أو نصرانيًا.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والجزاء؛ لأن الجنة إنما يدخلها أهلها بعد البعث يوم القيامة.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن يُقدِّم المناظِرُ الحكم على قول مناظره، ثم يطلب منه الحُجَّة على إثباته؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾

قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، ونظير ذلك أن يقول قائل: هذا واجب لابُدَّ من فعله، فأقول: هذا قولـك فهـات دليلـك إن كنت صادقًا، فيُثْبِت المَنَاظِر أولًا أن هذا قول المناظر، وأن هذا لـيس لـه أصل، ثم يتحداه بطلب الدليل.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها:** قوة المحاجة في كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ التي تدحض الخصم وتفحمه؛ تدحض حجته وتفحمـه؛ ولهـذا قـال: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، ومن المعلوم أنه لا برهـان لهـم في ذلـك؛ فـإن دخـول الجنـة لـيس معلقًـا باليهوديـة أو النصرانية؛ بل هو مُعَلَّقٌ بما ذكره الله ـ تعالى ـ فيما بعد.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها:** الإنصاف في معاملة الخصم، وإلا فإنه يكفي أن يقول اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذا باطل، ولكنـه ـ سبحانه وتعـالى ـ حكم عدل؛ فطلب من هؤلاء المدَّعين أن يأتوا بالحجة والبرهان.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه لا تُقبل الـدعوى إلا ببينـة؛ فمـن ادَّعى حُكمًا من أحكام الله الأخروية أو أحكامه الدنيوية فإنـه عليـه أن يبرهن على ما قال، فإنْ أثبت ما قال بالبرهان والدليل وإلا وجـب ردّه عليه.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ اليهـود والنـصارى لا حُجَّـة لهـم إطلاقًا فيما ادَّعوه من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نـصارى، وما أكثر دعاوى اليهود والنصارى بأنهم أهل الجنـة، وبـأنهم يُخرجـون

من النار إن عُذبوا بها، وبأنهم أبناء الله وأحباؤه، وكل هذه الدعاوى يبطلها الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ويبين كذبها.

أما الآية الثانية ففيها من الفوائد والأحكام:

١ - أن الثواب لا يحصل إلا بأمرين:

الأمر الأول: إسلام الوجه لله؛ وذلك بأن يخلص الإنسان قصده؛ فلا يقصد بعبادة الله - تعالى - ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، ولا محاباة لأحد، ولا توصلًا لسلطان أو جاه أو مال، وإنما يقصد بذلك ربه - عَزَّ وَجَلَّ -، وهذا المفهوم من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

الأمر الثاني: أن العبادة لا تقبل ولا تنفع إلا بالإحسان؛ وهو متابعة النبي ﷺ؛ بحيث تكون العبادة على وفق ما جاء عن رسول الله ﷺ.

ودليل هذين الأصلين العظيمين قوله - تبارك وتعالى -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الأعمال بالنِّيَّات، ولكلِّ امرئ ما**

نوى، فَمَنْ كانت هجرتُهُ إلى الله ورسوله؛ فهجرتُهُ إلى الله ورسوله، ومَنْ كانت هجرتُهُ لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ يتزوجها؛ فهجرتُهُ إلى ما هاجر إليه»(١).

وثبت عنه ﷺ أيضًا أنه قال: «قال الله ـ تعالى ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشِّرك؛ مَنْ عمل عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركتُهُ وشركَهُ»(٢).

وثبت عنه ﷺ أيضًا أنه قال: «مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»(٣)؛ فلابد لقبول العمل من شرطين:

أحدهما: الإخلاص لله.

والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ، وليُعلم أنَّ المتابعة لا تتحقق إلا إذا وافق العمل الشريعة في أمور ستة:

الأول: في الجنس.

والثاني: في الصفة والكيفية.

والثالث: في القدر.

والرابع: في السبب.

والخامس: في العدد.

---

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)؛ ومسلم: كتاب الجهاد، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٠)

(٣) سبق تخريجه ص (٤٩)

والسادس: في الزمان والمكان.

فمن شرع عبادة لسبب لم يجعله الشارع سببًا لها؛ لم تقبل منه هذه العبادة، ومن تعبد لله بعبادة على سبب لم يجعله الشارع سببًا لها؛ فإنها لا تُقبل منه، ومن تعبد لله بجنسٍ غير ما شرعَ؛ فإنه لا يُقبل منه؛ مثل أن يُضَحِّي الإِنسان بفرس؛ فإن ذلك لا يُقبلُ منه أضحية، ولو كان الفرس أغلى؛ لأنه من جنس غير ما أُذن فيه، ولو أَنَّهُ خالف الشرع في القدر؛ بأن صَلَّى الظهر خمسًا أو ثلاثًا؛ فإنها لا تُقبل منه؛ لأنه خالف الشرع في القدر، ولو خالف الشرع في الزمن؛ بأن ضَحَّى الإِنسان في غير أيام الذبح؛ فإنها لا تقبل منه، أو حجَّ في رمضان؛ فإن ذلك لا يُقبل منه؛ لأنه في غير الزمن المحدد شرعًا، ولو خالف الشرع في المكان؛ لم تُقبل منه العبادة؛ مثل أن يعتكف في غير المسجد؛ فإن هذا الاعتكاف لا يُقبل منه؛ لأنه في غير المكان الذي عيَّنَه الشرع للاعتكاف، وكذلك لو خالفت العبادة الشرع في الهيئة والكيفية؛ بأن صلَّى صلاة منكسة؛ يبدأ بالسجود قبل الركوع، أو يتوضأ منكسًا؛ يبدأ بالرجلين قبل بقية الأعضاء؛ فإن ذلك لا يصح.

٢ ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ من عمل عملًا مبنيًّا على الإخلاص والمتابعة؛ فإن أجره يثبت له عند الله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها وأحكامها: أن من وُفِّقَ للعمل على هذا الوجه؛

فإن ذلك من ربوبية الله له، الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ من قام بالعبادة على هذا الوجه ـ: الإخلاص والمتابعة ـ؛ فإنه لا خوف عليه في مستقبله، ولا حزن عليه في ماضيه؛ لأنه سوف يصل إلى النعيم والسعادة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ من لم يتَّصف بهذه الصفة ـ أي: من لم يسلم وجهه لله وهو محسن ـ فإن عمله هباء، ليس فيه أجر؛ فلو عمل الإنسان عبادة أشرك فيها مع الله؛ فهي مردودة عليه، ولو عمل عبادة ليست متمشية مع السنة التي جاء بها الرسول ﷺ؛ فإن عبادته مردودة عليه.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ من لم يتعبد لله بهذين الشرطين: الإخلاص والمتابعة؛ فإنه يحل به الخوف والحزن؛ الخوف في المستقبل، والحزن في الماضي؛ ولهذا يتمنى الكُفَّار يوم القيامة أن يردوا إلى الدنيا؛ ليعملوا عملًا صالحًا، فيقولون: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٧ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ الثواب والأجر الذي يحصل لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ثوابٌ عظيم؛ لأن الله أضافه لنفسه، فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾، والثواب من العظيم يكون عظيمًا ولا شك.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

اليهود هم أتباع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والنصارى أتباع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكل منهما يضلل الآخر؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾؛ يضلل بعضهم بعضًا.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ﴾، وهم يعلمون من هو على الحق، ولا شك أنَّ النصارى كانوا على الحق حين كانت ملتهم قائمة قبل بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأنَّ اليهود كانوا على باطل؛ حيث كفروا بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه مرسل إليهم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ

بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]، وبعد أن بُعث النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كانوا كلهم على دين منسوخ، وليسوا على شيء؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكانوا أولياء بعضهم لبعض؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١].

وصارت النصارى كاليهود في كونهم علموا الحق ولم يتَّبعوه؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾؛ أي: قال أهل الجهل والضلال مثل قولهم؛ أي: في أنهم على الحق، ومَنْ سواهم على الباطل، وليس على شيء، ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، إذا بُعِثَ الناسُ فإنَّ الله يَفْصِلُ بين الخلق من هو على الحق، ومن هو على الباطل.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان عداوة اليهود والنصارى بعضهم لبعض، وأن كل طائفة منهم تضلل الطائفة الأخرى، ولكن هذه العداوة بعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ صارت ولاية؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١].

٢- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ هـذه المقالـة التـي قالتهـا اليهـود، وقالتها النصارى يقولها أيضًا كلُّ من كان جاهلًا؛ أي: كل مـن كـان ذا جهالة، وليس عنده علم؛ فإنه يقول مثل هذا القول الباطل الذي يريـد أن يدحض به الحق.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات الجزاء يوم القيامة؛ لقـول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

٤- **ومن فوائـدها وأحكامهـا:** أنَّ الـذين اختلفـوا في الكتـاب وفي الرسل سوف يقضي الله ـ تعالى ـ بينهم يوم القيامة، ويبيِّن من هـو عـلى الحق، ومن هو على الباطل، وقد ذكر الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ في سـورة النساء أنه يحكم بين النـاس، وأنـه لـن يجعـل للكـافرين عـلى المـؤمنين سبيلًا.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات يوم القيامة ـ وهو اليوم الآخـر ـ؛ فالإيمان به أحد أركان الإيمان الستة؛ لقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لجبريل حين سأله أن يخبره عن الإيمان، فقال النبـي ـ صـلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**الإيمان أن تؤمِنَ بالله، وملائكتِـهِ، وكتبـه، ورسـله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[1].

* * *

(١) تقدم تخريجه ص (٢٣١)

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾؛ يعني: لا أحد أظلم ـ فالجملة استفهام بمعنى النفي ـ؛ فلا أحد أظلم من شخص أو طائفة تمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه؛ أي: تمنع الناس من دخول مساجد الله ليذكروا فيها اسم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالصلاة وغيرها.

﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ ﴾؛ أي: أن مَنْعَ المساجد أنَّ تُدخل ويُذكر فيها اسم الله خرابٌ لها؛ فإن عمارة المساجد إنما تكون بما يُقام فيها من ذكر الله، وبيَّن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن هؤلاء الذين منعوها وكان لهم السلطة سوف تدور عليهم الدوائر حتى لا يدخلوها إلَّا خائفين؛ أي: لا يدخلون هذه المساجد إلا وهم في خوف، وقلق، واضطراب من المؤمنين الذين آلت هذه المساجد إليهم.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ ﴾ هذا النفي يحتمل أن يكون المعنى ما كان لهم شرعًا أن يدخلوها إلا خائفين، أو ما كان لهم قَدَرًا أن يدخلوها إلا خائفين، والمعنيان كلاهما صحيح، ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾؛ أي: عار وذُل. ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فينالون بعد العز، والسلطة، والغلبة ذلًّا في الدنيا، وعذابًا عظيمًا في الآخرة.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ تحريم منع مساجد الله من أن يُذكر فيها اسمه.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أن المساجد إنما بُنيت لذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وقد جاءت السنة مصرحة بذلك؛ ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تزرموه[1] دعوه»، فتركوه حتى بال، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر؛ إنما هي لذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والصلاة، وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ»[2].

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أن ما يتعلق بأمور الدنيا من بيع، وشراء، وإجارة، ونحوها لا يحل إيقاعه في المسجد؛ ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاعُ في المسجد، فقولوا: لا أَرْبحَ اللهُ تجارتك... فإن المساجد لم تُبنَ لهذا»[3].

---

(١) أي: لا تقطعوه، والإزرام: القطع

(٢) رواه مسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم (٢٨٥)

(٣) رواه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد، رقم (٥٦٨)، والترمذي، كتاب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، رقم (١٣٢١).

٤- **ومن فوائدها وأحكامها:** ذكـر الله ـ عَـزَّ وَجَـلَّ ـ يكـون بـذكر اسمه؛ وذلك يقتضي أن يكون باللسان، وذكـر الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ يكون باللسان، ويكون بالقلب، ويكون بالجوارح.

أما ذكر الله بالقلب: فأن يكون الإنسان متفكرًا متأملًا في آيـات الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ الدالـة عـلى عظـيم سـلطانه، ومـا تقتـضيه رحمتـه وحكمته.

وأما الذكر باللسان: فهو يتناول كل قول يقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَـلَّ ـ من قراءة القرآن، والتسبيح، والتكبير، والتحميد، والتهليل، والأمـر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، وغير ذلك من كـل قـول يقرب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وأما الذكر بالجوارح: فيشمل كل فعل يتقرب به الإنسان إلى ربـه؛ كالوضوء، والغسل، والصلاة، والصوم، والـصدقة، وغـير ذلـك مـن أفعال الجوارح.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها:** أن عمارة المساجد إنما هـي بـذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وما يفعل فيها من الطاعة؛ لقوله: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾. والسعي في خرابها كما يشمل منع ذكر الله ـ تعـالى ـ فيهـا يـشمل أيـضًا الخراب الحسي؛ وذلـك بهـدمها حتـى لا يقـام الـذكر في هـذه البقعـة؛ لقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** البشرى للمؤمنين أن هؤلاء الذين

سُلطوا على المؤمنين؛ بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا فيها اسم الله سوف تكون العاقبة عليهم؛ أي: على هؤلاء المتسلطين المانعين؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾، وهذه العاقبة تؤيدها آيات أخرى؛ مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن هؤلاء المتسلطين على عباد الله؛ بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا فيها اسم الله ستنالهم عقوبتان: عقوبة في الدنيا؛ وهي الخزي ـ أي: الذل والعار ـ، وعقوبة في الآخرة؛ وهي العذاب العظيم.

٨- **ومن فوائدها وأحكامها**: التحذير من هذا العمل ـ أعني: منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ـ بأن الإنسان سوف يعاقب مرتين: مرة في الدنيا، ومرة في الآخرة؛ كما ذكر الله ـ تعالى ـ في هؤلاء.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾؛ أي: له كل شيء؛ لأن كل شيء فهو إما

مشرق وإما مغرب؛ فمغرب قوم يكون مشرق قوم آخرين وهكذا؛ فلله المشرق والمغرب، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾؛ أي: تتجهوا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فهناك وجه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: محيط بكل شيء، وواسع الصفات، وواسع الهبات، وواسع الفضل، ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عليم بكل شيء؛ فالله ـ تعالى ـ يبيِّن في هذه الآية أنه ـ تعالى ـ محيط بكل شيء، وأن الإنسان مهما تولَّى؛ فإن الله ـ تعالى ـ محيط به، عالم به.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ عموم ملك الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

٢ـ بيان أن هذا العموم لا يتأتى لأحد سوى الله؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ فإن تقديم الخبر يفيد الحصر؛ كما قرر ذلك علماءُ البلاغة.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الإنسان سها تولَّى واتجه إلى شيء؛ فثَمَّ وجه الله، واختلف المفسرون في المراد بوجه الله هنا: هل هو وجه الله الذي هو صفة من صفاته أم المراد الجهة؟ فإن الوجه يأتي بمعنى الجهة، فيقال: وُجْهَةٌ، ووجه، وجهة؛ كما يقال: سافر فلان إلى هذا الوجه؛ أي: إلى هذه الجهة، والآية تحتملهما جميعًا؛ أي: القولين.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الإنسان إذا صلَّى إلى جهة مجتهدًا

معتقدًا أن هذه الجهة هي القبلة؛ فإن صلاته تصح؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات وجه الله - سبحانه وتعالى - والواجب إجراء الآية على ظاهرها، وأن يعتقد المرء أن لله - سبحانه وتعالى - وجهًا حقيقيًّا يليق بجلاله وعظمته، ولا يماثل أوجه المخلوقين، وهكذا بقية صفاته كاليدين والعينين؛ فإن الواجب على المؤمن إثبات ذلك على حقيقته، لكن بدون أن يكيِّفه؛ أي: بدون أن يتصوَّر له كيفية معينة؛ لأنه مهما بلغ الإنسان في التخيُّل؛ فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - أعظم مما يتخيَّله، ومن غير تمثيل؛ فلا يجوز أن يعتقد الإنسان أو يتصور أن وجه الله - تعالى - كأوجه المخلوقين؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات سعة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ أي: سعة علمه وإحاطته بكل شيء؛ وذلك أن كل الأشياء بالنسبة إليه - تعالى - صغيرة؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقال الله - تعالى -: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات العلم لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وعلمه -

تعالى ـ محيطٌ بكل شيء؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦].

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب الحذر من مخالفة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بترك أوامره أو فعل نواهيه؛ لأنه عالم ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك، وعلمه بذلك يقتضي الحذر من مخالفته.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

﴿وَقَالُواْ ﴾ الضمير يعود إلى كل من تفوَّه بهذه المقالة الكاذبة المنكرة من اليهود، والنصارى وغيرهم؛ فاليهود قالوا: عزيز ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، وكل هؤلاء قالوا فرية عظيمة، وإثمًا مبينًا؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ ﴾؛ أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأن الله غني عن كل شيء، وهو مالك لكل شيء؛ والولد إنما يتخذه من كان محتاجًا مفتقرًا، أما الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإنه ليس بحاجة إلى أحد؛ لأن له الملك المُطلق، بل له ما في السموات والأرض؛ ولأن كل أحد خاضع لله، ذليل له،

منقاد لأمره الكوني، والمؤمن منقاد لأمره الشرعي؛ لقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ابتداء على غير مثال سابق؛ فهو - سبحانه وتعالى - الذي خلق السموات والأرض، وهو قادر على كل شيء؛ فكيف تجعلون له ولدًا وقد خلق كل شيء، وبدع السموات والأرض ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: قضاه قدرًا وكونًا؛ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، كلمة واحدة لا تثنى مرة أخرى يقولها - جل وعلا - للشيء مهما كان؛ فيكون في الحال، فليس بغريب أن يخلق الله - تعالى - عيسى ابن مريم بلا أب، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريمتين:

ففي الآية الأولى من الفوائد والأحكام:

١- بيان هذه الفرية العظيمة التي افتراها الظالمون على ربهم - جل وعلا -؛ وهي أنَّ الله اتخذ ولدًا، وقد بيَّنا أن اليهود قالوا: عزيز ابنُ الله، وأن النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وأن المشركين قالوا: الملائكة بنات الله.

٢- **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان تنزيه الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن كل عيب ونقص؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ ومن ذلك تنزيهه عن اتخاذ الولد.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان كمال غنى الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن

اتخاذ الولد؛ حيث إنه - سبحانه وتعالى - مالك السموات والأرض وما فيهما.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن جميع الخلق قانت لله، ومنهم: عزير، والمسيح، والملائكة؛ كل قانت لله - عَزَّ وَجَلَّ - ذليل له؛ فلا يمكن أن يكون ولد له - سبحانه وبحمده.

وفي الآية الثانية من الفوائد والأحكام:

١ـ بيان أن الله - سبحانه وتعالى - لا ينبغي أن يتخذ ولدًا؛ لأنه خالق السماوات والأرض؛ فهو مستغن عن الولد.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إقامة الدليل على بطلان الشبهة التي احتج بها النصارى على كون المسيح ابن الله؛ حيث قالوا: إنه خُلِقَ بلا أب، فأبوه هو الله، فبيَّن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنه خالق السموات والأرض، وهي أعظم من خلق البشر؛ كما قال - تعالى -: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وخالق السموات والأرض لا يمتنع عليه أن يخلق البشر.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان كمال قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - في قوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الأمر مهما كانت عظمته؛ فإن الله - تعالى - قادر عليه بكلمة واحدة وهي «كن»؛ فيكون كما أراد الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ولهذا لما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: رَبِّ وماذا أكتب؟

قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات القول لله، وأن الله يقول، وأن قوله بحروف؛ لقوله:﴿كُن﴾؛ فإن هذه الكلمة حروف، وفيه ردٌ على من يقول: إن كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقوله هو المعنى القائم بنفسه، وليس حروفًا أو أصواتًا تسمع، وإنما كلامه هو المعنى القائم بالنفس، وما يسمع من ذلك فإنه عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، ولا شك أن هذا القول خطأ عظيم فاحش؛ فإن القول الذي يكون في النفس لا يُطلقُ عليه اسمُ القول؛ بلْ لا بُدَّ أن يُقيَّد؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ ﴾ [المجادلة: ٨].

أما القول عند الإطلاق فإنه القول الذي يسمع ويكون من حروف يسمعها مَنْ وجِّه إليه الخطاب، وقد قال الله ـ تعالى ـ في موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]، وهذا ـ أعني كون كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من حروف وأصوات مسموعة ـ هو قول السلف، وأئمة الخلف، ولا عبرة بمن خالف طريقهم.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن كل شيء يسمع كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا وجّه إليه الكلام؛ لأنه يوجِّه الأمر «كن» إلى الشيء المراد؛ فيكون على ما أراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: ليس عندهم شيء من العلم، بل هم في جهل وجهالة: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ يقولون ذلك لرسلهم؛ يطلبون آية يقترحونها على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وذلك أن يكلمهم الله ـ تعالى ـ.

﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ ﴾ أي: علامة على صدق ما جاءت به الرسل، فبيَّن اللهُ ـ عَزَّ وَجَلّ ـ أن هذا القول قد قاله مَنْ قبلهم.

ولقد اقترحت قريش على رسول الله ﷺ آيات متعددة، ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٤]

فهم يطلبون آيات يقترحونها مع أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جاءوا بآيات بينات؛ ما من رسول أرسله الله إلا أعطاه من

الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي: مثل هذا القول الذي قالوه قاله مَنْ سبقهم، واقترحوا آيات على رسلهم؛ ومن ذلك قول بني إسرائيل لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وإذا تشابهت القلوب تشابهت الأعمال؛ لأن الأعمال تصدر عن القلب؛ لقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «... أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ»[1]، فمتى صلَح القلب صلَحت الجوارح، ومتى فسد القلب فسدت الجوارح، نسأل الله أن يصلح قلوب الجميع، ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وإذا تشابهت قلوبهم تشابهت أقوالهم وأعمالهم؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ يعني: قد أظهرنا إظهارًا يبين به الأمر.

و﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: العلامات الدالة على صدق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، لكن لا ينتفع بها إلا الموقن ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أما من ليس بموقن، بل هو في شك وريب؛ فإنه لا تنفعه الآيات؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال ـ تعالى ـ فيمن إذا تليت عليه آيات الله قال: أساطير

(١) تقدم تخريجه ص (٥٩).

الأولين: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان عظم عناد الكفار المحادين لله ورسله؛ لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ﴾؛ ووجه ذلك أن الله ـ تعالى ـ آتى الرسل آيات يؤمن على مثلها البشر.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: بيان كذب هؤلاء المعاندين؛ لأن طلبهم هذا يتضمن ادعاءهم بأنهم لم تأتهم آيات، وهذا كذبٌ محضٌ؛ فالآيات جاءتهم، وبُيِّنت لهم، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ قد حقَّت عليهم كلمة الله، ومَنْ حَقَّت عليه كلمة الله فإنه لا يؤمن؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: أن القلوب إذا تشابهت تشابهت الأقوال والأعمال؛ لقوله حين حكى عمن سبق أنهم قالوا كما قال المكذبون لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾.

٤ـ ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أن القلوب هي الموجهة للبدن؛ لقوله: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدت

فسدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»[(١)].

٥- ومن فوائدها وأحكامها: تشابه أعمال الكفرة؛ أي: مشابهة لاحقيهم لسابقيهم.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بيَّن وأوضح الآيات التي تدل على صدق ما جاءت به رسله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن هذه الآيات البيِّنات بنفسها لا تتبيَّن إلا لموقن؛ ويتفرع على هذه الفائدة: أن من كان عنده شك؛ فإن الآيات لا تتبين له ولا تظهر له، بل لا تزيده الآيات إلا عمًى وضلالًا؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

٨- ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أنَّ الناس ينقسمون في آيات الله ـ تعالى ـ على قسمين: قسم موقن؛ فهذا ينتفع بالآيات التي آتاها الله الرسل، وقسم غير موقن، بل هو في شك، وأقبح منه من كان في عناد وإنكار؛ فإن هذا لا ينتفع بالآيات؛ لأن الله ـ تعالى ـ خصَّ

---

(١) سبق تخريجه ص (٥٩).

الانتفاع بالآيات لقوم يوقنون، ومن ذلك ما يقوم بقلوب بعض الناس من الشك في نفع بعض الآيات التي رُتِّب عليها فوائد؛ مثل قول النبي ﷺ في آية الكرسي: «من قرأها في ليلة؛ لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح»(١)، وإن بعض الناس يقرأ هذه الآية ولكنه في شك من هذا الخبر، أو يقول: أقرؤها وأجرِّب؛ فإن مثل هذا لا ينتفع بها أبدًا؛ فلا ينتفع بها إلا من أيقن بأنه إذا قرأها لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وهكذا بقية الآيات التي أخبر النبي ﷺ بشيء من فوائدها؛ فإن الواجب على المرء أن يتلوها وهو موقنٌ بصحة ما أخبر به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ حتى يتم إيمانه، وحتى ينتفع بها.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

المُرسِل هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والخطاب للرسول ﷺ؛ فهو الرسول، وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون تبيانًا للمُرْسَل به؛ فإنَّ ما جاء به الرسول ﷺ حق، وما سواه باطل، ويحتمل أن يكون تبيانًا للرسالة؛ أي: أن رسالتك حق، ليس فيها شيء من الباطل، والمعنيان صحيحان؛ فرسالة النبي ﷺ حق، وما أُرسِلَ به من العلم، والإيمان،

---

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٥).

والعمل الصالح هو حق.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان من صفات الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه بشير وأنه نذير؛ فهو بشير للمؤمنين، وهو نذير للكافرين؛ قال الله - تعالى -: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:١-٥].

فهو ﷺ بشير للمؤمنين بالثواب العاجل والآجل، ونذير للكافرين بالعقاب العاجل والآجل، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: لا يسألك الله - تعالى - عن أصحاب الجحيم بعد إذ أنذرتهم؛ فإنَّ سيئاتهم على أنفسهم، أما أنت فقد بلَّغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن رسالة النبي ﷺ حق؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب اتباع النبي - صلى الله عليه

وآله وسلم ـ؛ لكونه رسول الله، ولكون ما جاء بـه حقًّـا، وضـد الحـق الباطل؛ فمن خالف النبي ﷺ فهو على باطل، ثـم إن هـذا الباطـل قـد يكون شاملًا لجميع أعماله؛ كالكافر بما جاء به الرسول ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ، وقد يكون الباطل في بعض أعمالـه؛ كمـن فعـل معـصية لا تخرجه من الإِسلام؛ فإن هذه المعصية تكون باطلًا وما معـه مـن الحـق يكون حقًّا.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسـلم ـ ليس له حق من الربوبية والتصرف في الخلق؛ إنما هو بشير ونذير.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الحث على فعل ما يكون بشارة للعبد، وتلك هي الأعمال الصالحة، فإن من عمل عملًا صالحًا؛ فله البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ له البشرى في الحياة الدنيا؛ لأن توفيق الله له لهذا العمل دليل على أن الله يسَّره لليسرى؛ فيبشر بذلك، ويفرح، ويُسر؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «... **من سرته حسنته، وساءته سيئته فذلك المؤمن**»(١)؛ فأنت إذا رأيت الله ـ تعالى ـ قد وفقك للعمل الصالح فأبشر بالخير؛ قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار**»، قالوا: يا رسول

---

(١) رواه الإِمام أحمد في مسنده (١/ ١٨)؛ والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه...» ؛ والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٩١)؛ وانظر المستدرك، للحاكم (١/ ٥٨ ـ ٥٩)

الله، فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «**لا، اعملُوا؛ فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ إلى آخر الآية [الليل: ٥ ـ ٧][1].

وعلى هذا فينبغي للإنسان إذا رأى أنَّ الله يَسَّره للعمل الصالح، وهداه له، وسهَّلهُ عليه أن يحمد الله على هذه النعمة، وأن يُسَرَّ بذلك؛ قال اللهُ ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «**... يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصِيها لكم، ثُمَّ أوفِّيكم إيَّاها؛ فَمَنْ وجدَ خيرًا فليحمد الله، ومنْ وجدَ غير ذلك ـ أو قال: سوى ذلك ـ فلا يلومنَّ إلا نفسه**»[2]، وإذا وجد من نفسه أن العمل الصالح ثقيل عليه، وأن نفسه تنقاد بسرعة إلى العمل السيئ فليرجع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وليتب إليه، وليحذر مما هو عليه.

٦-**ومن فوائدها وأحكامها**: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يُسأَلُ عن ضلالِ الضالين، ومن كان من أصحاب الجحيم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

٧-**ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الإنسان إذا أدَّى ما عليه من إبلاغ الشرع والدعوة إليه؛ فإنه لا يناله من ضلال الضالين شيء، إنما يضلون

---

(١) أخرجه ـ بنحوه ـ البخاري: كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر، رقم (١٣٦٢)؛ ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)

(٢) رواه ـ ضمن حديث ـ مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

على أنفسهم؛ قال الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١ـ٢٦].

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ أصحاب الجحيم ـ الذين هم أهل الجحيم ـ لا يستفيدون برسالة النبي ﷺ شيئًا؛ لأنهم قد حقَّت عليهم كلمة العذاب ـ والعياذ بالله.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

يقول الله ـ تعالى ـ مخبرًا عن حال اليهود والنصارى، وشدة معاداتهم لما جاء به الرسول ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وقد بينا ـ فيما سبق ـ أن اليهود هم أتباع موسى، وأن النصارى هم أتباع عيسى.

فاليهود أتباع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وشريعتهم التي كانوا عليها نُسخت بشريعة عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ووجب

عليهم أن يؤمنوا بعيسى ويتبعوه، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ أبوا ذلك، وكفروا بعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وادعوا أنهم قتلوه وصلبوه، وقد أنكر الله ذلك عليهم في قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

أما النصارى فهم أتباع عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين محمد ﷺ رسول، وهم كانوا على دين حق حتى بُعث النبي ﷺ، فلما بُعث النبي ﷺ وجب عليهم أن يتبعوه، فلما كفروا به صاروا كافرين حتى بعيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن عيسى ابن مريم قد بشَّرهم بمحمد ﷺ؛ كما ذكر الله ـ تعالى ـ ذلك في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦]؛ فأحمدُ الذي بَشَّرَ به عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو محمد ﷺ؛ والدليل على هذا قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، ولكنهم كفروا بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكانوا كافرين بعيسى وبشارته؛ ولهذا لا يقبل الله دينهم، ولا ينفعهم هذا الدين الذي هم عليه يوم القيامة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾؛ أي: دينهم الذي هم عليه؛ فاليهود يقولون: لا نرضى عنك حتى تكون يهوديًّا، والنصارى يقولون: لا نرضى عنك حتى تكون نصرانيًّا، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ﴾؛ أي: منكرًا عليهم: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، وليس ما أنتم عليه أيها اليهود ولا ما أنتم عليه أيها النصارى، بل هدى الله هو الهدى؛ وهدى الله بعد بعثة الرسول محمد ﷺ هو ما كان عليه محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه؛ لأنه ـ أعني: ضمير الفصل ـ من أدوات الحصر.

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ يعني: من اتبع أهواء هؤلاء اليهود أو النصارى، وهو ما يريدونه من أن يكون الناس نصارى أو يهودًا، فمن اتبع هذا بعد ما جاءه من العلم برسالة محمد ﷺ؛ فإنه معرض نفسه لهذه العقوبة: ما له من الله من ولي يتولاه؛ فيحيطه بما ينفعه، ولا نصير ينصره؛ فيمنعه مما يضره.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ ومن فوائدها وأحكامها: التحذير الشديد من اليهود والنصارى؛ لأنهم لن يرضوا عن الإنسان حتى يتبع ملتهم.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: بيان أن اليهود والنصارى يرضون

بمن يتبع ملتهم، بل يفرحون بذلك، ويسرون به، ويستبشرون به.

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: أن الهدى لا يختص بأمة أو طائفة معينة؛ فليس الهدى لليهود فقط، ولا للنصارى فقط، بل الهدى هدى الله، فمن اتبع هدى الله على أي رسول؛ فقد اهتدى بهدى الله، ومعلوم أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء، وأنه جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، وأن شريعته نسخت جميع الشرائع؛ وعلى هذا نقول لليهود والنصارى: الملة الصحيحة ما كان عليه المسلمون؛ لأنها هي هدى الله الذي بعث به محمدًا ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

٤ـ ومن فوائدها وأحكامها: التحذير من اتباع أهواء اليهود والنصارى؛ أي: اتباع ما يهوونه من الباطل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٥ـ ومن فوائدها وأحكامها: أن العقوبات إنما تقع على العبد بعد أن يأتيه العلم، وأما الجاهل فلا عقوبة عليه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾، وهذا الأصل يشهد له آيات متعددة؛ منها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال الله ـ تعالى ـ: قد فعلت. ومنها أيضًا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ

ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو أنه لا عقوبة إلا بعد العلم.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه لا أحد يمنع ما أراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من خير أو من شر؛ ففي الحديث الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الأذكار التي تقال بعد الصلاة: «... **اللهُمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»(١)؛ أي: لا ينفع صاحب الحظ والغنى حظُّه وغناه من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل الله ـ تعالى ـ محيط بكل شيء، وقادر على كل شيء.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه إذا كان هذا التحذير موجهًا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إلى آخر الآية؛ فكيف بمن دونه؟! فإن هذا التحذير يشمله وأولى، ولقد قال الله ـ تعالى ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢١]

---

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: أعطيناهم الكتاب، والمراد بالكتاب هذا الجنس؛ فيشمل الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ؛ وهو القرآن، والكتاب الذي أنزله على موسى؛ وهو التوراة، والكتاب الذي أنزله على عيسى؛ وهو الإنجيل.

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ ؛ أي: يتبعونه؛ **والتلاوة يُرادُ بها ثلاثة أمور:**

التلاوة اللفظية، والتلاوة المعنوية، والتلاوة الحكمية العملية.

أما التلاوة اللفظية: فأن يقيم الإنسان حروف الكتاب الذي أنزل.

وأما التلاوة المعنوية: فأن يقيم معناه؛ أي: معنى الكتاب الذي أنزل؛ وذلك بأن يفسره بما أراده الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا بهوى نفسه؛ فلا يحرف الكلم عن مواضعه.

وأما التلاوة الحكمية العملية: فأن يؤمن بأخباره، ويقوم بأوامره، ويتجنب نواهيه.

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ أي: التلاوة الحق، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ ؛ يعني: هؤلاء هم الذين يؤمنون به حقًّا، وأما من لم يتله حق تلاوته، إما في اللفظ أو في المعنى، أو في الحكم والعمل؛ فإنه لم يؤمن به، وقد نقص من إيمانه به بقدر ما نقص من تلاوته، وبيَّن ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذه الآية أن من كفر بالكتاب الذي آتاه الله إياه؛ فإنه خاسر؛ خسر الدنيا والآخرة خسرانًا كاملًا إن

كان لم يؤمن به إطلاقًا، وخسرانًا ناقصًا إن كان آمن به على وجه ينقص الإيمان؛ لأن الله ـ تعالى ـ حكم عدل، فمن كان معه الإيمان كله؛ فله الربح كله، ومن كان معه الكفر وليس معه الإيمان؛ فله الخسران كله، ومن كان معه إيمان وكفر؛ فله الربح فيما آمن والخسران فيما كفر.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ الثناء على من آتاه الله الكتاب فتلاه حق تلاوته، وفيها حقيقة الإيمان بالكتاب: أن يتلوه الإنسان حق تلاوته.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن من لم يقم حروف الكتاب فإنه لم يؤمن به حق الإيمان؛ لأنه لم يتله حق تلاوته؛ ويتفرع من هذه الفائدة وجوب تلاوة القرآن على الوجه الذي أنزل من حيث الترتيب، ومن حيث الحروف؛ فلا يُبدلُ حرفٌ بحرف، ولا تُقَدَّمُ آية على آية، ومن حيث الإعراب؛ فلا يفتح ما كان مضمومًا أو مكسورًا ولا العكس.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تحريم تفسير القرآن بالرأي والهوى؛ لأن من فعل ذلك فإنه لم يتل القرآن حق تلاوته باعتبار المعنى؛ ويتفرع على هذا بيان خطر ما ذهب إليه المحرفون لآيات الصفات؛ مثل قولهم: ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]؛ أي: استولى. ومثل قولهم: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: نعمتاه مبسوطتان وما أشبه ذلك؛ فإن هذا ـ بلا شك ـ تحريف للكلم عن مواضعه، وقد يكون هذا أشد من التحريف في آيات الأحكام العملية؛ وذلك لأن باب الصفات

من باب الخبر المحض الذي ليس للعقول مدخل في تفاصيله؛ فيجب تلقيه من كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله ﷺ.

فمن حَرَّفَ نصوص الكتاب والسنة في آيات الصفات وأحاديثها؛ فهو أشد خطرًا ممن حرَّفها فيما يتعلق بالأحكام البدنية؛ وعلى هذا فالواجب إجراء نصوص الصفات في الآيات والأحاديث على ظاهرها اللائق بالله بلا تمثيل ولا تحريف، فنقول: إن معنى قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]؛ أي: علا على العرش علوًّا يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل، ونقول في قوله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]: هما يدان حقيقيتان بهما يأخذ وبهما يقبض، ولكنهما لا تماثلان أيدي المخلوقين، وهكذا بقية الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يجب علينا أن نؤمن بها على ظاهرها لكن من غير تمثيل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، ومن غير تكييف أيضًا؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ فلا يجوز لأحد أن يمثل لصفات الله بصفات خلقه، ولا يُكَيِّف صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن التلاوة تنقسم إلى قسمين: تلاوة تامة؛ وهي حق التلاوة، وتلاوة ناقصة؛ وهي أن يتلوه بعض التلاوة.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن من لم يقم بالعمل الصالح الذي دلَّ عليه الكتاب؛ فإنه لم يتله حق تلاوته، فيكون ناقص الإيمان، وهذا هو طريق أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية أو غيرها من أسباب نقصه.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الثناء على المتبعين، بل على التالين لكتاب الله حق تلاوته؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الكافر بالكتاب الذي أنزله الله على رسله خاسر في الدنيا والآخرة، حتى وإن ربح في الدنيا أموالًا، وقصورًا، ومراكب، وأنعم عليه بالأهل والبنين؛ فإنه خاسر؛ لإطلاق الخسران في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، ولم يقل: في الدنيا، ولم يقل في الآخرة؛ فيكون ذلك عامًّا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٥ ـ ١٦].

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ في سورة البقرة: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [البقرة: ١٢٢].

هذه الآية الكريمة سبق مثلها، بل شبهها في أول السورة؛ ينادي الله ـ تعالى ـ بني إسرائيل ـ وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن

إبراهيم ـ، يناديهم مُذَكِّرًا إياهم نعمته التي أنعمها عليهم، ويأمرهم بتذكرها، فيقول: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقد أنعم الله على بني إسرائيل بنعم عظيمة؛ منها: الإيمان؛ حيث آمنوا بموسى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

ومنها: أن الله أهلك عدوهم (فرعون وقومه)، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

ومنها: أن الله ـ تعالى ـ ظلَّلَ عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، ونِعَم الله عليهم كثيرة.

ومنها: أن الله فضَّلَهم على العالمين؛ أي: جعلهم أفضل من العالين، وذلك في زمانهم؛ فإن بني إسرائيل الذين آمنوا برسلهم أفضل العالمين في وقتهم، أما بعد بعثة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن أفضل الأمم أمة رسول الله ﷺ الذين آمنوا به؛ كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «نحن الآخِرُونَ السَّابقون يوم القيامة»[(١)]، يقول الله ـ تعالى ـ في هذه الآية مخاطبًا بني إسرائيل ومذكرًا لهم بهذه النعم: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦)؛ ومسلم: كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥).

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أنه يجب على المرء أن يتذكَّر نعمة الله عليه؛ ليقوم بشكرها، وبشكر النعم تزداد، وبكفرها ترتفع؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه مرسل إليهم، فعليهم أن يتبعوه شكرًا لله ـ تعالى ـ على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي تميزوا بها عن العالمين في وقتهم.

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: تفاضل الناس؛ فالناس يتفاضلون عند الله في الأعمال، ويتفاضلون في الإيمان؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وسُئِلَ النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؟ فقال: «الصَّلاة على وقتها، قال: ثم أيٌّ؟ قال: بر الوالدين، قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله»(١)؛ فالأعمال تتفاضل، والعاملون يتفاضلون

---

(١) رواه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله ـ تعالى ـ أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

بحسب ما عندهم من العلم، والإيمان، والعمل الصالح.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: أنه يجب على من فضَّله الله على غيره بعلم أو مال أو عمل من الشكر ما لا يجب على من هو دونه؛ وذلك أن الناس قسمان: قسم أنعم الله عليهم فابتلاهم بالنعم؛ ليشكروا أو يكفروا، وقسم آخر ابتلوا بالمصائب؛ ليعلم الله - تعالى - هل يصبرون أم لا يصبرون؟ ولكل فيما ابتلي به وظيفة؛ فمن ابتلي بالخير فعليه وظيفة الشكر، ومن ابتلي بضده فعليه وظيفة الصبر، وكلما عظمت النعم كان الشكر عليها أوجب.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾؛ واحذروا ﴿يَوۡمٗا﴾؛ هو يوم القيامة ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾؛ لا تغني عنها شيئًا حتى الوالد لا يغني عن ولده شيئًا، والولد لا يغني عن والده شيئًا؛ كما قال الله - تبارك وتعالى - في سورة لقمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال - تعالى -: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وقوله: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾؛ أي: لا يقبل منها ما تدفعه عدلًا؛

أي: فدية عنها ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ والـشفاعة هـي التوسـط للغـير لجلب منفعة أو دفع مضرة؛ ففي يوم القيامة لا تنفع الـشفاعة أحـدًا إلا من أذن له الرحمن ورضي لـه قـولًا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: ولا هـم يمنعون من عذاب الله.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ وجوب الحذر من عذاب يوم القيامـة؛ لأنـه هـو المـراد بقولـه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه في يوم القيامة لا ينفـع أحـد غـيره شيئًا بخلاف الدنيا؛ فإنه قد ينفعه بشفاعة أو غيرها، أما في الآخرة فلا.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب الحذر من هذا اليـوم العظـيم الذي لا تنفع فيه قرابة، ولا ينفع فيـه الفـداء، ولا تنفـع فيـه الـشفاعة؛ وإنما الإنسان وعمله.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** نفي نفع الشفاعة لمن ليس من أهلهـا؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، أما من كان مـن أهـل الـشفاعة فإن الشفاعة تنفعـه، **ولـيعلم أن الـشفاعة قـسمان:** قـسم عـام، وقـسم خاص، والخاص هو الذي لا يقوم به إلا محمـد ـ صـلى الله عليـه وآلـه وسلم ـ؛ وهي الشفاعة العظمى التـي يتراجـع فيهـا الأنبيـاء ـ علـيهم الصلاة والسلام ـ حتى تصل إلى محمد ـ صلى الله عليـه وآلـه وسـلم ـ؛ فإن الناس يوم القيامة يلحقهم من الهم والكرب ما لا يطيقون، فيأتون

إلى آدم يطلبون منه الشفاعة فيعتذر، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، حتى تنتهي إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - محمد؛ فيقوم ويشفع بإذن الله - سبحانه وتعالى -، وهذه خاصة بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -.

وقسم عام: تكون للرسول - عليه الصلاة والسلام - ولغيره من المؤمنين من الملائكة والبشر؛ ومنها: الشفاعة للميت بالصلاة عليه؛ قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ما مِنْ رجلٍ مُسْلِمٍ يموتُ فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفَّعَهُمُ اللهُ فيه»[1]، وهذه عامة - كما قلنا - تكون للأنبياء والصالحين من البشر، وتكون كذلك للملائكة.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها:** قطع آمال المشركين الذين يعبدون الأصنام، ويتخذونها شفعاء عند الله؛ فإنها لا تنفعهم يوم القيامة، خلافًا لما يتوهمونه من أنها تنفعهم؛ حيث يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]. وقال - تعالى -: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]؛ فلا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولًا.

* * *

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

يقول الله - تعالى -: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ؛ أي: اختبره؛ وإبراهيم عليه السلام هو ابن آزر، وهو خليل الرحمن - سبحانه وتعالى -؛ يخبر الله - تعالى - أنه ابتلاه بكلمات، ﴿وَإِذِ﴾ هنا متعلقة بمحذوف، والتقدير: واذكر إذ ابتلى إبراهيم؛ أي: اذكر للناس هذه القصة العجيبة الدالة على فضل إبراهيم؛ ابتلاه الله - تعالى - بكلمات؛ والكلمات هذه كلمات شرعية ابتلاه الله - تعالى - بها؛ وهي الأوامر والنواهي، ولم يبين الله - سبحانه وتعالى - عين هذه الكلمات ولا نوعها، لكننا نعلم أنها كلمات تكليفية قام بها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - على الوجه الذي ابتلاه الله - تعالى - بها حسب ما يرضي الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ومن ذلك: أن الله - تعالى - أمره أن يذبح ابنه إسماعيل بعد أن بلغ معه السعي؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ

هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٦] (١).

فابتلى الله ـ تعالى ـ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكلمات: أوامر ونواهٍ؛ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وهذا هو محل الثناء، لما ابتلي بذلك أتمهنَّ على الوجه الذي يرضى به الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فأثابه الله ـ تعالى ـ ذلك الثواب العظيم: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: قدوة يقتدي بك الناس.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾؛ يعني: واجعل من ذريتي إمامًا، أو اجعل من ذريتي أئمة، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتعهد الله له بذلك إلا أنه استثنى فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، ومن أكبر الأئمة ـ بل هو أكبر الأئمة ـ من ذريته محمد ﷺ؛ فهو إمام المتقين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، بل هو إمام الأنبياء ﷺ، وإن كان آخرهم؛ كما تبدَّى ذلك في قصة الإسراء والمعراج؛ حيث صلَّى بهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إمامًا، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من كان ذا ظلمٍ لنفسه بالإشراك بالله؛ فإنه لا يمكن أن يكون إمامًا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أنَّ الله أمر نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يذكر للناس ما حصل من الابتلاء لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ والفائدة من ذلك: الاقتداء به؛ أي: بإبراهيم؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ

(١) أسلما: أي: انقادا لأمر الله ـ تَعَالَىٰ ـ وتله للجبين: أي: تله على وجهه؛ ليذبحه من قفاه.

إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

٢ــ **ومــن فوائــدها وأحكامهــا:** فـضيلة إبـراهيم ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ، وأنه إمام؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** شفقة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ذريته؛ حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ ﴾، وهذا يشبه من بعض الوجـوه ما سأل موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربـه ـ جـل وعـلا ـ أن يـشرك أخاه هارون في الرسالة.

٤ـ **ومــن فوائــدها وأحكامهــا:** أن الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ أعطـى إبراهيم ما سأل؛ بأن يجعل من ذريته أئمة، لكنه استثنى من ذلك الظالم؛ فإنه لا يكون إمامًا.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن كل من كان أقـوم لله ـ تعـالى ـ بـما أمر به كان أحرى بالإمامة من غيره؛ وذلك لأن إبراهيم ـ عليه الـصلاة والسلام ـ إنما كان إمامًا؛ لأنه أتم ما ابتلاه الله به؛ ولذلك قـال النبـي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله، فـإنْ كـانوا في القراءةِ سواءً فـأعلمهم بالـسُّنَّةِ، فـإن كـانوا في الـسُّنَّةِ سـواء فأقـدمهم هجرةً، فإن كانوا في الهجرة سواءً فأقدمهم سِلْمًا»**[1].

(١) رواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة، رقم (٦٧٣).

٦ـ ومن فوئدها وأحكامها: كراهية الله ـ تعالى ـ للظلم؛ ولـذلك لم يجعل لظالم إمامة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ متعلقٌ بمحذوف تقـديره: واذكر إذ جعلنا؛ ومعنى جعلنا: صيَّرنا، والمراد بالبيت: بيت الله الحـرام (الكعبة).

﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مرجعًا يرجعون إليه ويثوبون إليه، ﴿وَأَمْنًا﴾ يأمنون به؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ثم أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم ـ معروف ـ شرقي الكعبة المعظَّمة، وسُمي مقامًا؛ لأنه قام عليه حين بناء الكعبة؛ لما ارتفع البناء وضع هذا الحجر، فصار يرتفع عليه؛ من أجل إتمام البناء، ومازال هذا المقام محفوظًا إلى يومنا هذا.

وقوله: ﴿مُصَلًّى﴾؛ أي: مكانًا للصلاة، وقد فَسَّر النبي ـ صـلى الله عليه وآله وسـلم ـ ذلـك بفعلـه حينما انتهـى مـن الطـواف ـ طـواف القدوم ـ، فتقـدم إلى مقـام إبـراهيم، فقـرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ

مُصَلًّى ﴾، فصلَّى خلف المقام ركعتين، وبـيَّن الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ في هذه الآية أنه عهـد إلى إبـراهيم وإسـماعيل؛ أي: عهـد عهـدًا ألقـاه إلى إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وإسماعيل هـو أكـبر أولاد إبراهيم، وهو مـن سريتـه هـاجر، وقـد أبقاهمـا ـ عليـه الـصلاة والسلام ـ في هذا المكـان، أبقاهمـا؛ أي: أبقـى إسـماعيل وأمـه في هـذا المكان حتى شبَّ، وكبر، وأتاه الأولاد الـذين هـم العـرب المستعربة، فكان إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أبيه في هـذا المكـان، فـأمره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن يطهر بيته للطائفين، والعاكفين، والرُّكَّـع الـسجود؛ قال: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وسـيأتي ذكـر بنـاء إبـراهيم وإسـماعيل للكعبـة المعظمة.

وقوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ ؛أي: الطائفين بهذا البيت ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾؛ أي: في المـسجد ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛أي: المـصلين، وإنـما بـدأ بالطائفين؛ لأنهـم أخـص بهـذا المكـان؛ فـإن الطـواف لا يـصح إلا في الكعبة، ولا يشرع إلا بالكعبة، ثم ثنَّـى بالعـاكفين؛ لأنهـم أخـص مـن المصلين ـ وإن الاعتكاف لا يكون إلا في المساجد، فـلا يكـون في كـل أرض، ثم ثلَّث بالركَّع الـسجود؛ أي: المـصلين؛ لأن ذلـك أعـم؛ فـإن الصلاة تصح في كل مكان من الأرض إلا ما اسـتثني مـن ذلـك؛ قـال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسـلم ـ: «... وجُعِلَـتْ لي الأرضُ مـسجدًا

وطهورًا»[١]، وذكر الركوع والسجود؛ لأنهما ركنان من أركان الصلاة؛ قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - للرجل الذي صلَّى ولكنه لم يطمئن في صلاته: «...ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا»[٢].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - أن الله - تعالى - جعل البيت مثابة للناس وأمنًا؛ أي: مرجعًا لهم وأمنًا؛ ومن ذلك أنهم يترددون إليه في كل موسم حج، وفي غير موسم الحج؛ فأفئدة الناس تهوي إلى هذا المكان للحج، والعمرة، وغيرهما من الطاعات.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن مكة بلد آمن، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «... **إنَّ مكة حرَّمها اللهُ ولم يحرمها الناس؛ فلا يحل لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يَعْضِدَ بها شجرة...**»[٣]؛ فلا يحل القتال في مكة لأحد إلا لرسول الله ﷺ حين الفتح فقط، فهي لم تحل لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده؛ ولهذا يحرم القتال في مكة المكرمة إلا على سبيل الدفاع عن

---

(١) رواه البخاري: كتاب التيمم، باب وقول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾، حديث رقم (٣٣٥)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب (بدون)، رقم (٥٢١).

(٢) تقدم تخريجه ص (٣٨).

(٣) رواه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)؛ ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم قتلها وصيدها...، رقم (١٣٥٤).

النفس؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ [البقرة: ١٩١].

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** الأمر باتخاذ مصلى من مقام إبراهيم، وقد بيَّنا أن النبي ﷺ بيَّن ذلك بكونه صلى خلف المقام ركعتين، وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في وجوب هاتين الركعتين؛ فمنهم من قال: إنهما واجبتان؛ لأن الله ـ تعالى ـ أمر بهما، وبيَّنهما النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بفعله، والأصل في الأمر الوجوب.

ومنهم مَنْ قال: إنهما سُنَّةٌ؛ لأنهما من توابع الطواف، والمشروع في هاتين الركعتين أن يخففهما، وألا يمكث بعدهما عند المقام، وأن يقرأ فيهما في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ وفي الركعة الثانية بعد الفاتحة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وبهذا نعرف أن ما يفعله بعض الناس من التطوع خلف المقام من غير طواف، أو التطوع بأكثر من ركعتين، أو إطالة الركعتين، أو الجلوس بعدهما في هذا المكان لقراءة القرآن، أو للذكر، أو للدعاء غير مشروع؛ لأن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أحرص الناس على الخير بلا شك، ومع ذلك فقد صلى خلف المقام ركعتين خفيفتين ثم انصرف؛ ولأن هذا المكان يختص بالطائفين الذين يصلون ركعتين، فكون الإنسان يبقى فيه بدون سبب شرعي فيه شيء من الجناية على غيره، ولكن لو سألنا سائل: إذا كان

المطاف مزدحمًا، وكان الطائفون يطوفون من وراء مقام إبراهيم، فهل للإنسان الحق أن يصلي ركعتين بين الطائفين، فيعيق سيرهم ويؤذيهم أم ليس له الحق في ذلك؟

الجواب: أنه ليس له الحق في ذلك؛ لأن حقَّ الطائفين أولى بالمراعاة من حق المصلي؛ إذ إن المصلي يمكنه أن يصلي بعيدًا عن مكان الطواف، فيصلي ركعتين، ويجعل المقام بينه وبين البيت، ولو كان في آخر صحن المطاف، بل ولو كان تحت السقف، لكن الطائف ليس له إلا هذا المكان، وبهذا نعرف خطأ من يفعلون هذا الفعل، تجدهم يصلون خلف المقام مع ازدحام المطاف، واحتياج الناس إلى الطواف، فمثل هؤلاء لا حقَّ لهم في هذا المكان ما دام الطائفون محتاجين إليه.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها:** تعلية شأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث أمرنا الله ـ تعالى ـ أن نتخذ من مقامه مصلى، وهذا من جملة ما يترتب على الإمامة التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٥- **ومن فوائدها وأحكامها:** عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل ـ أي: وصى إليهما ـ وأمرهما بأن يطهرا بيته للطائفين، والعاكفين، والركَّع السجود.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** فضيلة إبراهيم وإسماعيل؛ حيث أوكل إليهما هذا الأمر العظيم.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة الطـواف؛** لقولـه: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾، **ولا شك أن الطواف من الأعمال الجليلة الفاضـلة؛ ولهـذا كان ركنًا في الحج والعمرة؛ فـلا يـتم حـج الإنـسان ولا عمرتـه إلا أن يطوف بالبيت.**

٨- **ومن فوائـدها وأحكامهـا:** وجـوب تطهـير البيـت للطـائفين، والعاكفين، والركَّع السجود، وتطهير البيت ينقسم إلى قسمين: تطهـير معنوي، وتطهير حسي؛ أما التطهـير المعنـوي: فـأن يطهـر مـن الـشرك والمعاصي؛ وذلك لأن الشرك نجاسة؛ كـما قـال الله ـ تبـارك وتعـالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ [التوبة: ٢٨]؛ فلا يجوز أن يركن أحـد في هـذا البيت إلى الإشراك بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وهـو أن يـدعو نبيًّـا، أو وليًّـا، أو ملكًا، أو غيره من دون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن الله لا يغفـر أن يـشرك بـه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ ولهذا قال الله ـ تعـالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، فنهى أن يقربوا المسجد الحرام فضلًا عن أن يكونوا في البيت الحرام.

والطهارة الحسية: أن يطهـر مـن الأقـذار؛ مـن البـول، والغـائط، والدم، وما أشبه ذلك من الأشياء النجسة؛ فالواجـب أن يطهـر منهـا، فهذا الحكـم ـ أعني التطهير من النجاسة الحسية ـ ثابت للمسجد الحرام ولغيره من المساجد؛ ولهذا لما بال الأعرابي في مسجد النبي ﷺ في المدينة أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: الإِشارة إلى أن المشروع للطائف أن يكون متطهرًا؛ لأنه إذا أمر بتطهير البيت من أجله فتطهيره بنفسه، وتطهير ما لبسه من الثياب من باب أولى؛ فالمشروع للطائف أن يكون طاهرًا من الأنجاس، كما أن المشروع له أن يكون طاهرًا من الأحداث؛ فلا يطوف وهو محدث حدثًا أصغر أو أكبر؛ ولهذا اختلف العلماء - رحمهم الله - على قولين في هذه المسألة: لو طاف وعليه حدث أصغر؛ هل يصح طوافه أم لا؟ اختار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن طوافه صحيح، وقال أكثر أهل العلم: إن طوافه غير صحيح.

١٠- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة الاعتكاف؛ حيث أمر أن يطهر البيت من أجل العاكفين.

١١- ومن فوائدها وأحكامها: مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام؛ لقوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾، وهذا أمر لا إشكال فيه، وقد قال عمر: «يا رسول الله، إني نذرتُ في الجاهليةِ أَنْ أعتكفَ ليلة في المسجدِ الحرامِ، قال: «فأوفِ بِنَذْرِكَ»[1].

١٢- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة الركوع والسجود؛ حيث عبَّر بهما عن الصلاة كاملة؛ قال أهلُ العلم: وإذا عبَّر الله عن العبادة ببعضها دلَّ على وجوب هذا البعض فيها، وقد بيَّنَّا أن الركوع

---

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثم أسلم، رقم (٢٠٤٣)؛ ومسلم: كتاب الأيمان، باب نذر الكافر وما يفعل فيه إذا أسلم، رقم (١٦٥٦).

والسجود من أركان الصلاة، وحد الركوع أن ينحني القـائم، أن يحنـي ظهره بحيث يكون إلى الركوع التام أقرب منه إلى القيـام التـام، وقيـل: حده أن ينحني بحيث يمكنه مـس ركبتيـه إذا كـان معتـدل اليـدين لا طويلهما ولا قصيرهما، وأما السجود فقد بيَّن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه لابدَّ من الـسجود عـلى أعـضاء سـبعة؛ فقـال: «**أُمِـرتُ أنْ أسجدَ على سبعة أَعْظُمٍ: الجبهـة ـ وأشـار بيـده عـلى أنفـه ـ، واليـدين، والرجلين، وأطراف القدمين...**»[1].

١٣ـ **ومن فوائـدها وأحكامهـا:** أن تطهـير المساجد مـن فـروض الكفاية؛ لقولـه: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ فوجَّـه الأمـر إلـيهما، وإن كانت هذه الفائدة، أو هذا الحكـم قـد يكـون مأخـذه مـن هـذه الآيـة الكريمة ضعيفًا، لكنه يؤخذ ـ أي: وجوب تطهير المساجد مـن الأذى والقذر ـ من أمر النبي ـ صلى الله عليه وآلـه وسـلم ـ الـصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن يريقوا على بول الأعرابي الذي بال في المسجد ذنوبًـا مـن ماء؛ أي: دلوًا من ماء؛ فإن هذا يدل على الوجوب، وعلى أنـه وجـوب كفائي؛ وعلى هذا فإذا رأيت في المسجد قذرًا فأزلـه إن أمكنـك، فـإن لم يمكنك وجب عليك أن تبلغ مَنْ عليه تطهيره.

* * *

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على سبعة أعظم، حديث رقم (٨١٠)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود...، رقم (٤٩٠)، واللفظ له.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ متعلقٌ بمحذوف ـ كسابقيه ـ، والتقدير: «واذكر إذ» ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ ففي هذه الآية الكريمة يأمر اللهُ نبيه محمدًا ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يُذَكِّرَ الناس ويبلغهم ما قاله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الدعاء للبيت الحرام وأهله؛ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ أي: آمنًا من كل خوف، ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: أعطهم من الثمرات؛ أي: ثمرات الأشجار من النخيل، والأعناب، وغيرها.

وإنما سأل إبراهيم ذلك؛ لأن مكة بلد غير ذي زرع، فسأل إبراهيم ربه أن يرزقهم من الثمرات؛ فأجاب الله دعاءه؛ كما بينه ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال في آية أخرى: ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧]، ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قيَّد ذلك بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ﴾ وهذا من تمام أدبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه سأل الله أن يرزق أهل هذا البيت من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر؛ وذلك تأدبًا من قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ حيث قال في الأول حين

قال الله له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فأطلق إبراهيم بسؤال الإمامة، ولكن الله قيَّدها بأنها خاصة بمن ليس بظالم، فهنا قال إبراهيم: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ولكنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بَيَّن أن رزقه لأهل هذا البيت يشمل؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ يعني: وأعطي من كفر من الخيرات التي تجبى لهذا البلد ـ أعني: مكة ـ، أما من كفر: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؛ أمتعه في هذه الدنيا بما أعطيه من الثمرات والخيرات، لكنه متاع قليل؛ إذ إن الدنيا كلها فانية تمضي لحظة فلحظة، ولا يدري الإنسان إلا وقد بلغ الأجل، وحلَّ به الموت؛ فهي ـ مهما طالت بالإنسان ـ قليلة، ثم إنَّ الدنيا إذا طالت بالإنسان، وأمد له في الأجل؛ فإنه يرجع إلى أرذل العمر، وقد قال الشاعر:

لا طيبَ للعيش ما دامت منغصةً لذاته بادِّكارِ الموتِ والهرمِ

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾؛ يعني: أمتعه قليلًا ثم أدفعه مضطرًا إلى عذاب النار يوم القيامة؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]؛ فهم ـ والعياذ بالله ـ يدفعون دفعًا، وكأنهم إذا شاهدوا النار كأنهم يتلكئون ولا ينطلقون؛ فيدعون إلى نار جهنم دعًّا، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذا قدح وثناء بالشر على مصير أهل النار ـ نسأل الله العافية.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- نُصح إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ للبلد مكة؛ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وقد استجاب اللهُ دعوته؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سأل الله ـ تعالى ـ أن يرزق أهله من الثمرات، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، فسأل شيئين: الأمن، ورغد العيش؛ فأجاب اللهُ دعوته أيضًا؛ فكانت مكة ـ وإن لم تكن بلدًا زراعيًا ـ تُجبى إليها ثمرات كل شيء من كل قطر؛ فأهلها آمنون، وبالعيش راغدون؛ فكان يجب عليهم من طاعة الله أكثر مما يجب على غيرهم؛ شكرًا لله ـ تعالى ـ على هذه النعمة.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها:** حسن أدب إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الإيمان بالله واليوم الآخر من أسباب الرزق والأمن، وكلما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله واليوم الآخر كان أكثر أمنًا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٥- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ الله ـ تعالى ـ قد يعطي السائل أكثر مما سأل؛ لحكمة تقتضي ذلك؛ فإبراهيم سأل أن يرزق الله أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ولكن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، وهنا قد يرد إشكال: هل قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يقتضي إقرار الكافر على كفره في مكة أم لا؟ والجواب: لا يقتضي ذلك؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات الرزق للكافر؛ فالكافر رزقه من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنه مسئول عن هذا الرزق يوم القيامة، محاسبٌ عليه؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]؛ فالكافر ـ وإن نعم برزق الله ـ محاسبٌ على هذا الرزق يوم القيامة.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الدنيا ـ وإن طالت ـ متاعها قليل؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه

قال: «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها»[١].

٨- **ومن فوائدها وأحكامها:** أن أهل النار يضطرون إلى دخولها اضطرارًا، ويدفعون إليها دفعًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.

٩- **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات النار، وأنها جزاء للكافرين؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.

١٠- **ومن فوائدها وأحكامها:** الثناء بالشر على النار ومن كانت مصيرًا له؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، نسأل الله - تعالى - أن يجيرنا وإياكم من النار، وأن يدخلنا الجنة دار القرار؛ إنه جواد كريم.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

إبراهيم هو خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام -، وهو أبو الأنبياء بعد نوح - عليهما الصلاة والسلام -؛ قال الله - تبارك وتعالى - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، أما ابنه إسماعيل فهو أبو العرب، ومن سلالته خاتمُ الأنبياء محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، و﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ أساس البنيان ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ البيت هنا هو الكعبة، رفعا القواعد وهما يقولان:

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٧٦).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأن العمل إذا لم يقبل صار تعبًا وضياعًا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ فضل إبراهيم وإسماعيل؛ حيث رفعا قواعد هذا البيت الذي أضافه الله ـ تعالى ـ إلى نفسه في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تواضع الأنبياء لشريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وتعظيمهم لحرماته؛ حيث بنى إبراهيم وابنه إسماعيل هذا البيت؛ تواضعًا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وتعظيمًا لحرماته.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ كل أحد مهما عظمت درجته وعلت منزلته مفتقر إلى ربه، وإلى قبوله ـ جلَّ وعلا ـ؛ لقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** طرد العُجب من النفس، فلا يقول الإنسان: أنا عملت، أنا فعلت، أنا قلت، بل يعمل العمل، وهو مفتقر إلى ربِّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قبوله.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الشأن ـ كل الشأن ـ في قبول العمل، لا في نفس العمل، وإذا كان كذلك؛ فإنه ينبني على هذا أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على ما يكون به القبول؛ وهو الإخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والمتابعة لشريعته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: وجوب الإيمان بهذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «**السميع**» ﷻ «**العليم**»؛ السميع لكل مسموع مهما خفي، والعليم بكل معلوم مهما تباعد.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات صفتي السمع والعلم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن السميع والعليم اسمان مشتقان من السمع والعلم؛ فلابد أن يتضمنا هذه الصفة، ولا نقول ـ كما قال أهل البدع ـ: إنه سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، وسمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: سمع بمعنى الإجابة، وسمع بمعنى إدراك الصوت وإنْ خفي؛ فمن الأول قوله ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]؛ أي: لمجيب الدعاء، وقول المصلي: سمع اللهُ لمن حمده؛ أي: استجاب لمن حمده؛ ومن الثاني ـ أي: إدراك الصوت ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

أما في هذه الآية في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. فتحتمل المعنيين جميعًا؛ أي: تحتمل سمع الصوت، وسمع الإجابة، هذا وقد قسَّم العلماءُ سمع الصوت ـ بحسب ما يقتضيه السياق ـ إلى عام وخاص؛ فالعام: هو الذي يتضمنه هذا الاسم الكريم في القرآن أو في غيره، ومقتضاه إدراك كل صوت مهما خفي؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية [المجادلة: ١]، قالت عائشة: «الحمدُ لله الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها وما أسمع ما تقول»(١).

وأما السمع الخاص فمقتضاه: النصر والتأييد؛ مثل قوله ـ تعالى ـ لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

أما العليم فهو ـ كما أسلفنا ـ متضمنٌ لصفة العلم، وعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أزلي أبدي لم يسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان؛ قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لفرعون حين سأله: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥١، ٥٢]، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ واسع العلم، عليم بكل شيء جملة وتفصيلًا، أزلًا وأبدًا، فلم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد جاء ذكر العلم جملة وتفصيلًا؛ فمن التفصيل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٦٠)؛ ومسند الإمام أحمد (٦/ ٤٦)؛ وسنن النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)؛ وسنن ابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

ولكن ما الذي نستفيده من هذين الاسمين الكريمين: السميع، والعليم؟

نستفيد من الناحية المسلكية فائدة؛ وهي أن نحذر من أن نتكلم بما لا يرضي الله؛ لأننا إن تكلمنا سمعه الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ونحذر من أن نضمر في نفوسنا أو نعمل بجوارحنا ما لا يرضي الله - سبحانه وتعالى - عنا؛ لأنه سوف يعلمه، ثم ينبئنا بما عملنا يوم القيامة.

* * *

ثم يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - في ذكر ما قاله إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وهما يرفعان القواعد من البيت -: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؛ أي: منقادين لأمرك على وجه الإخلاص لك؛ لأن الإسلام لله يتضمن الإخلاص له والانقياد لأمره - جل وعلا.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾؛ يعني: واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك، وهي أمة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -؛ لأنها هي الأمة التي يصدق عليها أنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل، أما بنو إسرائيل فهم من ذرية إبراهيم؛ فهم ليسوا من ذرية إسماعيل، بل هم بنو عمهم.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ أي: مواضع نسكنا، ألهمنا إياها حتى نراها.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ومعنى التوبة من الله على عباده: أن يوفقهم للتوبة أولًا، ثم لقبولها ثانيًا، والتوبة في الأصل: الرجوع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ التوَّاب: كثير التوبة على عباده مهما عظمت ذنوبهم؛ لقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، فقد نزلت هذه الآية في التائبين؛ والتوبة من الذنوب ـ مهما عظمت الذنوب ـ تهدم ما قبلها؛ لقول النبي ﷺ: «التوبة تهدم ما قبلها»، أو قال «تجب ما قبلها».

والتوبة تكون من أعظم الذنوب في حق الله وفي حق العباد، وتقبل؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧١]، والرحيم ذو الرحمة التي بها حصول النعم واندفاع النقم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أنَّ كل أحد محتاجٌ إلى ربه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل مضطر إليه في أن يوفقه للاستسلام له ظاهرًا وباطنًا؛ لقول إبراهيم ـ عليه الصلاة

والسلام ـ وابنه إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الداعي إذا استمع إليه من يؤمِّن على دعائه؛ فإن الدعاء يكون لهما جميعًا؛ لأن الظاهر أن الذي يدعو إبراهيم، وإسماعيل يؤمِّن، والمستمع المؤمِّن مع الداعي كالداعي تمامًا؛ ودليل ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨ ـ٨٩]، فقال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ مع أن الداعي موسى، قال العلماء: لأن موسى يدعو وهارون يؤمِّن.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: فضل إبراهيم وإسماعيل على هذه الأمة؛ لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله له عقبًا صالحًا؛ لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وهذا كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ كل إنسان مهما عظمت درجته وعلت مرتبته مفتقر إلى علم الله له؛ لقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أهمية معرفة موضع العبادة إذا كانت

العبادة مُقيَّدة بمكان معين، وكذلك أهمية معرفة وقت العبادة إذا كانت مقيَّدة بوقتٍ معيَّن؛ وينبني على هذا أنه ينبغي أن نعتني بمعرفة أوقات الصلوات الخمس حتى نؤديها في الوقت الذي حدَّدَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لعباده؛ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣]؛ ومن ثَمَّ أُحَذِّرُ إخواننا المؤذِّنين من أن يؤذنوا قبل دخول وقت الصلاة، أولًا: لأن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة، والأذان قبل دخول وقتها لا يصح أن يكون إعلامًا بدخول الوقت، وثانيًا: أنهم إذا أذنوا فربما يتعجَّل أحد في البيوت من النساء أو من الرجال الذين لا تلزمهم صلاة الجماعة لعذر شرعي، فيصلون فور انتهاء المؤذن من أذانه، وتكون صلاتهم قبل دخول الوقت، ومن المعلوم أنَّ الإِنسان لو كَبَّر تكبيرة الإِحرام قبل دخول الوقت، ثمَّ أتمَّ الصلاة بعد دخوله؛ فإن صلاته لا تصح؛ يعني: لو تقدَّمت الصلاة بتكبيرة الإِحرام فقط قبل دخول الوقت؛ فإنها لا تصح.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ كل إنسان مهما عَلَت منزلته وارتفعت درجته مفتقر إلى توبة الله - عَزَّ وَجَلَّ - عليه؛ لقول إبراهيم: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ ﴾، وقد مَنَّ الله - سبحانه وتعالى - على نبيه محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بتوبته عليه؛ فقال: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ [التوبة: ١١٧].

والتوبة هي الرجوع إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من معصيته إلى طاعته، ولابُدَّ فيها من شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله بألا يحمله على التوبة إلا رضا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وابتغاء ثوابه؛ فلا يحمله عليها خوفٌ من سلطان أو من أناس.

والثاني: الندم على ما فعل من المعصية.

والثالث: الإقلاع عن المعصية في الحال.

والرابع: العزم على ألا يعود في المستقبل.

والخامس: أن تكون التوبة قبل إغلاق زمن التوبة؛ وعلى هذا فلا تصح التوبة إذا حضر الأجل؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء: ١٨]، ولا تصح التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

٨ـ ومن فوائدها وأحكامها: التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بأسمائه عند الدعاء؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهنا قال: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وينبغي أن يكون التوسل بالاسم المناسب لما دعوت به؛ فإذا دعوت للتوبة فتوسل إلى

الله باسمه «التواب»، وإذا دعوت للمغفرة فتوسل إلى الله باسمه «الغفور»، وإذا دعوت لطلب الرزق فتوسل باسمه «الرزاق»، وما أشبه ذلك.

٩ـ ومن فوائدها وأحكامها: إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «التواب» و«الرحيم»؛ أما التواب فهو الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، وهو الذي يوفق من يشاء إلى التوبة؛ فيتوب؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، وأما الرحيم فهو ذو الرحمة العظيمة الواسعة؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عن الملائكة وهم يدعون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقد قسَّم العلماء ـ رحمهم الله ـ رحمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى قسمين: رحمة مخلوقة، ورحمة هي صفته، ومثَّلوا للرحمة المخلوقة بقوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي ـ للجنة: **«أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي»**[1]، وأطلق عليها اسم رحمته؛ لأنها محل رحمته؛ ولأنها مقر عباد الرحمن، وسكن الرحماء من عباد الله.

والقسم الثاني: رحمة هي صفته ـ جل وعلا ـ وهي غير مخلوقة؛ فإن

---

(١) رواه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وتقول هل من مزيد﴾، رقم (٤٨٥٠)؛ ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

جميع صفات الله غير مخلوقة؛ فإن الله ـ تعالى ـ بصفاته هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، وهذه تنقسم إلى قسمين: رحمة عامة تشمل جميع الخلق من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وعاقل وبهيم، ورحمة خاصة بعباد الله المؤمنين؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومقتضى الرحمة العامة إيجاد ما به تقوم مصالح المرحومين، وتندفع مضارهم، وأما مقتضى الرحمة الخاصة فهو توفيق هؤلاء، وتسديد أمورهم، وإصلاح أحوالهم على وجهٍ أخص مما تقتضيه الرحمة العامة.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في الذرية، وأعاد الضمير إليها بالجمع؛ لأن معناها الجمع، والبعث، والإرسال بمعنى واحد؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ

فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ هو محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ لأنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وليس في ذرية إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾؛ يقرؤها عليهم حتى يفهموها علمًا، وفهمًا، وعملًا؛ ولهذا قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ الكتاب الذي هو القرآن، والحكمة التي هي السنة وما تتضمنه أحكام القرآن والسنة من الحكم والأسرار، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ ينمي أخلاقهم وأعمالهم؛ ولهذا كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ متممًا لمكارم الأخلاق؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجملة ـ هنا ـ جملة توسلية؛ توسلَ بها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقبول ما دعا به وتحقيقه، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني: ذا العزة الكاملة؛ وهي عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ له هذه الأنواع من العزة؛ فهو ذو قدر عظيم، وقهر بالغ، وامتناع عن كل سوء وعيب، وأما الحكيم فهو ذو الحِكْمَة والحُكْم؛ أي: أن الحكيم من الإِحكام، وهو الإِتقان، ومن الحُكْم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ حاجة البشر إلى الرسل؛ ولهذا دعا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبعث في هذه الذرية رسولًا منهم؛ يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، وهذا أمر معلوم بالضرورة؛ فإن

العقول مهما كَبُرت لا يمكن أن تستقل بمعرفة الله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته على وجه التفصيل، ولا يمكن أن تتعبد لله ـ تعالى ـ إلا بما شرعه لعباده؛ فهم في أشد الضرورة إلى الرسل.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن هذا الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتلو عليهم آيات الله، وقد حصل ما دعا به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان يعلم أصحابه القرآن الكريم، ولا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، ثم ألقوا هذا القرآن الكريم إلى من بعدهم بكل ثقة وأمانة، وهكذا تداوله المسلمون إلى يومنا هذا ـ ولله الحمد ـ، ولم يجرؤ أحد على العدوان على هذا القرآن الكريم، وإذا اعتدى وجد ـ ولله الحمد ـ من يصدُّه ويردُّه على عقبه.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن ما جاء به الرسول ﷺ آيات؛ أي: علامات دالة دلالة قطعية على أنه نزل من عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعلى أنه شرع الله.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** فضيلة العلم، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ علَّم أمته الكتاب والحكمة؛ ولهذا لم يدع النبي ﷺ شيئًا يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم إلا علَّمهم إياه؛ قال أبو ذر ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ: «**لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يُقلِّبُ جناحيه**

إلا ذكر لنا منه علمًا»[(١)].

٥-ومن فوائدها وأحكامها: أن هذه الشريعة جاءت بالحكمة المطابقة للمصالح؛ ولهذا كانت مبنية على جلب المصالح، ودرء المفاسد.

٦-ومن فوائدها وأحكامها: إثبات القياس في الشريعة الإِسلامية إذا كان قياسًا صحيحًا؛ ووجه ذلك أن إلحاق النظير بنظيره في الحكم من الحكمة؛ فيكون داخلًا فيما علمه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمته، ودلائل هذا كثيرة؛ فكل مثلٍ ضربه الله في القرآن فإنه دليل على ثبوت القياس، وكذلك كل مثل ضربه النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنه دليل على ثبوت القياس، وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يذكر المحسوس ليقاس عليه المعقول؛ فعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: «أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، وُلد لي غلامٌ أسود، فقال: «هل لك من إبل؟»، قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حُمرٌ، قال: «هل فيها من أورق؟»[(٢)]، قال: نعم، قال: «فأنى ذلك؟»، قال: لعل نزعهُ عرقٌ، قال: «فلعلَّ ابنك هذا نزعه»[(٣)]؛ فاقتنع الرجل اقتناعًا كاملًا؛ لأن إلحاق النظير بنظيره من الحكمة، لكن أكثر

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٦).

(٢)الأورق: ما لونه بين السواد والبياض.

(٣) رواه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)؛ ومسلم: كتاب اللعان، رقم (١٥٠٠).

ما يحصل في القياس أنه لا يكون صحيحًا؛ حيث يقيس القائس شيئًا على ما لا يماثله؛ وحينئذ يحصل الخطأ، وتكثر مجانبة الصواب.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن نبينا ﷺ بُعِثَ ليتمم لأمته المكارم، وينمي فيها الفضائل؛ لقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وربما تشمل التزكية التعديل الذي هو ضد الفسق، وذلك أن من تمسك بهذه الشريعة؛ فإنه يكون عدلًا مقبولًا.

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بأسمائه، ودعاؤه بها؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «**العزيز**» و«**الحكيم**».

١٠ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات العزة، والحكمة، والحكم لله؛ فأما العزة فقد سبق الإشارة إلى أنها ثلاثة أنواع: عزة قدر؛ وهي أن الله ـ تعالى ـ ذو قدر عظيم لا يماثله شيء في قدره، وعزة قهر وغلبة؛ وهي أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قاهر لكل شيء، غالب على كل شيء، وعزة امتناع؛ وهي أن الله ـ تعالى ـ يمتنع عن كل نقص وعيب؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

١١ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات الحكمة لله؛ والحكمة هي وضع الشيء في موضعه اللائق به، ثم هي نوعان:

حكمة في جعل الشيء على صفة معينة، وحكمة في الغاية من هذا

الشيء، وتكون في الشرع، وتكون في القدر؛ ولنضرب لهذا مثلًا بالقمر؛ القمر وضعه الله - تعالى - في السماء، وجعله مقدرًا بمنازل، وهذا التقدير يختلف به حجم القمر؛ أي: الحجم المضيء من القمر؛ فكونه على هذه الصفة المعينة يزداد حجم المضيء فيه رويدًا رويدًا حتى ينتهي، ثم يعود في النقص، هذه حكمة بلا شك؛ لأن الإنسان بمجرد أن ينظر إليه، فيجد ضوءه ناقصًا يعرف أنه في الربع الأول من الشهر مثلًا، وإذا وجده ممتلئًا عرف أنه في الأخير من الربع الثاني - هكذا -، ثم إن الغاية منه هو أن نعرف عدد السنين والحساب، فكان هذا حكمة في كون القمر على صفة معينة وفي غاية تقديره منازل؛ لنعلم - بذلك - عدد السنين والحساب.

كذلك أيضًا في الصلاة - وهي شرعية - نجد أن كونها على هذه الصفة المعينة في غاية الحكمة؛ قيام لله - عَزَّ وَجَلَّ - وتقرُّب إليه بتلاوة كتابه، ومناجاته به، ثم ركوع يفيد قوة التعظيم لله - عَزَّ وَجَلَّ -، ثم قيام بعده حتى يخر الإنسان ساجدًا له - عَزَّ وَجَلَّ - من أعلى انتصاب له إلى أسفل انخفاض له؛ حيث يضع أعلى ما في بدنه، وأشرف ما في بدنه وهو الوجه على الأرض التي هي موطئ الأقدام وأسفل ما يكون إلى الجسم؛ تواضعًا لله - عَزَّ وَجَلَّ - وتعظيمًا له؛ ولهذا كان العبد إذا سجد أقرب ما يكون من ربه، ثم قعود بعد ذلك وهكذا؛ فكون الصلاة على هذه الصفة في غاية الحكمة، ثم الثمرات المرجوة من هذه الصلاة أيضًا

حكمة عظيمة وهي حكمة الغاية؛ وحكمة الغاية من الصلاة هي سعادة الدنيا والآخرة؛ قال الله - تبارك وتعالى - في نفع الصلاة في الأمور الكونية والقدرية: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وفي نفع الصلاة في الأمور الشرعية قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ فأنت ترى أن حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - كائنة في الأمور في صفتها التي هي عليها، ثم في الغاية منها.

١٢- **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات الحكم لله، وأن الحكم لله وحده، أما كونًا؛ فإنه لا مشارك له في حكمه، ولا يمكن لأحد أن يشارك الله في حكمه؛ فلا يمكن لأحد أن يمنع الموت إذا حضر، ولا يمكن لأحد أن يخلق شيئًا مهما ضعف؛ يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فحكم الله الكوني لا يمكن لأحد مخالفته، ولا مضادته، ولا معارضته؛ ولهذا نجد أن الفيضانات العظيمة والعواصف المدمرة، والصواعق المحرقة تنزل على أعظم دولة وأقواها صناعة، واقتصادًا، وسلاحًا، وتدمر ما شاء الله أن تدمره، ولا يملكون ردها.

أما الحكم الشرعي: فإنه قد يغيَّر وقد يبدَّل، لكن تغييره وتبديله اعتداء على حكم الله - عَزَّ وَجَلَّ -، يلقى جزاءه من بدَّل أو غيَّر، ولكن

مع ذلك لو بُدِّل أو غُيِّر فإنه باقٍ، ولا سيما شريعة الإِسلام التي بُعِثَ بها محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ لأنها مكتوب لها البقاء إلى يوم القيامة؛ ولهذا يحاول المبطلون المعتدون الملحدون أن ينالوا من هذه الشريعة، ولكن يقيض الله لها من يكبح جماحهم، ويرد عدوانهم؛ إذن الحكيم من الحكم ومن الحكمة، والحكمة حكمة الشيء على الوصف الذي هو عليه، وحكمة الشيء في الغاية والثمرة المرجوة منه، والحكم كوني وقدري؛ وعلى هذا فيكون الحكم الكوني له حكمتان: حكمة وصف، وحكمة غاية، والحكم الشرعي له حكمتان: حكمة وصف، وحكمة غاية.

١٣- **ومن فوائدها وأحكامها: الفائدة المسلكية العظيمة؛** وهي أن الإِنسان إذا علم أن الله هو العزيز؛ فإنه لن يستمد العزة إلا من عنده ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والعزة المستمدة من عند الله تكون بأمرين: إذا استقام على دينه، وبدعائه وسؤاله الغزة؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

١٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الفائدة المسلكية في أن الإنسان يرضى بما قدره الله عليه، وبما شرعه له؛ لأنه يعلم أنه مبنيٌّ على الحكمة، فإذا علمت أن ما قدره الله عليك صادرٌ عن حكمة؛ فإنك سوف تقتنع؛ لأنك تعلم أن الله أعلم بمصالحك، وكذلك إذا علمت أن شريعة الله مبنية على الحكمة؛ فإنك تنقاد لها، وترضى بهذه الشريعة، وتعلم أنها حق، وأن مخالفتها هو السفه والباطل.

١٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: الفائدة المسلكية أيضًا في أنك إذا علمت أن الحكم لله ـ تعالى ـ كونًا وشرعًا؛ فإنك لن تتجاسر على مخالفة أحكامه الشرعية، كما أنك لن تتمكن من مخالفة أحكامه القدرية؛ وحينئذٍ تكون مسلمًا لله ظاهرًا وباطنًا، كونًا وشرعًا.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

لما ذكر الله ـ جل وعلا ـ ما قام به إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الأفعال الجليلة، والأقوال الحميدة، والدعوات المستجابة، والإخلاص التام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾؛ يعني: لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم، وهي دينه الذي هو عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ يعني:

إلا من رضي لها السفه؛ والسَّفه ضد الرشد؛ وهو - أعني: السفه - التصرف على وجه الخطأ، وبيَّن اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فضله على إبراهيم في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ فيكون من اتبع ملته مصطفى في هذه الدنيا، ويكون في الآخرة من الصالحين، كما كان إبراهيم - عليه الصلاة والسلام.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- الثناء على ملة إبراهيم؛ وهي دينه المبني على الإخلاص لله، والمتابعة لشرعه، ولقد أمر الله نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا؛ قال الله - تعالى -: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

٢- **ومن فوائدها وأحكامها:** أنَّ اتباع ملة إبراهيم هو العقل، والرشد، والصلاح.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها:** أن من رغِبَ عن ملة إبراهيم فهو السفيه، الذي أوقع نفسه في السفه، وإذا كان الناس يعدون من تصرف في ماله خبط عشواء سفيهًا؛ فإن من رغب عن ملة إبراهيم أسفه منه وأشد سفهًا.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها:** الثناء على إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ لكون الله - تعالى - اصطفاه في الدنيا، ووعده وأكد أنه في الآخرة من الصالحين.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن طريق إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وملته صفوة أعمال الخلق؛ لأنها شريعة الله، ولأنها صادرة عمن اصطفاه الله؛ فتكون هي الصفوة من أعمال الخلق التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات الآخرة؛ وهي اليوم الآخر الذي يقوم فيه الناس من قبورهم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لينالوا جزاء أعمالهم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أنَّ الصلاح وصفٌ حميدٌ حتى للرسل؛ فهم ـ أي الرسل ـ قمة الصالحين، والصلاح قد يكون قسيمًا للنبوة والرسالة إذا ذكر أو قرن معهما في الذكر؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، لكن إذا ذُكر الصلاح وحده فهو عام للجميع.

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: جواز وصف النبي ﷺ بالصالح؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وفي حديث المعراج: أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا مرَّ بالنبيِّ في السموات يقول: «مَرْحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح»، وإبراهيم قال: «مَرْحَبًا بالنبي

الصالح والابن الصالح»(١).

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١].

﴿إِذْ﴾ هذه متعلقة بشيء محذوف، والتقدير: اذكر ـ منوهًا ومثنيًا على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ أي: أسلم لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إسلامًا شرعيًّا؛ كما أنه مسلم له إسلامًا كونيًّا قدريًّا، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فكان الجواب جواب مبادرة وفورية، لم يتأخر، ولم يتوانَ، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، ولم يقل: «أسلمتُ لربي»؛ لأن قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ اعم واشمل، وهو كالتعليل للحكم؛ أي: الإسلام؛ يعني: أسلمت لله؛ لأنه رب العالمين الذي يتصرف في عباده كما يشاء.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ فضيلة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث أضاف الله ربوبيته إليه في قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: التنويه بذكر إبراهيم وبيان فضله، وهذه من عادة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يضيع أجر من

---

(١) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله و إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٣).

أحسن عملًا؛ فإن الله يرفع ذكر من أحسن عملًا بعد مماته، ويقيض من يبعث حياته وإن كان ميتًا؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بهذه الكلمة العظمية؛ وهي الإسلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإن إبراهيم وصى بها بنيه، ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أي: وصى بها بنيه أيضًا؛ ويعقوبُ هو ابنُ إسحاق بن إبراهيم؛ فيكون إبراهيم جَدًّا له. ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾؛ اختاره لكم دينًا تدينون به لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، تقومون بحقه وحق عباده؛ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: استمروا على إسلامكم إلى الموت.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أهمية الإسلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ حيث إن الأنبياء الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وصوا به أبناءهم.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن البنين الذكور هم أهل القيام بهذه المهمة العظيمة؛ الإسلام لله، والدعوة إليه، ونشره بين الأمة.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تفضيل الذكور على الإناث.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** بيان أن يعقوب ـ وهو ابنُ إبراهيم ـ وصَّى بها بنيه أيضًا، ومن أبنائه: يوسف الذي أنزل الله ـ تعالى ـ في قصته سورة كاملة.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الله ـ تعالى ـ اصطفى هذا الدين لعباده المؤمنين، واختاره لهم.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب شكر الله ـ تعالى ـ على نعمته بالدين الإِسلامي؛ حيث اختاره الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لعباده، ثم شكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن وفق العبد للقيام بهذا الدين الذي اصطفاه الله ـ تعالى ـ له.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب استمرار الإِسلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى الموت؛ وهذا يتفرع عنه فائدة أخرى؛ وهي حرص الإِنسان على الثبات على دينه إلى أن يلقى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو مسلم له.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ هنا في معنى «بل»، **وهمزة الاستفهام**، والتقدير: «**بل أكنتم شهداء**» ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، والمقصود بهذا تقرير هذه الوصية التي وصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؛ يعني: أي معبود تعبدونه من بعدي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ، وهو الله رب العالمين، وذِكْرُ إسماعيل هنا من باب التغليب والتبعية؛ لأن إسماعيل ليس من آباء يعقوب، ولكنه عمه، وقد قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب: «أما شعرتَ أنَّ عمَّ الرجل صِنو أبيه»[1].

وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ هذا تأكيد التوحيد؛ يعني: لا نعبد معه غيره، بل نعبده هو ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ﴾؛ أي: لهذا المعبود - وهو رب العالمين - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مستسلمون له ظاهرًا وباطنًا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان حرص يعقوب - عليه الصلاة والسلام - على أن يكون بنوه على توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والاستسلام له ظاهرًا وباطنًا؛ ووجه ذلك أنه سأل بنيه عن هذا الأمر العظيم وهو في سياق الموت.

٢- **ومن فوائدها وأحكامها**: اعتبار قول المحتضر، وأن قوله المعتبر معمولٌ به، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس؛ فمن الناس من إذا احتضر، ونزل الملك لقبض روحه؛ غاب عن شعوره، ولم يدر ما يقول، وهذا لا عبرة بقوله، ومن الناس من يبقى معه فكره وإحساسه وإن

---

(١) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣).

كان في سياق الموت، وهذا هو الذي يعتبر قوله.

٣- **ومن فوائدها وأحكامها**: حرص الأب على أبنائه، وأنـه ينبغـي أن يورث بعده ذرية طيبة تعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا تعبد غيره.

٤- **ومن فوائدها وأحكامها**: أن الآباء والأجداد يكونون أسوة لأبنائهم وأبناء أبنائهم، فإما أسوة حسنة وإما أسوة سيئة، فهؤلاء البنون ـ أعني: بني يعقوب ـ قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ﴾، والكفار الذين عاندوا المرسلين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

٥- **ومن فوائـدها وأحكامهـا**: أنـه ينبغـي للرجـل إذا كـان مبـتلى بمعصية من المعاصي أن يحرص على ألا يشاهده أهلـه عليهـا؛ وأضرب لذلك مثلًا بشرب الدخان؛ فإن بعض الناس يكون مبتلى بهذه المعصية، ثم يشربها أمام أبنائه فيألفون هذا، وربما يشربونها كـما يـشربها أبـوهم، فيكون ـ بذلك ـ دالًّا على سيئة، عليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: إطلاق اسم الأب على الجد؛ لقولـه: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾، وهـــو دليلٌ على القول الراجح من أقوال أهـل العلـم في أن الجـد في المـيراث بمنزلة الأب؛ فيحجب الإخوة، سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: إطلاق لفظ الأب عـلى العـم تغليبًـا؛

لقوله: ﴿ ءَابَآبِكَ إِبۡرَٰهِـمَ وَإِسۡمَـٰعِيلَ وَإِسۡحَـٰقَ ﴾.

٨ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: أن التوحيد لا يتم إلا باعتقاد وحدانية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ بحيث لا يعتقد الإنسان له شريكًا؛ لقوله: ﴿إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾.

٩ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: فضيلة بني يعقوب؛ حيث قالوا: إنهم يعبدون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ويسلمون له في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يحقق لنا جميعًا الإسلام له؛ حتى نلقاه على أحسن حال يرضى بها عنا.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٣٤﴾ [البقرة: ١٣٤].

﴿تِلۡكَ﴾ المشار إليه مَنْ سبق من الأمم، حيث إن بعض الناس يظن أن انتسابه إلى أحد من الأنبياء أو غيرهم من الأولياء ينفعه عند الله؛ فيقول: أنا أبي فلان، فقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: عما كان يعمل هؤلاء، بل كل يسأل عما عَمِلَ.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ قطع تعلّق الإنسان بالنسب، وأن نسبه لا ينفعه عند الله؛ وإنما الذي ينفعه هو العمل الصالح الذي يكون قرينه في قبره وفي حشره،

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يتبع الميِّت ثلاثة، فيرجع اثنـان ويبقى معه واحد؛ يتبعه أهلُه، ومالُه، وعملُه، فيرجع أهلُهُ ومالُهُ، ويبقى عملُهُ»(١).

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن كسب الآباء لا ينتفع به الأبناء، وأن كسب الأبناء لا ينتفع به الآباء إلا إذا كان ذلك سببًا؛ فإنه يؤجر المتسبب للخير على ما تسبب به؛ لأن الدال على الخير كفاعله، وهو في الحقيقة من كسبه؛ فمن اقتدى بك في العمل الصالح وانتفع بما عملت؛ فإن أجره ينالك منه؛ لأن الدال على الخير كفاعله.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن الأبناء والأحفاد لا يُسألون عما يعمله الآباء؛ فخطيئة الآباء عليهم، وخطيئة الأبناء عليهم؛ لقوله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

* * *

ثم قال: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

قالت اليهود للنبي ﷺ وأصحابه: كونوا هودًا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، وكذبوا في ذلك؛ فإن الهداية باتباع

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٤)؛ ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، رقم (٢٩٦٠).

شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وبعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا اهتداء ولا هداية إلا بالدين الذي جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؛ وهو ملة إبراهيم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: بل نتبع ملة إبراهيم؛ أي: دينه الذي هو عليه، ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: بدون ميل إلى الشرك والكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ بل كان من المخلصين لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ أن أهل الباطل لا يألون جهدًا في الدعوة إلى باطلهم وتضليلهم الناس؛ لقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن أهل الباطل قد يدَّعون ما يعلمون أنه باطل؛ لقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾؛ فإن اليهود والنصارى آتاهم الله الكتاب، وهم يعرفون النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يعرفون أبناءهم؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ كتموا الحق، وقالوا: الحق معنا، ومن تبعنا فهو الذي قد اهتدى.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الأمة؛ حيث ردَّ على هؤلاء المضللين؛ اليهود والنصارى بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أنه يجب على من بيَّن الباطل أن يبين

الحق؛ ليسير الناس عليه؛ لأن النَاس لابد لهم من دين يدينون به، ومـن عمل يسلكونه وينهجونه، فإما خير وإما شر؛ ولهـذا قـال: ﴿قُلْ بَلْ﴾؛ أي: بل لا نكون هودًا ولا نصارى، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** بيان منقبة عظيمة من مناقب إبـراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث كان على غاية من الإِخلاص لله حنيفًا، ولم يكن من المشركين.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معصومون من الشرك، كيف لا وهم قد جاءوا لإِبطال الشرك، والقضاء على أهله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

* * *

ثم قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

الخطاب في قوله: ﴿قُولُوا﴾ لهذه الأمة، لكل من كان مـن بنـي آدم

بعد نزول هذه الآية؛ فالخطاب ـ إذن ـ مُوجَّهٌ لكل أمة الدعوة.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أقررنا بوجوده، وأذعنَّا لأمره، وقبلنا خبره، والإِيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ يتضمن عدة أمور؛ يتضمن: الإِيمان بوجوده، والإِيمان بربوبيته، والإِيمان بألوهيته، والإِيمان بأسمائه وصفاته، فمن انتقص شيئًا من هذه الأمور الأربعة؛ فإن إيمانه ناقص، وقد يكون إيمانه معدومًا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ وهو القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾؛ وهؤلاء كلهم أنزل إليهم، يهتدون به، ويهدون به، وما من رسول إلا أنزل الله عليه كتابًا؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ قيل: إن المراد بهم أبناء يعقوب، وقيل: المراد بالأسباط القبائل التي تفرق إليها بنو إسرائيل؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]؛ أي: ما أنزل على الأسباط بواسطة أنبيائهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ فإن الله ـ تعالى ـ بعث في بني إسرائيل أنبياء كثيرين، وهذا القول أصح من الذي قبله.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: ما أوتي موسى من الآيات، وما أنزل عليه من الوحي، وهو التوراة، وكذلك ما أوتي عيسى من الآيات وما أنزل عليه من

الوحي، وهو الإنجيل .

﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ ؛ على سبيل العموم من الآيات التي يؤمن على مثلها البشر؛ فإن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «ما من الأنبياءِ من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشَرُ...» (١)؛ وذلك أنه لابد أن يكون للأنبياء آيات تبين للناس صدق ما بعثوا به؛ لأن الناس لن يصدقوا إذا جاءهم شخص وقال: أنا رسول الله إليكم إلا بآيات تدل على صدقه؛ ولهذا جعل اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لكل نبي آية،﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: لا نفرق بين أحد من هؤلاء الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والمراد أننا لا نفرق بينهم في أصل الإيمان؛ فإننا نؤمن بأنهم كلهم صادقون فيما جاءوا به من الوحي، وأنهم رسل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى خلقه، ولكننا نفرق بينهم من حيث الأحكام والشرعة ـ أي: الشرائع ـ؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ فالشرائع لا تلزمنا ـ أي: شرائع من قبلنا ـ، وإنما تلزمنا شريعتنا التي جاء بها نبينا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، أما شرائع من قبلنا فإن وافقت شريعتنا آمنا بها؛ بناء على أن شريعتنا جاءت بها، وإلا فإنها تكون منسوخة بشريعتنا، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾؛ أي: ونحن لله مسلمون؛ أي:

---

(١) رواه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد و إلى جميع الناس، رقم (١٥٢).

منقادون لأمره، متبعون لشرعه، وهذه الآية فيها أصول عظيمة؛ ولهذا كان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقرأ بها في سنة الفجر أحيانًا؛ يقرأ بها في الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية يقرأ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وأحيانًا يقرأ في الركعة الأولى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الركعة الثانية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- وجوب الإيمان بما ذكر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

٢- **ومن فوائدها وأحكامها**: الإيمان على وجه التفصيل بما أنزل إلينا وهو القرآن؛ فنؤمن بأن القرآن كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أنزله على محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بواسطة جبريل الأمين؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢ـ ١٩٥]، ونؤمن كذلك بما تضمنه هذا القرآن الكريم من الأخبار، وأنها أخبار حق، ونؤمن كذلك بما تضمنه هذا القرآن من الأحكام؛ وهي الأوامر والنواهي، وأنها أحكام مبنية على العدل، والرحمة، وتحقيق المصالح؛ ولهذا لا رحمة للخلق أعظم من رحمتهم بهذا الدين الإسلامي.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب الإيمان بما أنزل الله ـ تعالى ـ على الرسل المذكورين؛ كالصحف التي أنزلت على إبراهيم؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وكذلك ما أنزل إلى إسماعيل وإسحاق... إلخ.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن هؤلاء الرسل المذكورين كلهم قد أنزل إليهم، إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط؛ يعني: أنبياء الأسباط على القول الرجح.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى من الآيات البينات الشرعية والكونية.

فمن آياتهما الشرعية: التوراة التي جاء بها موسى، والإنجيل الذي جاء به عيسى، ومن آياتهما الشرعية أيضًا: أن مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عصًا، إذا وضعها في الأرض انقلبت حيَّه، وإذا حملها عادت عصًا، وأنه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ أي: من غير برص، لكنه بياض نور.

أما آيات عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: فإنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ؛ فهو يبرئ الأكمه والأبرص، وأبلغ من هذا أنه يحيي الموتى ـ بإذن الله ـ؛ يأمر الميت فيحيا، وأبلغ من هذا أنه يخرج الموتى من قبورهم؛ يقول للميت في قبره: اخرج؛ فيخرج، ولكنه ـ بإذن الله ـ؛ لأن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يملك أن يحيي أحدًا من الخلق،

ولا أن يميت أحدًا من الخلق؛ فالذي يحيي ويميت هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ولكنَّ الله ـ تعالى يجعل قول عيسى سببًا، فإذا قال عيسى للميت: قُمْ حَيًّا وما أشبه ذلك؛ قام حيًّا، وإذا وقف على القبر وقال: اخرج حيًّا؛ خرج حيًّا، وكان أيضًا يخلق من الطين كهيئة الطير ـ؛ صورة الطير ـ، فينفخ فيها فتكون طيرًا يطير بإذن الله، ينفلت من يده طائرًا، وهذا النفخ الذي نفخه عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو نفخ للروح في هذا التمثال الذي كهيئة الطير ـ فتبارك الله رب العالمين.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها**: وجوب الإيمان بما أوتي الأنبياء عمومًا من الآيات، وأنها حق، وأنها ليست سحرًا، بل هي تكون بقدرة الله ـ تعالى ـ وإذنه.

٧- **ومن فوائدها وأحكامها**: أنه يجب علينا الإيمان بما أنزل على إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، نؤمن بذلك إيمانًا لا نفرق فيه بين واحدٍ وآخر، وهذا من حيث الخبر؛ فيجب علينا أن نصدق أخبارهم، ونؤمن بها، أما من جهة الأحكام؛ فلكلٍّ جعلَ اللهُ شرعة ومنهاجًا، وكل أمة تعمل بما جاء في شريعتها من الأحكام.

٨- **ومن فوائدها وأحكامها**: فضيلة هذه الأمة؛ حيث كانت الآخرة؛ لتصدق جميع الأنبياء السابقين؛ فيكون لها فضيلة الإيمان بكل الأنبياء السابقين.

٩ـ ومن فوائدها وأحكامها: إعلان الإخلاص لله في قوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

قوله: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾؛ يعني: المكذبين للرسل، بل المكذبين لرسول الله ﷺ من اليهود، والنصارى، والمشركين، ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن الكريم، والباء قيل: إنها زائدة، والمعنى: فإن آمنوا مثل ما آمنتم به؛ أي: على صفة ما آمنتم به، ونحن قد آمنا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وآمنَّا بالقدر خيره وشره، والتزمنا بأحكام شريعة محمد و، فإذا آمنوا مثل هذا الإيمان الذي آمنت به هذه الأمة؛﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾، وهذا مقابل قوله: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ﴾ [البقرة: ١٣٥]؛ فيكون الاهتداء حقيقة من كان مسلمًا مؤمنًا بمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ يعني: أعرضوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به.

﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾؛ أي: في تباعد عن الدين ومنازعة فيه، وهذا لا يضركم، ولكنه يضرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ أي: فسيكون الله كافيًا لك بالنسبة لهم، وسينصرك

عليهم، وقد حصل هذا ـ ولله الحمد ـ؛ فإن اليهود والنصارى أذلَّهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لما كان المسلمون أعزَّة بدين الله، قائمين بأمر الله؛ صار اليهود والنصارى أذلاء بين أيديهم، يؤدون الجزية أو يسلمون، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سبق الكلام عليه عند قول الله ـ تبارك وتعالى ـ عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ فلا حاجة إلى إعادة الكلام عليه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان أنه لا هداية بغير الإيمان بما آمنت به هذه الأمة؛ لقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾، وإذا فات الشرط فات المشروط.

٢ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن اليهود والنصارى ضالون، تائهون، بعيدون عن الحق؛ لقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾؛ فمفهومه إذا لم يؤمنوا كذلك فلا هداية لهم.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** ضلال من ظن أن دين اليهود والنصارى ـ اليوم ـ دينٌ قائمٌ مشتمل على الهداية، مقبول عند الله، ومن زعم ذلك فإنه كافر خارج عن الملة ـ والعياذ بالله ـ، مُكَذِّبٌ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولقول النبي ﷺ: **«والَّذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموتُ ولم**

يؤمن بالذي أُرسلت به؛ إلا كانَ من أصحاب النَّار»(١)، ومعلوم أن من شهد أو اعتقد أن دين اليهود والنصارى دين حق ـ اليوم ـ سيجعلهم ـ أي: اليهود والنصارى ـ من أصحاب الجنة؛ فإنه يكون بهذا مكذبًا لقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إلا كانَ من أصحابِ النَّار».

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن الأمم السابقة قبلنا تبعٌ لنا، يلزمهم أن يؤمنوا بشريعتنا، ويتبعوا شريعتنا، وهذا من نعمة الله ـ تعالى علينا؛ فنحنُ الآخرون زمنًا، السابقون فضلًا، السابقون يوم القيامة حشرًا، ونشرًا، وإعطاء للكتب، وعبورًا على الصراط، ودخولًا للجنة ـ ولله الحمد.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تهديد المتولين عن شريعة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، وأنهم في شقاق؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾؛ أي: في شق بعيد عن الدين الحق المقبول عند الله.

٦- **ومن فوائدها وأحكامها:** البشرى السارة في قوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيكفي نبيه كل عدو للمسلمين من اليهود، والنصارى، وغيرهم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** تنشيط المسلم على التمسك بدينه،

(١) سبق تخريجه ص (١٤١).

وأنه على حق، وأنه منصور، ولابد أن الله ـ تعالى ـ كافيه أعداءه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقوله ـ تعالى ـ في آية أخرى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

٨ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: بيان عظمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وعزته، وقدرته؛ حيث قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهو شامل لكل عدو لرسول الله ﷺ.

٩ ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما «**السميع والعليم**»، وإثبات ما دل عليه هذان الاسمان الكريمان من الصفة؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ موصوف بالسمع، وموصوف بالعلم، فسمعه واسع للأصوات كلها، وعلمه محيط بكل شيء؛ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٨].

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: الزموا صبغة الله؛ أي: دين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ أي: لا أحد أحسن من الله صبغة ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾؛ أي: لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وحده ﴿عَـٰبِدُونَ﴾؛ أي: متذللون بالطاعة بامتثال أمره، واجتناب نهيه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ فضيلة ما نحن عليه من دين الله؛ حيث أضافه الله إلى نفسه، فقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾.

٢ـ ومن فوائدها وأحكامها: أن أحسن شريعة يستمسك بها الخلق شريعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٣ـ ومن فوائدها وأحكامها: وجوب إقرار العبد بأنه عبد لله، ومقتضى هذه العبودية أن يكون ممتثلًا لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ، مجتنبًا لنهيه؛ لأن العبودية مأخوذة من التعبد؛ وهو التذلل محبةً وتعظيمًا.

٤ـ ومن فوائدها وأحكامها: وجوب إخلاص العبادة لله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة: ١٣٩].

﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد، ويصح أن يكون خطابًا لكل من يتوجه إليه الخطاب. والاستفهام في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ للإنكار، والمحاجة هي المخاصمة؛ لإقناع الخصم؛ لأن كل واحد من الخصمين يدلي بحجته؛ ليلزم بها الآخر.

وقوله: ﴿فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: في دينه وشرعه، فتقولون: نحن الذين على

الحق مع أن الحق مع من اتبع ما جاء به رسول الله ﷺ.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: باتفاقنا واتفاقكم أنه رب الجميع، وإذا كان هذا إقراركم؛ فإن الواجبَ عليكم أن تأخذوا بشرعه الآخِر فالآخِر؛ لأنه رب؛ فهو أعلم بمصالح عباده، فهو الذي يملك ما شاء من أمورهم، فيأمرهم وينهاهم على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾؛ يعني: أن الرب واحد، وأن لكل ذي عمل عملًا خاصًّا به؛ فعمله خاص به وحده؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

فكيف تحاجوننا في الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ونحن نتفق جميعًا على أنه ربنا، ولكن أنتم تخالفون هذا الرب، فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ثم ختم الآية بذكر الإِخلاص لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وإخلاص الشيء تنقيته مما يشوبه؛ فالمعنى: نحنُ له مخلصون في العبادة، لا نعبد غيره، ولا نتخذ ربًّا سواه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ الإِنكار على من يحاج في الله بغير علم، بل بما يعلم أن الأمر بخلافه؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾.

٢ـ ومن **فوائدها وأحكامها**: أنه ينبغي عند المحاجة ذكر ما يتفق عليه الطرفان؛ ليكون ملزمًا للآخر فيما يقتضيه هذا الاتفاق؛ لقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وقد سبق في تفسيرها ما يتبين به وجه ذلك.

٣ـ ومن **فوائدها وأحكامها**: التبرؤ من أعمال المشركين، والاعتزاز بأعمال أهل الحق؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾.

٤ـ ومن **فوائدها وأحكامها**: أنه ينبغي للمؤمن أن يكون له قوة شخصية، يعتز بها في دينه، وفي شرعه، وفي منهاجه؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾.

٥ـ ومن **فوائدها وأحكامها**: الحذر من التشبه بغير المسلمين؛ لأنه إذا كانت أعمالهم لهم ـ وهذه قضية مسلمة ـ فلا يجب أن نتشبَّه بهم فيما يختص بهم من أعمالهم؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1].

٦ـ ومن **فوائدها وأحكامها**: فضل هذه الأمة بإخلاصها لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾؛ أي: له لا لغيره.

❊ ❊ ❊

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ

(١) سبق تخريجه ص (٣٢).

أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى «بل، وهمزة الاستفهام»؛ أي: بل أتقولون، والاستفهام هنا للإنكار؛ يعني: أن الله ـ تعالى ـ ينكر عليهم هذا القول: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ﴾، وهل هذا يعقل أن يكون إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط المتقدمون هودًا أو نصارى، واليهودية والنصرانية لم تحدثا إلا من بعدهم؟! هذا ليس بالمعقول؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٦٥].

يقول ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن هؤلاء اليهود والنصارى منكرًا عليهم: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾، ومن المعلوم أن الجواب: بل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الأعلم، وإذا كان الله ـ تعالى ـ أعلم، وقد بيَّن أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبنيه، ويعقوب وبنيه كلهم كانوا على الحق، كلهم كانوا على الإخلاص، فكيف تأتون أنتم وتقولون: إن إبراهيم كان يهوديًا أو إن إبراهيم كان نصرانيًا؟!.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ﴾؛ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ «من» استفهام، والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ لأن الواجب على المستشهد أن يشهد ولا

يكـــتم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ، وتقـــدير الجواب لهذا الاستفهام أن نقـول: لا أحـد أظلـم مـن هـذا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ! هذه نافية، ﴿وَمَا﴾ هذه نافيـة، ﴿بِغَـٰفِلٍ﴾ خـبر المبتدأ، ودخلت عليه الباء لزيادة التأكيد؛ فلم يكن الله ـ تعـالى ـ غـافلًا عما يعمل هؤلاء؛ لكمال علمه ومراقبته ـ جل وعلا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ـ بيان بطلان هذه الدعوة الباطلة الكاذبة من اليهـود والنـصارى الذين قالوا: إن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقـوب، والأسـباط كانوا هودًا أو نصارى.

٢ـ **ومـن فوائـدها وأحكامهـا**: الإنكـار علـيهم، والمنـاداة علـيهم بالجهل؛ لقوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: اتخاذ هذه القاعدة العظيمة لرد دعوى أهل التعطيل الذين أنكروا ما وصف الله به نفسه، وقالوا: لا يمكـن أن يتصف الله بهذا؛ لأن هذا حادث، أو لأن هذا يقتضي التجـسيم، أو مـا أشبه ذلك، فنقول لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فإن قـالوا: نحـن أعلـم؛ فقد نادوا على أنفسهم بالضلال، وإن قـالوا: بـل الله أعلـم؛ قلنـا: إذن أثبتوا ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات على حقيقته، وانفـوا مـا نفى الله عن نفسه من الأسماء والصفات.

٤ـ **ومن فوائدها وأحكامها**: وجوب نشر الإنـسان مـا علَّمـه الله ـ

عَزَّ وَجَلَّ ـ من العلم، لاسيما في أعظم الأمور؛ وهو توحيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** أن من كتم ما علّمه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فإنه من أظلم الناس، وأظلم كتم للشهادة أن يكتم الإنسان ما أشهده ربه عليه.

٦ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات كمال علم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ومراقبته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٧ـ **ومن فوائدها وأحكامها:** إثبات صفات النفي في حق الله، ولكن يجب أن نعلم أن النفي المحض في صفات الله لا يوجد؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم ليس بشيء، ولكن لا توجد صفة منفية عن الله إلا تضمنها كمالًا؛ ولهذا نقول: كل صفة نفاها الله عن نفسه فإنها متضمنة لشيئين: **أولهما:** نفي تلك الصفة المذكورة، **وثانيهما:** إثبات كمال ضدها؛ فمثلًا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]؛ فنفى الظلمَ عن نفسه لماذا؟ لكمال عدله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا لعجزه عن الظلم، ولكن لكمال عدله لم يظلم أحدًا، وعلى هذا فقس.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وقد سبق نظيرها في الآية الرابعة والثلاثين بعد المئة، وتكلّمنا على

ما فيها مِنْ أحكام، حَسَبَ ما فَتَحَ الله به علينا، ونكتفي بما سبق.

* * *

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

السين في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ للتنفيس، وتفيد أمرين:

الأمر الأول: تحقيقُ مَدْخُولها.

الأمر الثاني: قربُ وقوعِ مَدْخُولها.

و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: جمعُ سفيه، وهو مَنْ جانَبَ الرُّشْد في تَصَرُّفاته القولية والفعلية، وفي عقيدته أيضًا؛ لقوله تَعَالَى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾، يعني: أيُّ شيءٍ ولاهم، أي: صَرَفَهُم عَنْ قِبْلَتِهم التي كانوا عليها، والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس؛ فإنَّ النبي ﷺ لَمَّا قدم المدينة، صار يتَّجِهُ في صلاته إلى بيت المقدس نحو سِتَّة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، ثم أمره الله ـ تَعَالَى ـ أن يولِّيَ وجهه شطر المسجد الحرام، أي: الكعبة ـ كما سيأتي في الآيات إن شاء الله ـ فردَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا الاعتراض مِنْ هؤلاء السُّفَهَاء بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾، أي: هو مالكُ المشرق والمغرب، وله أنْ يتصَّرف في مُلكه بما يشاء، حسب ما تقتضيه حكمته البالغة.

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وممَّن هداهم إلى الصراط المستقيم هذه الأُمَّة، حيث هداهم إلى القبلة الأصلية، وهي الكعبة؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إنَّ الكعبة كانت قِبْلَةَ الأنبياء، وإنَّ حَرْفَ القبلةَ إلى بين المقدس كان مِنْ تصرُّفِ أتباع أولئك الأنبياء.

وعلى هذا فالصِّراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه هنا، هو الاتجاه إلى الكعبة المشرَّفة في الصلاة.

في هذه الآية مِنَ الحِكَمِ والفوائد ما يلي:

١ـ عِلمُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما سيكون؛ لقوله:﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، ومنَ المعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل شيء عليم، وأنَّ عِلْمَهُ ـ سبحانه وتعالى ـ بالأشياء محيطٌ بها جُمْلَةً وتفصيلًا، وعلمُهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أزليٌّ لم يُسبق بجهل، أبديٌّ لا يلحقه نسيان.

٢ـ أنَّه لا يعترض على شرع الله إلا مَنْ كان سفيهًا؛ وذلك لأن السَّفيه لا يعرف الحكمة، أو يعرفها ويسلك خلافها، ومَن لا يعرف الشيء لا يرتضيه؛ لذلك سوف يعترضون على ما سيفعله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، بل على ما سيأمر الله به من الاتِّجاه إلى الكعبة.

٣ـ أنَّ النبي ﷺ كان يتَّجِه ـ قبل أن يُؤمر بالاتجاه إلى الكعبة ـ إلى بيت المقدس، قيل: لأنه كان يُحِبُّ أنْ يوافق أهل الكتاب فيما لم يُؤمَرْ بِخلافِه؛ وهذا كان أول ما قَدِم النبي ﷺ المدينة، كان يُحبُّ أن يُوافق

أهلَ الكتاب فيما لم يؤمر بخلافه، ثُم صار يأمُرُ بِمُخَالَفَة أهل الكتاب.

٤ـ عمومُ مُلكِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكل شيء: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾، أي: هو المالك لكل شيء، وهو المتصرِّفُ فيما يشاء بما يشاء ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ على ما تقضيه حكمتُه البالغة.

٥ـ أنَّ الهـــداية بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فهـــو الذي يهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم، فلا تُطلب الهداية إلا من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ وهذا ينفي الإعجابَ بالنفس والافتخار بالعمل.

ولكنْ لو قال قائل: هل هداية الله سبحانه مَنْ يشاءُ بِمُجَرَّد المشيئة، أم أنها مقرونةٌ بالحِكْمَة؟

فالجواب على ذلك أنْ نقول: بل هي مقرونةٌ بالحكمة، وما من شيءٍ يحكم الله به، إلا وهو مقرونٌ بالحكمة، سواءٌ كان ذلك الحُكْمُ الذي حَكَمَ الله به شرعيًّا أم كونيًّا؛ ودليل ذلك قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: ٨]، وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]؛ فبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّ مشيئته تابعةٌ لِعِلْمه وحكمته.

وهداية الله سبحانه وتعالى نوعان:

هداية دلالة: وهذه عامةٌ لكل أحد؛ للكفار والمؤمنين، والفُجَّار والأبرار.

وهداية توفيق: وهذه خاصةٌ بمن وفَّقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لاتِّباع الحق؛ قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فهذه هي دلالة التوفيق وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى: ٥٢]، وهذه هي الهداية العامة أو هداية الدلالة والإرشاد.

مثال الأولى العامة لكلِّ أحد: قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣]، يعني: الإنسان، وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧]، أي: دَلَلْنَاهُم على الصِّراط المستقيم، ولكنهم استحبُّوا العمى على الهدى.

٦- أنَّ طريق الله ـ تَعَالَى ـ مستقيم، ليس فيه اعوجاج ولا انحراف، وكَوْنُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يصِفُ طريقَه بالصراط المستقيم، يدلُّ على أنَّ هذا الطريق واسعٌ، ليس محجورًا على أحد. بل كلُّ مَنْ شاء مِنَ النَّاس دَخَلَه، ويدلُّ ـ أيضًا ـ على أنَّ هذا الطريق ليس فيه اعوجاجٌ ولا انحراف، بل هو موصلٌ إلى دار كرامة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بدون انحراف، ولا تردد.

* * *

ثم قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ

إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: مثلما ذُكِرَ مِنْ هدايةِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴿جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: صيَّرْنَاكُم أُمَّة وسطًا، أي: عدلاً خيارًا.

والأُمَّة: هي الطائفة من الناس، وتَرِدُ في القرآن على معانٍ مُتعددة:

منها: الطائفة من الناس؛ كما في هذه الآية.

ومنها: الإمام؛ كما في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠].

ومِنْها: الدِّين؛ كما في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: على دينٍ ومِلَّة.

ومنها: الزَّمن؛ كما في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥].

فهذه أربعةُ معانٍ.

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتَصِيرُوا شهداء على الناس، على الأنبياء والرُّسل وعلى الأُمم؛ فنحنُ آخر الأمم، نشهد على مَنْ سبقنَا، فَنَشْهَدُ لِمَنْ سبقنا مِنَ الرُّسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أنَّهم بلَّغُوا رِسَالاتِ ربِّهم، ونشهدُ على مَنْ سبقنَا مِنْ أُممهم أنَّ الرِّسالة

بَلَغَتْهُم، وأنَّ منهم مُكذِّبين، ومنهم مُصَدِّقين، وكذلك نكون شهداء على الناس يوم القيامة؛ كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾:

﴿ٱلرَّسُولُ﴾: هو محمد ﷺ؛ لأن (أل) هُنا للعهد الذهني، ولا معهود في الذِّهن حين نزول هذا القرآن مِنَ الرُّسل إلا محمد ﷺ.

﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾: يشهد عليكم بأنه بلَّغ رسالة ربِّه؛ ولهذا لَمَّا خطبَ الناسَ يوم عرفة، قال: وأنتم تُسألون عنِّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلَّغتَ وأدَّيْتَ ونَصَحْتَ، قال: (اللهم اشهد) ثلاث مرات[١].

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾، أي: ما جعلنا القبلة التي كُنْتَ عليها، وهي استقبالُ بيت المقدس قبل أنْ يُؤمر بالاتجاه إلى الكعبة.

﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾؛ وذلك أنَّه لَمَّا صُرِفَت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، صار عند بعض الناس شكٌّ وارتياب، وربما ارتدَّ عن الإسلام بسبب هذا التوجيه من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ يقول هذا الشاكُّ المتردد: كيف تكونُ قبلتُه بالأمس بيتَ المقدس، وقبلتُه اليوم الكعبة؟

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾ هو عالمٌ جل وعلا مِنْ قبلِ أن يحصُلَ

---

(١) رواه مسلم كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

هذا الاتباع والمخالفة، لكنَّ المراد بالعلم هنا ـ وفيما يشبهه من الآيات الكريمة ـ: العلمُ الذي يترتب عليه الثواب والعقاب؛ وذلك أنَّ عِلم الله ـ تَعَالَى ـ السابق بما يكون من عباده، لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقابٌ إلا بعد التكليف؛ إذا كلَّفهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، ترتَّبَ على هذا التكليف الثوابُ والعقاب؛ الثوابُ لِمَنْ وافق، والعقابُ لِمَنْ خالف. ولا يظنَّ الظانُّ أنَّ عِلْمَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا يكون إلا بعد وقوع المعلوم؛ فإنَّ هذا ليس بصحيح؛ فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ عالمٌ بكل شيء قبل أن يكون.

﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ والرَّسولُ هنا هو محمدٌ ﷺ؛ إذْ لا رسول عهده سواه، ويَحتمل أن تكون للعهد الذكري؛ لأنه سبق ذكر الرسول ﷺ، وإذا أتتْ «أل» داخلةً على ما سبق ذكره، فإنهم يقولون: إنها للعهد الذكري؛ كما في قوله ـ تَعَالَى ـ:﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾[المزمل:١٥،١٦]. فالرَّسول هنا هو موسى ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ؛ لِسَبْقِ ذِكْرِه.

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾؛ أي: مِمَّنْ ينكِصُ إلى الوراء، وذلك بارتداده عنْ دين الإسلام، وعدم رضاه بما وقع.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾، يعني: وإنْ كانتْ هذه الحال، أو هذه القضية.

﴿لَكَبِيرَةً﴾: شاقة.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ﴾؛ فإنَّ الذين هداهم الله ووفَّقهم للحقِّ

يَسْهُل عليهم كل شيء في موافقة ما أمر الله به ورسولُه، ولا تكون الأوامر كبيرةً وشاقةً إلا على مَنْ ضَعُفَ إيمانه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ هذا التعبير يدلُّ على امتناع الشيء غاية الامتناع، أي: إذا جاءت (ما كان الله ليفعل كذا وكذا)، فهو مُمْتَنِعٌ غايةَ الامتناع.

وقوله: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾، أي: ما آمنتم به، ومنه صلاتهم إلى بيت المقدس سابقًا؛ لأنه قد يقع في قلوب بعض الناس الإشكالُ عما سبق مِنَ الصلوات إلى بيت المقدس، هل تكون باطلة ـ لأن القبلة صُرِفتْ إلى الكعبة ـ أمْ لا؟ فبيَّـن الله ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ الله لا يُضِيعُ ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرءوف: مأخوذٌ مِنَ الرَّأفة، وهي أشدُّ الرَّحْمة، وألطف الرحمة، والرحيم: هو ذو الرحمة التي يكون بها الإحسانُ إلى خَلْقِه، والإنعامُ عليهم.

وفي هذه الآية من الحِكَم والفوائد ما يلي:

١ ـ بيان فضيلة هذه الأُمَّة؛ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٢ ـ أنَّ هذه الأُمَّة ذاتُ شهادةٍ على مَنْ سَبَقَها مِنَ الأمم.

٣ ـ تعديلُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لهذه الأُمَّة؛ حيث جعلهم شُهداء على سائر الأمم، ولم يجعلهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ شُهداء إلا لِيَقْبَلَ شهادتهم.

٤- أنَّ رسول الله ﷺ كان شهيدًا على أُمَّته، فهو شهيدٌ عليهم ما دام فيهم، أمَّا فيما بعد موته، فإنه تُعْرَضُ عليه أعمال أُمَّته و، كما جاء في بعض الأحاديث(١)، فإذا صحَّت، فإنه يكون شهيدًا عليهم في حال حياته وبعد مماته، وإلا فإنه سيكون شهيدًا عليهم يوم القيامة.

٥- أنَّ الله - سبحانه وتعالى - قد يبتلي العباد بِشَرْعِ بعض الشرائع ونسخه؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

٦- أنَّ عِلْمَ الله - عَزَّ وَجَلَّ - ينقسمُ إلى قسمين:

عِلْمٌ يترتبُ عليه الثواب والعقاب، وهو ما يحصلُ بعد موافقة العبد لأمر الله، أو مخالفته، وهو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.

وعِلْمٌ سابقٌ: لا يترتب عليه الثواب والعقاب، وهو علم الله - تَعَالَى - الثابت في الأزل قبل امتحان العبد، فَعِلْمُهُ - سبحانه وتعالى - يكونُ قبل وجود المعلوم، ويكون بعد وجود المعلوم، فالعِلمُ الأول: لا يترتب عليه الثواب والعقاب، وهو المُراد في هذه الآية وأشباهها.

٧- الإشارة إلى أنَّ اتِّبَاع رسول الله ﷺ هو الطريق الصحيح

---

(١) منها: قوله ﷺ: «أكثروا عليَّ مِنَ الصلاة يوم الجمعة؛ فإنَّ صلاتكم معروضةٌ عليَّ» رواه أحمد (١٥٧٢٩)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي، كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجة، كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٣٦).

السليم؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

٨ـ ثبوتُ النَّسْخِ، أي: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينسخُ مِنْ أحكامه ما يشاء. والنَّسخ هو: رفْعُ الحُكم السابق، فتارةً يكونُ النَّسخُ مِنْ بدلٍ إلى بدلٍ أخفَّ منه، وتارةً يكونُ مِنْ بدلٍ إلى بدلٍ أثقل منه، وتارةً يكونُ مِنْ بدلٍ إلى بدلٍ مساوٍ له، وتارةً يكونُ إلى غير بدل:

فَمِثَالُ نسخ الحُكم إلى بدلٍ أشقَّ منه: نسخُ التخيير بين الصيام والإطعام في رمضان، إلى تعيين الصيام؛ فإنَّ صيام رمضان ـ أول ما فُرض ـ كان يُخيَّر فيه الإنسان بين أن يصوم أو يُطْعِم؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٣،١٨٤]؛ فهذه الآية ظاهرة في التخيير بين الصيام والإطعام، وقد ثبت ذلك صريحًا في «الصحيحين» من حديث سلمة بن الأكوع: أن الصيام أول ما فُرِضَ كان يُخَيَّر فيه الإنسان بين الإطعام والصيام، ثم نُسخ هذا التخيير إلى وجوب الصيام عينًا[1].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ رقم (٤٥٠٧)، ومسلم كتاب الصيام، باب بيان نسخ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾» رقم (١١٤٥)..

والحكمة في ذلك: هو أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أراد أن يحكم حكمًا، وكان فيه شيءٌ مِنَ المشقَّة على النفوس، بدأ ـ سبحانه وتعالى ـ بالأخف فالأخفِّ، حتى ترتاح النَّفس، ويسهُلَ عليها قبول الأشقِّ أو الأثقل.

ومثال النَّسخ إلى بدلٍ أخَفَّ منه: قوله ـ تبارك وتعالى ـ في آيتي المُصابرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال:٦٥]، فجعل الله ـ تَعَالَى ـ الصبر مشروطًا بأن يقابل العشرون مِنَّا مئتين، وأن يقابل المئة مِنَّا ألفًا من الذين كفروا، وهذا لا شك أنَّ فيه مشقة، لكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لطف وخفَّف في قوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٦٦]، فصار الصَّبْر يتحقَّق في مقابلة الواحد لِمِثْلَيْهِ.

ومثال النَّسخ إلى بدلٍ مساوٍ: ما نحن فيه الآن، نسخُ استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة شرَّفها الله؛ فإنَّ هذا البدل مساوٍ للبدل الآخر بالنسبة للمكلَّف؛ إذ لا فرق عند المكلَّف من حيث التعبُ البدنيُّ والمشقة البدنية بين أن يستقبل بيت المقدس، أو يستقبل الكعبة المشرفة.

ومثال النَّسْخ إلى غير بدل: ما أوجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ على

المسلمين مِنَ الصَّدَقَةِ عند مناجاة النبي ﷺ؛ فإن الله أوجب على المسلمين إذا أرادوا أن يناجوا رسول الله ﷺ أنْ يتصدَّقوا[(١)]، ولكن الله ـ تَعَالَى ـ خفَّف ذلك عنهم ونسخ هذا الوجوب.

ولا شك أنَّ النسخ قد يكون سببًا لفتنة بعض الناس، وارتدادِهِ أو شكِّه، ولكنَّ الحقيقة أنَّ النَّسخ يدل دلالة واضحة على أنَّ رسول الله ﷺ، رسولُ الله حقًّا، وأنَّه صادقٌ فيما بلَّغ عن ربه، تبارك وتعالى.

ثم إنَّ في النَّسخ بيانًا لحكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في شرعه وأنَّه ـ جل وعلا ـ يتعبَّد عبادَهُ بما شاء، على الوجه الذي يكون به صلاحهم.

٩ـ أنَّ النسخ يكون شاقًا على كثير منَ النفوس، إلا على مَنْ هداهم الله؛ فإنه يكون يسيرًا عليهم؛ لأنهم يعلمون أنَّ هذا النَّسخ لم يصدر إلا عن حِكمةٍ بالغة، ولا يزيدُهم النَّسخ إلا طمأنينة وثقةً بِشَريعة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله:﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾.

١٠ـ لطفُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعباده؛ حيث لم يُهْدِرْ ثواب الأعمال المنسوخة، ولم يُضيِّعْ أجرها على مَنْ تعبَّد لله بها؛ لقوله:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾.

١١ـ أنَّ فيها دليلاً لِمَا ذهب إليه أهل السُّنَّة والجماعة، مِنْ أنَّ الأعمال داخلةٌ في مُسَمَّى الإيمان؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ

(١) كما في سورة المجادلة، آية: ١٢.

إِيمَـٰنَكُمْۚ ﴾، ووجه دخول الأعمال في مسمى الإيمان، أنها صادرةٌ عن إيمان: فلولا الإيمان ما تعبَّد الناسُ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لولا إيمان الناس بأن هذه شريعة الله، وأنه يثيب عليها، ما تعبَّدوا لله ـ تَعَالَى ـ بها؛ ولهذا أطلق الله الإيمان هنا على الصلاة إلى بيت المقدس سابقًا.

١٢ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: «الرؤوف» و«الرحيم»، وإثباتُ ما تضمَّناه من صفة؛ فإنَّ كل اسم من أسماء الله، فإنه مُتَضَمِّنٌ لصفة من صفاته، ولِهَذَا نقول: الصفاتُ أوسعُ مِنَ الأسماء؛ لأنَّ كلَّ اسم مِنْ أسماء الله مُتضمِّنٌ لِصِفَةٍ مِنْ صفاته، وليس كل صفةٍ مِنْ صفات الله يُشتقُّ له منها اسم، فباب الصفات أوسع من باب الأسماء، وباب الأخبار عن الله أوسع من باب الصفات أَيْضًا؛ فالأسماء والصفات أخبار، فمثلاً: الاسم يتضمن الصفة، والصفة لا يُشتق منها الاسم، والأخبار يُخبَرُ بها عن الله بالشيء الذي لا يمكن أن يُوصفَ به، فتقول مثلاً: إن الله شيء، لكن لا تَصِفُه بذلك؛ قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩].

* * *

ثم قال الله ـ جلَّ ذكره ـ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن

رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤].

﴿قَدْ نَرَىٰ﴾: جُمْلة فعلية مؤكَّدة بـ(قد)، والرُّؤية هنا: رؤية بصر، وجاء الفعل بصيغة المضارع دون الماضي، إشارةً إلى تكرار الفعل من النبي ﷺ، فتكَرَّرَتْ رؤيةُ الله ـ تَعَالَى ـ له.

﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ هو أن النبي ﷺ كان يقلِّبُ وجهه في السماء ترقُّبًا لِنُزُول الوحي بأمره بالاتجاه إلى الكعبة المُعظَّمة.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ﴾، أي: لَنُوجِّهَنَّكَ إلى قبلةٍ ترضاها، أي: تطمئنُّ إليها وتستقر؛ لأنه ﷺ راضٍ بكل ما شرعه الله له، سواءٌ في استقبال الكعبة، أو بيت المقدس، لكنَّ طمأنينته لاستقبال الكعبة أشدُّ؛ ولهذا فرَّع عليها قوله:﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾، أي: جهةَ المسجد الحرام، وهو الكعبة، وسُمِّيَ مسجدًا حرامًا لِـحُرْمَته وتعظيمه، ولهذا ثبت له من خصائص التحريم ما لم يثبت لغيره.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾، يعني: في أيِّ مكان كنتم مِنْ مشارق الأرض ومغاربها.

﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾ الخطابُ هنا للأُمَّة عمومًا، والخِطابُ الذي قبله لِرسول الله ﷺ، الخطاب الذي لرسول الله ﷺ خطابٌ له وللأُمَّة، كما سنذكُره إنْ شاء الله قريبًا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ﴾ الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى.

﴿لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ﴾، أي: ما حصل مِنَ الاتِّجاه إلى الكعبـة، ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾؛ ولكنَّهم قومٌ معاندون مستكبرون؛ ولهذا توعَّدَهُم الله بقولـه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

في هذه الآية من الحِكَمِ والفوائد ما يلي:

١- إثبات رؤية الله - تَعَالَى - لِمَا يفعلُه العباد؛ لقوله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾.

٢- إثبات علوِّ الله - سبحانه وتعالى -؛ لأن النبي ﷺ يقلِّب وجهه في السماء ترقُّبًا لِنُزُول الوحي من الله - سبحانه وتعالى -.

وعلُّو الله - سبحانه وتعالى - في السماء أمرٌ مفطورٌ عليه الخلق، ودلَّت عليه الشرائع والعقول، وقد اجتمعت الأدلة الخمسة: الكتاب، والسُّنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، على إثبات عُلوِّ الله - سبحانه وتعالى - فوق خلقه.

وقد قسَّم العلماء - رحمهم الله - العلو إلى قسمين:

الأول: علوُّ ذات، بِمَعْنَى أنَّ الله - تَعَالَى - فوق كل شيء.

والثاني: علوُّ صفة، بمعنى أنَّ صفات الله - سبحانه وتعالى - هي أعلى ما يكون مِنَ الكمال.

فأمَّا الأول: فأدلَّته ما أشرتُ إليها: الكتاب، والسُّنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، وتفصيل ذلك في كتب العقائد.

وأمَّا الثاني: فَلَهُ أدِلَّةٌ سمعيةٌ وعقليةٌ:

منها: قوله - تبارك وتعالى -: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل:٦٠]، أي: الوصف الأعلى الأكمل، وهذا دليلٌ سمعيٌّ.

وأمَّا الدليل العقلي: فلأنَّ الربَّ لا بد أنْ يكون أكمل مِنَ المربوب، وأعلى مِنَ المربوب، وصفًا وقدرًا، وهذا هو الواقع.

٣- وعدُ الله - سبحانه وتعالى - لِرَسوله ﷺ أنْ يُولِّيه قبلةً يرضاها، وقد فعل - جلَّ وعلا- فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

٤- أنَّ الخطاب الموجَّه للرسول ﷺ خطابٌ له ولأُمَّته، ولكنْ في هذا تفصيل؛ وذلك أنَّ الخطاب الموجَّه إلى رسوله ﷺ، إمَّا أنْ يقوم الدليل على أنَّه موجَّه له وحده، أو على أنَّه موجَّه له ولِلأُمَّة، أو لا يكون هناك دليلٌ، لا على هذا، ولا على هذا:

فأما الأول: فيكون خاصًّا به؛ مثل قوله - تَعَالَى -: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ [الشرح:١-٣]، ومن المعلوم أنَّ هذا خاصٌّ برسول الله ﷺ.

وأمَّا الثاني:- وهو الذي دلَّ الدليل على عموم الحكم له ولأُمَّته -: فمثل قوله - تَعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق:١]، فَهُنَا صدَّر الخطابَ بِخِطابٍ مُوجَّهٍ إلى الرسول ﷺ، بأداة النداء، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، ولكنَّه جعل الحُكْمَ عامًّا، فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾، ولم يقل: «إذا طلَّقت»؛ وهذا يدلُّ على أنَّه عامٌّ له ولأُمَّته و، ومنه هذه الآية: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾.

وأمَّا القسم الثالث: فكثيرٌ في القرآن الكريم، يكون الكلام بـصيغة الخطاب للواحد، وهذا ظاهره أنَّه موجَّـه إلى الرسـول ﷺ، فقيـل: إنـه موجَّهٌ له ولأُمَّته، لكنْ خُصَّ الخطـاب بـه؛ لأنَّـه قائـد الأمـة وإمامهـا، وقيل: بل هو موجَّهٌ لَهُ وحده، وأمته ـ في ذلك ـ يـشملها الخطـاب مِـنْ باب التـأسِّي والاقتـداء، والخـلافُ في هـذا لفظـي؛ لأنَّ كـلا القـولين ينصبُّ في أنَّ الأمَّة تفعل ما وُجِّه إلى الرسول ﷺ.

٥- وجـوبُ اسـتقبالِ القبلـة في أي مكـان مـن الأرض؛ لقولـه: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾.

٦- أنَّ الواجب الاتِّجاهُ إلى الجهـة، لا إصـابة عـين الكعبـة؛ لقولـه: ﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، أي: جهته، وهذا ما لم يتيسر اسـتقبالُ عـيْنِ الكعبة، فإن تَيَسَّر استقبالُ العين، كان واجبًا، ومن المعلوم أنَّ مـن كـان في المـسجد الحـرام، يتيـسَّر لـه أن يتَّجـه إلى عـين الكعبـة غالبًـا؛ لأنـه يشاهدها، ومـن كـان خـارج المـسجد الحـرام، ولا يـسعه أن ينظـر إلى الكعبة، فإنه لا يمكنـه أن يـشاهد الكعبـة، فيكفيـه الاتجـاه إلى الجهـة. والجهة واسعة، وكلما بعدت المسافة، اتسعت الجهة؛ ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: إنَّه لا يضرُّ الانحراف اليسير عن القبلة، وإنما الـذي يـضر أن تكون القبلة عـن يمينـك، أو عـن شـمالك، أو خلـف ظهـرك، أمَّـا الانحراف اليسير فإنه لا يـضرُّ؛ واسـتدلوا بقـول النبـي ﷺ: «مـا بـين

المشرِقِ والمغْرِبِ قِبْلةٌ»(١)، قاله لأهل المدينة، ومَنْ كان على سَمْتِهم، ولقوله و: «لا تستقبلوا القبلةَ بغائطٍ ولا بول، ولا تستدبروها، ولكنْ شَرِّقوا أو غرِّبوا»(٢).

ويُستثنى مِنْ وجوب الاتجاه إلى القبلة، ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: عندَ الخوف، إذا كان الإنسان هاربًا من عدوٍّ، فإنه يُصلِّي حيثُ كان وجهه.

المسألة الثانية: العجز، إذا كان الإنسان مريضًا، ولا يستطيع أن يتوجَّه إلى القبلة بنفسه، ولا بِمَنْ يُوجِّهُه، فإنه يُصلِّي حيثُ كان وجهه.

المسألة الثالثة: النَّافلة في السَّفر؛ فإنَّ الإنسان يُصلِّي على راحلته مِنْ سيَّارة، أو بعير، أو طائرة، حيثُ كان وجهه؛ لأن النبي ﷺ كان يفعلُ ذلك.

أما الدليل في المسألتين الأوليين، الخوف والعجز: فهو قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦].

٧ـ أنَّ أهل الكتاب يعلمون الحق الذي جاء به النبي ﷺ، ولكنهم معاندون مستكبرون، وقد قال الله ـ تَعَالَى ـ في آية أخرى: إنهم يعرفون

---

(١) رواه الترمذي كتاب الصلاة، باب ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة، رقم (٣٤٢، ٣٤٣،٣٤٤)، وابن ماجة كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة، رقم (١٠١١).

(٢) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب لا تستقبل القبلة بغائط أو بول، رقم (١٤٤)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٤).

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم[1]، وذلك بما ذُكِرَ من أوصافه عندهم التي لا تنطبق على بشرٍ سواه، ومِنْ ذلك قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥]؛فإنَّ هذه الأوصاف منطبقة تمامًا على رسول الله الهاشمي القرشي و، وهم يعلمون ذلك، لكنهم كانوا مستكبرين حسادًا؛ كما قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩].

٨ـ ذمُّ مَنْ علم الحق ولم يتبعه، وتعريضه نفسه للعقوبة؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾.

٩ـ إثباتُ أنَّ الله ـ تَعَالَى ـ موصوف بالإثبات، وموصوف بـالنفي؛ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات، والإثبات أكثر من النفي؛ ولهـذا يـأتي الإثبـات مفـصلاً، ويـأتي النفـي مجملاً، إلا فيما يحتاج إلى التفصيل فيه.قال أهـل العلـم: وصِـفَاتُ الله ـ

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٦، وسورة الأنعام، آية: ٢٠.

سبحانه وتعالى ـ التي نفاها عنْ نفسه لا يُقصد بها مُجَرَّد النفي؛ لأنَّ مُجَرَّد النَّفي ليس وصفًا كاملاً، ولكن كلُّ صفة نفاها الله عن نفسه، فالمراد بها إثبات كمال ضِدِّها مع النَّفي:

فمثلاً قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يدل على انتفاء غفلة الله عما يعملون مع ثبوت كمال العلم والمراقبة، وفي قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، إثبات كمال العلم والقدرة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤]، فلا يمكن أنْ تَجِدَ نفيًا مَحْضًا في صفات الله، وتعليله أنَّ النَّفي المحْض عدمٌ مَحْض، والعدمُ المحْضُ ليس فيه كمال، وكلُّ ما نفاه الله عن نفسه، فالمُراد به نفي ما نفاه مع إثباتِ ما تضمنَّه مِنْ كمال الصِّفَة التي هي ضد ذلك النفي، فلم يَنْفِ عنْ نفسه الظلمَ، إلا لِكَمالِ عدله، ولا العجزَ، إلا لِكَمالِ عِلمِه وقدرته، ولا الغفلة عن أعمال العباد، إلا لِكَمالِ عِلْمِه ومُراقبَتِهِ،،، وهَلُمَّ جرًّا.

❊ ❊ ❊

ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [البقرة:١٤٥].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ.

﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾، أي: بِكُلِّ دليل على ما أتيتَ به.

﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾؛ وذلك لأنهم لا يريدون الحق، وإنما يريدون العُلوَّ والاستكبار.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾؛ وذلك لأنَّ شرع النبي ﷺ نَسَخَ جميع الشرائع، فهم بريئون منك، وأنت بريءٌ منهم، وهذا كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:١ـ٣] إلى آخر السورة.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، يعني: أنَّ أهل الكتاب ـ أيضًا ـ مُختلفون، فلا يتَّبعُ بعضُهم بعضًا في القبلة والاتجاه؛ فالنَّصارى لهم اتِّجاه، واليهودُ لهم اتَّجاه، ومع ذلك فهم فيما بينهم أولياء ضدَّ المُؤمنين.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، يعني: إنْ قُدِّرَ أنَّك داهنتَهم واتبعتَ أهواءهم ـ مِنْ بعدِ ما جاءكَ مِنَ العلم ـ لَكُنْتَ مِنَ الظالمين، وهذا التعليق لا يلزم منه وجودُ المُعَلَّق؛ فإنَّ «إنْ» الشرطية تدخلُ على شيء مُتعذِّر، بلْ مستحيل؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، فلا يعني ذلك: أنه يمكن أنْ يكون لله ولد. فـ«إنْ» هنا: داخلةٌ على شيءٍ مُستحيل، وكذلك قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، لا يقول قائلٌ: إنَّ الرسول يُمْكِنُ أنْ يُشرك، بلْ هذا على

فرضِ وقوعِ ذلك، والفرضُ يمكنُ أنْ يَرِدَ على شيءٍ مُستحيل.

في هذه الآية مِنَ الحِكَمِ والفوائد ما يلي:

١ـ بيانُ تمَرُّدِ الذين أوتوا الكتاب واستكبارهم، وأنَّهم لو أُتوا بكُلِّ آية ما قَبِلُوها؛ لِعنَادِهِم واستكبارِهم.

٢ـ أنَّ المؤمن بريءٌ مِنْ كلِّ دينٍ يُخالفُ الإسلام، حتى مِنْ دينِ مَنْ يزعمون أنَّهم على دين، كالذين أوتوا الكتاب.

٣ـ وجوبُ مخالفة المشركين فيما يختص بهم؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾؛ ولهذا حذَّر النبي ﷺ مِنْ مُشَابهةَ الكُفَّار، فقال: «**مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم**»[1]، وقال: «**خالفوا المجوس؛ وفِّرُوا اللِّحى، وحفُّوا الشوارب**»[2]؛ فلا يحلُّ للمؤمنِ أنْ يتشبَّه بالكُفَّار فيما يختصُّ بهم مِنْ لباسٍ، أو هيئةٍ، يعني: في الجِسْم، كالشُّعور مثلاً، يُصَفِّفُها على ما يُصَفِّفُها الكفار، وغير ذلك؛ لهذا الحديث الذي ذكرتُ، ومن المعلوم أن التشبه بالكفار يؤدي إلى فرحهم وسرورهم، ومن المعلوم ـ أَيْضًا ـ أنَّ المُتَشبِّهَ في حالٍ ومرتبةٍ دون المتشبَّهِ به، فَتَشَبُّهُنا بالكُفَّار والمشركين، يؤدي إلى اعتلائهم وترَفُّعِهم علينا، واعتقادهم أننا لهم تَبَعٌ، ولا شك

---

(١) رواه أحمد رقم (٥٠٩٣، ٥٦٣٤)، وأبو داود كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)..

(٢) رواه البخاري كتاب اللباس، باب تقليم الأظفار، رقم (٥٨٩٢)، ومسلم كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩) عن ابن عمر، ولفظُه: «**خالِفُوا المشركين**». ورواه مسلم عن أبي هريرة، رقم (٢٦٠) بِلفظ: «**خَالِفُوا المجوس**».

أنَّ هذا إهانةٌ وإغاظةٌ للمؤمن، والمؤمن ينبغي أنْ يعتقد بقلبه أنه هو الأعلى؛ لأنَّه يدين لله ـ تَعَالَى ـ بدينٍ عالٍ على كلِّ الأديان؛ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣، والصف:٩]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩].

٤- بيانُ اختلاف أهل الكتاب، وأنَّ بعضهم لا يَدِينُ بما يَدِينُ به الآخر؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، وهذا هو الواقع، فلننظر الآن إلى اليهودِ ماذا قالوا عن عيسى؟ قالوا: إنه ابن زانية ـ والعياذ بالله ـ وقالوا عن أمِّه: إنها زانيةٌ بَغِيٌّ. وماذا قال النصارى عنه؟ قالوا: إنه ابنُ الله، وقالوا: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة: الله، والمسيح، وأمُّهُ، فنجد الطرفين متناقضين بينهما أكثر مما بين المشرق والمغرب، وقال المسلمون في عيسى بن مريم وأمِّه: إنَّ عيسى بن مريم عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريَمَ وروحٌ منه، وأنَّ أُمَّه مريم صِدِّيقَةٌ، أبعدَ ما تكونُ عمَّا رماها به اليهود.

٥- التحذيرُ مِنْ مُتابعة أهواءِ أهلِ الكتاب؛ لأن الله ـ تَعَالَى ـ حذَّر نبيه منه، وما حذَّر منه الرسول ﷺ، فنحنُ مُحَذَّرُون منه.

٦- الإشارةُ إلى أنَّ ما قاله أهلُ الكتاب مِنَ الحقِّ، فلا حَرَجَ علينا في اتِّباعه؛ لأن الله ـ تَعَالَى ـ قال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾، فأما ما جاؤوا به مِنَ الحقِّ فإننا نقبلُه؛ لأنَّ الحقَّ يُقبَلُ مِنْ كُلِّ مَنْ جاء به؛ ولهَذَا لَمَّا

جاء الحَبْــرُ إلى رسول الله ﷺ وقال: «يا محمَّد، إنَّا نجدُ أنَّ الله ـ تعَالَى ـ يجعلُ السَّموات على إصبع، والأَرَضِينَ على إصبع...» وذكر الحديث. ضَحِكَ النبي ﷺ تصديقًا لقوله، وقرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧][(١)].

٧ـ أنه يُشترط للإثم بالعمل: العلمُ بالتحريم، فلا يأثم العامل بالإثم، وهو لا يعلم أن عمله محرم؛ لقول ـ تعَالَى ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، فلا يؤثم الإنسانُ بفعلِ شيء هو جاهلٌ به؛ ويدلُّ لِهَذَا الأصْلِ العظيم أنَّ الله ـ تعَالَى ـ قال: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب:٥]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فقال الله ـ تعَالَى ـ: «قدْ فَعلْتُ»[(٢)].

وقال الله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقــال ـ تعَالَى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ رقم (٤٨١١)، ومسلم كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٦).

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان، باب بيان قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ رقم: (١٢٦).

ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٥٩]، وقال ـ تعَالَى ـ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال ـ تعَالَى ـ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤]. والآيات في هذه كثيرةٌ، تدلُّ على أنه لا تأثيم مع الجهل، وهذا مِنْ رحمة الله بالعباد، ألا يُؤثِّمَهُم بما يجهلونه؛ لأنَّ الإنسان بشرٌ ضعيفٌ، وإذا لم يأثم به لم يترتب عليه فديةٌ ولا كفارةٌ؛ إلا ما كان من قتل الخطأ، فإنَّ فيه الكفارة؛ لِعِظَمِ حقِّ النفس المعصومة.

* * *

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة:١٤٦].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليهود والنصارى.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، أي: يعرفون النبي ﷺ.

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، أي: كَمَعْرِفَةِ أبنائهم؛ وذلك لِمَا عَلِمُوا مِنْ صفته في التوراة والإنجيل، وخصَّ الأبناء؛ لأنَّ تَعلُّقَ النُّفوسِ بهم أعظمُ مِنْ تعلُّقِهَا بالبنات غالبًا.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ فريقًا منهم، أي: طائفة من هؤلاء الذين أوتوا الكتاب، وهم علماءُ بني إسرائيل.

﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمونه، ولكنهم يكتمونه

ويخفونه عن الناس؛ إما حسدًا لأمة محمد ﷺ، وإمَّا للخوف على رئاستهم وسلبهم أموال الناس، وإمَّا لِغير ذلك.

ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة:١٤٧]:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ هذا تثبيتٌ للرسول ﷺ: أنَّ الحقَّ مِنْ ربِّك، وقد أتاك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ نهاه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن ذلك، وهو لا يمكن أن يَمْتَرِي؛ لأنَّ الضغوط العظيمة، والكلمات القوية مِنَ الذين أوتوا الكتاب ومِنَ المشركين على رسول الله ﷺ، قد تُطيحُ بالشخص، إلا أنْ يُثبِّته الله ـ تَعَالَى ـ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٧٤ـ٧٥].

في هاتين الآيتين مِنَ الفوائد والأحكام ما يلي:

١ ـ أنَّ أهلَ الكتاب ـ اليهودَ والنَّصارى ـ يعرفون النبي ﷺ تمام المعرفة؛ وذلك بما ذكر من أوصافه في التوراة والإنجيل.

٢ ـ تمام عدل الله ـ عز وجل ـ؛ حيث قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل: «وإنهم ليكتمون الحق»؛ لأن منهم من أقر بالحق وآمن؛ كعبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، ولو جاء التعميم: «وإنهم ليكتمون الحق»، لم يكن في هذا

بيان لفضل أولئك الذين آمنوا بالرسول ﷺ. ثـم إن في قولـــه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إشـارةً إلى أن النبـي ﷺ عـلى الحق؛ لأن فريقًا من أهل الكتاب آمنوا بـه وصـدقوه، فيكـون في ذكـر «الفريق» دون التعميم فائدتان:

الفائدة الأولى: العدل، وأن لا يهضم الذين آمنوا حقهم.

الفائدة الثانية: إثبات صدق الرسول ﷺ عند أهل الكتاب؛ حيث إن فريقًا منهم آمنوا به وصدقوه.

٣ـ ذم من كتم الحق وهو يعلمه، ويشهد لهذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ولهذا كان واجبًا على أهل العلم أن يبينوا العلم كلما احتاجت الأمة إليه، إما بالسؤال المباشر عن العلم، وإمـا بلـسان الحـال، بحيـث يقـع الناس في أمر يحتاجون إلى بيانه؛ لأن النبي ﷺ توعد من سئل عن علم، فكتمه، والسؤال عن العلم ـ كـما أشرت إليـه ـ يكـون بلـسان الحـال، ويكون بلسان المقال:

أما بلسان الحال: فأن يقع الناس في أمر يحتاجون إلى التنبيه عليه.

وأما بلسان المقال: فأن يأتيك شخص يسألك عن مسألة شرعية، وأنت تعلمها، فيجب أن تبينها له، إلا إذا علمت أن هذا الرجل لا يريد الوصول إلى الحق، وإنما يريد أن يوقع بين العلماء؛ لأنه ربما يحصل بينهم اختلاف في الرأي، أو يريد الإعنات والمشقة على المسؤول، فحينئذ يكون المسؤول مخيرًا بين إجابته، وترك إجابته.

٤ـ أن الحق من عند الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه صادر من الله ـ تعالى ـ وما صدر من الحق فهو حق، وما خالفه فهو باطل.

٥ـ فضيلة الرسول ﷺ؛ حيث أضاف الله ـ تعالى ـ الربوبية إليه في قوله: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾، وهذه ربوبية خاصة، تقتضي عناية أخص. والربوبية تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة لجميع الخلق، وربوبية خاصة لمن اجتباهم الله ـ عز وجل ـ، ومن الأمثلة الجامعة للعامة والخاصة: قوله ـ تعالى ـ عن سحرة آل فرعون: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١]، وهذه عامة، ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢]، وهذه خاصة.

٦ـ تثبيت النبي ﷺ وتقويته في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، وهو ﷺ لم يمتر، ولم يشك، ولكن هذا من باب تقويته وتثبيته؛ لأن النبي ﷺ بشر ويحتاج إلى التثبيت والتأييد؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، وقد بين الله ـ تعالى ـ أن ثبات النبي ﷺ كان بفضله ورحمته، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ

تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

٧ــ ورود النهـي عـما لا يمكـن وقوعـه؛ لقولـه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، والامتراء من الرسول ﷺ ليس بواقع، ولا يتوقع - أيضًا - لأنه ﷺ أقوى الناس إيمانًا بالله - تعالى -.

* * *

ثم قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾، أي: لكل من المسلمين وأهل الكتاب، وجهة هو موليها، وإن شئت فقل: ولكل، أي: لا بد لكل أحـد، مـن وجهـة هـو موليها، فمن الناس من يولي وجهه شطر الإيمان والإصلاح.

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: تسابقوا إلى الخيرات، والخيرات هي: ما جاء به الرسول ﷺ من الحق.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، يعني: في أي مكان تكونون، فإن الله - سبحانه وتعالى - سوف يأتي بكم جميعًا، وذلك إذا حشر الناس؛ فإن الله - تعالى - يحشر الناس جميعًا، من أي مكان كانوا من قبل، يحشرون كلهم جميعًا كنفس واحدة، يقومون لله - عز وجل - من قبورهم، قيام رجل واحد؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ

فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ [يس:٥١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣ـ١٤].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يأتي بالخلق جميعًا أينما كانوا في الأرض، يأتي بهم جميعًا ويحشرهم في مكان واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ فهو قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، بدون عجز ولا ضعف.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ أن كل واحد من الناس له وجهة يتولاها، ويتوجه إليها، وهم فرق متباينة؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التغابن:٢].

٢ـ الأمر بالتسابق إلى الخير؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، ثم إن الخيرات منها ما يجب، ومنها ما يستحب، على حسب ما جاءت به الشريعة.

٣ـ إثبات الحشر يوم القيامة، وأن جميع الناس سوف يحشرون إلى الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾.

٤ـ إثبات اسم من أسماء الله، وهو «القدير»، وما دل عليه من

الوصف، وهو: القدرة، فلله ـ سبحانه وتعالى ـ القدرة التامة في كل شيء﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٩].

وهذه الآية للتوكيد كما سبق؛ لأن المقام مقام عظيم، والأمر مهم جدا، ولا يشعر إنسان بهذا المقام وأهميته، إلا لو كان موجودًا ذلك الوقت ـ أي: حين تحويل القبلة ـ لأنه أمر جلل عظيم، أكده الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية، وفي الآية التي بعدها.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ ﴾، أي: من أي مكان خرجت، وإلى أي جهة اتجهت، فلا بد أن تولي وجهك شطر المسجد الحرام، أي: جهته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ ﴾، أي: إن ما ذكر من توليك شطر المسجد الحرام، للحق من الله، وهذه جملة مؤكدة بـ«إن»، وبـ«اللام»، وتأكيد الجملة يدل على أهميتها، وأن الأمر فيها يحتاج إلى توكيد وتثبيت في قلوب الناس.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ يقال فيها كما قيل في الآية السابقة، أي: أنه لكمال مراقبته وعلمه، لا يغفل عما يعمله العباد.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تأكيد الأمور الهامة، حتى ترسخ في النفوس، وتطمئن إليها القلوب، ولا يعد هذا من التكرار الزائد، بل هو من التكرار البليغ؛ لأن الشيء كلما كان هاما، فإن البلاغة في العناية به، والاهتمام به.

٢- أن الإنسان في أي جهة خرج، من بر أو بحر أو جو، فإنه يتعين عليه أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام في الصلاة، ولكن سبق أنه استثني من ذلك مسائل: الخوف، والعجز، والنافلة في السفر.

٣- أن الإنسان لو تبين له في أثناء الصلاة أنه إلى غير القبلة، فإنه يجب أن ينحرف إلى القبلة، فلو أن الإنسان في البر، واجتهد في القبلة، واتجه إلى جهة ما، ثم جاءه رجل أعلم منه بالجهات، وقال له: إن القبلة عن يمينك، أو عن يسارك، وجب عليه أن يتجه إلى ما أرشده إليه هذا الرجل، ولا يلزمه أن يستأنف الصلاة؛ لأن ما حصل منه في أول الصلاة، صادر عن اجتهاد، ولكن لو استمر على الجهة التي هو عليها بدون علم، فإنه يجب عليه إعادة صلاته؛ لأن اتجاهه إلى غير القبلة فيما بقي من صلاته، باطل.

والصلاة لا تتجزأ، فينسحب البطلان إلى أولها، ولهذا لما جاء رجل إلى أهل قباء، وهم يصلون صلاة الفجر، متجهين إلى بيت المقدس،

والكعبة خلف ظهـورهم، قـال لهـم: إن النبـي ﷺ أنـزل عليـه الليلـة القرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فـاتجهوا إلى الكعبـة واسـتقبلوها، وصار بيت المقدس خلف ظهورهم، بعد أن كان قبـل وجـوههم؛ لأن هذا هو الواجب.

٤ـ أن ما جاءت به الشريعة ـ شريعة محمد ﷺ هو الحق؛ وعلى هذا فيكون ما سواه باطلاً، ويتفرع على هذه الفائدة: بطلان البـدع بجميـع أنواعها؛ لأن البدع مخالفة لما جاء به النبـي ﷺ؛ فـإن البدعـة المذمومـة هي: التعبد لله ـ تعالى ـ بما لم يشرعه الله، مـن عقيـدة أو قـول أو عمـل، فكل بدعة فهي باطلة؛ لأنها مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ.

٥ـ كمال علم الله ـ تعالى ـ ومراقبته؛ للمفهوم مـن قولـه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفقنا للعمل الذي يرضيه، وأن لا يعلم منا إلا ما يرضى به عنا؛ إنه جواد كريم.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وهذه الآية ـ كما هو معلوم ـ هي الآية الثالثة التي كرر فيها وجوب

الاتجاه إلى الكعبة المعظمة، وذلك للتأكيد، وكل جملة منها أعقبت بمعنًى عظيم:

أما الأولى: وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، فأعقبها الله ـ تعالى ـ ببيان أن ذلك هو الحق، وأن الذين أتوا الكتاب يعلمون ذلك.

وأما الثانية، ففيها: بيان الحكمة من تحويل القبلة، وتثبيت المؤمنين على ما يورد عليهم من الشبهات حول هذا الموضوع؛ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، أي: من أي جهة خرجت، من أي مكان خرجت.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾، أي: جهة المسجد الحرام.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ في أي مكان؛ من بر، أو بحر، أو جو.

﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

ثم بين الحكمة من ذلك بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أي: لئلا يحتج الناس عليكم، يعني: أوجبنا عليكم ذلك؛ لئلا يحتج الناس عليكم، فمن الذي يحتج؟ يحتج من الناس طائفتان:

الطائفة الأولى: أهل الكتاب.

الطائفة الثانية: المشركون.

أما المشركون: فإن النبي ﷺ لو بقي على الاتجاه لبيت المقدس، لقالوا: هذا الرجل ترك قبلة آبائه، إلى بيت المقدس.

وأما اليهود: فإنهم يقولون: هذا الرجل تـرك قبلتنـا، وأخـذ بقبلـة قومه.

فبيـن الله ـ عز وجل ـ أنه أوجب علينا أن نتجه إلى الكعبـة؛ لـئلا يحتج هؤلاء وهـؤلاء، فبطلـت حجـة المشركين، باتجاه النبـي ﷺ إلى الكعبة، ورجع إلى ما كانت عليه القبلة زمن إبراهيم ـ عليـه الـسلام ـ، وبطلت حجة اليهود الذين قـالوا: يتركنـا ويرجـع إلى ديـن آبائـه؛ لأن النبي ﷺ إنما يفعل ذلك امتثالاً لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتحقيقًـا لما عرفوه هم فيما عندهم من الكتاب؛ ولهذا قـال الله ـ عـز وجـل ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ وهم اليهود والمشركون، على الوجه الذي ذكرنا آنفًا.

ثم نهى الله عباده عن خشية الناس، ولو كانوا ظالمين، فقـال: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾، يعني: دعوا خشية هـؤلاء الظـالمين، واخـشوني؛ فإن خشية الله ـ سبحانه وتعالى ـ يندفع بها كل شر، وكل ظلم.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ هذه الجملـة معطوفـة عـلى قولـه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، أي: وأمـرتكم بـأن تولـوا وجوهكم شطر المسجد الحرام؛ لأتم نعمتي عليكم بالاتجاه إلى الكعبـة المعظمة، التي هي أول بيت وضع للناس.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ «لعل» هذه: للتعليل، أي: لعلكم تكونون من ذوي الهداية، الذين وفقوا لهداية العلم، وهداية الرشد.

في هذه الآيات الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ تأكيد الاتجاه إلى الكعبة المعظمة ـ وقد سبق الكلام عن ذلك ـ وبيان أن الاتجاه إلى الكعبة المعظمة واجب، من شروط صحة الصلاة، إلا ما استثني من المسائل السابقة.

٢ـ أن أحكام الله ـ تعالى ـ الشرعية، معللة، أي: لها علة وحكمة، وليست لمجرد المشيئة التي ليس لها حكمة ولا علة؛ لقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

وفيها: رد على من يقول من أهل البدع: إن أفعال الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأحكامه لا تعلل بعلل؛ لأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فنقول: إن القرآن والسنة مملوءان من ذكر تعليل الأحكام بالعلل والمصالح، وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، فهو لا يسأل عما يفعل؛ لكمال أفعاله، ولكونها لا تصدر إلا عن حكمة بالغة. ثم إن هناك أفعالاً لله ـ تعالى ـ وأحكامًا لا تعلم عللها وحكمتها؛ فلا مطعن فيها، ولا معارضة لله ـ تعالى ـ فيها؛ لأن عقول الخلق قاصرة عن إدراك كل حكمة لله ـ تعالى ـ.

٣ـ أنه ينبغي للإنسان أن يتجنب كل سبيل يكون فيه حجة عليه، حتى ولو كانت الحجة من أهل الظلم، ما لم يخالف بذلك شريعة الله ـ تعالى ـ فدرء الإنسان عن نفسه ما يقبح به، ويسب به: أمر مطلوب.

٤ـ أن الظالمين أهل عناد وشقاق، وأنهم يعاندون ويشاقون حتى

فيما تبين فيه الحق؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾.

٥- تحريم خشية الناس في إضاعة حقوق الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾، ويترتب على هذه الفائدة: أنه لا تجوز المداهنـــة في دين الله ـ عز وجل ـ، بل يجب أن يكون الإنسان قويا، حازمًا، معتزًا بدينه الذي من الله به عليه.

٦- بيان نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه الأمة بإتمام النعمة، حيث قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، وما أكثر نعم الله ـ تعالى ـ على هذه الأمة، الدينية والدنيوية؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

٧- أن امتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهي الله ورسوله، سبب للهداية، وكلما ازداد الإنسان تقوى لله، ازداد هدايةً؛ كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٧]؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٨- ثم إن الآية الكريمة تشير إلى أن هناك أناسًا ضد الدين الإسلامي، يحتجون على المسلمين، في كل ما جاء من شرعهم، ولكن على المسلمين أن يصمدوا، وأن يثبتوا على ما هم عليه، كما أمرهم الله في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وأهل العدوان يحتجون أحيانًا على القرآن

الكريم، وأحيانًا على رسول الله ﷺ، وأحيانًا على ما تضمنته رسالة النبي ﷺ من الشرائع أو الشعائر.

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعلنا ممن يعتز بدينه، وأن يكفينا شر أعدائنا، وأن يجعل شرورهم في نحورهم، إنه على كل شيء قدير.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥١ـ١٥٢].

قوله: ﴿كَمَآ﴾ «الكاف» هنا: للتعليل؛ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي: لهدايته إياكم.

و ﴿ما﴾ مصدرية، وتقدير الكلام كإرسالنا فيكم رسولاً، وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾، أي: منكم أيها العرب؛ لأنه ﷺ من العرب، فهو هاشمي قرشي، وهو من بني إسماعيل، وليس من بني إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: يقرؤها، والمراد بها: القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾، أي: يزكي عبادتكم، ويزكي أخلاقكم، ويزكي نفوسكم؛ فالدين كله تزكية، على يد الرسول ﷺ.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعلمكم الكتاب ـ وهو القرآن ـ لفظه ومعناه، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي السنة التي جاء بها رسول الله ﷺ، وكذلك ما تضمنه القرآن من الحكم والأسرار، في الأحكام التي جاء بها.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما لم تكونوا تعلمون من قبل؛ فإن العرب كانوا قبل الرسالة أمةً أميةً، لا يعرف واحد منهم أن يكتب اسمه، ولكن الله ـ تعالى ـ من عليهم بهذا الرسول الكريم، فحصل لهم علم وزكاة وحكمة.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ منة الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا؛ حيث أرسل فينا هذا النبي الأمي، الذي يتلو علينا آيات الله، ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة.

٢ـ أن رسول الله ﷺ حق من عند الله، قام بما يجب عليه من تلاوة آيات الله علينا وتزكيتنا، وقد علمنا ﷺ كل ما نحتاج إليه في أمور ديننا ودنيانا، حتى قال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علمًا»[(١)].

٣ـ ثبوت التزكية، وإن شئت فقل: ثبوت الزكاة لمن اهتدى بما يتلوه النبي ﷺ من آيات الله؛ لقوله: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، ومن عرف حال العرب قبل الإسلام، عرف كيف زكاهم الإسلام، وهذب أخلاقهم،

---

(١) رواه أحمد (٢٠٨٥٤، ٢٠٩٢٨).

وأزال عنهم عصبية الجاهلية.

٤ـ الحث على تعلم الكتاب والحكمة، أي: تعلم الكتاب والسنة؛ لأن الله جعله مما من الله به علينا، حيث قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. فضل النبي ﷺ على أمته بما يتلوه عليهم من آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لا يعلمون.

٥ـ الإشارة إلى أن من تلا على عباد الله آيات الله، وزكاهم بما يقدم لهم من المواعظ، وعلمهم كتاب الله وسنة رسوله و، كان وارثًا لرسول الله ﷺ، ولهذا كان العلماء الربانيون، ورثة الأنبياء؛ لأنهم يرثونهم في أممهم، يعلمون الأمم ما خلفه الرسل من العلم والهدى، ويدعونهم إلى الخير، ويعينونهم على البر والتقوى.

٦ـ أن القرآن والسنة مشتملان على الحكمة، والحكمة هي: وضع الأشياء في مواضعها، بحيث تكون الأحكام مشتملةً على ما تكون فيه المصالح، وتدرأ به المفاسد.

٧ـ فضيلة العلم؛ لقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾، حتى انتقلت أمة العرب من أمة أمية جاهلية، إلى أمة عالمة متقدمة.

٨ـ أنه ينبغي للإنسان أن يذكر الناس بنعمة الله عليهم في إرسال محمد ﷺ، الذي يتلو علينا آيات الله، ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة، ويعلمنا ما لم نكن نعلم.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

أمر الله ـ تعالى ـ بذكره، وبيـن ثوابه وجزاءه، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ ﴾، وهذا أمر بالذكر.

﴿أَذْكُرْكُمْ ﴾، وهذا الثواب والجزاء.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى ﴾، أي: اشكروني على ما أعطيتكم من النعم.

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فتجحدوا نعم الله عليكم.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ـ الأمر بـذكر الله، وذكـر الله ـ تعـالى ـ ينقـسم إلى قـسمين: ذكـر واجب، وذكر تطـوع لـيس بواجـب، فالـصلاة ـ مـثلاً ـ مـن الأذكـار الواجبة، وهي متضمنة لذكر الله ؛ لأن فيها قراءة القرآن، وفيها الركوع والسجود، والقيـام والقعـود، والتـسبيح والتعظـيم لله ـ عـز وجـل ـ، ودعـاء الله ـ عـز وجـل ـ، والنـوع الثـاني: ذكـر تطـوع؛ كالتـسبيح، والتهليل، والتكبير، والصلوات النافلة.

وينقسم الذكر من وجه آخر إلى قسمين:

ذكر بالجوارح: كالأقوال والأفعال، وهذا يقع من المؤمن والمنافق.

وذكر بالقلب: وهذا لا يقع إلا من المؤمن.

٢ـ أن جزاء الـذاكرين لله أن يـذكرهم الله، وقـد ثبـت في الحـديث

الصحيح: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال: «من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير منهم»(١)، وهم: الملائكة.

وعلى هذا فينبغي للإنسان الإكثار من ذكر الله ـ عز وجل ـ، والمؤمن يمكنه أن يكون ذاكرًا لله ـ تعالى ـ دائمًا، وذلك بأن يشاهد نعمة الله عليه؛ فإن نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العبد لا تحصى، كل نعمة أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها عليك، فإنها تذكرك بالله ـ عز وجل ـ، وبإحسانه وبفضله وإنعامه؛ ولهذا أثنى الله ـ تعالى ـ على الذاكرين على كل حال، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٩٠ـ١٩١]، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١ـ٤٢].

٣ـ وجوب شكر الله ـ عز وجل ـ، وذلك بالقيام بطاعته، وصرف نعمه إلى ما أمرنا الله بصرفها إليه، فلا نستعين بنعمه على معصيته.

٤ـ تحريم كفر النعمة؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

فنسأل الله ـ تعالى ـ أن يعيننا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته؛ إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

* * *

---

(١) رواه البخاري كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ رقم (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله، رقم (٢٦٧٥).

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣].

قولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ هـذا نـداء مـن الله ـ عـز وجـل ـ، وجهه إلى المؤمنين بوصف الإيمان، وهو الوصف العظيم الذي يعتز بـه كل مؤمن، وهو لا شك وصف تكريم وحث وإغراء؛ ولهذا قـال عبـد الله بن مـسعود ـ رضي الله عنـه ـ:«إذا سـمعت الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه»، وإذا صدر الله الخطاب بهـذا النـداء، فإنـه يـستفاد منـه ثلاث فوئد:

الأولى: أهمية ما سيوجه إلى المؤمنين.

الثانية: أن امتثال ما سيوجه إليهم من مقتضيات الإيمان.

الثالثة: أن مخالفته نقص في الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾، أي: اطلبـــــوا العون بالصبر والصلاة:

الصبر على الأمور، ومصابرتها: إن كانت من المأمور بها، فأن تصبر على أداء ما أمرت به، وإن كانت من المنهي عنها، فأن تصبر على اجتنابك لها؛ وذلك لأن النفوس ضعيفة، قد تشق عليها الأوامر، فتتراجع وتنسحب، ولا تكمل الواجب، وقد يشق عليها اجتناب النواهي، فتعجز عن الصبر، وتنتهك المحرمات؛ فلهذا أمر الله ـ

سبحانه وتعالى ـ بالصبر: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾، والاستعانة به، وما أعطي الإنسان عطاءً أحسن وأوسع من الصبر؛ فإن الإنسان إذا صبر وعود نفسه على الصبر، خفت عليه الأمور.

وأما الاستعانة بالصلاة: فإن الإنسان يقف بين يدي الله ـ عز وجل ـ يناجيه بكلامه، ويتقرب إليه بالثناء عليه ويدعوه، قال النبي ﷺ: «وأما السجود، فأكثروا فيه من الدعاء؛ فقمن أن يستجاب لكم»(١)، فالصلاة تعين الإنسان على شدائده، ويذكر عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة(٢).

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ وهذا ترغيب في الصبر؛ لأن الإنسان إذا علم أن الله معه، سهل عليه معالجة نفسه بالصبر.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ـ فضيلة الإيمان، وأنه وصف ينبغي للإنسان أن يعتز به؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٢ـ أن يستعين الإنسان على أموره بالصبر.

٣ـ جواز الاستعانة بغير الله، فيما يكون سببًا للعون؛ لأنه قال:

---

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم: (٤٧٩) بلفظ: «فاجتهدوا في الدعاء».

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٨٨)، عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان رسول الله ﷺ إذا حزَبَه أمرٌ صلَّى)، وأبو داود كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي ﷺ، رقم (١٣١٩).

﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، وهذه استعانة مقيدة غير متعبد بها. أما الاستعانة المطلقة المتعبد بها، فلا تكون إلا لله وحده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

٤- فضيلة الصبر، وأنه عون للإنسان على مهمات أموره، وهذا شيء مجرب؛ فإن الإنسان قد يستثقل أن يقوم في آخر الليل؛ ليتوضأ بالماء البارد ويصلي في البرد، وفراشه أدفأ له، ولكن نقول: اصبر، اصبر على هذا، واحتسب الأجر، وكذلك ربما يشق عِليه أن يتردد إلى المسجد، فنقول: اصبر واحتسب، وربما يشق عليه أن يصوم، فنقول: اصبر على الجوع، اصبر على العطش؛ فإن هذا كله خير لك، وكذلك إذا نزلت به مصيبة فصبر وانتظر انكشافها، هانت عليه.

٥- أن الإنسان إذا حزبه أمر، واشتد عليه، فليفزع إلى الصلاة؛ لقوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٦- فضيلة الصلاة، وفوائدها، ومن تأمل الواقع، وجد أن للصلاة تأثيرًا بالغًا في تنشيط الإنسان وتقويته، وتسهيل الأمور أمامه.

٧- إثبات أن الله مع الصابرين، والمعية هنا لا تقتضي الاختلاط، يعني: لا تقتضي أن يكون معهم في أماكنهم؛ فإن الله ـ تعالى ـ منزه عن ذلك، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل شيء، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، لكن هذه المعية تقتضي: النصر والتأييد والتثبيت، وهذه معية خاصة، وأما المعية العامة لكل أحد

فتقتضي: الإحاطة بالخلق؛ علمًا وقدرةً وسلطانًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته ـ تعالى ـ كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤].

٨ - الترغيب في الصبر؛ لأن قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، يراد به ـ مع إثبات المعية ـ الحث على الصبر، والترغيب فيه.

وللصبر فوائد كثيرة:

منها: الأجر الكثير؛ فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

ومنها: ترويض النفس على الانضباط، والحكمة، وعدم الملل؛ وذلك أن الإنسان لا بد أن يفعل، فإذا صبر على الفعل الذي هو متلبس به، لعلمه بفائدة الاستمرار فيه، فقد روض نفسه على معاناة الأمور وتحملها.

ومنها: أن الصبر سبب لحسن العاقبة؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:٤٩].

ومنها: أن الله مع الصابرين، وهذه أعظم فائدة: أن يكون الله معك؛ فإنه من كان الله معه، فإنه منصور.

ومنها: أن الإنسان تهون عليه المصائب، فيما إذا أصيب بمصيبة، ثم صبر واحتسب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «مرها فلتصبر ولتحتسب؛ فإن لله ما أخذ وله ما أبقى، وكل شيء عنده بأجل مسمى»(١).

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

في هذه الآية ينهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده المؤمنين أن يقولوا للذي يقتل في سبيل الله: أموات، أي: أن يقولوا في شأن هؤلاء: إنهم أموات، ومعلوم أن من قتل في سبيل الله، فقد مات حتمًا؛ ولهذا يدفن في الأرض، كما يدفن غيره من الأموات؛ لأن روحه فارقت جسده، لكن هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله، في الواقع: أحياء حياةً برزخيةً، ليست كحياة الدنيا المادية الحسية.

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأن حياتهم من عالم الغيب، وعالم الغيب لا يمكن أن نشعر به في عالم الشهادة، لكن يجب علينا أن نؤمن بكل ما أخبر الله به من أمور عالم الغيب؛ لأنه صادر عن أعلم العالمين، وأصدق القائلين، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «لا يُعَذَّبُ الميت ببعض بكاء أهله»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣).

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ نهي المسلم أن يقول لمن قتل في سبيل الله: إنه ميت، هذا إذا قلنا: إن القول: قول اللسان، أما إذا قلنا: إن القول قول القلب ـ يعني: اعتقاد القلب ـ فإنه لا حرج أن نعتقد أنه مات ميتةً حسيةً؛ لأن ذلك هو الواقع، لكنهم أحياء عند الله ـ تعالى.

٢ـ فضيلة من يقتل في سبيل الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾، أي: بل هم أحياء.

٣ـ جواز إطلاق الوصف باعتبارين؛ فإن الذين قتلوا في سبيل الله أموات باعتبار الحياة الحسية؛ لأن أرواحهم فارقت أجسادهم، لكنهم أحياء باعتبار الحياة البرزخية، فهم أموات من وجه، وأحياء من وجه آخر، وذلك لاختلاف الأحوال، ولكن لا نصفهم بالوصف الأدنى، وهو الموت.

٤ـ أن علم الآخرة غير مشعور به؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأنه أمر غيبي لا يمكن إدراكه حسا.

٥ـ أن عذاب القبر أو نعيم القبر أمر لا يطلع عليه، هذا هو الأصل، لكن قد يطلع الله عليه من شاء من عباده، كما أطلع الله نبيه محمدًا ﷺ، على الرجلين اللذين كانا يعذبان في قبريهما، حيث قال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستبرئ من

البـول ـ أو قـال: لا يـستتر مـن البـول ـ وأمـا الآخـر: فكـان يمـشي بالنميمة»[1].

٦ـ قصور علم الإنسان؛ حيث يكون الذي قتل في سبيل الله عنده حيا، وهو لا يشعر بحياته، وهذا يدل على نقص علم الإنسان، وهو كذلك؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

* * *

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

في هذه الآية يؤكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه سيبلو عباده ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ ﴾، كلها فيها الابتلاء والامتحان، ويؤكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك بثلاث مؤكدات: اللام، ونون التوكيد، والقسم المقدر؛ لأن تقدير الكلام: والله لنبلونكم بشيء من الخوف، وهو: الذعر، سواء أكان هذا الخوف من عدو حقيقي ماثل أمام الإنسان، أو من عدو غير معلوم: كالخوف الذي يلقيه الشيطان في قلب الإنسان؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، أي: يخوفكم أولياءه.

---

(١) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

﴿وَٱلۡجُوعِ﴾، وهو: نقص الطعام، سواء أكان ذلك بفقد النقود التي يشتري بها الإنسان طعامه، أو بفقد الطعام نفسه، بحيث لا تنبت الأرض، أو لا يجلب إلى البلد.

﴿وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ نقص من الأموال: بما يحدث من الجوائح والفيضانات وغيرها، مما يرسله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده عند معصيتهم إياه، ونقص الأنفس: بالموت؛ كالأوبئة ونحوها، ونقص الثمرات: أن ما يخرج من الأرض؛ كالأشجار والزروع وغيرها، تصاب بنقص: إما في فساد ثمرتها، أو هلاكها، أو ضعفها، أو ما أشبه ذلك.

وكل هذه مصائب يقدرها الله ـ عز وجل ـ؛ ليبلو عباده: أيصبرون أم لا يصبرون؟ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: أخبرهم بما يسرهم، وهم الذين يصبرون على هذا البلاء: الخوف، والجوع، ونقص الأموال والأنفس والثمرات.

والخطاب في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: إما للرسول ﷺ، أو لكل من يصح توجه الخطاب إليه، إلى يوم القيامة.

ثم بين صفةً من صفات الصابرين، يتميزون بها عن غيرهم، وبين ثوابهم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦ـ١٥٧]:

﴿أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾، أي: من المصائب السابقة في الآيـة قبلهـا، أو غيرها.

﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: بألسنتهم، معترفين بها في قلوبهم.

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، أي: له، ملكًا وعبيدًا؛ فله أن يفعل بنا ما شاء.

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، أي: في جميع شؤوننا، ومنها أننا سنبعث ونلاقيه؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، الـصلوات مـن الـرب عـلى العبد، قيل: إنها، الرحمة، والصواب: أن الصلوات غير الرحمـة؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، والعطف يقتضي المغـايرة، فما هي الصلاة على العبد؟ «الصلاة على العبد» أحسن ما قيـل فيهـا مـا قاله أبو العالية ـ رحمه الله ـ حيث قال: «صلاة الله على العبد: ثناؤه عليه في الملإ الأعلى»، يعني: أن الله ـ تعالى ـ يثني على المـصلى عليـه، في المـلإ الأعلى عند الملائكة.

وعلى هذا: فمعنى الآية: ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، أي: لهم ثنـاء من الله ـ تعالى ـ عند الملإ الأعلى.

﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ أي: رحمـة يحـصل بهـا مطلـوبهم، وينجـون بهـا مـن مرهوبهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: إن الذين إذا أصابتهم مـصيبة، سـلموا الأمـر

لله، وقالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، ﴿هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

و«هم» هذه يسميها علماء اللغة: ضمير الحصر، يعني: أنها تحصر الحكم فيما بعدها، ويتضح هذا بالمثال، فإذا قلت: فلان القائم، أو قلت: فلان هو القائم، صار قولك هو القائم، آكد في الحصر والاختصاص من قولك: فلان القائم؛ ولهذا فهي - في الحقيقة - مع إفادتها الحصر، تفيد: التوكيد.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾، أي: الذين اهتدوا بهداية الله - تعالى - لهم.

في الآيات السابقة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- جواز التوكيد بالقسم في الأمور الهامة؛ لقوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ﴾، ولكن ينبغي أن يعلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يكثر من الأيمان، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وإلا فإنه يلقي الخبر على ما هو عليه، بدون توكيد، لكن عند الحاجة لذلك يؤكده بالقسم.

٢- أن الخوف والجوع ونقص الأموال ونقص الأنفس ونقص الثمرات، كلها من المصائب والبلاء.

٣- بيان حكمة الله - عز وجل - في تدبيره لخلقه، حيث يقدر لهم الضراء والسراء؛ ليبلوهم أيهم أحسن عملاً؛ كقوله - تعالى -: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد:٣١].

٤ـ أنه ينبغـي للإنـسان أن يـشعر بقـدر نعمـة الله عليـه، بـالأمن، والعيش الرغيد، ونمو الأموال والأنفس والثمرات.

٥ـ أن نقص هذه الأشياء مصيبة، فتكون زيادة هذه الأمور، نعمـةً ومنحةً، ولا شك أنـه كلـما كثـرت الأمـوال، وصرفـت في طاعـة الله، واستعمل الناس حياتهم في طاعة الله، فإن ذلك خير.

٦ـ أنه ينبغي للإنسان أن يبشر أهل العمل الصالح، بما يكـون مـن ثواب هـذا العمـل؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

والمبتلى بمصيبة من المصائب المذكورة، لا يخلو من أربع حالات:

الحالة الأولى: التسخط والتضجر.

الحالة الثانية: الصبر.

الحالة الثالثة: الرضا.

الحالة الرابعة: الشكر.

هكذا قسم بعض العلماء من يصابون بالمصائب، إلى هـذه الأقـسام الأربعة:

فأما الحال الأولى:

وهي التسخط، فهي حرام، لا يحل للإنسان أن يتسخط على قـضاء الله وقدره، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا يعني ذلـك أن نقـول: إنه لا يحزن، قد يحـزن الإنـسان، ولا يـستوي عنـده المـصيبة وعـدمها،

فتكون المصيبة أشد وقعًا عليه، ويحزن لها، لكن يصبر؛ وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ في ابنه إبراهيم حين مات، قال: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(١).

الحال الثانية: الصبر، وهو: أن يتجرع ألم المصيبة ويتألم، ولا يستوي عنده وجود المصيبة وعدمها، بل هو متكدر منها، لكنه لا يقول ما يغضب الله، ولا يفعل ما يغضب الله، وهذا واجب، يجب على الإنسان أن يصبر، ولا يجوز أن يتسخط، لا بقوله، ولا بقلبه، ولا بفعله.

الحال الثالثة: أن يرضى بقضاء الله، أي: يرضى بهذه المصنيبة التي أصابته، والفرق بين الرضا والصبر: أنه في حالة الصبر، يتألم الإنسان من المصيبة قلبيا، لكن لا يظهر التسخط، لا بقوله، ولا بقلبه، ولا بفعله، لكنه يتألم، إلا أنه صابر عن فعل ما لا يرضي الله، أما في حالة الرضا: فإنه لا يتألم، بمعنى: أن وجود هذه المصيبة عنده كعدمها؛ لأنها من الله، لا يكون في قلبه ألم أو حسرة، ومعلوم أن هذه الحالة أعلى من الحال الأولى، وإن كانت الحال الأولى أشد من جهة المعاناة، معاناة منازعة النفس.

أما الحال الرابعة: فهي الشكر على هذه المصيبة، ولكن قد نقول:

---

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» رقم (١٣٠٣)، ومسلم كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان، رقم (٢٣١٥).

كيف يشكر الإنسان على مصيبة ألمت به، وأثرت عليه؟ فنقول: نعم، يشكر الله؛ لأن هذه المصائب عقوبات معجلة على ذنوب فعلها، فيشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أن عجل عقوبة هذه الذنوب في الدنيا، قبل أن تكون في الآخرة، وأيضًا: هو يشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما يحصل له من ثواب هذه المصيبة، فيكون شكر الله منه على هذه المصيبة، من وجهين:

الوجه الأول: أن عقوبته عجلت، والعقوبة في الدنيا أهون من عقوبة الآخرة.

والوجه الثاني: أن الله ـ تعالى ـ يثيبه على هذه المصيبة أكثر مما يتوقع.

فهذه أحوال من أصيب بمصيبة.

٧ـ أن من تمام الصبر، تفويض الأمر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عند المصائب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾؛ ولهذا ينبغي لمن أصيب بمصيبة أن يسترجع فيقول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾، وأن يقول ما جاءت به السنة: «اللهم، أْجُرْني في مصيبتي، وأَخْلِفْ لي خيرًا منها»؛ فإن من قال ذلك، آجره الله في مصيبته، وأَخْلَفَ له خيرًا منها، قالت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ: إنه حين مات زوجها أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ وهو من أحب الناس إليها ـ قالت ما ذكره النبي ﷺ قالت: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾، اللهم، أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها، فكانت تقول في نفسها: من خير من أبي سلمة،

فإذا برسول الله ﷺ يتزوجها بعد أبي سلمة، فأعطاها الله سبحانه خيرًا مما أخذ منها[1].

٨ - أن العباد لله - عز وجل -، خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ فهو يفعل فيهم ما يشاء.

٩- الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

أما قوله - تعالى -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فمن فوائدها:

١٠- أن الله - تعالى - يعطي الصابرين هذا الثواب الجزيل.

١١- علو منزلة هؤلاء الصابرين؛ حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد؛ وذلك لعلو مرتبتهم.

١٢- بيان الثواب العظيم والجزيل للصابرين؛ حيث نالوا من الله - سبحانه وتعالى - الثناء عليهم في الملإ الأعلى؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

١٣- بيان ضعف القول بأن الصلاة من الله هي: الرحمة؛ وذلك لأن الله - تعالى - عطف الرحمة على الصلوات، والعطف يقتضي المغايرة؛ فدل ذلك على أن الصلوات غير الرحمة، وكما أسلفنا أن أبا

---

(١) رواه مسلم كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

العالية ـ رحمه الله ـ قال: «إن صلاة الله على عبده، ثناؤه عليه في الملإ الأعلى».

١٤- أن هؤلاء الصابرين موفقون للهداية؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

نسأل الله أن يجعلنا من الصابرين على البلاء، الشاكرين على الرخاء، المهتدين بهداية الله، إنه جواد كريم.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨].

الصفا والمروة: جبلان معروفان، شرقي الكعبة المشرفة، ويسمى الأول: جبل أبي قبيس، جبل كبير من جهة غزة، وعليه بيوت الآن!! والثاني: جبل المروة، وكان عليهما صنمان لقريش، فتحرج الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من أن يطوفوا بهما، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

والشعائر: جمع شعيرة، وهي الخصلة المعظمة في كتاب الله ـ عز وجل ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ «أو» هنا: للتنويع، يعني: أن من

حج، أو اعتمر، فليسع بينهما: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، ويستفاد من قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أن الإنسان مأمور بالطواف بهما؛ فإن شعائر الله معظمة، ومن تعظيمها أن يطوف المسلم بين الصفا والمروة.

و«الجناح» هنا بمعنى: الإثم، و﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، أي: بينهما.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، أي: من فعل طاعةً؛ فإن الطاعة خير.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يشكر هذا الفاعل، فيعطيه جزاءه: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ـ أن الصفا والمروة من شعائر الله، ويتفرع على ذلك أن الطواف بهما قربة إلى الله ـ عز وجل ـ.

٢ـ أن السعي بين الصفا والمروة، من شعائر الحج والعمرة؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾.

أن نفي الجناح لا يمنع أن يكون الشيء مأمورًا به؛ لأنه قد ينفى الشيء، خوفًا من توهمه، مع بقاء أصل المشروعية.

٣ـ أنه لا بد أن يستوعب الإنسان ما بين الصفا والمروة؛ لقوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، ولا يمكن تحقق الطواف بهما، إلا إذا استوعب ما بينهما؛ ولهذا قال العلماء: «لا بد أن يستوعب الساعي، ما بين الصفا والمروة». وفي الوقت الحاضر علامة الاستيعاب، هي: منتهى الشبك ـ

الممر - الذي جعل للعربات، فإنه بانتهائه يكون انتهاء المسعى القديم.

٤- الحث على فعل الطاعة؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٥- إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: «الشاكر» و«العليم» وإثبات ما تضمناه من صفة، وهي: «الشكر» و«العلم»، ولكن لا شكر إلا على فعل محمود؛ فالله - تعالى - يشكر من فعل ما يقربه إليه ويرضيه.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

هاتان الآيتان فيمن آتاه الله علمًا فكتمه، توعده الله - تعالى - بهذا الوعيد الشديد: أن الله يلعنه، ويلعنه - أيضًا - اللاعنون؛ وهذا كقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة:١٦١]، إلا أن الله - تعالى - استثنى من تاب وأصلح وبين، ووعد من قام بذلك، أن الله يتوب عليه، وأن الله - سبحانه وتعالى - هو التواب الرحيم.

في هاتين الآيتين الكريمتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- تحريم كتم ما أنزل الله من البينات والهدى، وأنه من كبائر

الذنوب؛ لأن الكاتم مستحق للعنة الله ولعنة اللاعنين.

٢ـ علو الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾، وعلو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين:

علو ذاتي: بمعنى أنه ـ تعالى ـ بذاته فوق كل شيء.

وعلو معنوي: بمعنى أن صفاته كلها عليا، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

٣ـ أن ما أنزله الله ـ عز وجل ـ بيان للناس وهدًى؛ وهذا كقوله ـ تعالى ـ في وصف القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

٤ـ أن ما نزل من عند الله، فإنه هدًى يهتدي به كل من شاء الله ـ تعالى ـ هدايته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾.

٥ـ أن الله ـ تعالى ـ بين للناس في الكتب ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم، فما من شيء يحتاجه العباد في عبادة الله، إلا بينه ـ عز وجل ـ، وما من شيء يحتاجونه في المعاملات بينهم، إلا بينه الله ـ عز وجل ـ، حتى يكون الناس على بصيرة من أمرهم، وحتى تقوم عليهم الحجة؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ﴾.

٦ـ أن أولئك الكاتمين يستحقون اللعنة؛ لقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾، ويترتب على ثبوت اللعنة لهؤلاء، أنه يجب على

أهل العلم أن يبينوا للناس ما أنزل الله ـ تعالى ـ من العلم، ولا يكتمـوا شيئًا منه؛ مداهنةً، أو محاباةً لبعض الناس.

٧ـ **ومن الفوائد والحكم في الآية الثانية، وهي قوله ـ تعالى ـ:** ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٠]، ما يلي:

٨ـ أن من تاب مـن ذنـب، فـإن الله ـ تعـالى ـ يتـوب عليـه، وهـذا مستفيض مشهور في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، **ولكن التوبة لا بد لها من شروط:**

الشرط الأول: أن تكون بإخلاص، بألا يحمل الإنسان عـلى التوبـة إلا وجه الله، ورجاء ثوابه، لا يريد بذلك جاهًا، ولا رياسةً، ولا مـدحًا من الناس.

الشرط الثاني: أن يندم على ما جرى عليه من المعصية، سواء كانـت المعصية بترك واجب، أم بفعل محرم.

الشرط الثالث: أن يقلع عما هو عليه من الذنب، فـإن كـان إهمـالاً لواجب، قام به، أي: بالواجب، وإن كان فعلاً لمحـرم، نـزع عنـه، وإذا كان حقا لآدمي، فإنه لابد أن يستحله، أو يؤديه حقه.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعـود في المستقبل، فـإن قـال: إنـه تائب، ولكن من نيته أن يعود، فإن هذه التوبة ليست بصحيحة.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه، وهي

بالنسبة لكل فرد، تنتهي بحضور أجله، وبالنسبة لعموم الناس، تنتهي بطلوع الشمس من مغربها، ودليل ذلك في القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء:١٨]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وذلك يعني: طلوع الشمس من مغربها، فإنها إذا طلعت من مغربها، آمن الناس كلهم، ولكنه: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾.

٩- أنه لابد في التوبة من الإصلاح؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾، فإذا ترتب على فعل المعصية فساد شيء من الأشياء، فلابد أن يقوم التائب بإصلاح هذا ما أمكنه.

١٠- أن من كانت معصيته بذنب، فلا بد أن يأتي في التوبة بما يقابل هذا الذنب، وهؤلاء كانت معصيتهم بالكتمان ـ كتمان ما أنزل الله ـ فلهذا لا بد أن يبينوا؛ ولهذا قال: ﴿وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾، فإن قال: إنه تائب عن كتمان ما أنزل الله، ولكنه لم يبين؟ فنقول: إن هذه التوبة لا تنفعه؛ لأنه لا بد أن يصلح الإنسان ما فسد على يديه بمعصيته، فالكاتم لا يمكن أن تقبل توبته وتكون صحيحة، إلا إذا بين.

١١- أن من تاب من ذنب، فإن الله يتوب عليه، وعد من الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾، وهذا عام في كل

زمان، فمن تاب ـ من أي ذنب كان ـ فإن الله يتوب عليه؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

١٢ـ إثبات اسمين من أسماء الله هما: «التواب»، و«الرحيم».

فـ«التواب» هو الذي يوفق للتوبة، ويقبل التوبة؛ والدليل على ذلك: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال ـ في الذين خلفوا في غزوة تبوك ـ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٨]، فقوله: «﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾»، أي: قدر لهم التوبة حتى قاموا بها؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾.

أما المعنى الثاني للتوبة فهو: قبول التوبة، ودليله قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى:٣٥].

وأما «الرحيم»، فهو: ذو الرحمة، ورحمة الله ـ تعالى ـ نوعان:

عامة، تشمل كل الخلق، حتى الكفار فإنها تشملهم.

وخاصة: بالمؤمنين، لا تشمل الكافرين؛ ودليلها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٣].

* * *

ثم قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: كفروا بالله، وبما يجب الإيمان به.

والكفر نوعان: نوع جحود، ونوع استكبار.

فالجحود: يتعلق بالأخبار.

والاستكبار: يتعلق بالأوامر والنواهي.

فمن كذب خبرًا من أخبار الله أو أخبار رسوله الثابتة عنه ﷺ، فإنه يكون كافرًا، وكفره هذا كفر جحود وتكذيب، ومن صدق، ولكن استكبر، فإنه يكون كافرًا، إذا استكبر عن جميع ما أمر الله به، وكفره هذا كفر استكبار، ومنه كفر إبليس؛ حيث قال الله له مع جملة الملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، يعني: استمروا في كفرهم حتى الموت.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ كل يلعنهم ـ والعياذ بالله ـ كل يتبرأ منهم، بل هم أنفسهم في النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ﴾ [الأعراف:٣٨].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾، أي: في اللعنة؛ وهي الطرد والإبعاد من رحمة الله، هم خالدون فيها، والعياذ بالله.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لا يخفف عنهم؛ أي: بقلة ألمهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يمهلون بتأخير العذاب عـنهم، بـل العذاب يعجل ـ والعياذ بالله ـ، ويؤاخذون على ما فعلوه.

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ أن الكافر لا يستحق الوعيد إلا إذا مات على الكفر؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، هذه هي القاعدة العامة في الشريعة: أن الإنسان لا يعذب عذاب الكفرة، إلا إذا مات على الكفر، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

٢ـ خلود أهل النار في لعنة الله؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾، وقد وردت آيات ثلاث تدل على أن عذاب النار مؤبد، ففي سورة النساء قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨ـ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤ـ٦٥]، وفي سورة الجن قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]؛ ولهذا لا يعرف عن أهل السنة وأئمة السلف، إلا هذا القول، أي: القول بأن جهنم يخلد فيها أصحابها أبد الآبدين ـ والعياذ بالله.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ [البقرة: ١٦٣].

والخطاب هنا لجميع البشر: يخبر الله ـ تعالى ـ أنه إله واحد، ويؤكد ذلك بقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا إله حق إلا هو، والإله بمعنى: المعبود حبا وتعظيمًا.

ويبين ـ عز وجل ـ بعد ذلك أنه الرحمن الرحيم، وفي هذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أن ألوهيته وربوبيته مبنية على الرحمة بعباده؛ ولهذا ترى ما أمر الله به أمرًا ليس بشاق على الناس، بل إذا وجدت المشقة، وجد التسهيل؛ لقول النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر»(١)، وقوله ﷺ وهو يبعث البعوث: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»(٢)، وقوله ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»(٣).

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ إثبات ألوهية الله، ووحدانيته في هذه الألوهية؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

٢ـ أنه ينبغي في الكلام الهام أن يؤكد بما يؤيده؛ لقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٢) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢١٧).

(٣) رواه البخاري كتاب التقصير، باب إذا لم يطق قاعدًا صَلَّى على جنب، رقم (١٠٦٦).

٣ـ إثبات اسمين من أسماء الله، هما: «الرحمن» و«الرحيم»، وإثبات ما تضمناه من صفة، وإذا ذكر هذان الاسمان جميعًا، صار الأول للصفة، والثاني للفعل، وإن أفرد أحدهما شمل الآخر، وعلى هذا فيكون: «الرحمن»، أي: ذو الرحمة الواسعة، و«الرحيم»، أي: الموصل رحمته لعباده، وفي «الرحيم» إثبات أن رحمة الله ـ عز وجل ـ تتعدى للمرحوم؛ ولهذا قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨].

٤ـ إثبات وحدانية الله ـ تعالى ـ في الألوهية؛ لقوله: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٥ـ الرد على المشركين الذي يعبدون مع الله إلهًا آخر، والعجب أنهم يعبدون مع الله إلهًا آخر، ويقولون في حق النبي ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، فيقال: إن العجاب كل العجاب، ما أنتم عليه من الشرك، كيف تعبدون مع الله غيره، وهو خالق السموات والأرض، المتفرد بخلقهما؟!

٦ـ تأكيد الجملة الخبرية بما يؤيدها، لا سيما في الأمور الهامة، ولا يعد هذا تكرارًا في الكلام؛ لقوله: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٧ـ الرد على النصارى المثلثين،الذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هذه جمل تدل على آيات عظيمة، لكن لا ينتفع بهذا إلا أهل العقل؛ لقوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالأول قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، في خلق السموات والأرض آيات عظيمة ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كيف جعل الأرض على هذا الوجه، وأرساها بالجبال؟! وجعل السماء على هذا الوجه، وزينها بالنجوم؟! وكيف تكون هذه الأرض على ما فيها من سعة عظيمة، تكون ملجأً للخائفين، ومزدرعًا للحارثين؟! وكذلك السماء بأفلاكها ونجومها، وشمسها وقمرها، كلها إذا تأملها الإنسان، وجد فيها آيات عظيمة.

وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أيضًا فيه ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. اختلاف الليل والنهار: بالطول والقصر، كذلك ـ أيضًا ـ بما يحدث فيهما من حوادث، وحروب، وأمن، ورخاء، وشدة، وقحط، وغيث، وغير ذلك.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ وهذا ـ أيضًا ـ من

الآيات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، الفلك: هي السفينة، تجري في البحر، في هذه المياه العميقة الواسعة التي تتلاطم بالأمواج، وهـذه الفلـك تجـري في البحر بما ينفـع النـاس: بحمـل بنـي آدم مـن جهـة إلى جهـة، وتحمـل الأرزاق من بلد إلى بلد، وغير ذلك مـن الآيـات العظيمـة في ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾.

وقولــــــه: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذا ـ أيضًا ـ من آيات الله؛ فهذا المطر الذي ينـزل عـلى الأرض القاحلة الميتة الهامدة، فتصبح الأرض مخضرةً، كل هذا مـن آيـات الله ـ عز وجل ـ، وقـول الله ـ عـز وجـل ـ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، يعنـي: في هـذا ـ أيـضًا ـ آيـات لقـوم يعقلون، ويريد بالماء الذي ينزل من السماء، يريـد بـه ـ تبـارك وتعـالى ـ المطر، يحيي به الله الأرض بعد موتها، فتجد الأرض هامدةً، يابسة، فإذا بها مخضرة تهتز، في هذا آيات على كمال قـدرة الله ـ عـز وجـل ـ، وعـلى قدرته على إحياء الموتى؛ كما يستدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ذلـك في آيات كثيرة من القرآن.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، أي: نشر في الأرض من كل دابة من الدواب الكثيرة، التي لا يمكن تعداد أجناسها، فضلاً عن أفرادها، وهذه الدواب كلها رزقها على الله ـ عز وجل ـ؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى

كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦].

والدابة هنا: اسم لكل ما يدب على الأرض، من صغير وكبير، وإنسان وحيوان.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾، يعني: تحريفها من جنوب إلى شمال، ومن شرق إلى غرب، وهناك تصريف آخر: من حارة إلى باردة، وتصريف ثالث: من مثيرة للسحاب، إلى ملقحة له، كل هذا التصريف فيه آيات لقوم يعقلون؛ فإن هذا التصريف للرياح، لو اجتمعت الخليقة كلها على أن تأتي بمثله، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لو جمعت جميع المكائن النفاثات، وبكل قواها، ما استطعت أن تأتي بأدنى ريح من هذه الرياح.

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا السحاب الذي ينسحب في الجو حاملاً المياه العظيمة، بل قد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النور:٤٣]، هذا السحاب المسخر المذلل بأمر الله ـ تعالى ـ يوجهه حيث شاء.

في هذا كله يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم عندهم عقول، يستدلون بهذه الأشياء وغيرها، على قدرة الله، تبارك وتعالى.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١ـ ما أشار الله إليه في آخرها: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾.

٢ـ الإشارة إلى خلق السموات والأرض، وأن خالقهما ـ جل وعلا ـ له من القدرة العظيمة ما يبهر العقول، ولقد بين الله ـ تعالى ـ: أنه خلقها في ستة أيام، وما مسه من لغوب، جل وعلا[1].

٣ـ العبرة باختلاف الليل والنهار على الوجه الذي شرحناه فيما سبق. وفيها ـ أيضًا ـ نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذا الاختلاف، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

٤ـ بيان نعمة الله ـ تعالى ـ بالفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، حيث تنقل الناس من بر إلى بر، وتنقل الأطعمة وما يحتاجه الناس، حتى ينتفع الصادر منهم ذلك، والوارد إليهم.

٥ـ تمام قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ بإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به.

٦ـ بيان حكمة الله حيث جعل هذا المطر ينزل من علو، ليشمل ما ارتفع من الأرض، وما نزل منها.

٧ـ بيان إحاطة علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل شيء في هذه

---

(١) سورة (ق)، آية: ٣٨.

الأرض: من الدواب الصغيرة والكبيرة؛ حيث إن الله ـ تعالى ـ نشر في هذه الأرض هذه الدواب، حتى إن الإنسان لينزل أحيانًا في أرض قفر ليس حولها أحد، فإذا به يرى النمل، ويرى غيرها مما خلق الله ـ عز وجل ـ.

٨ـ بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ بتصريف الرياح، وهذا التصريف له حكم عظيمة؛ لأنه من فعل الله ـ تعالى ـ وكل فعل من أفعال الله، فإنه مقرون بالحكمة البالغة؛ لأن من أسماء الله: «الحكيم»، وهو: المحكم، المتقن، لكل ما صنع، ولكل ما شرع.

٩ـ أن هذا السحاب مسخر، أي: مذلل، يصرفه الله ـ تعالى ـ حيث يشاء، ولا أدل على ذلك من استسقاء النبي ﷺ في خطبة الجمعة، حيث جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: **«اللهم، أغثنا ـ ثلاث مرات ـ فما نزل من المنبر إلا والمطر يتحدر من لحيته»**[1].

وكذلك قصة الرجل صاحب الحديقة: حين سمع رجل آخر صوتًا من السحاب يقول: اسق حديقة فلان، فنزل المطر في حدة، ثم جرى في شرج منها حتى أروى تلك الحديقة، فجاء الذي سمع الصوت إلى صاحب الحديقة يسأله: من أنت؟ حتى ذكر له الاسم

---

(١) رواه البخاري كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (١٠١٣)، ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء رقم (٨٩٧).

الذي سمعه من السماء، فلما سأله صاحب الحديقة: ما شـأنك؟ أخـبره بأنه سمع صوتًا من السحاب، يقول: اسق حديقة فلان، ثم سأله: ماذا كنت تصنع في هذه الحديقة؟ فأخبره أنه يجعلها أثلاثًا: يجعل ثلثًا للقيـام عليها، وثلثًا لنفقته وعياله، وثلثًا يتصدق به[1].

١٠ـ فضيلة العقل، وأن العقل يهتدي به صاحبه إلى معرفة آيات الله ـ عز وجل ـ، وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يعقل هذه الأمثال، وهذه الآيات إلا العالمون، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

* * *

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥].

في هذه الآية يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن من النـاس ـ يعنـي: أن بعض الناس ـ يتخذ من دون الله أندادًا، أي: نظراء وأمثالاً، يـسوونهم بالله ـ عز وجل ـ، في المحبة؛ فيحبونهم كحب الله، ويشير بهذا ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أولئك العابدين لأصنامهم، الذين يحبونها كـما يحبـون الله ـ عز وجل ـ، فيجعلونها شريكةً مع الله في المحبة.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾، وهذا كالاستثناء

---

(١) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم (٢٩٨٤).

الذي يخرج المؤمنين الذين يحبون الله ـ عز وجل ـ، أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم، أو من هؤلاء لله؛ يعني: أن المؤمنين يحبون الله، ويتعلقون به أشد حبا وتعلقًا من هؤلاء بأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين لله ـ عز وجل ـ، محبة تقتضيها الفطرة والشريعة، أما محبة هؤلاء لأصنامهم كحب الله، فهي محبة لا ترتضيها الشريعة، ولا تقتضيها الفطرة.

ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، أي: أشد حبا لله من هؤلاء، وذلك لأن محبة المؤمنين لله، محبة خالصة لا يشركها محبة أحد من الخلق، ومحبة هؤلاء لله ـ تعالى ـ محبة فيها شرك، بحيث يحبون هذه الأصنام كمحبة الله، وإذا كانت الآية تحتمل المعنيين، وأحدهما لا ينافي الآخر، فإن الواجب حملها على المعنيين جميعًا؛ لأن ذلك أعم وأشمل.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، يعني: ولو يرى هؤلاء الذين ظلموا باتخاذهم أندادًا يحبونهم كحب الله.

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: يشاهدونه، ويعاينونه يوم القيامة.

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وأن أصنامهم ليس لها قوة ولا حول، بل هي أضعف وأهون من أن يكون لها قوة، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا

يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣]، وهنا يقول: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وأنه لا قوة لأصنامهم، فتنقذهم من عذاب الله.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾، يعني: ويرون أن الله شديد العقاب.

يعني: لو رأوا ذلك، لتبدلت أحـوالهم، ولعرفـوا أنهـم عـلى خطـأ وضلال.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١ـ تحريم تشريك المحبة لله ـ تعالى ـ مع غيره، بحيث يتخذ أصنامًا يحبها كحب الله، سواء كانت هذه الأصنام مـن الـشجر، أو الحجـر، أو البشر، فمن أحب أحدًا كمحبة الله ـ عز وجل ـ، فإنه قد أشرك مع الله ـ تعالى ـ في المحبة، ويسمى هذا النوع من الشرك: شرك المحبة.

٢ـ أنه يجب إخـلاص المحبـة لله ـ عـز وجـل ـ، والمـراد بهـا: محبـة التذلل والخضوع والعبادة، وأما المحبة الطبيعية التي تكون من الإنسان وبيـن ما يلائمه، من بشر، أو مأكول، أو ملبوس، أو مركوب، فهذه لا تعلق لها بهذا الباب، وكذلك محبة الإنسان لأبنائه، وبناتـه، وأصـحابه، لا تدخل في هذا الباب؛ لأنها ليست محبةً مع الله، وهي من نوع آخر.

٣ـ شدة محبة المؤمنين لله ـ عز وجل ـ، وأنها محبة كاملة، أكمـل مـن محبة هؤلاء لأصنامهم، ومحبة خالصة، وأخلـص مـن محبـة هـؤلاء لله ـ عز وجل ـ.

٤- الوعيد الشديد لهؤلاء الذين جعلوا لله شريكًا في المحبة، يؤخذ من قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.

٥- أن هؤلاء الذين جعلوا لله شريكًا في المحبة كانوا ظالمين، أي: ظالمين لأنفسهم، حيث انتقصوها حقها، وهكذا كل عاص لله، فإنه ظالم لنفسه؛ لأن نفسه أمانة عنده، يجب أن يرعاها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك، فتهلك؛ ولهذا قال الله - تعالى - في آيات متعددة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦].

٦- إثبات أن القوة لله - تعالى - جميعًا، فجميع القوى لله - عز وجل -، حتى ما يجعله، أو يخلقه في بعض المخلوقات من القوى، فإنه لله، ملكه، لو شاء لسلب ذا القوة قوته؛ ولهذا يقول المؤمن: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

٧- التحذير من عذاب الله؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، وقد بين الله - سبحانه وتعالى - في آيات متعددة، أن شدة عذابه إنما تكون لمن يستحقه من الكفار والعتاة، ولكنه مع ذلك غفور رحيم؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال -

تعالى ـ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٩٨].

٨ـ أن المحبة تتفاضل، فيحب الإنسان شيئًا أكثر مما يحب الشيء الآخر. وإذا كانت محبة الله ـ تعالى ـ من الإيمان، ومن أفضل العبادات، وكانت تتفاضل، فهو دليل على أن الإيمان يتفاضل، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، فقد صرح أهل السنة والجماعة بأن الإيمان يتفاضل، وأنه يزيد وينقص، وأن من أسباب زيادته: طاعة الله ـ عز وجل ـ، ومن أسباب نقصانه: معصية الله ـ عز وجل ـ، بل إن الإيمان يزيد وينقص حتى في العلم الحاصل في القلب، فإن العلم الحاصل في القلب يتفاوت بحسب الطرق الموصلة إليه، فالإنسان يعلم بخبر الاثنين أكثر مما يعلم بخبر الواحد، وكلما تعدد المخبرون، ازداد الإنسان يقينًا.

٩ـ أن يحذر الإنسان مما وقع لهؤلاء الذين جعلوا لله شريكًا في المحبة، فأحبوا الأنداد كما يحبون الله، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعًا من أحبابه وأوليائه، وأن يهب لنا منه رحمةً، إنه هو الوهاب.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧].

هذه الآية: آية البراءة، أي: براءة أهل الشرك ممن اتخذوهم أندادًا يوم القيامة، وكذلك براءة المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة.

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾، «إذ»، هذه مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكر إذ تبرأ الذين اتبعوا، وهم: السادة القادة الذين يقودون الناس، سواء قادوهم باسم الشرع، وهم محرفون للشرائع؛ كأئمة اليهود والنصارى ونحوهم، أو قادوهم باسم الإمرة والسلطة؛ كأمراء السوء.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾: يتبرؤون منهم، وذلك أن الذين اتبعوا يحتجون على الذين اتبعوا، ولكن الذين اتبعوا يتبرؤون منهم حين يرون العذاب.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، يعني: أن المتبعين رأوا العذاب، وأنهم على ضلال.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾؛ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: المودة؛ يعني: أن المحاب التي كانت بينهم وبين هؤلاء المتبوعين، تقطعت؛ لأن هؤلاء الأتباع يظنون أن هؤلاء المتبوعين ينفعونهم يوم القيامة، ولكنهم لا ينفعونهم، بل يتبرؤون منهم، وحينئذ يكون عليهم اتباعهم حسرةً؛ لأنهم يندمون حين لا ينفع الندم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾: «لو»، هنا: للتمني، يعني: قالوا: ليت لنا كرةً، أي: رجوعًا إلى

الدنيا، فنتبرأ منهم، كما تبرؤوا منا في الآخرة، ولكن أنى لهم ذلك، بل لا يزيدهم هذا إلا حسرةً؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: هم من أهلها الذين لا يخرجون منها.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ التحذير من اتباع أهل السوء؛ لأن هؤلاء المتبوعين قادوا أتباعهم إلى ما وصلوا إليه من العذاب والحسرات، ودخول النار دخولاً لا يخرجون منها.

٢ـ أن كل من كان بينه وبين شخص علاقة لغير الله، فإنه سوف يندم على هذه العلاقة، ويتبرأ كل من الآخر؛ ويشهد لهذا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

٣ـ أن كل سبب ليس مبنيا على أصل صحيح، فإنه سوف ينقطع، ولا يوصل صاحبه إلى مقصوده؛ لقوله ـ تعالى ـ هنا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

٤ـ تتابع الحسرات على هؤلاء التابعين، الذين ضلوا بضلال متبوعيهم؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ﴾، والحسرة: شدة الندم.

٥ـ بيان أن هؤلاء المتبوعين ليسوا يدعون إلى هدًى وصلاح، وإنما

يدعون إلى ضلال وفساد، ووجه ذلك: أن الله أخبر بأن هؤلاء التابعين ليسوا بخارجين من النار، فإذا كان التابعون لا يخرجون من النار، فالمتبوعون من باب أولى.

٦ـ الإشارة إلى أن النار مؤبدة؛ لأنهم إذا كانوا لا يخرجون منها ـ وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في آيات ثلاث أن أصحاب النار خالدون فيها أبدًا ـ دل ذلك على أن النار لا تفنى؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

* * *

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨ـ١٦٩].

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعم المؤمنين والكافرين.

﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ الأمر هنا للإباحة، أي: كلوا مما أخرج الله من الأرض حال كونه حلالاً لكم طيبًا، وليس بخبيث، والإشارة في قوله: ﴿طَيِّبٗا﴾ إلى أنه يجب على الإنسان أن يكون مكسبه على وجه مباح حلال؛ لأن الكسب المحرم خبيث.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾، أي: لا تتبعوا الشيطان في خطواته، كلما خطا خطوةً، مشيتم عليها؛ فإنه لا يجركم إلا إلى النار، وبئس القرار؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ ومن المعلوم أن

عدوك إذا خطا واتبعته، سيوقعك في المهالك.

ثم بين ـ تبارك وتعالى ـ ماذا يدعو إليه الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾: بالسوء، أي: بالعمل السيئ، وهو ما دون الفحشاء، والفحشاء: العمل الكبير الذي يستفحش في العقول والشرائع.

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: وأن تفتروا على الله كذبًا، إما في ذاته، أو في أسمائه، أو في صفاته، أو في أحكامه، أو في أفعاله؛ فإن الشيطان يدعو إلى أن يقول الإنسان على ربه ما لا يعلم، وهذا من المحرمات في جميع الشرائع.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد، ما يلي:

١ـ وجوب العناية بما ذكر الله ـ تعالى ـ فيها من أحكام، ووجه ذلك أن الله ـ تعالى ـ صدرها بالنداء، والتصدير بالنداء يدل على أهمية ما وجه إلى المنادى.

٢ـ أن الخطاب في الأكل مما في الأرض يعم المؤمنين والكافرين؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عامة، لكن جاء في آيات أخرى توجيه ذلك للمؤمنين، فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، فهل نخصص عموم هذه الآية بالآية الأخرى، ونقول: إن المؤمنين يؤذن لهم بالأكل مما في الأرض، وأما

الكافرون: فإنه لا يحل لهم الأكل مما في الأرض، بل سيحاسبون على ذلك، أو نقول: إن هذه الآية عامة، وأن ما في الأرض يأكل منه الكافرون والمؤمنون، على أنه حلال لا يحاسب عليه الكافر؟ ولكن المعنى الأول أصح، وأن المراد بالناس هنا إما عموم الناس، وخصص بالمؤمنين، أو أن المراد بها الخصوص؛ يعني: عبر بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والمراد بها:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ويدل لهذا قول الله ـ تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣]، ومفهوم قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أن غير المؤمنين العاملين للصالحات، عليهم جناح فيما طعموا، ويؤيد ذلك ـ أيضًا ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف:٣٢]، وعلى هذا فيكون ما في الأرض حلالاً للمؤمنين، ليس فيه تبعة عليهم، وحلالًا للكافرين، بمعنى: أننا لا نمنعهم من تناوله، ولكن عليهم تبعة، وأنهم سيحاسبون عليه يوم القيامة، فيقال لهم: لم أكلتم نعمة الله وكفرتم به؟

٣ـ أن كل ما في الأرض حلال لنا، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة:٢٩]، وعلى هذا فيكون الأصل فيما في الأرض أنه حل لنا، فمن ادعى تحريم شيء مما في الأرض، قلنا له: ائت بالدليل، فإن جاء بالدليل، وإلا فالأصل الحل،

ولا فرق في ذلك بين الحيوان والجماد، والأشجار والثمار، وغيرها، والأصل فيها الحل، حتى يقوم دليل على المنع، والحيوانات كلها، الأصل فيها: الحل حتى يقوم دليل على المنع.

٤- الإشارة إلى أنه يجب أن يكون كسب الإنسان لهذا الحلال على وجه طيب، والطيب هنا ضد الخبيث، والخبيث: كل ما يحرم من تصر ف؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث»(١)، فيستفاد من هذا أنه يجب أن يكون ما تأكله مما في الأرض من الحلال، مكتسبًا على وجه مشروع.

ويتفرع على هذه القاعدة: أنه لا يحل للإنسان ما اكتسب بوجه محرم، فمن اكتسب مالاً بالغش، أو الكذب، أو الربا، أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يحل له أكله، بل هو حرام عليه، لكن من جاءه موعظة من الله وانتهى وتاب، فقد قال الله ـ تعالى ـ في الربا: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٧٥].

٥- تحريم اتباع خطوات الشيطان، فإن قال قائل: بأي طريق نعلم خطوات الشيطان؟ قلنا: بما ذكر الله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور:٢١]، فإذا هممت بمعصية صغيرة، فذلك من أمر الشيطان، وإن هممت بمعصية كبيرة

(١) رواه مسلم كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب ...، رقم (١٥٦٨).

فاحشة، فذلك ـ أيضًا ـ من أمر الشيطان، فكل معصية تهم بها، فإنها من أمر الشيطان، فإن اتبعت هواك فيها، فقد اتبعت خطوات الشيطان.

٦- التحذير من الشيطان؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، والتحذير من الشيطان يتفرع عنه التحذير من أولياء الشيطان، الذين يأمرون بالفحشاء والمنكر؛ فإن هؤلاء هم أولياؤه، فالواجب على المسلم الحذر من الشيطان؛ لأنه عدو، والحذر من أولياء الشيطان؛ لأنهم ـ أيضًا ـ عدو.

ويدل لهذا قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، وقوله ـ تعالى ـ في المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]، فالواجب الحذر من الشيطان وأتباعه؛ لأنهم أعداء لنا.

٧ـ بيان ما يأمر به الشيطان، وهو: أنه يأمر بالسوء، وهو: المعاصي الصغار، والفحشاء، وهي: المعاصي الكبار.

٨ـ تحريم القول على الله بلا علم، وهذا يشمل تحريم القول عليه في ذاته، وتحريم القول عليه في أسمائه، وتحريم القول عليه في صفاته، وتحريم القول عليه في أحكامه الكونية والشرعية، وذلك من قوله ـ

تعالى ـ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ فإن هذا يـشمل القـول على الله في ذاته، وفي أسمائه، وصفاته، وأحكامه الكونية والشرعية:

أما القول على الله في ذاته: فأن يقول قائل: إن ذات الله ـ تعالى ـ، مثل ذواتنا، يعني: مكونةً من أجزاء، ينفصل بعضها عن بعض، ويبقى بعضها دون بعض، وما أشبه ذلك، وهذا محرم نفاه الله ـ تعالى ـ عن نفسه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ونهى ـ سبحانه وتعالى ـ أن نضرب له الأمثال، في قوله: ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل:٧٤].

أما القول على الله في أسمائه: فيشمل أن يثبت الإنسان لله أسماءً لم يسم بها نفسه، كما سماه النصارى: «أبًا»، فهم يعنون بالأب، يعني: الرب ـ عز وجل ـ؛ لأنهم يعتقدون أن المسيح ابن الله، فيكون قولاً على الله بلا علم، ويشمل القول على الله في أسمائه ـ أيضًا ـ أن ينكر شيئًا من أسمائه، كما فعل أهل الجاهلية، حين قيل لهم: ﴿ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ [الفرقان:٦٠]، فأنكروا أن يكون «الرحمن» من أسمائه، وهذا قول على الله بلا علم، بل بما يعلم أن الأمر بخلافه.

ومن القول على الله بلا علم في صفاته: أن نقول: إن صفات الله ـ تعالى ـ كصفاتنا، كما قاله أهل التمثيل، فقالوا: إن كل ما ذكر الله من أوصافه، فإنه مماثل لصفاتنا؛ فالوجه، واليد، والعيـن، كلها مثل ما لنا من ذلك، وقد كذبوا فيما ادعوا، وخالفوا المسموع والمعقول فإن الله ـ

تعالى ـ يقول ـ وهو أعلم بنفسه ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وينهانا ـ سبحانه وتعالى ـ أن نضرب له الأمثال، وأن ذلك لا يمكن؛ لأننا لا نعلم، والله ـ تعالى ـ يعلم أنه لا مثيل له.

ويشمل القول على الله بلا علم في صفاته ـ أيضًا ـ: إنكار الصفات، حيث زعم أهل التعطيل، الذين أنكروا أن يكون لله صفات، أو أثبتوا بعض الصفات وأنكروا بعضها بحجة أن العقل يمنع من ثبوتها لله، فقالوا على الله في ذلك ما لا يعلمون؛ لأننا نقول لهم: أين العقل الذي يمنع أن يكون الله متصفًا بصفات الكمال؟! كل عقل يمنع أن يكون الله متصفًا بصفات الكمال، فهو عقل فاسد، وعقل مريج، وإلا فإن العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات ـ ونعني بالشهوات: الإرادات السيئة ـ لا يمكن أن ينكر ما أثبت الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

ومن القول على الله بلا علم، في أحكامه القدرية:أن نثبت لشيء من الأشياء سببيةً، دون علم من الله، فيقول القائل مثلاً: إذا فعل الإنسان كذا، حدث كذا، وهو لم يعلم ذلك، لا بنص، ولا بتجربة، فيكون قد قال على الله ما لا يعلم، ومن ذلك ما يفعله بعض المشعوذين، بأن يعلق التمائم الشركية على المرضى الذين فيهم المرض في أجسامهم، أو في نفوسهم، ويدعي أن ذلك يزيل هذا المرض، دون

علم من شرع، ولا علم من واقع، فيكون قد قـال عـلى الله في أحكامـه القدرية ما لا يعلم.

وأما القول على الله بما لا يعلم الإنسان، في الأحكـام الـشرعية: فـما أكثرها [اليوم]!! ما أكثـر الـذين يتـصدون للفتـوى،وهم مـن أجهـل الناس!! فيكونون قد قالوا على الله بلا علم، والمفتي لعباد الله، بما يزعم أنه شريعة الله، هو معبر عن الله في الحقيقة؛ لأنه يقول: هـذا حكـم الله، أو هذا حرام حرمه الله، أو ما أشبه ذلك، فلا بد أن يكون على علم مـن كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، أو الإجماع، أو القياس الصحيح، أما أن يفتي بلا علم، فإنـه يـدخل في أوامـر الـشيطان، ويكـون عبـدًا مطيعًـا للشيطان، ولقد كـان الـسلف الـصالح بـورعهم، وتـوقي المـسؤولية، يتدافعون الفتوى، كل واحد منهم لا يريد أن يكون هـو المفتـي، وهـم يعلمون أن هذا المستفتي سيجد من يفتيه بكتاب الله، وسـنة رسـوله و، وإلا فمن المعلـوم: أنـه لا يجـوز للإنـسان إذا سـئل عـن علـم يعلمـه، والسائل محتاج إلى بيانه، أن يكتمه، فقد ذكر الله ـ تعالى ـ أن من كتم مـا أنزل الله، فإن عليه الوعيد الشديد.

وعلى هذا فإننا نحذر إخواننـا طلبـة العلـم ـ والعامـة ـ أيـضًا ـ أن يفتوا بلا علم، بل عليهم أن يلتزموا الورع، وأن يقولوا لما لا يعلمـون: لا نعلم؛ فإن هذا ـ والله ـ هو العلم. لكن إذا كان الإنسان عالما بحكـم المسألة من عالم يثق بقوله، وأراد أن ينقل قـول هـذا العـالم للمـستفتي،

فإن هذا لا بأس به، مثل أن يأتيه شخص ويقول: ما تقول في كذا وكذا؟ والمسؤول عامي، لكن يقول: سمعت الشيخ الفلاني يقول: إن حكمه كذا وكذا - وهو متيقن أن هذا: ما سمعه من العالم - فإن هذا لا بأس به، ويكون هذا راويًا، لا مفتيًا. وعلى كل حال، فإني أعيد وأكرر: التحذير من الفتوى بغير علم، وأقول للإنسان: أنت في حل - إذا لم يكن عندك علم - أن تصرف المستفتي إلى شخص آخر. وكان الإمام أحمد - رحمه الله - إذا سئل عن شيء ولا علم له به، يقول: اسأل العلماء.

وهذا يدل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يعين شخصًا معينًا عندما يحيل الناس إلى استفتاء شخص آخر، بل يقول: «اسأل العلماء». اللهم إلا أن يخشى أنه إذا قال: «اسأل العلماء»، أن يذهب هذا السائل إلى شخص جريء يتجرأ على الفتوى بغير علم، فهنا يعين من يحيله عليه، فيقول: اذهب إلى الشيخ الفلاني، فعنده العلم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المتبعين لأهوائهم، المقتدين بكبرائهم، من الآباء، أو غيرهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ﴾، «بل» هنا: للإضراب

الإبطالي، أي: بل لا نتبع ما أمرتمونا به، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

﴿أَلْفَيْنَا﴾، أي: وجدنا عليه آباءنا، و«ألفينا»، بمعنى: وجدنا، كقوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾[يوسف: ٢٥]، أي: وجداه عند الباب.

قال الله تعالى ردا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: أيتبعون آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

وقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا ﴾، أي: لا يفهمونه، ولا يفقهونه، وليس المعنى: لا يعرفونه، هم يعرفون الأشياء، وهم أذكياء، لكن ليس عندهم عقول يهتدون بها إلى ما ينفعهم، ويتركون بها ما يضرهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ لأنهم وإن كانوا أذكياء، وعندهم علم وفهم، لكن ليس عندهم عقل. وهناك فرق بين العقل وبين الذكاء: العقل يحمل صاحبه على حسن التصرف، وأما الذكاء فقد يحمل صاحبه على حسن التصرف إن كان مقرونًا بالعقل، وقد يحمله على الطيش وعدم حسن التصرف إذا لم يكن مصحوبًا بعقل.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن هؤلاء المخالفين للرسل، معاندون؛ لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

٢ـ أنه يجب اتباع ما أنزل الله، فيما نص الله عليه، وفيما أرشد إليه:

أما مـــا نص الله عليه: فمثل قوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [الحج: ٧٨] وأما ما أرشد الله إليه: فمثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء:٥٩، محمد: ٣٣].

وهذا يدلنا على أن ما أمر به الرسول ﷺ، فإنه مطاع كالذي أمر الله به. ومما يدخل في الإرشاد، قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

فأحالنا الله ـ عـز وجـل ـ إلى أهـل الـذكر ـ إذا كنـا لا نعلـم ـ لأن العامي قد لا يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله، ولكن يجب عليـه في هذه الحال، أن يسأل أهل الذكر، أي: أهل العلم.

٣ـ أن الوحي نازل من عند الله؛ لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٤ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ؛ لأن الشيء إذا نزل منه، كان دلـيلًا على علوه.

وهذا ـ أعني: إثبات علو الله ـ هو قول أهل السنة والجماعة، حيـث قالوا: إن الله تعالى علي بذاته، علي بصفاته.

٥ـ قبح التعصب المبني عـلى الجهـل والـضلال؛ لأن الله تعـالى ذم هؤلاء الذين قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

٦ـ أن للبـيـئة تأثيرًا، فإذا عاش الإنسان في بيئة صالحة، كان ذلـك من أسباب صلاحه، والعكس بالعكس؛ ويؤيد هـذا قـول رسـول الله ﷺ: «**كل مولود يولـد عـلى الفطـرة، فـأبواه يهودانـه، أو ينـصرانه، أو**

يمجسانه»[1].

٧ـ توبيخ من اتبع آباءه على غير هدًى وعقل؛ لقولـه تعـالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٨ـ نعت هؤلاء الآباء بأنهم لا عقول لهم؛ لقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي.﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

فإن قال قائل: العقل ضده الجنون، فإذا انتفى العقل صار الجنـون، والمجنون غير مكلف، فكيف يكون التوبيخ؟

فـالجواب: أن العقـل، عقـلان: الأول: العقـل الـذي هـو شرط التكليف، فهذا ضده الجنون، والعقل الذي ضـده الـسفه، هـو: عقـل الرشد، أي: أن يكون الإنسان رشيدًا؛ ولهذا لو وجدنا شخـصًا عـاقلًا من حيث التكليف ـ أي: ليس بمجنون ـ لكن لا يحسن التصرف، قلنا: هذا سفيه، ولنا أن نقول: إنه غير عاقل، أي: العقل الـذي يحملـه عـلى الرشد. فأما العقل الذي لا يحمل على الرشـد، فإنـه يـسمى ذكـاءً، ولا يسمى عقلًا؛ ولهذا يجب أن نفرق بين العقل والـذكاء، فنقـول: العقـل عقلان: العقل الذي هو شرط التكليف، وهذا ضده الجنـون، والعقـل الذي هو شرط حسن التصرف، وهذا ضده السفه، وهو المـراد هنـا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

---

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات. . .، رقـم (١٣٥٩،١٣٥٨)، ومـسلم كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. . .» رقم (٢٦٥٨).

٩ـ أنه ربما يستدل بها على أن الأجداد يسمون: آباء؛ وهذا كثير في اللغة وفي القرآن، أن «الآباء» تطلق ويراد بها الأجداد، والآباء الأدنون. ويتفرع على ذلك مسألة فرضية، وهي: أنه إذا مات الميت وترك جدا من قبل أبيه، وإخوانًا، فإن ماله لجده من قبل أبيه، وليس لإخوانه شيء؛ وذلك لأن جده من قبل أبيه بمنزلة أبيه، بل هو أب حقيقةً والأب لا يرث معه الإخوة شيئًا، وهذا ـ أعني: القول بأن الجد من قبل الأب يحجب الإخوة مطلقًا ـ هو القول الراجح الذي اختاره كثير من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وشيخنا عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ.

* * *

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

المثل: بمعنى الشبه، وبمعنى الصفة. وكلا المعنيين صحيح، يعني: صفة هؤلاء الذين كفروا كصفة الذي ينعق بما لا يسمع، أو شبه هؤلاء، كشبه الذي ينعق بما لا يسمع. والذي ينعق هو منادي الحيوانات، والذي لا يسمع إلا دعاءً ونداءً هو الحيوان، يعني: كمثل الراعي ينعق للإبل، ينعق للغنم، ينعق للبقر، فتقبل إليه من غير أن تدري ماذا يصنع، حتى إنه ربما ينعق بها ليذبحها، فتأتي وهي لا تدري. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبر أن حال هؤلاء الكفار، وشبه هؤلاء

الكفار، كهذا الذي ينعق بما لا يسمع ـ أي: ينعق بالدابة والبهائم ـ لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، لا يدري ما هو، ووجه الشبه: أن هؤلاء الكفار يتبعون من يتبعون من آبائهم وكبرائهم، وهم لا يعلمون أنهم يجرونهم إلى الهلاك؛ ولهذا وصفهم بأنهم صم عن الحق؛ فلا يسمعونه، بكم عن الحق؛ فلا ينطقون به، عمي عن الحق؛ فلا يبصرونه ـ والعياذ بالله ـ.

فهم بناءً على فقد هذه الحواس منهم: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: لا يعقلون العقل السليم، الذي يحثهم على الرشد، ويحذرهم من الغي.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد العظيمة والأحكام ما يلي:

١ـ سوء مثل الكفار، حيث شبهوا بالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، وهم أهل لذلك، بل هم أضل من هذه الأنعام؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

٢ـ التحذير من التعصب والمتابعة لغير من يعلم، أو يغلب على الظن أنه على هدًى؛ لأن الله تعالى ذم هؤلاء الذين يتبعون الكفار، وبين أنهم كالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

٣ـ نفي الكمال عمن لم ينتفع به؛ فإن الصمم، والبكم، والعمى، نقص، وهؤلاء الكفار قد يكونون من أقوى الناس بصرًا، وأشدهم سمعًا، وأفصحهم لسانًا، لكن لما كانوا لا يستفيدون من ذلك، صاروا

كالفاقدين له؛ لقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

٤-الإشارة البينة إلى الفرق بين العقل والذكاء؛ فإن هؤلاء الكفار الذين يتبعون من يتبعونه من آبائهم وكبرائهم، هم أذكياء، ولا يفوتهم شيء مما يشتهونه ويهوونه، لكنهم غير عقلاء في الواقع؛ لأنهم لم يحسنوا التصرف لأنفسهم، حيث أوقعوها في الكفر والضلال ـ والعياذ بالله ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

هنا وجه الخطاب للمؤمنين في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ونقول حول هذا: تصدير الخطاب بالنداء، يدل على أهميته؛ لأن النداء يستلزم أن يسترعي المنادى انتباهه، وينتبه لما وجه إليه، ثم إن توجيهه إلى الذين آمنوا يدل على فضل الإيمان، وأن المتصف به أهل لأن يلقى إليه الخطاب، ويوجه إليه النداء. ثم إن توجيهه إلى الذين آمنوا يدل على أن هذا من مقتضيات الإيمان، كما إذا قال القائل لشخص ما: يا أيها الكريم، نزل عليك ضيف، يعني: ومن مقتضى كرمك أن تكرم هذا الضيف، كذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: من مقتضى إيمانكم أن تمتثلوا ما أمركم الله به في قوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾. ومن ذلك ـ أي: مما يتعلق بتصديره بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإشارة إلى أن

ترك الامتثال ـ ممن وجه إليه هذا النداء ـ إخلال بالإيمان ونقص له.

يقول ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ والأمر هنا: ﴿كُلُواْ﴾ للإباحة، ومعنى ، أي: أعطيناكم، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ معطوفة على ﴿كُلُواْ﴾، يعني: اجمعوا بين الأكل والشكر. قال العلماء: والشكر هو: الاعتراف بالقلب للمنعم، والتحدث بالنعمة باللسان، شكرًا لا افتخارًا، والعمل بطاعة المنعم، تصديقًا للأخبار، وتنفيذًا للأحكام. وعلى هذا: فالشكر أمر عظيم، ليس بالعمل الهين، ولا يكفي فيه أن يقول الإنسان: أشكر الله، أو: أنا شاكر لله، بل لا بد من هذه الأمور الثلاثة؛ الأول: التحدث بها بالقلب. والثاني: الاعتراف بها باللسان، بأنها من الله ـ عز وجل ـ، ونشرها بين الناس، لا افتخارًا ولا علوا، ولكن إظهارًا لنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه. والثالث: العمل بالجوارح فيما يرضي المنعم ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، يعني: أن من مقتضى العبادة الحقة أن يشكر الإنسان ربه ـ عز وجل ـ.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أهمية هذا الأمر الذي وجه للمؤمنين، ووجه هذا أنه صدر بالنداء وبوصف الإيمان.

٢ـ فضيلة الإيمان، حيث كان أهله محلا لإلقاء الخطاب إليهم.

٣- وجوب الأكل من الطيبات؛ لقوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، والأصل في الأمر: الوجوب، ولكن دلت السنة على أن الأكل يكون أحيانًا مباحًا، وأحيانًا يكون مستحبا، وأحيانًا يكون واجبًا؛ فيكون واجبًا إذا ترتب عليه بقاء الإنسان؛ ولهذا نقول: إن الذين يضربون عن الطعام والشراب، حتى يهلكوا: منتحرون، أي: بمنزلة الذين نحروا أنفسهم؛ لأنه ـ أي: الأكل والشرب ـ يجب عند خوف الهلاك.

٤ـ الإشارة إلى أن ما في الأرض من عطاء الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وهذا يستلزم أن نشكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما رزقنا، وألا نتكل على أنفسنا، وألا نفخر بعملنا، وألا نكون كالذي قال الله عنه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعًا شكر نعمته، وحسن عبادته، وأن يزيدنا من فضله.

٥ـ أن الشكر محله القلب، واللسان، والجوارح؛ كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

وبين الشكر وبين الحمد عموم وخصوص، فمن جهة ما يكون به الشكر: فالشكر أعم، ومن جهة مورد الشكر وموقعه: فالحمد أعم؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يحمد على كمال صفاته وكمال إنعامه.

ويشكر ـ سبحانه وتعالى ـ على إنعامه فقط، ويكون الشكر بالقلب

واللسان والجوارح.

٦ـ أن الشكر يكون به تحقيق العبادة لله ـ عز وجـل ـ؛ لقولـه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وهذه الجملة الشرطية ـ التي يرد مثلها كثيرًا في القرآن ـ تفيد معنى التحدي، أي: إن كنت صادقًا في عبادة الله، فاشكره، ولا تكفر نعمه.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: ١٧٣].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾: التحريم بمعنى المنع، والجملة هنا فيها الحصر بـ﴿إِنَّمَا﴾، يقول العلماء: الحصر هو: إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما عداه.

فقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ بمنزلة قول القائل: ما حرم عليكم إلا الميتة.

و«الميتة» عند أهل العلم: كل ما مات بغير ذكاة شرعية؛ فيشمل ما مات حتف أنفه، وما مات بغير ذكاة شرعية.

﴿وَٱلدَّمَ﴾، وهو ذلك السائل الأحمر الذي يخرج من الحيوان ذي الروح، وهو معروف، لكنه هنا مطلق، وفي سورة الأنعام مقيد؛ حيث قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ

لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ فالمراد بالدم هنا: الدم المسفوح.

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾، والخنزير: حيوان معروف، ولحمه حرام؛ لأنه رجس وخبث.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾، أي: ما ذبح لغير الله، أو ذكر عليه اسم غير الله؛ فما ذبح للصنم ـ مثلًا، فهو حرام، وإن سمى عليه أو لم يسم عليه، وما ذبح للأكل وسمي عليه اسم غير الله، فهو حرام، وإن كان الإنسان لم يقصد به التعبد، لكن أهل به لغير الله. وما سمي عليه غير اسم الله، فمثل أن يقول: باسم المسيح، باسم الرئيس، باسم الشعب، ويذبح على هذا الاسم، فهذا أيضًا حرام لفقد تسمية الله عليه، ولأنه ذبح علي وجه الإشراك بالله ـ عز وجل ـ.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾، أي: من ألجأته الضرورة إلى أكل هذه الأنواع الأربعة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله. واضطر أصلها: «اضتر»، وأدغمت التاء في الضاد، فصارت طاءً، وهي من الضرر، أي: من حصل له ضرر بترك الأكل، وخاف على نفسه المرض أو الهلاك.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ هذا شرط للضرورة:

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: غير باغ للحرام، وغير طالب له.

﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: ولا معتد، بحيث يأكل بدون حاجة، بل يأكل

منه ما تدعو الضرورة إلى أكله فقط.

﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾، أي: لا عقوبة: فإن كان باغيًا أو معتديًا فأكل، فعليه الإثم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ غفور: ذو مغفرة، فيتجاوز عن عباده السيئات.

رحيم: رحيم بهم، فلا يحرم عليهم ما اضطروا إلى أكله وكان لهم فيه انتفاع؛ فمن أجل مغفرته ورحمته، رفع الإثم عمن كان مضطرا، كذا معنى الآية:

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن التحليل والتحريم إلى الله ـ عز وجل ـ، لا يملك أحد أن يحرم شيئًا حلالًا، ولا أن يحل شيئًا حرامًا، إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بل قد جاء في الحديث ما يدل على أن من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله[(١)]؛ ولهذا لما قيل يوم خيبر: إن البقول من البصل والثوم والكراث وما أشبهها قد حرمت، قال النبي ﷺ: «إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي»[(٢)]؛ فإذا كان النبي ﷺ يبرأ من تحريم ما أحل الله، فغيره من باب أولى؛ فالتحريم والتحليل، والإيجاب والكراهة، كل ذلك إلى الله ـ عز وجل ـ وحده؛

---

(١) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

(٢) رواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا...، رقم (٥٦٥).

لقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ والضمير ـ كما هو معلوم ـ يعود على الله ـ عز وجل ـ.

٢ـ أن الميتة حرام، وظاهر الآية العموم، لكن قد دل الدليل أن من الميتات ما هو حلال، ومن ذلك صيد البحر؛ فإن ميتته حلال؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٩٦]؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «صيده ما أخذ حيا، طعامه ما أخذ ميتًا». وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أحلت لنا ميتتان ودمان: أما الميتتان: فالجراد والحوت، وأما الدمان: فالطحال والكبد»[1]؛ وعلى هذا فميتة السمك: حلال، وميتة الجراد: حلال. والحكمة في حل ميتة الجراد مع أنه صيد بري، أنه ليس فيه دم، والعلة في تحريم الميتة: احتقان الرطوبات والدم فيها؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوا إلا **السن والظفر**»[2].

فدل ذلك على أن الحكمة من إباحة المذكى: كونه قد نزف دمه، ولم يحتقن، ولم يبق في العروق.

---

(١) رواه أحمد (٥٦٩٠)، وابن ماجة كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، رقم (٣٣١٤).

(٢) رواه البخاري كتاب الشركة، باب قسمة الغنم، رقم (٢٤٨٨)، ومسلم كتاب الأضاحي باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر، رقم (١٩٦٨).

٣ـ أن الدم حرام، وقد بينا في تفسيرها أن المراد به: الـدم المسفوح الذي يخرج من الحيوان عند ذبحه وتذكيته، فأما الدم الذي يبقـى بعـد التذكية في العروق، فإنه حلال وليس بحرام؛ كدم الكبـد، ودم القلـب والطحال، وما أشبه ذلـك؛ وذلـك لأنـه مـن مـذكاة، فيكـون حـلالًا كاللحم، أي: اللحم المذكى.

٤ـ تحريم لحم الخنزيـر، والخنزيـر: حيـوان معـروف خبيـث، مـن خصائصه: أنه يأكل القاذورات كالعذرات، وأنه لا غيرة فيه على أنثـاه، وأن في لحمه جراثيم مضرةً، مهلكةً، مفسدةً للطبائع؛ ولهذا حرمـه الله ـ عز وجل ـ فقال: ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾.

٥ـ أنه لا يحل من الخنزير أي جزء من أجزائه؛ لعموم قولـه تعـالى: ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾؛ فلا تحل كبده، ولا أمعاؤه، ولا كلاه، كل ما فيه فهو حرام.

ونتنقل من هذه الفائدة إلى فائدة أخرى تتعلق بالوضوء، وذلك:

أن النبي ﷺ أمر بالوضوء من لحم الإبـل؛ فقـال: «**توضـؤوا مـن لحوم الإبل**»[1]، وسئل ﷺ: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «**نعم**»، قـال: أتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: «**إن شئت**»[2]؛ فكونه ﷺ يرد الوضوء من

---

(١) رواه أحمد (١٨٦١٧) عن أسيد بن حضير، ورواه ابن ماجة كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٤٩٧) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠).

لحم الغنم إلى المشيئة، ويجزم بالوضوء من لحم الإبل، دليل على أن الوضوء من لحم الإبل واجب، وأن الوضوء من لحم الغنم ليس بواجب، وهو كذلك.

ولكن ما المراد بلحوم الإبل؟ المراد: جميع أجزائها، كما قلنا في لحم الخنزير؛ فإذا أكل الإنسان شيئًا من لحم الإبل: من الكبد، أو الأمعاء، أو الكرش، أو القلب، أو الفخذ، أو من أي موضع كان، فإنه يلزمه أن يتوضأ، سواء أكل اللحم نيئًا أو مطبوخًا. ولكن لا حرج عليه إذا أكل أن يتوضأ وضوءًا فقط، دون أن يغسل الفرج، بل لا يغسل الفرج؛ لأن غسله في هذه الحال تعنت وبدعة؛ فإن غسل الفرج إنما يجب من بول أو غائط، وإذا لم يكن بول ولا غائط فليس هناك شيء يغسل.

٦ـ تحريم ما ذبح لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

٧ـ تحريم ما ذكر غير اسم الله عليه، وإن كان القصد منه ليس لغير الله؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾. فإذا قال الرجل إذا أراد أن يذبح الذبيحة: باسم الوطن، باسم الرئيس، باسم فلان، أو فلان، فإن الذبيحة لا تحل، حتى وإن كان قد قصد بها شيئًا مباحًا، كما لو قصد بها الأكل، فإنها لا تحل؛ لأنه أهل بها لغير الله.

٨ـ سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ حيث أباح هذه المحرمات عند الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

فإن قال قائل: هل تجيزون أن يتداوى الإنسان بالمحرم قياسًا على

أكل هذه الأربعة عند الضرورة؟

قلنا: لا، لا نجيز ذلك؛ وذلك لأن الدواء قد يحصل به الشفاء، وقد لا يحصل، بخلاف أكل الميتة وما عطف عليها للمضطر، فإنه يحصل به الشبع قطعًا، والوجه الثاني من الفروق بين هذه وهذه: أن الشفاء لا يتعين بتناول هذا الشيء المحرم، بل قد يشفى بدون تناوله، أو بتناول شيء مباح، وأما المضطر فيتعين زوال ضرورته بأكله من هذه المحرمات؛ لأنه ليس عنده شيء سواها.

٩- إثبات القاعدة المشهورة عند أهل العلم، وهي: أن الضرورات تبيح المحظورات، كما أن الواجبات تسقط بالعجز؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

١٠- اعتبار النية والمقاصد؛ لقوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾. وهذ أمر معلوم من الشريعة فتجد الرجل يأكل هذه الأكلة ليستعين بها على محرم، فتكون حرامًا، ويأكل هذه الأكلة، ليستعين بها على مأمور، فتكون مأمورًا بها، نعم، الأعمال بالنيات، تجد هذا الرجل يبيع السلاح، يكون مرةً بيعًا حرامًا، إذا باعه في حال فتنة بين المسلمين، على رجل يقتل به مسلمًا، ويكون حلالًا إذا باعه على من يستعمله في الحلال،،، وهلم جرا.

هذه القاعدة المفيدة، مأخوذة من قوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾

١١- أن هذا التخفيف على العباد من مقتضيات كونه تعالى: غفورًا

رحيمًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢ـ إثبات هذين الاسمين لله ـ عز وجل ـ: «الغفور» و«الرحيم». و«الغفور»: هو الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عنها؛ فالغفر، بمعنى: الستر والتجاوز، يدل على ذلك اشتقاقه؛ لأنه مشتق من المغفر، والمغفر: ما يوضع على الرأس عند الحرب، لاتقاء السهام أن تقع على الرأس؛ ففيه ستر، وفيه وقاية، وليس الغفر مجرد الستر، فالغفور: هو المتجاوز عن سيئات عباده، الساتر لها. و«الرحيم»: ذو الرحمة، ورحمة الله: عامة، وخاصة. فالعامة: هي التي تشمل المؤمنين والكافرين، والخاصة: هي التي تختص بالمؤمنين؛ ومنها قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١٣ـ الصفة الكاملة التي تحصل من اجتماع هذين الاسمين: الغفور الرحيم؛ لأن بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب، فبمغفرته ـ سبحانه وتعالى ـ يحدث العفو، وبرحمته يحصل الفضل؛ ولهذا نجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقرن بين هذين الاسمين كثيرًا.

١٤ـ جواز أكل هذه المحرمات للمضطر الذي اضطر إلى أكلها، بحيث يخاف التلف إذا لم يأكل.

١٥ـ بيان رحمة الله تعالى بعباده، حيث أحل لهم هذه المحرمات عند الاضطرار، لدفع ضرورتهم.

١٦ـ أنه لا يحل لمن أبيح له أكل هذه المحرمات للضرورة، إلا ما

تدعو الضرورة إليه؛ بحيث لا يتجاوز أكثر ما يحتاج إليه، ولا يزيد عليه. وعلى هذا فلا يأكل إلا ما يسد حاجته فقط، ولا يملأ بطنه بذلك.

ولكن إذا خاف أن تبقى ضرورته، فله أن يتزود من هذه المحرمات، حتى يضطر إلى أكلها مرةً ثانيةً.

١٧ـ الرد على المشركين فيما حرموه من بهيمة الأنعام، وهو ما رده الله عز وجل عليهم في قوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

* * *

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

هذه الجملة مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾، فـ﴿إِنَّ﴾ أداة توكيد، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها، وجملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ خبرها.

﴿يَكْتُمُونَ﴾ أي: يخفون.

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الكتاب هنا مفرد، والمراد به الجنس، أي: الكتب، فيشمل ما أنزل الله من القرآن، والتوراة، والإنجيل،

وغيرها من الكتب المنزلة على الرسل.

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أي: يأخذون به ثمنًا قليلًا؛ لأنهم يخفونه لينالوا الجاه، أو لينالوا المال، أو ينالوا الحظوة عند الزعماء.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ وهذا متعين فيما إذا كتموه من أجل المال، فإنهم لا يأكلون في بطونهم إلا النار؛ لتحريم هذا المال عليهم؛ لأن هذا المال حرام عليهم من وجهين:

الوجه الأول: أنهم أخذوه بغير حق.

والوجه الثاني: أنهم كتموا من أجله الحق.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: تكليم رضًا، ولكنه يكلمهم تكليم إهانة؛ كقوله تعالى حين يقول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧-١٠٨].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم من آثامهم؛ لأنهم ليسوا أهلًا لذلك.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تحريم كتم ما أنزل الله من الكتاب، وهذا يستلزم وجوب بيان ما أنزل الله من الكتاب، ولكنه لا يلزم إلا إذا اقتضت الحال بيانه، إما بسؤال سائل بلسان المقال، أو بسؤال سائل بلسان الحال: أما لسان المقال: فأن يأتي رجل إلى عالم من العلماء، ويقول: ما تقول في كذا

وكذا؟ فيفتيه. وأما لسان الحال: فأن يـرى الإنـسان شخـصًا يتعبـد لله تعالى عبادةً على غير وجه صحيح، فيجب عليه في هذه الحال أن يبيـن له الحق في ذلك.

٢ــ إثبـات علـو الله ـ عـز وجـل ـ؛ لقولـه:﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣ـ أن الكتب التي جاءت بها الأنبياء منزلة من عند الله.

٤ـ تحريم أخذ العوض على كتمان الحـق؛ لقولـه: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾.

فإن قيل: وهل يحرم العوض على بيـان الحـق؟ بمعنـى: أن يعطـى العالم أجرةً على بيان الحق؟

والجواب على ذلك أن نقول: إن تعيـن عليه بيان العلم، حرم عليه أخذ العوض عليه، وإن لم يتعيـن، فله أخذ العوض، ولكن يكـون مـن بيت المال، لا على سبيل الاستئجار.

٥ـ أن كل ما يكون من متاع الدنيا، فإنه قليل؛ لقوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ ويشهد لهذا قوله تعالى:﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

٦ـ أن كتم ما أنزل الله من الكتاب ليشتري به الإنسان ثمنًـا قلـيلًا، من كبائر الذنوب؛ لوجود الوعيد عليه في قولـه: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

٧- إثبات كلام الله - سبحانه وتعالى - لأن نفي تكليمه لهؤلاء، دليل على أنه يكلم غيرهم. وأهل الحق من السلف والخلف يثبتون أن الله تعالى يتكلم بحرف، وصوت مسموع، ومن ذلك: القرآن الكريم، فإنه كلام الله تعالى، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، كما قرر ذلك أهل السنة والجماعة.

٨- إثبات يوم القيامة، وهو اليوم الذي يبعث فيه الناس من قبورهم. وسمي يوم القيامة؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لله - عز وجل -، ولأنه يقام فيه العدل؛ كما قال تعالى:﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

٩- أن الله تعالى يزكي من يشاء؛ فإن نفي التزكية لهؤلاء، دليل على ثبوتها لضدهم.

١٠- أن هؤلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ لا يزكيهم الله يوم القيامة، بل هم أهل الفسق والجور.

١١- أن هؤلاء - مع إعراض الله عنهم، وعدم تكليمه إياهم، وتزكيته لهم - لهم عذاب أليم، أي: عذاب مؤلم، وذلك عذاب النار؛ لشدته وعظمته - نعوذ بالله من النار - فإن النبي ﷺ أخبر أن: «نار

جهنم فضلت على نار الدنيا كلها بتسعة وستيـن جـزءًا»[(١)] أي: أن نـار الدنيا كلها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم.أعاذنا الله وإياكم منهـا، وجعلنا وإياكم من أهل النعيم المقيم في جوار رب رحيم، إنه عـلى كـل شيء قدير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٧٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يـشير إلى الـذين يكتمـون مـا أنـزل الله مـن الكتـاب، ويشترون به ثمنًا قليلًا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اختـــاروا الـــضلالة عـــلى الهدى.

﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ اختاروا العذاب بالمغفرة. وهم قد يختارون ذلك عمدًا، وقد يختارون ذلك عمًى؛ لأنهم زاغوا، فأزاغ الله قلوبهم.

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعنـي: أن النـار عـذابها ألـيم، وحرهـا شـديد، وهـؤلاء يـصبرون عـلى ذلـك؛ لأنهـم يـتمادون في طغيـانهم وضلالهم.

---

(١) رواه البخاري كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، رقم (٣٢٦٥). ومسلم كتـاب الجنـة، بـاب في شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣).

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمنًا قليلًا، اختاروا هذا اختيار رغبة؛ لأنه شبه اختيارهم إياه، بالاشتراء، والمشتري يرغب ما اشتراه.

٢ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ لأنهم لما اشتروا الضلالة بالهدى، صاروا كالذين اشتروا العذاب بالمغفرة، أي: مغفرة الله ـ عز وجل ـ.

٣ـ إظهار التعجب في كلام الله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]. وهل يعجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ من شيء؟ الجواب: نعم، العجب: صفة من صفات الله تعالى، أثبتها الله تعالى في كتابه، على قراءة من قرأ قوله ـ تعالى ـ بل عجبت ويسخرون، وكذلك النبي ﷺ قال: «**ضحك ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره**»[1]، وفي حديث آخر: أخبر النبي ﷺ أن الله ـ تبارك وتعالى ـ «**يشرف عليكم ـ يعني: عباده ـ آزلين آدلين مشفقين، فيظل يضحك، قد علم أن غيركم إلى قرب**»[2].

والعجب الصادر من الله ـ عز وجل ـ، ليس هو كالعجب الصادر من الإنسان؛ لأن العجب الصادر من الإنسان، منشؤه استغراب الأمر، وعدم العلم بمقدماته، أما الله ـ عز وجل ـ، فإنه لا يخفى عليه

(١) أخرجه ابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨١).

(٢) رواه أحمد (١٥٧٧٣).

خافية، ويكون عجبه من أجل خروج الشيء عما ينبغي أن يكون عليه.

٤-إثبات عذاب النار؛ لقوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ١٧٦].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما أشار الله إليه من العذاب لهؤلاء، والعقوبات التي ذكرها الله تعالى في الآيات السابقة.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ وإذا كان نزل الكتاب بالحق، فإن الذين يضلون عن الحق سوف يكونون في شقاق بعيد؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١-إثبات أن الله نزل الكتاب.

٢-إثبات علو الله -عز وجل-؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾، والتنزيل لا يكون إلا من أعلى.

٣-أن الكتب نازلة من الله حقا؛ لقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، وأنها نازلة بالحق أيضًا، فقد جاءت بالحق، وهو: الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام.

٤-أن المختلفين في الكتاب، المخالفين له، في شقاق بعيد، أي: في مشاقة ﷺ مباعدة عن الحق. «بعيد»؛ لأنهم يجادلون في الحق بعدما تبين.

٥-أن جميع ما تتضمنه كتب الله، فهو حق؛ لأنها أخبار صادقة، وأحكام عادلة.

٦-أن نزول الكتب من عند الله، نزول بالحق الثابت، الذي لا مرية فيه.

٧-خطر الاختلاف في الكتاب، وأن الإنسان قد يبتلى عند الاختلاف في الكتاب، بالمشاقة البعيدة لله ولرسله.

* * *

ثم قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ «البر» هو: الخير، و«التولي» بمعنى: الاتجاه. و«قبل المشرق» أي: جهة المشرق والمغرب.

يعني: أنه ليس البر في أن يولي الإنسان وجهه قبل المشرق أو قبل المغرب، وإنما البر هو الإيمان بالله -عز وجل-، والقيام بطاعته -سبحانه وتعالى- سواء أمر بالاتجاه إلى المشرق أو المغرب، أو إلى

الجنوب، أو إلى أي جهة كانت؛ لأن المقصود هو الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: أن البر بر من آمن بالله واليوم الآخر.

و «الإيمان بالله» هو: التصديق، وهو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

و «الله»: اسم من أسماء البارئ جل وعلا، وهو الاسم الخاص به، الذي لا يسمى به غيره، ولا يستحق أن يوصف بمدلوله أحد سواه.

و ﴿اليوم الآخر﴾ يعني: يوم القيامة، وسمي بـ«اليوم الآخر»؛ لأنه لا يوم بعده.

و ﴿الملائكة﴾: جمع ملك، وهم العالم الغيبي، الذين وصفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأوصاف وأفعال جاءت في الكتاب والسنة، فالملائكة: عالم غيبي، وعباد لله تعالى، يفعلون ما يؤمرون ، ولهم أعمال وأوصاف مذكورة في الكتاب والسنة.

و ﴿الكتاب﴾: اسم جنس، والمراد به: جميع الكتب المنزلة على الرسل.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: جمع نبي، وهو شامل في هذه الآية للأنبياء والرسل.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾: أي: أعطى المال.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: أي: على محبته له، وحاجته إليه.

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أي: أصحاب القرابة.

﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾: جمع يتيم، واليتيم هو: الذي مات أبوه ولم يبلغ.

﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينَ﴾: هم الفقراء الذين أسكنهم الفقر.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: صاحب السبيل، و«السبيل» هو: الطريق.

والمراد بـ«ابن السبيل»: المسافر الذي انقطع به السفر.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: أي: المستجدين، الذين يسألون الناس.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: أي: وآتى المال في الرقاب، وهم: الأرقاء، يشتريهم ويعتقهم.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أتى بها مستقيمةً، و«الصلاة» هنا: شاملة للفريضة والنافلة.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي: أعطاها، ومفعول آتى» الثاني محذوف، أي: آتى الزكاة مستحقها.

﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَـٰهَدُواْۖ﴾ أي: الذين إذا عاهدوا أحدًا من الناس أوفوا بعهدهم، أي: أعطوه وافيًا لا نقص فيه.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾.

﴿ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: الفقر.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرض.

﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾: القتال والحرب.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾: أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات، هم الذين صدقوا، أي: صدقوا مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإخلاصهم

له، وقيامهم بطاعته.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم الذين قاموا بالتقوى على حسب ما جاء في كتاب الله تعالى، وما جاءت به رسله.

هـذه الآيـة الكريمـة اشـتملت علـى فوائـد عظيمـة وأحكـام جمة، منها:

١ـ أن البر ليس بالأعمال المطلقة، وإنـما هـو ـ أي: الـبر ـ بـالأعمال الصادرة عن الإيمان بالله، واليوم الآخر . . . إلخ.

٢ـ أن الإيمان بالله من البر. والإيـمان بـالله يتـضمن أربعـة أشـياء: **الأول**: الإيمان بوجوده، **والثـاني**: الإيـمان بربوبيتـه، **والثالـث**: الإيـمان بألوهيته، **والرابع**: الإيمان بأسمائه وصفاته. فمن أنكر وجود الله، فليس بمؤمن، ومن أقر به ـ أي: بوجوده ـ ولكنه انتقص شيئًا من ربوبية الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن زعم أن ـ لله ـ سبحانه وتعالى ـ، مشاركًا في الخلق، أو الملك، أو التدبير، فليس بمؤمن بـالله. ومـن آمـن بـذلك، ولكنـه لم يؤمن بألوهيته، بـل صرف شـيئًا مـن أنـواع العبـادة لغـير الله؛ فلـيس بمؤمن بالله. ومن آمـن بـذلك ولكنـه أنكـر أسـماءه وصـفاته، فلـيس بمؤمن بالله. فلا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بالأمور الأربعة.

٣ـ الإيمان باليوم الآخر ـ وهو يوم القيامـة ـ وهـو يـشمل الإيـمان بوجود هذا اليوم، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة، وكذلك الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من الأهوال العظام، وما يكون من نـشر الكتـب:

كتب الأعمال، وإقامة الوزن، والصراط، وحوض النبي ﷺ، وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة.

٤- ومنه - أي: من الإيمان باليوم الآخر - الإيمان بما يكون بعد الموت، من فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر؛ فإن الناس يفتنون في قبورهم، فيسأل المرء عن ربه، ودينه، ونبيه؛﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ونبيي محمد ﷺ،﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[إبراهيم: ٢٧].

وأنت ترى أن الله تعالى دائمًا يقرن بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر، هو الذي يحدو الإنسان إلى العمل؛ وهو الذي يحدو المرء إلى الاستقامة على دين الله، وعلى شرع الله - عز وجل -؛ لأنه إذا كان يؤمن بأن هناك عقابًا في ترك الواجب، وفعل المحرم، وثوابًا في فعل الواجب، وترك المحرم، فإنه سوف ينهض ويعمل لهذا اليوم العظيم.

٥- الإيمان بالملائكة، والملائكة لهم أعمال، ولهم أوصاف، على حسب أمر الله تعالى لهم؛ يقول الله تبارك وتعالى:﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١].

ومن أجل الملائكة وأشرفهم الملائكة الثلاثة: جبريل، وميكائيل،

وإسرافيل. وكان النبي ﷺ يستفتح صلاة الليل فيقول: «اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1]؛ فجبريل موكل بالوحي، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة موكل بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستفتح في صلاة الليل بما ذكرنا.

ومن الملائكة: ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقد ورد في بعض الآثار أن اسمه: عزرائيل، ولكنه لا يصح عن المعصوم ﷺ؛ ولهذا يكفينا أن نقول: ملك الموت، دون أن نسميه باسم آخر.

ومن الملائكة المعينين: «مالك»، خازن النار؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾[الزخرف: ٧٧].

ومن الملائكة: الملائكة الذين يكتبون ما يقوله الإنسان وما يفعله، بل وما يهم به؛ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٧، ١٨].

ومن الملائكة: الملائكة الموكلون بحِلَق الذِّكر، يتتبعونها.

ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع إلى كتاب البداية والنهاية» لابن كثير - رحمه الله.

٦-الإيمان بالكتب التي أنزلها الله - سبحانه وتعالى - على الرسل التي نعرف منها: القرآن الكريم، وهو أشرفها وأجلها، وهو المهيمن عليها، والتوراة التي أنزلها الله على موسى، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، والزبور الذي آتاه الله داود، وصحف إبراهيم وموسى، والباقي نؤمن به إجمالًا.

٧-الإيمان بالنبيين، وقد ذكرنا في تفسير الآية الكريمة، أنه يشمل الرسل؛ وذلك أن الله - سبحانه وتعالى - جعل من عباده رسلًا وأنبياء. والرسل أشرف من الأنبياء، وأشرف الرسل أولو العزم؛ وهم: إبراهيم، ومحمد، ونوح، وموسى، وعيسى. وترتيبهم في الأفضلية: محمد، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى. فمن علمنا رسالته بعينه، آمنا به بعينه، وإلا فنؤمن بهم إجمالًا.

٨-الثناء على من آتى المال على حبه لمن يحتاج إليه؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، وهذا كقوله في آية أخرى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

٩-إعطاء ذوي القربى - أي: القرابة - من المال الذي يؤتيه الله من

يشاء، يعني: أن لـذوي القربـى عليـك حقـا: أن تعطـيهم ممـا أعطـاك الله.ثم إن حق ذوي القربى قد يكون واجبًا: وهـو فـيمن تجـب عليـك نفقته، وقد يكون تطوعًا: فيما سوى ذلك.

١٠ـ الإحسان لليتامى ـ وإن كانوا أغنياء ـ وذلك جبرًا لما حـصل لهم من انكسار القلب، بفقد أبيهم.

١١ـ الإحسان إلى المساكين مطلقًا، وهـم الفقـراء؛ لحـاجتهم إلى ذلك.

١٢ـ الإحسان إلى ابن السبيل؛ لحاجته إلى ذلك.

١٣ـ الإحسان إلى السائل، وإعطاؤه ما سـأل، مـا لم يـسأل محرمًـا، وهذا يحتاج إلى تفصيل: فمن علمنا أنه محتـاج، كـان إعطـاؤه بوصـف واحد وهو: السؤال، ومن علمنا أنه إنما يسأل استكثارًا، فهـذا ننـصحه ونحذره من السؤال؛ لأن من سأل الناس أمـوالهم تكثـرًا، فـإنما يـسأل جمرًا[1]، ولا تزال المسألة بالرجل، حتى يأتي يوم القيامة ومـا في وجهـه مزعة لحم[2]، نسأل الله العافية.

٤ - فـضل بـذل المـال في إعتـاق الرقـاب؛ لقولـه تعـالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾. وهذا يشمل أن يشتـري الرجـل عبـدًا فيعتقـه، أو أن يعين

(١) انظر: مسلمًا كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس، رقم (١٠٤١).

(٢) انظر: البخاري كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا، رقم (١٤٧٤)، ومسلمًا كتاب الزكـاة، باب كراهية المسألة للناس، رقم (١٠٤٠).

مكاتبًا في كتابته، وغير ذلك من صور الإعانة.

١٥ـ الثناء على إقامة الصلاة، وأنها من البر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٦ـ الثناء على إيتاء الزكاة؛ لقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولكن لا بد أن تكون الزكاة في محلها، أي: في أهلها الذين أمر الله تعالى بصرفها إليهم في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]؛ فلا يجوز أن يحابي الإنسان بها قريبًا أو صديقًا، أو غير ذلك. بل يعطيها من هو أحوج وأحوج، وإذا اجتمع شخصان مستحقان للزكاة: أحدهما قريب، والثاني غير قريب، فإنها تعطى للقريب؛ لأن صدقتك على القريب صدقة وصلة.

١٧ـ الثناء على الموفي بالعهد، سواء كان العهد مع مسلم، أو مع كافر.

وإن شئت فقل: إنه يدخل في العهد: القيام بحق الله ـ عز وجل ـ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عهد إلينا ـ بما أعطانا من العقول، وبما أرسل إلينا من الرسل ـ ألا نعبد إلا إياه، وأن نقوم بطاعته على الوجه الذي أمرنا به.

١٨ـ الثناء على الصابرين في الفقر والمرض والحرب؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾؛ فالـصبر في البأســاء والضراء: صبر على أقدار الله، والصبر في حال الحرب: صبر على طاعة الله، وعلى أقدار الله أيضًا.

١٩ـ الثناء على هؤلاء السادة الذين اتصفوا بهذه الصفات العظيمة الكاملة، في قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتصفين بهذه الصفات، وأن يهيئ لنا مـن أمرنـا رشدًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ابتدأ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الآية بنـداء المـؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وابتداء الخطاب بالنداء، يدل على أهميته؛ إذ إن النداء يقتضي تنبيه المخاطب، ثم إن توجيهـه إلى المـؤمنين يـدل عـلى أن امتثالـه مـن مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان. وقد قـال عبـدالله بـن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه».

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ أي: فرض، ويحتمل أن يكـون المعنـى:

شرع؛ لأن الله تعالى ذكر في هذه الآية العفو، أو يقال: إن «كتب» أي: فرض فيما إذا طلبه صاحب الحق، فإنه فرض على ولاة الأمور تنفيذه.

﴿ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾: «القصاص» في الأصل: تتبع الأثر، والمراد به هنا: أخذ الجاني بمثل جنايته، أي: قتله إن كان قد قتل، أو قطع عضو منه إن كان قد قطع عضوًا، أو ما أشبه ذلك.

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ يعني: أنه يقتل الحر بالحر، ويقتل العبد بالعبد؛ لتمام المكافأة؛. فالحر مكافئ للحر، والعبد مكافئ للعبد، والأنثى مكافئة للأنثى.

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: فمن عفي له في القصاص من أخيه شيء ـ قليلًا كان أو كثيرًا ـ فإنه يتبع طريقين:

الأول: اتباع بالمعروف، يعني: أن صاحب الحق يتبع من عليه الحق بالمعروف، فلا يمن عليه، ولا يشاقه.

الثاني: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ هذا بالنسبة للمعفو عنه: يجب عليه أن يؤدي بإحسان.

مثال ذلك: إذا عفا عن القصاص إلى الدية، فإن على العافي أن يتبع القاتل بالمعروف في طلب الدية ، وعلى القاتل أن يؤدي إلى العافي الدية بإحسان.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: إن هذا الحكم يتضمن شيئين: التخفيف، والرحمة. فكان تخفيفًا؛ لأن القصاص في بني

إسرائيل كان مفروضًا لا يمكن أن يعفى عنه، وأما في شريعـة عيـسى ـ عليه السلام ـ فقد قيل: إن العفو واجب. ففي التـوراة: العفـو ممنـوع، وفي الإنجيل: العفو واجب، أما هذه الأمة فإنها بالخيار:

تخفيف من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإسقاط القتل عن القاتل.

ورحمة: بكونه يعطي هؤلاء الذين يطالبون بالحق عوضًا عن ذلك، وهو الدية.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تمام القـصاص، أو العفـو إلى الدية، أو العفو مجانًا.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وذلك أن بعض الناس إذا عفـا عـن القاتـل، حمله الشيطان على أن يأخذ بالثأر مرة أخرى، فيعتدي على القاتـل مـرةً أخرى.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- فضيلة الإيمان؛ حيث نوه بفضله بتوجيه الخطاب إلى من اتصف به، في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢- وجوب القصاص في القتلى، ولكن له شروط معروفة، وجاءت بها السنة، وتكلم عنها أهل العلم، ببسط واسع، مذكور في المطولات.

٣- أن الحر يقتل بالحر، ولو كان القاتل أفضل من المقتول في علمـه ودينه وخلقه. وظاهر الآية الكريمة: أنه عـام في قتـل المـسلم بالكـافر، والكافر بالمسلم. أما قتل الكافر، فالصحيح: أنه لا يقتل بالكـافر، ولـو

كان للكافر عهد؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا يقتل مسلم بكافر»[١].

٤ـ أن العبد يقتل بالحر؛ لأنه إذا كان يقتل بالعبد، فقتله بالحر من باب أولى.

وأما عكسه ـ وهو قتل الحر بالعبد ـ ففيه خلاف بين أهل العلم:

فمنهم من قال: إن الحر يقتل بالعبد؛ لقول الله تعالى: ﴿ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقول النبي ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٢]، ولقول النبي ﷺ: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم**»[٣].

ومن العلماء من قال: إن الحر لا يقتل بالعبد؛ لأن العبد متقوم، بخلاف الحر.

والصحيح: أن الحر يقتل بالعبد، إذا علمنا أنه قتله عمدًا؛ للأدلة التي ذكرناها.

٥ـ أن العبد يقتل بالعبد؛ لقوله: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾، وظاهر عموم

---

(١) رواه البخاري كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١).

(٢) رواه البخاري كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ رقم (٦٨٧٨)، ومسلم كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

(٣) رواه النسائي كتاب القسامة، باب سقوط القود من المسلم للكافر، رقم (٤٧٤٦)، وأبو داود كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، رقم (٢٧٥١)، وابن ماجة كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم (٢٦٨٣، ٢٦٨٤، ٢٦٨٥)، وأحمد (٩٦٢، ٦٩٧٣).

الآية: ولو اختلفا في القيمة، يعني: لو كان المقتول لا يساوي إلا عشرةً، والقاتل يساوي آلافًا، فإنه يقتل به؛ لعموم قوله: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾.

٦ـ أن الأنثى تقتل بالأنثى، وهنا مسألة: هل تقتل بالرجل؟ الجواب: نعم، تقتل بالرجل، أي: إن الأنثى إذا قتلت رجلًا، فإنها تقتل به. ومسألة أخرى: هل يقتل الرجل بالأنثى؟ الجواب: نعم، يقتل الرجل بالأنثى؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾، ولكن الله تعالى ذكر في الآية: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لتمام المكافأة من كل وجه.

٧ـ يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، أنه إذا عفا أحد من الورثة عن القصاص، فإنه يسقط القصاص في حق الجميع؛ تغليبًا لجانب الرحمة. ولا فرق بين أن يكون نصيب العافي كثيرًا أو قليلًا. مثال ذلك: لو فرضنا أن المقتول له عشرة إخوة، وهم ورثته، فطالب تسعة منهم بالقصاص، وعفا واحد منهم عن القصاص، فإن القصاص يسقط، وتجب الدية للجميع. ووجه ذلك قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ فإن كلمة «شيء» نكرة في سياق الشرط فتعم القليل والكثير.

٨ـ أنه يجب على العافي عن القصاص أن يتبع القاتل بالمعروف، بحيث لا يشق عليه ولا يضجره؛ لأنه عفا عن القصاص، فلم يبق إلا الدية دينًا في ذمة القاتل.

٩- وجوب أداء القاتل للدية بإحسان؛ لأن الذي عفا عنه أحسن إليه بإسقاط القصاص عنه، فكان الأداء إليه بإحسان من مكافأته على هذا العمل الجليل.

١٠- جواز النسخ في شرائع الله، وهو رفع الحكم الثابت بدليل شرعي، بمقتضى دليل شرعي. وقد سبق الكلام في ذلك [عند الكلام] على قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾(١) [البقرة: ١٠٦].

١١- محبة الله - سبحانه وتعالى - للتخفيف على عباده؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾. وهذا أمر ظاهر في جميع الشريعة، فالشريعة مبناها على اليسر؛ لقول النبي ﷺ: «إن الدين يسر»(٢)، ولقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقول النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم»(٣).

١٢- محبة الله - عز وجل - لرحمة العباد؛ فإنه جل وعلا أرحم الراحمين بعباده، كما قال يعقوب لبنيه: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ

---

(١) الجزء الأول من كتاب الأحكام، (ص ٣٨٦).

(٢) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨).

ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

١٣ـ تحريم اعتداء أولياء المقتول على القاتل إذا عفوا عنه، وأنهم إذا اعتدوا بعد ذلك، أخذوا بما يقتضيه عدوانهم. فلو أن أحدًا من ورثة المقتول لم يقتنع بالعفو، فذهب وقتل القاتل، فإنه يقتل، إذا تمت شروط القصاص.

١٤ـ جواز التعبد لله خوفًا من عذابه وعقابه؛ لأن الوعيد بالعذاب، يؤثر في كمال العبادة والتعبد. ويتفرع على هذه الفائدة: غلط من قال من بعض الناس: إن كمال العبادة أن تتعبد لله تعالى حبا فيه، لا طمعًا في ثوابه، ولا خوفًا من عقابه؛ فإن هذا قول ليس بصحيح؛ فقد قال الله تعالى عن أشرف الخلق محمد ﷺ وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩].

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ﴾ أي: لكم في قتل القاتل المتعمد ـ إذا تمت الشروط ـ ﴿حَيَوٰةٌ﴾؛ وذلك أن القاتل إذا علم أنه إذا قتل قتل، فإنه سوف يمتنع عن القتل، فتكون الحياة له، ولمن هم بقتله.

﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يا أصحاب العقول.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: فرضنا عليكم القصاص؛ لأجل أن تتقوا القتل الموجب للقصاص.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- بيان الحكمة من وجوب القصاص، وهي الحفاظ على حياة البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

٢- الإشارة إلى أن قتل القاتل: عدل، أي: من العدل؛ حيث سماه الله تعالى: قصاصًا، وهو: أخذ الجاني بمثل جنايته.

٣- أن القصاص سبب للحياة، وليس سببًا للموت، خلافًا للظالم المعتدي الذي يقول: «إن القصاص زيادة في الموت؛ فإن القاتل إذا قتل، انضم قتله إلى قتل المقتول، فيكون المقتول نفسين»، فيقال: لكننا إذا قتلنا القاتل، امتنع عن القتل آلاف الناس، فكان في ذلك حياة البشر، ولولا العقوبات التي قدرها الله - عز وجل - في بعض المعاصي، لانتهك الناس هذه المعاصي، ولم يبالوا بها.

٤- فضيلة العقل؛ لقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ فجعل الله - تعالى - العقل: لبا، ومعلوم أن اللب هو المقصود، وأن القشور ما هي إلا غطاء لحفظ اللب.

٥- أنه يجوز الاستدلال بالعقل في بيان حسن الشريعة، فيما أمرت به، وفيما نهت عنه؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الله تعالى لم يأمر بأمر، فيقول العقل: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيء، فيقول العقل: ليته

لم ينه عنه.

٦- إثبات التحسين والتقبيح العقليين، بمعنى: أن العقل يشهد بأن هذا حسن، وهذا قبيح، لكن ليس للعقل أن يحلل أو يحرم أو يوجب؛ لأن هذا إلى الله وحده.

٧- إثبات العلل والحكم، فيما شرعه الله؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأن «لعل» هنا للتعليل.

* * *

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرض. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: إذا حل به الأجل، وهو كناية عن قرب أجله، بما يشاهده في نفسه من المرض. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ «الخير» هنا، هو: المال الكثير.

﴿الْوَصِيَّةُ﴾ هذه نائب الفاعل، وعامله: كتب، أي: كتبت عليكم الوصية، وحذفت تاء التأنيث من «كتب»، لوجهين: الوجه الأول: أن الوصية تأنيثها غير حقيقي، والثاني: طول الفصل بينها وبين عاملها.

﴿لِلْوَالِدَيْنِ﴾ وهما: الأم والأب.

﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وهم: الإخوة وبنوهم، والأبناء وبنوهم، وإن شئت

فقل: الأبناء والبنات وأولادهم. المهم أن المراد بالأقربين: من كان أقرب فأقرب.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بالوصية، أي: أن يوصي بالمعروف، لا يتجاوز فيسرف، ولا يقصر.

﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿كُتِبَ﴾.

﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: على من اتصفوا بتقوى الله ـ عز وجل ـ ومعنى الآية: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فرض على من ترك مالًا كثيرًا، أن يوصي لوالديه وأقاربه، بالمعروف، وأكد ذلك بأنه حق على المتقين.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ ـ وجوب الوصية للوالدين والأقربين، بالمعروف، بشرط أن يترك خيرًا. ولكن هذا العموم مخصص بقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»[1]، أي: أنه مخصص بآيات المواريث. فإن آيات المواريث، جعل الله فيها لكل وارث ما اقتضت حكمته أن يكون له. وعلى هذا: فالورثة لا يوصى لهم؛ لأن الوصية للوارث، تعد لحدود الله ـ عز وجل ـ فمثلًا: إذا أوصى الرجل لأمه

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الوصايا، باب ما جاء «لا وصية لوارث»، رقم (٢١٢١، ٢١٢٠)، والنسائي كتاب الوصايا، باب إبطال الوصية لوارث، رقم (٣٦٤١، ٣٦٤٣)، وأبو داود كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية لوارث، رقم (٢٨٧٠، ٣٥٦٥)، وابن ماجة كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، رقم (٢٧١٣، ٢٧١٤)، وأحمد (١٧٢١٣، ١٧٦١٧، ٢١٧٩١).

بمال زائد على نصيبها من الميراث، فهذا تعد لحدود الله؛ لأن الله جعل للأم السدس، أو الثلث، حسب ما هو معلوم في علم الفرائض. إذًا هذه الآية عامة، لكنها خصت بالورثة، فلا يوصى لهم. وقيل: إن هذه الآية منسوخة وأن الوصية لا تجب للأقارب الذين لا يرثون. ولكن النسخ يحتاج إلى شرط لا يتحقق في هذه الآية، وهو ألا يمكن الجمع بين النصين، فإن أمكن الجمع بين النصين، فإنه لا نسخ؛ لأن النسخ يقتضي إبطال أحد النصين ـ وهو أمر ليس بالسهل ـ فإذا أمكن الجمع بين النصين فلا نسخ وهنا يمكن الجمع، فنقول: يجب على الإنسان أن يوصي للأقارب غير الوارثين، إذا ترك مالًا كثيرًا، وأما الوارثون فهم على ما فرض الله لهم من الميراث. مثال ذلك: رجل مات عن أمه وأبيه وأخيه الشقيق. أخوه الشقيق لا يرث؛ لأن أباه يحجبه، فيجب على هذا الرجل أن يوصي لأخيه الشقيق بشيء من المال قليلًا كان أو كثيرًا، إن ترك مالًا كثيرًا. أما إذا لم يترك إلا مالًا قليلًا، فإنه لا يجب عليه أن يوصي له. وهذا القول ذهب إليه جماعة من أهل العلم، ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما، أي: أنه يجب على الإنسان إذا ترك مالًا كثيرًا أن يوصي لأقاربه غير الوارثين، بما يشاء، لكن جمهور الأمة على أن الوصية للأقارب غير واجبة.

٢ـ اعتبار قول من حضره الموت، يعني: أن المحتضر يعتبر قوله، لكن بشرط: أن يكون معه عقله، فإن لم يكن معه عقله؛ فلا عبرة بقوله.

٣- أنه إذا اعتبر قول من حضره الأجل، فإن توبته تقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله - تعالى - يقبل توبة العبد، ما لم يغرغر»[١].

٤- أن الأحكام منوطة بأسبابها؛ لقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وهذا كما يقال: على الإنسان الزكاة، إن ملك النصاب.

٥- أن الله - تعالى - أرحم من الأولاد بوالديهم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - أوصى الأولاد، بل فرض على الأولاد أن يوصوا لوالديهم، وهذا يدل على أنه - سبحانه وتعالى - أرحم من الإنسان بوالده. وفي قوله - تعالى - في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]. دليل على أن الله أرحم بعباده من الوالدين بأولادهما. فيكون الله - سبحانه وتعالى - أرحم بالأصول من فروعهم، وبالفروع من أصولهم.

٦- اعتبار العرف؛ لقوله - تعالى -: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وهذا في مواضع كثيرة. وقد قال أحد الناظمين:

وكل ما أتى ولم يحدد ... بالشرع كالحرز فبالعرف احدد[٢]

فالعرف يكون مناطًا للأحكام في مواضع كثيرة؛ لقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

---

(١) رواه الترمذي كتاب الدعوات، باب رقم (٩٨) حديث (٣٥٣٧)، وابن ماجة كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٣)، وأحمد: (٦١٢٥، ٦٣٧٢،١٥٠٧٣، ٢٢٥٥٩).

(٢) هو للمؤلف - رحمه الله - انظر منظومته في أصول الفقه (ص ١٦).

٧- أن التقوى توجب للإنسان أن يقـوم بـأمر الله ـ عـز وجـل ـ؛ لقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ولا شك أن التقوى تحمـل الإنـسان عـلى فعل الطاعات وترك المحرمات، بل إن فعل الطاعات وترك المحرمـات هو التقوى حقيقةً.

٨- تأكيد الوصية للوالدين والأقـربين؛ حيـث قـال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾، ثـم قـال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٩- أن من لم يقم بهذه الوصية؛ فإنه يفوته من التقوى بقدر مخالفته.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١].

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ أي: غيره، أي: غير الوصية التي فرضـها الله ـ عـز وجل ـ في الآية السابقة.

﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ أي: علم به، بواسطة السمع.

﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ ولـيس عـلى المـوصي؛ لأن الموصي قام بما يجب عليه، فصار الإثم على المبدل المغير.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يسمع قول من غير الوصية بقوله، ويعلم حال من غير بقوله أو كتابته أو غير ذلك.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تحريم تغيير الوصية؛ لقوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾، ولأن تغيير الوصية؛ تصرف في حق الغير بغير حق، إلا أنه يستثنى من ذلك ما سيأتي في الآية التالية.

٢- أن الإنسان إذا عمل الخير، ثم تصرف فيه الغير، بما ليس بخير، فلا إثم على الأول، وإنما الإثم على الثاني؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾.

٣- إثبات هذين الاسمين الكريمين لله ـ عز وجل ـ، وهما: «السميع»، و«العليم». وقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ أن السميع» له معنيان: المعنى الأول: إدراك المسموع، والمعنى الثاني: استجابة الطالب السائل. ومثلوا للأول بقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، ومثلوا للثاني بقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]: أي: لمجيبه. وقد سبق لنا تفصيل القول في ذلك. وأما العليم»، فيستفاد منه وصف الله ـ تعالى ـ بالعلم. وعلم الله ـ تعالى ـ محيط بكل شيء، جملةً وتفصيلًا، فيما كان من فعله ـ عز وجل ـ، أو من فعل عباده، فيما كان ماضيًا، [وما كان حاضرًا]، وما كان مستقبلًا. ولهذا لما قال فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، قال موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا

يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يتصف بالجهل ولا بالنسيان.

٤ـأن الإيمان بكون الله سميعًا عليمًا، يستلزم ألا يقول الإنسان قولًا يغضب الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه إن قال، فقد سمعه ـ عز وجل ـ، وألا يعمل عملًا يغضب الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه إن عمل، فقد علمه ـ عز وجل ـ، فيوجب الحذر من المخالفة. وبهذه المناسبة، أذكر إخواني المسلمين أن ينتبهوا إلى هذه المسألة، وهي: أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ يراد بها الإيمان بها وبمقتضاها، وأن يتعبد الإنسان لله ـ تعالى ـ بذلك.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨٢].

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾ أي: ميلًا عن الحق.

﴿أَوْ إِثْمًا ﴾ أي: تجاوزًا للحق.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: بين الموصي، ومن وراءه من الورثة.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ ﴾. وهذه الآية كالاستثناء من الآية السابقة في قوله: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨١].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة ورحمة، فيغفر لمن فعل جنفًا أو إثمًا، ويرحم من عدل إلى الصراط المستقيم.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن من غير الوصية لكونها تتضمن الجنف أو الإثم، فإنه لا إثم عليه. ونفي الإثم هنا لا يقتضي أنه ليس له أجر، بل له أجر، لكن لما كان في مقابلة ما سبق من الوعيد على من بدل، قال: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. ونفي الإثم هنا: ليس المراد مطلقًا نفي الإثم، بل المراد أنه يؤجر على ذلك؛ لأنه مصلح.

٢ـ أنه إذا حصل في الوصية جور أو إثم، فإنه يجب أن يعدل. مثال ذلك: رجل أوصى لأحد الورثة، فيجب أن تلغى هذه الوصية؛ لأنها جنف. ومثال آخر: لو أن رجلًا أوصى بأكثر من الثلث، فإنه يجب أن تعدل الوصية إلى الثلث، إلا أن يشاء الورثة.

٣ـ فضيلة الصلح؛ لقوله: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، كما قال الله ـ عز وجل ـ. ويدخل في جميع المعاملات والحقوق، فمتى أمكن الإصلاح، فهو خير، وإذا لم يكن الإصلاح، رجعنا إلى المحاقة والمطالبة ورفع الأمور إلى الحاكم الشرعي.

٤ـ أن الصلح لا بد فيه من رضا الطرفين؛ لقوله: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ ولا يجوز أن يفرض الصلح على أحد الطرفين دون الآخر.

٥ـ إثبات هذين الاسمين الكريمين لله ـ عز وجل ـ «الغفور»، «الرحيم». فالغفور: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه. فيستر الله على عبده فلا يعلم به العباد، ويعفو عنه، فلا يعاقبه عليه؛

لأن «المغفرة» مأخوذة من المغفر، وهو: ما يوضع على الرأس لتوقي السهام.والمغفـــر فيـه الستر والوقاية. وأما «الرحيم»: فهو ذو الرحمـــة. ورحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ: رحمة واسعة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦]. وقالت الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر: ٧]. وقد سبق لنا تفصيل القول في الرحمة، وأنها تنقسم إلى [قسمين:] عامة، وخاصة، فليرجع إلى ذلك(١).

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يعمنا بمغفرته ورحمته، وأن يجعلنا من عبـاده الصالحين، وأوليائه المتقين؛ إنه سميع قريب.

* * *

قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

يقال في قولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مـا قيـل في سـابقتها مـن أن ابتداء الخطاب بالنداء، يدل على أهميته، وتوجيهه إلى المؤمنين يدل عـلى أن امتثاله من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان.

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ أي: فرض.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ أي: كما فرض عـلى الـذين

---

(١) ص: ١٦٢.

من قبلكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لأجل التقوى.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ وجوب الصيام؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. ومرتبة صيام شهر رمضان من الدين، أنه أحد أركان الإسلام الخمسة التي بني عليها.

٢ـ أهمية الصيام، وأنه عبادة لا تصلح الأمم إلا بها؛ لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ولا يلزم من كتابته على من قبلنا، أن يكون مماثلًا أو مساويًا لما كتب علينا، قد يختلف في العدد والزمن.

٣ـ تسلية هذه الأمة، بأن هذا الصيام الذي فيه شيء من المشقة، قد كتب على من قبلنا، ومن المعلوم أن الإنسان يتسلى بغيره فيما يناله من مشقة.

٤ـ فضيلة هذه الأمة، حيث التحقت بمن سبقها في الفضائل والأعمال الصالحة؛ لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٥ـ أن الصيام سبب للتقوى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وأن من لم يظهر عليه أثر التقوى بالصيام، فصيامه ناقص؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع

طعامه وشرابه»[1]. ففائدة الصيام وحكمة الصيام: تقوى الصائم لله ـ عز وجل ـ، فلا يرفث، ولا يفسق، بل لو قاتله أحد أو شاتمه فليقل: «إني صائم»[2].

٦ـ إثبات الحكمة في شرع الله ـ عز وجل ـ وأنه ـ جل وعلا ـ لا يشرع شيئًا إلا لحكمة، سواء علمناها أم لم نعلمها، فإن علمناها، فهذا من فضل الله علينا؛ حيث نعرف به كمال الله ـ عز وجل ـ، وكمال شريعته، وتطمئن نفوسنا أكثر، وإن جهلناها، فما علينا إلا التسليم؛ لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب: ٣٦].

٧ـ أن الصيام من مقتضيات الإيمان، حيث وجه الخطاب فيه إلى المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ إلخ.

* * *

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٨٤].

---

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم (١٩٠٣).

(٢) وذلك كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني: أن الصوم المفروض ليس شهورًا، ولا سنوات، ولا أيامًا طويلةً. بل هو أيامًا معدودات.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يعني: وشق عليه الصوم.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ عدة: مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فعليه عدة من أيام أخر.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ يعني: على الذين يستطيعونه.

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: إذا لم يريدوا الصوم.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ يعني: فمن تطوع خيرًا ببذل الفدية، فهو خير له.

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إن كنتم من ذوي العلم.

ثم بين هذه الأيام المعدودات في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة:١٨٥].

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ تصوير الأمر الشاق بأمر سهل، حتى تنشط النفوس وتقبل عليه؛ لقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ فإن الله ـ تعالى ـ عرض الصوم هذا المعرض الذي يسهل على المرء أن يقوم بالصيام.

٢ـ أن المريض لا يلزمه الصوم أداءً، بل له أن يؤخره حتى يبرأ؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ والمرض هنا مطلق، فيقتضي أي مرض

كان، سواء كان المرض في عضو من أعضائه، أو في كـل بدنـه، وسـواء كان بالحمى أو غيرها. لكن هل يشترط أن يكون المرض شـاقا؟ يقـال: نعم. لا بد أن يكـون هـذا المـرض شـاقا عـلى الإنـسان أن يـصوم مـع وجوده، فأما إذا كان لا يشق عليه، فلا وجه لكونه عذرًا. هذا هو الذي عليه جمهور الأمة.

٣- أن من كان مسافرًا، فإنه لا يلزمه أداء الصوم، بل له أن يـؤخره إلى وقت آخر. وقد دلت النصوص على أن السفر إن كان لا توجد فيـه مشقة بالصوم، فالأفضل أن يصوم؛ إقتـداءً برسـول الله ﷺ، وتعجـلًا لإبراء الذمة، ولأنه أسهل من القضاء ـ كما هو معروف ـ وأمـا إذا كـان فيه شيء من المشقة، فالأفضل الفطر، وليس من البر أن يصوم.وأما إذا كان فيه مشقة شديدة، فإن الصوم يحرم؛ لأن النبي ﷺ شـكي إليـه مـا يجده الناس من الصوم، فأفطرو والناس ينظرون إليه، ثـم قيـل لـه: إن بعض الناس قد صام، فقال: **«أولئك العصاة، أولئك العصاة»**[1].

فيكون الصوم في السفر على هـذه الوجـوه الثلاثـة. وللمـسافر أن يفطر وإن لم يشق عليه الصوم؛ لأن الصحابة مع النبـي ﷺ كـان مـنهم الصائم، ومنهم المفطر، ولا يعيب بعضهم على بعض.

(١) رواه مسلم كتـاب الـصيام، بـاب جـواز الـصوم والفطـر في شـهر رمـضان للمـسافر في غـير معصية...، رقم (١١١٤).

٤ـ أن الصيام أول ما فرض، كان الناس فيه مخيرين بين الصوم والإطعام؛ لقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا هو الصحيح من تفسير الآية الكريمة: أنها دالة على التخيير الذي كان في أول الأمر، وقد دل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع، الثابت في الصحيحين، قال: (لما نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، كان من أراد أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها[1]).

وقال بعض أهل العلم: إن معنى قوله: ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ يطوقونه أي: يبلغ طاقتهم، ويتكلفون به، فعليهم فدية، لكن هذا القول ينقضه قوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فإن هذا يدل على أن المخاطب قادر على الصيام. وقال بعضهم: إن معنى ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: لا يطيقونه. وهذا أبعد وأبعد. فالصواب ما ذكرنا: أن الآية دالة على التخيير بين الإطعام والصيام الذي كان جائزًا في أول الأمر، ثم تعين الصيام.

٥ـ بيان حكمة الله ـ عز وجل ـ في التشريع. وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يشرع الأحكام شيئًا فشيئًا خصوصًا فيما يشق على الناس، ألا ترى أنه

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ رقم (٤٥٠٧)، ومسلم كتاب الصيام، باب بيان نسخ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ رقم (١١٤٥).

ـ سبحانه وتعالى ـ حين أراد أن يحرم الخمر، جعل تحريمه متدرجًا، وهكذا الصوم، لما أراد ـ عز وجل ـ أن يفرضه على العباد، جعل فرضه متدرجًا. ففي أول الأمر يخير الإنسان بين أن يصوم أو يفدي، ثم تعين الصوم.

٦ـ أن التطوع بالعبادات خير، سواء كان في أعلى المقامات، أو فيما دونه؛ لقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾.

٧ـ أن الأعمال تتفاضل جنسًا ونوعًا؛ لقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾.

٨ـ محبة الله ـ تعالى ـ للصوم؛ لقوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾.

٩ـ توجيه الخطاب لذوي العلم؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠ـ فضيلة العلم، وأن الإنسان يدرك به ما يخفى على غيره.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وسمي بذلك؛ لأنه كان ـ حين التسمية ـ موافقًا لشدة الرمضاء والحر.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: أنزله الله ـ عز وجل ـ فإن الله ـ تعالى ـ أنزل القرآن في ليلة القدر، أي: ابتداء إنزاله، وليلة القدر في رمضان.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هدىً: مفعول لأجله، أي: أنزل القرآن لأجل هداية الناس.

﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: علامات واضحة من الهدى والفرقان؛ لأن هذا القرآن الكريم يشتمل على التفريق بين الحق والباطل، وبين أهل الخير وأهل الشر.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ شهد، بمعنى: شاهد، ويحتمل أن تكون بمعنى: حضر.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وسبق القول فيها.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: يحب أن ييسر عليكم، ولا يحب أن يعسر عليكم، فالإرادة ـ هنا ـ شرعية.

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾. «الواو»: حرف عطف، والمعطوف عليه محذوف يعلم من السياق، فكأنه قال: لتقوموا بطاعته ولتكملوا العدة. أي: عدة الشهر.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: من أجل هدايته إياكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن الصوم الذي كتبه الله علينـا، معيــن في وقـت معين، وهـو شهر رمضان.

٢ـ أن القرآن نزل في رمضان، أي: ابتدأ الله إنزاله على محمد ﷺ في رمضان.

٣ـ إثبـات علـو الله؛ لقولـه: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ لأن مـن المعلوم أن القرآن كلام الله، فإذا كان منزلًا، كان الذي تكلم بـه عاليًـا، جل وعلا.

٤ـ أن القرآن هدىً وبيان وفرقان؛ لقولـه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

٥ـ الحث على تدبر القرآن؛ حيث جعله الله ـ عز وجل ـ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ومعلوم أن الإنسان يطلب الهدى من أي مكان كـان، وهـذا يحصل بالتدبر ـ أي: تدبر القرآن ـ فمن تدبر القرآن طالبًـا الهـدى منـه، تبيـن له طريق الحق.

٦ـ وجوب صوم رمضان بمـشاهدة ـ أو شـهود ـ هلالـه؛ لقولـه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وقد تبـين بالـسنة أن دخـول شـهر رمضان يثبت بشهادة واحد من الناس، فإن رجـلًا جـاء إلى النبـي ﷺ وأخبره أنه رأى الهلال، فقال لـه: (أتـشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدًا رسـول الله؟ قـال: نعـم. فـأمر بـلالًا أن يـؤذن في النـاس أن يـصوموا

غدًا)[١]. وكذلك ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: تراءى الناس الهلال، فأخبرت النبي ﷺ أني رأيته، فصامه، وأمر الناس بصيامه[٢].

٧ـ أن الهلال إذا شوهد في مكان، ولم يشاهد في مكان آخر، فإنه لا يجب على من لم يشاهده أن يصوم؛ لأن الله ـ تعالى ـ علق وجوب الصوم بشهود الهلال. وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم، فمنهم من قال: إنه إذا ثبتت رؤية هلال رمضان، وجب على جميع الأمة الإسلامية أن تصوم في أي قطر كانت، ومنهم من قال: إذا كان الناس تحت ولاية واحدة، وشوهد في هذه الولاية، وجب على كل أهل الولاية أن يصوموا، ولا فرق بين من رآه ومن لم يره، ومنهم من قال: من رآه وجب عليه الصوم، ومن لم يره لم يجب عليه. قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: تختلف مطالع الهلال، باتفاق أهل المعرفة.

فإن اتفقت المطالع وجب الصوم، وإلا فلا.

وعمل الناس ـ غالبًا ـ اليوم أنهم يتبعون من ثبت الشهر عنده على

---

(١) رواه الترمذي كتاب الصوم، باب ما جاء في الصوم بالشهادة، رقم (٦٩١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب قبول شهادة الرجل الواحد على هلال رمضان، رقم (٢١١٢، ٢١١٣)، وأبو داود كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٠)، وابن ماجة: كتاب الصيام، باب ما جاء في الشهادة على رؤية الهلال، رقم (١٦٥٢)، والدارمي (١٦٩٢).

(٢) رواه أبو داود كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان رقم (٢٣٤٢)، والدارمي (١٦٩١).

وجه يثقون به.

٨ـ أن الإنسان إذا فاته الشهر كاملًا، وكان الشهر ناقصًا ـ أي: كان تسعةً وعشرين يومًا ـ فإنه لا يلزمه أن يقضي ثلاثين يومًا، بل لا يقـضي إلا تـسعةً وعـشرين يومًـا؛ لقولـه ـ تعـالى ـ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وظاهر الآية الكريمة: أنه لا فرق بيـن أن تكـون هـذه الأيـام في العـام الذي حصل فيه الفطر، أو فيما بعـدها، ولكـن قـد دلـت الـسنة أنـه لا يؤخر القضـــاء إلى ما بعد رمضان الثاني، قالت عائشة ـ رضي الله عنهـا ـ: «كان يكون علـي الصوم من رمضان، فما أسـتطيع أن أقـضيه إلا في شعبان»[1]. وهذا يدل على أنه لا يؤخر إلى ما بعد رمـضان الثـاني، وإلا لكان ما بعد رمضان الثاني وما قبله سواء.

٩ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كتب على عباده ما كتب من الفرائض، لا للإشقاق عليهم، ولا لإلحاق الحرج بهم، ولكنه ـ عـز وجـل ـ يريـد بذلك التيسير والتسهيل؛ لقوله:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الأفـضل للمـريض الـذي يـشق عليـه الصوم، أو المسافر الذي يـشق عليـه الـصوم، أن يفطـر؛ لأن هـذا هـو الأيسر في حقه.

١٠ـ أنه إذا تعارضت الأدلـة في حكـم مـن الأحكـام، ولم يتبيـــن

---

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب متى يقضي قضاء رمضان، رقـم (١٩٥٠)، ومـسلم: كتـاب الصيام، باب قضاء رمضان في شعبان، رقم (١١٤٦).

رجحان أحدها على الآخر، فإن مقتضى إرادة الله اليسر على العباد أن يؤخذ بالأيسر. وهذا هو القول الراجح، أنه إذا تعارضت الأدلة في حكم من الأحكام - يعني: بعضها يفيد التحريم، وبعضها يفيد الحل - واشتبه الأمر، فإننا نأخذ بالأيسر؛ لأن ذلك هو الموافق لقوله - تعالى -: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

١١- الحث على إكمال العدة على الوجه المطلوب؛ لقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

١٢- تكبير الله - سبحانه وتعالى - عند انتهاء العدة، على هدايته لنا وتسهيل الصوم علينا؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾. وهذا يكون بعد غروب الشمس من آخر يوم من رمضان إلى أن يحضر الإمام لصلاة العيد، فيكبر الناس في الأسواق والمساجد والبيوت، يجهر بذلك الرجال، وتسر به النساء. وصفة التكبير أن يقول: الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، أو يقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر. الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، كل هذا جائز.

١٣- أنه يجب أن نعترف لله بالفضل على هدايته إيانا؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٤- الحث على الشكر، والشكر هو: القيام بطاعة المنعم، عقيدةً وقولًا، وعملًا. نسأل الله أن يعيننا جميعًا على ذكره، وشكره، وحسن

عبادته، وأن ييسر لنا الأمور، رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري. اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

* * *

ثم قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى﴾ الخطاب في هذه الآية لرسول الله ﷺ.

والمراد بالعباد هنا: عباد الشريعة، يعني: العباد الذين يتعبدون لله ـ تعالى ـ بما شرع، فهي العبودية الخاصة.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ هذا القرب حقيقي، ولكنه لا ينافي ما ذكر من علوه جل وعلا. فإنه قريب في علوه، علي في دنوه؛ لأنه ـ جل وعلا ـ عال فوق خلقه، مستو على عرشه.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يعني: أن الإنسان إذا دعا ربه، فإن الله ـ تعالى ـ يجيب دعاءه. ولكن لإجابة الدعاء شروط:

منها: الإخلاص لله ـ عز وجل ـ بألا يشرك معه أحدًا في دعائه.

ومنها: حسن الظن بالله، أن يجيب دعاءه.

ومنها: شعور الإنسان بالافتقار إلى الله تبارك وتعالى.

ومنها: اجتناب أكل الحرام؛ لأن أكل الحرام من موانع إجابة

الدعاء، فقد ذكر النبي ﷺ: «الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام. فأنى يستجاب لذلك!!» [١]. فاستبعد النبي ﷺ أن يستجاب لمن يأكل الحرام، ويتغذى به.

وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: فليستجيبوا لأوامري، فيقوموا بها، وليستجيبوا لمقتضى نهيي، فيتركوا ما نهيت عنه.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: ليحققوا إيمانهم، بالاستجابة لله ـ عز وجل ـ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾: (لعل) ـ هنا ـ: للتعليل، أي: من أجل أن يرشدوا، والرشد: حسن التصرف. ويفسر في كل موضع بما يناسبه.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عالم بما يستقبل، كما هو عالم بما مضى، وبالحاضر. ووجه الدلالة: قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ و«إذا» لما يستقبل من الزمان، وهي تفيد وقوع الشرط.

٢ـ حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على الأسئلة النافعة.

٣ـ فضيلة من تعبد لله بشرعه، ووجه ذلك: إضافة عبوديتهم إلى الله، فقال ـ تعالى ـ: ﴿عِبَادِي﴾. وإضافة العبودية إلى الله ـ تعالى ـ شرف لا يساويه شرف؛ ولهذا يذكره في مقام التشريف كقوله ـ تعالى ـ:

---

(١) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف:١]. والعبودية لله ـ عز وجل ـ هي الحرية الحقيقية، وأما من تحرر من عبودية الله، فقد استرق للشيطان. قال ابن القيم ـ رحمه الله في النونية:

هربوا من الرق الذي خلقوا له　　　وبلوا برق النفس والشـيطان

٤ـ قرب الله ـ تعالى ـ لمن دعاه، ولهـذا يـشعر الـداعي بقـرب الله ـ تبارك وتعالى ـ كأنه يراه. وهذا من تمام الإحسان. فإن قـال قائـل: هـل قرب الله ـ تعالى ـ ينافي علوه؟ قلنا: لا، لا ينافي علـوه؛ لأنـه ـ سـبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء، في جميع صفاته، كما قال شيخ الإسـلام ابـن تيمية ـ رحمه الله ـ في العقيدة الواسطية: (فإن الله ـ تعـالى ـ لـيس كمثلـه شيء، في جميع نعوته، فهو قريب في علوه، على في دنوه».

٥ـ إجابة الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ للـداعي؛ لقولـه: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾. وهذا الإطلاق مقيد بألا يدعو بإثم أو قطيعة رحـم، كما جاءت بذلك السنة. ومن الـدعاء بـالإثم: أن يـدعو الإنـسان عـلى شخص لا يستحق الدعاء عليه. فإن قال قائل: ما أكثر من يدعون الله، ولا يجدون إجابةً؟ فالجواب: أن ذلك إما لفـوات الـشرط، أو لوجـود مانع، أو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ادخر ذلك لهم؛ ليكون مثوبـةً وقربـةً إلى الله تعالى.

٦ـ اشتراط الإخلاص في الدعاء؛ لقوله:﴿إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ يعنـي: ولم

يشرك معي أحدًا.

٧- وجوب الاستجابة لله، والإيمان به؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾.

٨- إثبات العلل، وأن أحكام الله ـ تعالى ـ وأفعاله معللة بالحكمة البالغة التي قد ندركها، وقد لا ندركها.

* * *

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ المحلل والمحرم هو: الله ـ عز وجل ـ ولا أحد يحلل أو يحرم من دون الله ـ عز وجل ـ. والحلال ضد الحرام.

وقوله: ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ يعني: الليلة التي تصومون من غدها.

﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ﴾ يعني بذلك: الجماع ومقدماته.

ثم علل هذا الحكم ـ وهو الإحلال ـ بأنهن لباس للأزواج، والأزواج لباس لهن. وذلك لأن الزواج ستر للزوج وللزوجة،

بتحصين الفرج، وغض البصر ، وغير ذلك، مما يترتب عليه من الستر، فقال ـ تعالى ـ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

ثم بين ـ عز وجل ـ أنه أحل ذلك؛ لأنه يعلم أن الإنسان يختان نفسه، ويخدعها، ويملي لها، [فقال ـ تعالى ـ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. وسبب ذلك] أن في الإنسان نفسين: نفس أمارة بالسوء، ونفس مطمئنة.

فالنفس الأولى تأمره بمخالفة أمر الله ورسوله، والثانية تأمره بطاعة الله ورسوله.

ثم قال ـ تعالى ـ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ تاب عليكم أي: على ما سلف من فعلكم. وعفا عنكم: عما أوجبه عليكم.

وكان الناس في أول الأمر، إذا نام الإنسان قبل صلاة العشاء، حرم عليه الرفث إلى امرأته إلى أن تغرب الشمس من الغد، أو إذا تعشى، حرم عليه الرفث إلى امرأته إلى غروب الشمس من الغد فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية رخصةً لهم، وتسهيلًا عليهم. وبين ـ سبحانه وتعالى ـ أنه تاب عليهم فيما فعلوا قبل التحليل، وعفا عنهم، فأسقط عنهم وجوب الإمساك إذا ناموا أو صلوا العشاء.

ثم بين ـ جل وعلا ـ أنه أباح لنا أن نباشر النساء، وأن نبتغي ما كتب الله لنا.

والمراد بالمباشرة هنا ما دون الجماع، والمراد بـ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

المراد بها الجماع؛ لأن المراد بقوله: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ أي: من الولد، وهذا لا يحصل إلا بالجماع. فأباح الله ـ تعالى ـ أن نباشر النساء ليلة الصيام بما دون الفرج، وبالجماع.

وأباح أيضًا الأكل والشرب، فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ والخيط الأبيض: بياض النهار، والخيط الأسود: سواد الليل.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ بيان لوقت تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ثم أمر الله ـ تعالى ـ بإتمام الصيام ـ وهو: الإمساك عن المفطرات تعبدًا لله ـ عز وجل ـ من حين أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى الليل، وذلك غروب الشمس.

ثم نهى ـ سبحانه وتعالى ـ أن نباشر النساء ونحن عاكفون في المساجد، فقال: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ وهذا يشمل الجماع وما دونه.

﴿وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ يعني: والحال أنكم عاكفون في المساجد. والعكوف: هو لزوم المسجد للتفرغ لطاعة الله ـ عز وجل ـ.

وبين ـ عز وجل ـ أن هذا الذي شرعه لنا من حدود الله، ونهانا عن قربانها

فقال ـ تعالى ـ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾.

وليعلم أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾، وأحيانًا يقول: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ قال العلماء: والفرق

بينهما أنه إن كان الحد في المأمورات، فالنهي عن الاعتداء ـ أي: عن تعديها، والخروج منها ـ، وإن كان من المنهيات، فالنهي عن قربانها؛ لأن المنهي عنه منهي عن القرب منه؛ لئلا تسول له النفس أن يقع في الحرام الصريح.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: مثل هذا البيان يبين الله للناس آياته، أي: آياته الشرعية، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله ـ عز وجل ـ.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١ـ إباحة الجماع، والأكل، والشرب، في ليالي رمضان؛ لقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

٢ـ بيان ما يحصل بالنكاح من ستر أحد الزوجين للآخر؛ لقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

٣ـ إثبات علم الله ـ عز وجل ـ بما في نفوسنا؛ لقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. وعلم الله ـ تعالى ـ عام شامل، للظاهر والباطن، والخفي والجلي، والماضي والمستقبل والحاضر، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

٤ـ سعة عفو الله ـ تعالى ـ وحلمه، حيث تاب علينا وعفا عنا، حين علم ما يقع منا من اختيان النفوس.

٥ـ أنه ينبغي للإنسان في جماعه أن يبتغي ما كتب الله له من الولد. ويتفرع على هذه الفائدة: أن من حكمة النكاح كثرة النسل، لتزداد الأمة؛ لأن بزيادة الأمة القوة والخير، والاستغناء عن الغير.

٦ـ جواز الأكل والشرب والجماع، إلى أن يتبين الفجر؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، ويتفرع على ذلك: أنه يجوز للإنسان أن يأكل ويشرب ويجامع، مع الشك في طلوع الفجر؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ولأن الأصل بقاء الليل.

٧ـ جواز صوم الجنب، ووجهه: أن الله إذا أباح للإنسان أن يجامع إلى أن يطلع الفجر، لزم من ذلك ألا يغتسل إلا بعد طلوع الفجر، فيكون صوم الجنب صحيحًا. وقد ثبتت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يصبح صائمًا وهو جنب من جماع أهله[1] ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

٨ـ أن الأصل الثابت لا يزول إلا بيقين؛ لقوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾. وهذه الفائدة قد دل عليها ما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن زيد، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب الصائم يصبح جنبًا، رقم (١٩٢٥)، ومسلم كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم (١١٠٩).

فيمن أشكل عليه هل أحدث أم لا؟ فأمر النبي ﷺ ألا يخرج من المسجد، ولا ينصرف من صلاته، حتى يسمع صوتًا، أو يجد ريحًا[(١)].

٩- أنه لا يجوز الفطر قبل تحقق غروب الشمس؛ ولهذا لا يجوز للإنسان أن يأكل ويشرب مع الشك في غروب الشمس، ويجوز أن يأكل ويشرب مع الشك في طلوع الفجر. ووجهه من هذه الآية أنه هناك قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، وهنا قال: ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾؛ ولأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، فالأصل في مسألة الفجر بقاء الليل، والأصل في مسألة الفطر بقاء النهار.

١٠- الإشارة إلى مشروعية الاعتكاف؛ لقوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾.

١١- أنه لا اعتكاف إلا في مسجد؛ لقوله: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ والمساجد: تشمل جميع المساجد، من حل أو حرم؛ لأن «أل» فيها: للعموم، وليست للعهد، وعلى هذا فيصح الاعتكاف في كل مسجد، سواء كان من المساجد الثلاثة أو من غيرها. وما روي عن

---

(١) وردَ ذلك في حديث أبي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وجَدَ أحدكم في بطنه شيئًا، فأشكلَ عليه، أَخَرَجَ منه شيءٌ أم لا، فلا يخرُجَنَّ من المسجدِ حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا». وهذا الحديث رواه مسلم كتاب الحيض، باب الدليل على أنَّ من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦٢).

حذيفة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى»(١)، فهو حديث ضعيف، وإن صح، فالمراد الاعتكاف التام، وأما الاعتكاف المجزئ، فيصح ويجزئ في كل مسجد.

١٢- أن مباشرة النساء من المعتكف، تبطل الاعتكاف؛ لأنه منهي عنه في نفس الاعتكاف، والمنهي عنه في نفس العبادة، يفسدها كما أفسد الكلام الصلاة؛ لأنه نهي عن الكلام في الصلاة.

١٣- مشروعية الاعتكاف، ووجهه أنه أنيط به أحكام، وهذا يدل على أنه من شرائع الله ـ عز وجل ـ. ولكن ما هو الاعتكاف المشروع المسنون، الذي هو من سنة الرسول ﷺ؟ الجواب: هو الاعتكاف في العشر الأواخر، كما اعتكف النبي ﷺ .

١٤- أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حد لعباده حدودًا، ونهاهم عن قربانها إذا كانت من المحرمات؛ لقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ﴾. وإنما حدد الله ـ عز وجل ـ شريعته لعباده؛ لأن ذلك أضبط وأيسر على المكلف، وأبلغ في امتحان المكلف؛ لأن بعض المكلفين قد يهون عليه شيء من الشريعة دون الشيء الآخر، وبعض المكلفين يصعب عليه كل

(١) أخرجه البيهقي (٤/ ٣١٩)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٣٧) (٩٦٦٩)، وعبدالرزاق (٤/ ٣٤٧) (٨٠١٤)، والطبراني في الكبير (٩/ ٣٠١) (٩٥٠٩) و(٩/ ٣٠١) (٩٥١٠) و(٩/ ٣٠٢) (٩٥١١)، والذهبي في سِيَر أعلام النبلاء (١٥/ ٨١).

أحكام الشريعة، وبعض المكلفين يهون عليه الأحكـام الـشرعية كلهـا، ويقوم بما أوجب الله عليه فيها. فكان في هذا امتحان للعباد.

١٥ـ الحذر من قربان محارم الله؛ لأن النبـي ﷺ قـال: «فمـن اتقـى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقـع في الـشبهات، وقـع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه» (١).

١٦ـ أن الله ـ تعالى ـ بيـن لعباده الأحكام؛ ليتقوه؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

١٧ـ أن في الآية إشارةً إلى أن الإنسان لا يكلف قبل العلـم، وعـلى هذا فلا تقوم الحجة عليه، إلا بعد العلم بالحجة.

١٨ـ أن آيات الله ـ تعالى ـ تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، كما في هذه الآية. وآيات كونية، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

١٩ـ عظم شأن التقوى، حيـث جعلهـا الله ـ تعـالى ـ غايـةً، لبيانـه لعباده؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

٢٠ـ جواز النسخ في الشريعة. والنسخ: هو رفع حكـم الـنص، أو لفظه، بدليل. ووجهه من الآية: أن الله ـ تعـالى ـ أبـاح لعبـاده مبـاشرة

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم كتـاب المـساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)».

النساء، بالجماع وما دونه، والأكل والشرب، حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، بعد أن كان ذلك ممنوعًا إذا صلوا العشاء أو ناموا. والنسخ هنا: نسخ من أصعب إلى أسهل؛ لأن إحلال هذا الشيء للعباد لا شك أنه من التسهيل عليهم.

وقد ذكر العلماء ـ رحمهم الله ـ: أن النسخ يكون من أخف إلى أشد، ومن أشد إلى أخف، ومن مساو لمساو.

فمثاله من الأخف إلى الأشد: أن الله ـ تعالى ـ نسخ التخيير بين الصوم والفطر مع الإطعام، ثم عين الصيام، ومعلوم أن العبادة ـ إذا كان فيها تخيير ـ تكون أيسر من التعيين.

ومثاله من الأصعب إلى الأسهل: هذه الآية.

ومثاله من المساوي لمساويه: نسخ استقبال بيت المقدس، إلى استقبال الكعبة. فإن هذا بالنسبة لعمل المكلف لا فرق بين أن يستقبل بيت المقدس، أو أن يستقبل الكعبة.

والحكمة من ذلك: ابتلاء العباد، وبيان المنة عليهم. فإن كان من أخف إلى أشد، أو من مساو لمساو، فالحكمة فيه: الابتلاء، وإن كان من أشد إلى أخف، فالحكمة فيه: بيان فضل الله ـ عز وجل ـ على العباد، حيث خفف عنهم.

* * *

ثم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

في هذه الآية ينهى الله ـ عز وجل ـ عباده أن يأكلوا الأموال بينهم، حين يتداولونها بالباطل، وهو ما كان ضد الحق، وينحصر ذلك في شيئين: إما بجحد ما يجب على الإنسان بذله، وإما بدعوى ما ليس من حقه.

فمثال الأول ـ أعني جحد ما يجب على الإنسان بذله ـ: أن يكون في ذمة شخص لغيره ألف درهم، فيدعيه صاحبه، فينكر المطلوب، ويقول: إنك لا تستحق علي شيئًا. ويكون الطالب ليس عنده بينة، ففي هذه الحال: سوف يحكم القاضي ببراءة المدعى عليه، إذا حلف؛ لقول النبي ﷺ: «**البينة على المدعي، واليمين على من أنكر**»(١).

ومثال الثاني ـ وهو ادعاء ما ليس من حقه ـ: أن يدعي شخص على آخر أن في ذمته له مائة درهم، ويأتي ببينة زور، تشهد بذلك، فيحكم القاضي على المدعى عليه بالباطل، بناءً على هذه الشهادة الباطلة. ومن المعلوم أن القاضي سيحكم بما يظهر؛ لقول النبي ﷺ: «**إنكم تختصمون**

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، رقم (١٣٤١)، ولفظه: «واليمين على المدّعى عليه». واللفظ المذكور أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ١٢٣)، والدارقطني (٣/ ١١٠)؛ وعبدالرزاق في المصنف (٨/ ٢٧٣).

إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له، وإنما أقضي بنحو ما أسمع»[١].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ بيان طريق ما يأكل الإنسان به الباطل، أن يدلي بالأمر إلى الحكام، فيأتي بدعوى باطلة ويؤيدها بشهادة زور، وما أشبه ذلك.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ يحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي: تفعلون ذلك لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم.

ويحتمل أن تكون للعاقبة، أي: أن أكلكم المال بالباطل يؤدي إلى هذه العاقبة الوخيمة، وهي أكل فريق من أموال الناس بالإثم.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه لا حق لكم في ذلك، وأن أكلكم المال بهذه الطريق أكل بالباطل.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١ـ حماية الأموال، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حمى أموال الناس أن يعتدي بعضهم على بعض فيها؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

---

(١) رواه البخاري كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، رقم (٢٤٥٨)، ومسلم كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣).

٢ـ أن الحاكم إذا حكم بما لا يستحقه المحكوم له، فإن ذلك لا ينجيه عند الله؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بعد قوله: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾.

٣ـ الإشارة إلى أن الحاكم إذا أخطأ، وحكم بالباطل، فإنه لا إثم عليه؛ لأنه ليس له إلا الظاهر. ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ، فله أجر، وإن أصاب فله أجران»[1].

٤ـ أن من أكل مال غيره يظن أنه أكله بحق، ولم يعلم أنه أكله بباطل، فإنه لا إثم عليه؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولكن متى علم أنه لا حق له فيه؛ وجب عليه رد الحق إلى صاحبه، أو استحلاله منه.

مثال ذلك: رجل ادعى على شخص بمائة ريال، فقال المدعى عليه: إني قد قضيتكها. ومن المعلوم أن دعواه القضاء غير مقبولة إلا ببينة.

ولكن إذا لم يكن له بينة، فإنه سوف يقضى عليه بدفعها إلى صاحبها، ويلزم بذلك. فإذا قدر أن المطلوب قد قضاه، ولكن الطالب نسي، فلا إثم على الطالب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. لكن متى ذكر أن المطلوب قد أوفى، وجب عليه أن يرد ما أخذ منه.

---

(١) رواه البخاري كتاب الاعتصام باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦).

٥- أنه قد يؤخذ منها أن أكل مال المعاهد والمستأمن والذمي بالباطل محرم؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾. وهذا قد جاءت به السنة، بل قد جاء به القرآن، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

* * *

فهارس أحكام من القرآن الكريم